متطرّف

متطرّف

رحلتي من التطرّف الإسلامي إلى صحوةٍ ديموقراطية

ماجد نواز

مع توم بروملي

ترجمة آسر بنت ثريا وحسن

A translation of *Radical: My Journey out of Islamist Extremism* © 2013 Maajid Nawaz

Translation published by Bayt Al Hikma 2.0, a program of Ideas Beyond Borders 2019

Translated by Asser Hassan Ali

Edited by Muath Nassar Telfah

Proofread by Ahmed Abdulmajeed

إهداء إلى عائلتي، وابني، وأصدقائي جميعهم

وكلّ من بدؤوا الحراك معي

المحتويات

المقدمة بقلم كايت ألن، مديرة منظمة العفو الدولية بالمملكة المتحدة

استهلال

الجزء الأول: الـ"بي بوي"

واحد: هناك "جوجارات" أخرى في الباكستان

إثنان: هذه اللعبةُ ليست للباكيز

ثلاثة: الطبيبُ الذي قال: "سُحقا للشرطة"

أربعة: "مات" الغريب الذي طُعنَ فداءً لي

خمسة: حقيبة الظهر الخضراء الخالية من أيّ قنبلة

ستة: عندما سقط مسجد بابري في الهند

سبعة: أرضٌ تُنتزعُ فيها الأجنّة من الأرحام

الجزء الثاني: إسلاموي

ثمانية: استيلاء إسلامي على السلطة

تسعة: 12،000 مسلم يصرخون "خلافة" في ملعب ويمبلي

عشرة: خادم القهار

أحد عشر: الرحم الذي حملني

إثنا عشر: تصويت بالايدي لتقسية القلب

ثلاثة عشر: رومانسية الصراع

أربعة عشر: أحلام الخلافة النووية

خمسة عشر: الخلفاء في كوبنهاجن

ستة عشر: السجال

سبعة عشر: مرحبا بك في مصر، هنا نفعل ما يحلو لنا

ثمانية عشر: ليس لـ"الغمامة" قواعد

تسعة عشر: الرقم اثنان وأربعون

عشرون: السلام عليكم، لقد خرجتَ لتوك من الجحيم

واحد وعشرون: رفاهية الجماهير

اثنان وعشرون: قُذف البطريق بالشباشب

ثلاثة وعشرون: حُكم الفرد

الجزء الثالث: متطرف

أربعة وعشرون: حيثما يقود القلب، يستطيع العقل أن يتبعه

خمسة وعشرون: ليس من حقك التزام الصمت

ستة وعشرون: كم سنةً فشلت؟

سبعة وعشرون: الترهيب المدني الديموقراطي

ثمانية وعشرون: الاعتذار الذي تأخر عقداً من الزمان

تسعة وعشرون: قرود في حديقة الحيوان

ثلاثون: زيارة الرقم 10

واحد وثلاثون: خودي باكستان

اثنان وثلاثون: "أشوف فيك يوم"

خاتمة

الإصبع المتحرك يكتب، ثمّ يمضي قدما

ولا يمكن لكل نسكك ولا بصيرتك

إلغاء نصف سطر مما كتب.

عمر الخيام، الرباعيات

مقدمة

هذا كتابٌ عن التحوّل والتغيير. إن سرد ماجد نواز الاستثنائي لحياته -منذ صباه اليافع في منطقة ساوث إند وخلال سنوات المراهقة المتورطة والمنغمسة في خضمّ عنف الشوارع والتحريض من أجل الدخول في الإسلاموية (التطرف الإسلامي) -يجعل فهم الكيفية التي يحدثُ بهما التطرّفُ السياسي والأيدولوجي سهلا نسبيا. كما أنّ وصفه للتحيّز والتحامل العنيف الذي مرّ به في شبابه هو درس مفيد عمّا يمكن أن يحدث عندما يُسمحُ بازدهار العنصرية المؤسسية، إذ يوضح الكاتب بشكل جليّ كيف ولماذا أصبح لا يأبه بالعنف وانعدمت حساسيته تجاهه، ويرينا كيف خلق العنفُ العنصريُّ تربةً خصبةً للتجنيد والحشد لصالح التطرّف الإسلامي. إنه يكتب بشكل مؤثر وقوي عن انفصاله التدريجي واغترابه وانعدام قدرته على الشعور بالتعاطف مع الآخرين؛ فهكذا كانت تجربته في الانغماس في الأيدولوجيا المتطرّفة.

ولكنّ أكثر ما أذهلني ولفت نظري هو الدليل الفعلي على قدرة المتطرفين الأصوليين على التغيّر، إنه شيء قابل للحدوث. يصف ماجد إجلاله لما رآه من تعاطف البشر العاديين الذين نحّوا امتعاضهم منه وبغضهم لموقفه السياسي جانباً، ليتخذوا موقفا يدعم شمولية وعالمية حقوق الإنسان، ويقوموا بحملاتٍ من أجل إطلاق سراحه بعد توقيفه ومحاكمته غير العادلة، ومعاملته الجائرة وسجنه في مصر. كان الشخص الرئيس بينهم هو عضو منظمة العفو الدولية جون كورنوال (John Cornwal) حيث لم يقتصر ما فعله على دفع منظمة العفو الدولية لتبني حالة ماجد بوصفه سجين رأي، بل تعدى ذلك إلى قيامه بكتابة رسائل صداقة واحدة تلو الأخرى إلى ماجد بنفسه.

إنني متشوقة ومتحمسة بشكل لا يوصف للقراءة عن الكيفية التي أسهمت فيها تلك الرسائل بالتغيّر والتحوّل اللذين حصلا لماجد، ويذكّرني ذلك مرة أخرى بسبب افتخاري بالعمل لحساب منظمة العفو الدولية بالمملكة المتحدة، والذي كان ما قام به أعضاؤها بهذه الأهمية في تمكين ماجد من إعادة التواصل مع الحياة والإنسانية، ففي جوهر الأمر، ساعدت مفاهيم حقوق الإنسان والتعاطف والإحسان في إنقاذ إنسانيته. هذا الكتاب هو سرد لرحلته إلى الخلاص -عابرا خلال البراءة والتزمت والتشدد الأصولي وما بعدها-وصولا إلى الدفاع الحماسي المتّقد عن حقوق الإنسان وكلّ ما يمكن أن يعنيه ذلك.

كايت ألن (Kate Allen)، مديرة منظمة العفو الدولية بالمملكة المتحدة.

استهلال

ساوث إند، 1992

"سلامر" (Slammer) هذا هو توقيعي حين أقوم بقصف وتغطية الشوارع بالجرافيتي (الرسم على الحوائط). أكتب الكلمة بدون الـ "M" الثانية "Slamer" لأنّ كتابتها بهذه الطريقة أسرع، والسرعة مهمة إذا كنت تودُّ ألا تمسك بك الشرطة. أنا صبي بارع في الرقص لا سيّما البريك دانس، وفرقي المفضلة هي بابليك إنيمي (Public Enemy) وإن دابليو آي(N.W.A). كانت الأغاني المماثلة لأغنية "ثائر بلا توقّف" (Rebel Without a Pause) و"الخوف من كوكب أسود" (Fear of a Black Planet) و"سحقا للشرطة" (Fuck tha Police) كلها ذات كلمات عميقة المدلول. إنني أرتدي بذلة "كليك" وهي موضة سائدة في التسعينات، مع سروال قصير فضفاض بكسرات في الأسفل، وحذاء للركض من ماركة أديداس. أما تصفيفة شعري فأقصر ما يكون في الأعلى، وعندما لا ارتدي وشاح الرأس الأحمر يكون شعري ظاهراً في شكل قصة مربعة، مع تصميم مجنون مشذب وقصير من الخلف. يرتدي جميع أفراد مجموعتي نفس الملابس، ويصدحون بذات الأغاني. وبالظبط مثل إريك وباريش ميكينج دولارز (Erick and Parrish Making Dollars) نبدو كما لو كنا محترفين.

عمري خمسة عشر عاماً، وأعيش في ساوث إند في إيسكس. هذا الصيف ومثل كل صيف، جاءت الملاهي إلى المتنزّه الواقع عبر الطريق مقابل منزلي. عندما كنت صغيرا اعتدت الذهاب إلى الملاهي مع والديّ، وفي تلك الأيام كان كل ما يشغلني هو الألعاب التي أركبها مثل الدودجيمس والإيج رولر والكاربت رول*، أما هذه الأيام فإنني أذهب مع رفاقي في الليل لا في النهار، ولا تهمني الألعاب البتة، بل أذهب لكي استرخي وألقي نظرة على النسوة المعروضات والمواهب الأنثوية المحلية.

كما قال آيس كيوب (Ice Cube) ذات مرة في أغنية راب: "اليوم يوم جيد"... أو على الأقل كان كذلك. السماء مليئة بالأضواء المغبشة على خلفية الظلام: هناك خلفية صوتية مكوّنة من صرخات البنات والأغاني التي تقرع الآذان من جهة ألعاب الركوب، وتلك الرائحة الحامضة لأراضي الملاهي المرتبطة بغزل البنات والبصل المحمّر. أقوم مع رفاقي بالتجوّل حول المكان في حالة تأهّب، عندما يظهرُ من بين الحشود وجه أعرفه، إنه صديقي شيل واسمه الحقيقي تسيلوا ، ونحن أصدقاء مقربون. ولد شيل في زيمبابوي

* ألعاب ملاهٍ مختلفة -المترجم

وجاء إلى بريطانيا منذ بضع سنوات، وها هو يعدو تجاهنا بسرعة شديدة، يعدو عبر زحام الحشود ويمكنني على الفور ملاحظة أنه يشعر بالارتياح لأنه وجدنا.

"ها شيل، ماذا يحدث، يا أخي؟"

يقول: "لدينا معركة، يا رجال".

يستدير شيل وأتابع نظراته التي تتجه إلى الوراء، نحو الأشخاص الذين يفرُّ هاربا منهم، فتلوح مجموعة من الشباب البيض الذين يرتدون سترات خضراء منتفخة، متخبطين خلال الجموع ويحثّون الخطى نحونا. حالما يرون أن شيل لديه اصدقاء يتوقفون على الفور، ثمّ تبدأ الجموع التي تحول بيننا وبينهم في التفرق وبإمكاني أن أشعر بقلبي وهو يتسارع. يتطلع قائدهم -وهو بلطجي محلي معروف يُسمى ميكي-إلينا فيما يرفع يده اليمني في تحية نازية، فيشرع أصدقاؤه تبعا لذلك في شتمنا والتلويح لنا بتحيات نازية مع تسميتنا "زنوج" و"باكيز" (Pakis)* وإخبارنا بأن "نعود من الجحيم الذي جئنا منه".

من الجيد معرفة أن أصحابي يوفرون لي الحماية في مثل هذه المواقف. مررت بمثل تلك المواقف سابقا، لكنّ ذلك لا يعني أنه شيء أنوي الاعتياد عليه، لا سيّما حين يتعدى الأمر مجرد الكلام. أعرف نتيجة لخبرات سابقة أنهم يحملون سكاكين، وفي حال أمسكوا بنا فسوف يتم تقطيعنا إلى شرائح. كلما طالت مدة المواجهة قلت أعداد الجموع المتواجدة، وتحوّل صخب وحراك الملاهي إلى مساحة معزولة تتضمن حلقة منذرة بالوعيد. لا أحد يرغب في معرفة ما يحدث.

نتفرق، وأعدو بين الأكشاك وأخرج وأدخل متخللا الناس بسرعة تجعلني أستمع إلى صوت أنفاسي يدوي كقرع الطبل على خلفية الصرخات الآتية من الألعاب. أين حارس المتنزّه ذاك حين تحتاجه؟ من دواعي سعادتي أنني أعرف المتنزّه جيدا وأعرف أين يجب عليّ الذهاب. يعني ذلك أنني قادر على الهرب من حليقي الرؤوس هؤلاء ويغمرني الارتياح إذ أدرك أن صرخات "باكي" تتباعد أكثر فأكثر فيما أشق طريقي للبوابة. أصل بعد ذلك للطريق متجها إلى منزلي، أتجه مباشرة إلى الداخل صاعدا الدرج وأدلف إلى غرفتي ونحو أسفل الفراش حيث أحتفظ به: سكين الصيد المفضل لدي. قافزا فوق ثلاث درجات في المرة الواحدة -بيش-باش-بوش، أجدني في الأسفل وخارج الباب قبل أن يتمكن والداي من طرح أي سؤال عما يجري. ينتمي والداي إلى جيل أكثر تحملا لمثل تلك المشاكل، وبالنظر إلى وجود مندوب أخبار محلي يجب وضعه في الحسبان أمام المتنزّه مباشرة، فبالتأكيد ليس ما حدث طريقة تعامل قد يرضون عنها. لكن، أنا وطاقمي، نفكر بطريقة مختلفة. الآن ليس زمن الانكماش وتمني أن تزول القذارة، الآن هو زمن الوقوف مع رجالي، ودعمهم ومساندتهم. لن يحصل أن يطاردنا ويطردنا أي عنصري كان من الشوارع التي نقطنها.

---

* لفظ مشتق من " باكستاني" يستعمل لإهانة واستصغار الباكستانيين في بريطنيا –المحرر

تتجمع المجموعة عند واحدة من نقاط لقائنا المحددة سلفا وهو المكان الذي نتجه إليه حين نتفرق بهذا الشكل. يستغرق ذلك بعض الوقت ولكن حالما نتيقن من أن الوضع آمن نتجمع عند ناصية شارعي شاكويل ولندن. إننا لا نبحث عن المشاكل ولكننا بالتأكيد لن نتراجع أو ننكص على أعقابنا كذلك. لن يحدث أن يهزمنا ميكي والأشقياء التابعون له. وأثناء عودتنا في شارع لندن تقف فجأة شاحنة صغيرة بيضاء خلفنا وتفتح أبوابها الخلفية ويخرج منها مجموعة من حليقي الرأس (النازيين) بغيضي السحنة حقا وصدقا.
سُحقا، ها نحن نبدأ.

لقد سمعت قصصا من قبل عن "ضرب وتكسير الباكي"، وهي قصص حول مجموعات من الرجال يتجولون في سياراتهم باحثين عن ضحايا بريئين لطعنهم، ولكنّ هذه أول مرة أكون فيها "الباكي" المقصود، لقد تم الإيقاع بنا. إن ميكي وزملاءه ذوو السترات المنتفخة، وعلى الرغم من كل مظهرهم، مجرد شباب محليون مثلنا. أما هؤلاء حليقي الرؤوس فهم قصة أخرى: رجال ضخام هيكلهم مثل دورات المياه المبنية من الطوب، وهم في العشرينات من العمر ومزودون بالعتاد ومستعدون للصدام. هناك بريقُ نصلٍ يلمع تحت ضوء الشوارع فيما هم يترجلون من الشاحنة، بعضهم يحمل هراوات مزودة بمسامير في طرفها. إذا أمسكوا بنا.....

تخطر لأصدقائي ذات الفكرة التي تخطر لي: يجب علينا أن نتحرك بسرعة. "سلاحي!" يمر الخاطر بذهني وأنا استمع إليهم يركضون عبر الطريق. يجب عليّ التخلص من سلاحي! إذا وجدوني وهو معي، فسوف يعتقدون أنني أريد القتال. فرصتي الوحيدة هي إن استطعت إثبات أنني غير مسلح، سأجرب حظي ولنرَ إن كانوا سيتركونني وشأني. أقوم بالاندساس في زقاق جانبي وأنبطح وأخبئ السكين خلف شجيرة. أنطلق بعد ذلك راكضا فوق الطريق في خضم هلع اللحظة بدون أي يقين بخصوص الطريق الذي يجب أن آخذه، و-يا للعنة-إنني محاصر. هناك ستة أو سبعة منهم يحيطو بي من كل الجهات. سكاكين وقفازات فولاذية (برجميات) وهراوات. وها هي تحية هتلر مرة أخرى يتخللها المزيد من السباب: "باكي ملعون! عد ملعونا إلى حيثما جئت!"

أستطيع الشعور بخوفي يتصاعد والأدرينالين يضخ في عروقي. لا تعني النظرات الماثلة على أوجه هؤلاء الرجال إلا شيئا واحداً؛ إنهم يعلمون أنه لا مهرب لي الآن، وكذلك أنا. هذه هي النهاية،:"تلك هي الطريقة التي تسير بها الحياة". لقد حصلت على نسائي وصدحت بألحاني واستمتعت بالاوقات الجيدة. الآن، أعتقد أنهم نالوا مني.

مصر، 2002

هل يتم دفعي إلى شهادتي؟ إنني مقيّد ومعصوب العينين بواسطة قماشة قذرة وأنا محشور بين كائنات أخرى مذعورة ولا تملك لنفسها شيئا، نصطلي تحت شمس الصحراء التي لا ترحم: الحر والملح، إنهما كل ما استطيع تذوقه والشعور به، الرائحة الحامضه العفنة للخوف ثقيلةٌ في ظهر الشاحنة التي نقبع بها، إنها تنفث من عرق هؤلاء الموثقين الملتصقين بي، وإنني على ثقة أن رائحتي تبدو كذلك بالنسبة لهم. يغمغم أحدهم عن يميني بهمهمات غير مفهومة قد تكون صلاة أو نشيجاً أو مجرد ارتباك عادي، أما البقية فصامتون باستثناء صوت أنفاسهم المتقطعة المجهدة وهم ينتظرون، ينتظرون الآتي.

يبدو أنه قد مر أربع ساعات منذ استفقت، ربما خمس، لا توجد طريقة للتثبت من ذلك. قد تكون هذه الحرارة اللاسعة في القاهرة، ولكن من ناحية أخرى قد تكون في أي مكان آخر في مصر، الله أعلم. قد ينتهي الأمر برصاصة في رأسي من الخلف. معروف عن أمن الدولة -وهي الجهة الأمنية الخاصة بالأمن الداخلي- أنها تنقل الناس في حافلات لمناطق مهجورة وتفعل ذلك. يالها من رحمة لو حدثت، شيء سريع ويسير يسمح بالكاد بالوقت الكافي لتلاوة الشهادتين قبل أن أرحل. نعم، القرآن، يجب أن أتذكر القرآن. سوف تتكفل سورة ياسين بتهدئة أعصابي بالتأكيد. أحاول بكل قوتي التركيز في تذكر الكلمات، ولكن لا شيء ينفذ خلال ثقل الواقع المشوش الخانق.

ثم أسمع اسمه، يعلنه بتلذذ شاويش (مجند بالشرطة) أثناء دفعنا خارج الشاحنة وهو ينزلنا على سلالم لا نستطيع رؤيتها: الجهاز، الآلة، المقر الرئيس لأمن الدولة، ذو السمعة البشعة في طول مصر وعرضها تبعا لما يتم الهمس به حول زنازينه المظلمة القابعة تحت الأرض. كم من البشر فقد عقله فيها بالكامل وخرج مجنونا غير قادر على الحديث عما صادفه داخلها، في حين لم يتسنَّ لغيرهم الخروج أبداً.

هنا فقدت اسمي، أنا مجرد رقم الآن. اثنان وأربعون، هو ما يجب أن أتذكره، وهو ما يجب أن أجيب كلما نودي به، اثنان وأربعون، اثنان وأربعون، اثنان وأربعون. كل شيء ما عدا ذلك غير مؤكد. لا فكرة لدي إن كنت سأنزل على هذا الدرج بدون السقوط، لا أعرف إن كنت سأقع طريحاً من الضرب. تم انتزاع كل مقدرة لدي للدفاع عن نفسي؛ العصابة الموجود على عينيّ تعني أنني لا أستطيع رؤية ما قد يأتي تجاهي. من المجهد للغاية انقباض الجسد بأكمله مع توقع الضربات، ولكنه كل ما أستطيع فعله. تنبض العضلات في بطني ورقبتي من الخلف بالألم من هذا المجهود.

ينبئني التحول الذي أستشعره في الهواء بأنه يتم دفعي تحت الأرض، تصبح المساحة ضيقة؛ تشرع حوائط رطبة غير مرئية في الإطباق علىَ. أثناء نقلي خلال ممر ما، تصفعني الرائحة كأنها لكمة، إنها رائحة المخلفات البشرية المتروكة مطولا لتختمر في الحرارة. تنفذ الرائحة من خلال الكرب والإرهاق وتكممني

فأشهق وانتفض طلبا للهواء ومستجديا بلا صوت فترة راحة. أشعر بحركة على جانبيّ الاثنين وهي التقلب القلق لأجساد موثقة في الزنازين المعبئة حد الطفح على يميني ويساري.

وحيث إنه لا يتوافر مكان زائد، أضطر إلى الاستلقاء فوق الآخرين المستلقين بالفعل على أرض الممر الملطخة بالأوساخ، إننا نشبه الدومينو البشري. بوسعي الشعور بجسد غريب مسحوق أسفل مني. سامحني يا أخي على ما يفعله بك وزني. أريد أن اتحدث ولكنّ الأوامر هي أن نلتزم الصمت التام أو أن يتم إسكاتنا. ساعة بعد أخرى تتكوم حولي أجساد جديدة. في هذا العالم الانفرادي خلف العصابة الموضوعة على عينيّ، لا توجد لدي طريقة لتمييز جثة حية من التي تليها.

وهكذا تبدأ نوبة المراقبة والانتظار الطويلة الساهرة بلا نوم في الجهاز. لا راحة، لا تواصل، لا حركة. الرعشة والاصطلاء بين درجات حرارة مخطط لها بعناية من أقصاها إلى أقصاها. يجب أن نكون على استعداد في جميع الأوقات للإجابة عن قائمة النداء على أرقامنا المعينة لنا كل ساعة: اثنان وأربعون، اثنان وأربعون، اثنان وأربعون، لا يجب أن أنسى. إنّ عدم الإجابة أو النوم يعنيان ركلة وحشية في وجهي.

في لحظات القدرة على التفكير أتذكر أنه لا أحد يعرف أين أنا، لا الزوجة والطفل اللذين خلّفتهما صارخين ورائي في منتصف الليل، ولا الأهل المتوترون على خلفية انتقالي لمصر. يتصاعد الهلع في حلقي حارقا مثل المرار الطافح، فيما أنا أصارع لاستعادة التحكم بنفسي. الرحمة يا ربي، حسبي الله ونعم الوكيل، أنت الكافي وأحسن الحافظين. منذ أول وهلة وهبت فيها نفسي لإعادة تأسيس خلافتنا، قضيت أعواماً وأنا أعلم بأن هذه اللحظة آتية حتما. لم يحدث أبدا أن تم دحر فرعون بدون دماء وتضحية، ولطالما تكبد الصالحون أفدح الأثمان مقابل انتصارهم، ولكن، يا ربُّ ساعدني خلالَ هذه المحنةِ، يا إلهي لأنني خائفٌ ووحيد: ياسين والقرآنِ الحكيم......

أيامٌ وليالٍ، لم أعد أستطيع التفرقة بينها، ولكنني بمعرفة مصحوبة برعشة أدرك حين تتوقف مناداة القائمة وتبدأ عملية "الاستجواب". يتم سحب أحد الإخوة في ممر مجاور -تحدد له رقم واحد-ليقف على قدميه.

رقم واحد!

في خضمّ صوت أقدام مجرورة وصرخات مكتومة يخطو ببطء بين صفوف المساجين تجاه غرفة في نهاية الممر، يُترك باب الغرفة مفتوحا كإنذار لبقيتنا. صرخات وخبطات وتوسلات، ثم صوت يكبس على معدتي. إنه الأزيز الحاد الذي لا تخطئه الأذن الصادر عن الكهرباء متبوعا بصرخة يتجمد لها الدم في العروق. أعوذ بالله، أسعى للجوء إلى كنف الرب! من الصعوبة بمكان تخيّل تأثير العواء الناعق بالألم حتى تسمعه بالفعل. يموج الممر الخاص بي بسيل من الغمغمات والهمهمات فيما يصلي جميع الإخوة ويدعون

همسا. نعرف جميعا أنه سوف يُنادى على أرقامنا عاجلا أم آجلا. فكّر! أقول لنفسي، اقرأ القرآن! ولكنّ شفتيّ ترتجفان، وحلقي جاف وعقلي مصعوق بالإرهاق والذعر.

هناك خطوات أقل عند رجوع الأخ إلى مكانه، يُطرحُ جسده على الجدار فيصدر عنه صوت ارتطام مغث ونهائي.

ومن ثم: رقم اثنين!

يتقدم العدُّ إلى رقم اثنين. مع مرور الوقت تمتزج تهديدات وصرخات الحراس وعويل الإخوة منزوعي الأسماء في سياق لا ينتهي من الأصوات الصارخة. يُنادى على الأسماء بانتظام وحشي ويقترب باستمرار من رقمي – يقترب رويدا رويدا.

اثنان وأربعون، اثنان وأربعون، اثنان وأربعون. لا يجب أن أنسي.

تكساس، 2011

يتراجع الربيع ليفسح مجالا للصيف في دالاس وقد قررت بالفعل أن الحرارة أكثر من اللازم هنا. تحتك ياقة بذلتي بعنقي فيما أنا أحدّق خارج السيارة التي أقلتني من فندقي؛ تتصاعد وتيرة فخامة الأحياء كلما اقتربنا من مقصدنا. في الواقع، لا داعي للمفاجأة إذا وضعنا في الاعتبار المكان الذي أتجه اليه.

دشنت دالاس لتوها المركز الرئاسي للديموقراطية، والمؤتمر الذي ألقيت فيه كلمة لتوي هو جزء من الأحداث الافتتاحية. دُعيت لمناقشة دور الوسائط الاجتماعية (السوشال ميديا) في الانتفاضات التي وقعت مؤخرا في الشرق الأوسط، مظاهرات ضخمة اشعلت المنطقة وزعزعت عقوداً من الطغيان والقمع والكساد. بطبيعة الحال، يراقب بقية العالم الوضع عن كثب وباهتمام شديد. ضمت هيئة المتكلمين معي أوسكار موراليس (Oscar Morales) وهو صديق وزميل من النشطاء. أوسكار هو الرجل الذي يعود إليه الفضل في تنظيم أضخم مظاهرة ضد الإرهاب مسجلة في التاريخ، 12 مليون إنسان استجابوا لحملته الفيروسية التي انتشرت كالنار في الهشيم من خلال النزول الى الشوارع للاحتجاج ضد المجموعة الإرهابية الكولومبية "القوات المسلحة الثورية الكولومبية". قمت أنا وأوسكار بمخاطبة جمهور من النشطاء العالميين حول كيفية توظيف المنصات الشبكية وتجييشها لتغذي الإعلام التقليدي. إنه شيء سريالي، فمنذ سنتين وحسب لم أكن قد

سمعت عن تويتر، أما الآن، فإنني أستخدم حسابي عليه لإبلاغ محاوري تلفاز متزاحمين عن الانتفاضة الجارية في مصر.

تنتهي هذه الرسميات وأنا في طريقي لتناول الغداء مع ممول الحدث. أصل إلى منزل ضخم مهيب، وعند الباب يقوم كبير الخدم بالترحيب بي ويخبرني أن الضيوف عليهم الحضور بدون أزياء رسمية لهذه المناسبة، مما يعني بكلمات أخرى أن علينا الاستغناء عن ربطات العنق والسترات.أقوم وأنا غير مرتاح لطرح سترتي بشق طريقي خلال أبواب الفناء إلى داخل مرج ضخم الحجم يبدو عليه مظاهر الاعتناء والرعاية التي لاتشوبها شائبة، حيث يختلط المدعوون ويتجاذبون أطراف الحديث وحيث يوجد غداء على طريقة البوفيه المفتوح.

بقدر جاذبية رائحة الشواء على طريقة تكساس، فالأكثر إثارة منه هم الضيوف المدعوون لهذا الجمع. ألمح مستشار الأمن القومي السابق ستيفن هادلي ووزيرة الخارجية السابقة كونداليزا رايس يتجاذبان أطراف الحديث في زاوية من المكان. وأثناء وقوفي في الصف انتظارا للحم المشوي، يقترب رجل مني ويقدم نفسه بوصفه مايكل ميس، رئيس أركان سابق، ويقوم الرجل بإبلاغي بدعوتي للانضمام إلى مضيفنا على مائدته. أتبع ميس وأجد نفسي وسطَ وجوه مألوفة: الناشطة الأمريكية ومنظمة الحملات ستيفاني رودات، والعديد من النشطاء الثوريين المصريين والسوريين، يشير إليّ مضيفنا نفسه للجلوس في مقعد شاغر بجواره: إنه الرئيس السابق للولايات المتحدة، جورج دبليو بوش.

يمرُّ الكثير جدا في ذهني فيما أحدّق في ذلك الوجه المألوف، ولكنني أحافظ على حيادية تعبيرات وجهي. أصافح يده الممدودة وأتخذ مقعدي. تناول طعام الغداء مع بوش! هذا حدث لم أتوقعه. تلمع في ذهني ومضات نصف منسية من ذكريات لمقابلات تلفزيونية والشخصية العامة والكاريكاتيرات فيما أتذكر "حربه على الإرهاب"، حربه عليّ.

هناك مناقشة جارية بالفعل على المائدة، أوجّه تركيزي للمتحدثين كي ألحق بالحوار. يستمع بوش بحرص وتركيز لكل فرد، ويقاطع بشكل متكرر لإلقاء أسئلة والحصول على توضيح. مستقبل مصر هو حديث الساعة، يترافع المصريون بحماسة متوقدة في صالح نفاذ العدالة الناجزة على الدكتاتور المخلوع، حسني مبارك. بالنسبة لهم، فمحاكمته وسجنه سوف يؤذن بفجر مصر الجديد.

أنا -على الجانب الآخر-أبدي اعتراضي وأشعر أنني يجب أن أعبّر عما يؤرقني. أحاول أن أشرح أن هذا التركيز المطلق على "العدل" قد يكون مضراً بمصالح مصر على المدى الطويل. "ما يلزمنا أولا وقبل كل شيء هو دستور يتبعه عملية انتخابية يمكن بعدها السعي وراء إقامة العدالة على مبارك. أما إذا فشلت

مصر في تعريف دستور لنفسها في البداية، فإنّ أول حزب يفوز بالانتخابات سوف يشكلها في صورته. لا يمكن للعدالة أن تكون اعتباطية أو استبدادية، بل يجب أن تكون في إطار القانون."

أجادل بهذا المنطق، ليس من منطلق مصلحة منفصلة أومغتربة بل من موقع شخصي شديد الخصوصية؛ لقد أثر تعليق الحقوق الدستورية الذي تبع مقتل الرئيس السادات في 1981 على حياتي بطريقة لا يمكنني البدء في وصفها. لقد تعلمت عن قرب ما يعنيه قانون الطوارئ وإهدار الحريات الفردية. لقد كنت شاهد عيان عما كان نظام مبارك قادرا على اقترافه: الرعب القاتل الذي يشل الحركة، والإذلال الروتيني والتعذيب....

"توقف،" يقاطعني بوش بحدة، وهو يعيرني الآن كامل انتباهه: "ما هو تعريفك للتعذيب؟" هل سألني بوش فعلا عن تعريفي للتعذيب؟ أدرك على الفور أن اهتمامه بالأمر ليس أكاديمياً وحسب خلال فترة حكمه، كان السؤالُ عن ماهيّة "ما يمثل أو لا يمثل تعذيباً" عنصراً ومُكَوناً حيوياً في تطوّر وتحوّر مفهوم "الحرب على الإرهاب". في 2002 كتب مستشار بوش القانوني مذكرة سيئة الذكر حول موضوع "التعذيب بصب الماء" (Waterboarding)، وهو أسلوب استجواب يتمثل في محاكاة عملية الغرق عن طريق صب الماء فوق وجه السجين المغطي بالسيلوفان. وخلصت المذكرة المشهورة ومحل الخلاف الكبير إلى أن صب الماء ليس تعذيبا بل يعد تقنية استجواب "معززة"، مما يجعله قانونيا طبقا لقانون الولايات المتحدة.

أين ابدأ؟ هل يجب عليّ أن أذكر كيف أشعر تجاه منحى العسكرة الزائدة للـ "الحرب على الإرهاب" وما الذي تكبده العالم بأكمله فيما يخص انتهاكات حقوق الانسان، وتدعيم الحجج الإرهابية والضرر الممتد الذي وقع على بلاد الدنيا. هل يتعين عليّ أن أثير موضوع العراق؟ يوجد لدي فقرات مسجلة لي تتعلق بتلك القضايا، ولكن كيف يتعين عليك أن تجيب عندما يسألك قائد "الحرب على الإرهاب" عن رأيك على مائدة غداء وشواء في باحته الخلفية.

أقرر أن أتعامل بشكل مباشر مع السؤال المطروح: "كيف أقوم بتعريف التعذيب؟ ما رأيك في الصعق بالكهرباء؟" أحدّق في بوش وأنتظر كي يوجّه لي سؤالاً عن صب الماء. بدلا من ذلك، يومئ برأسه ويوافق بوقار"نعم، ذاك تعذيب"، وبتلويحة من يده يشير لي: "رجاءً استمر."

الجزء الأول

"بي بوي"

"إعلان لجميع الركاب، الرجاء عدم الركض على الأرصفة أو الساحات.

خاصة إذا كنت تحمل جوالاً أو ترتدي معطفاً فضفاضاً أو تبدو أجنبيا نوعا ما."

جرافيتي بلا توقيع في مترو لندن، بعد قيام الشرطة بقتل

البرازيلي جين تشارلز دي مينيز البريء من أي تهمة

في محطة ستوكويل بواسطة سبع طلقات رصاص في الرأس.

الثاني والعشرون من يوليو 2005

الفصل الأول

هناك "جوجارات" أخرى في باكستان

ولدت في أواخر السبعينات، ذات الوقت الذي كان الهيب هوب (أسلوب رقص في الولايات المتحدة) ينتشر بأول حركاته في نيويورك. بدأ الـ"بي بويز" في البرونكس كلَّ ذلك، كانوا يرقصون بطرق مميزة على أنغام الأسطوانات الأولية. كان أفريكا بامباتا هناك في بداية كل شيء. وكذلك كانت عصابة شوجرهيل التي اقتبست من شيك (Chic) والتي وصلت للذوق العام بأغنية "رابرز ديلايت" (Rapper's Delight). ثم كان هناك الجراند ماستر فلاش والفيوريوس فايف؛ وقد عبّر ميلي ميل عن حنقهم وغضبهم في "ذا ميسج". بعد مرور اثني عشر عاما على ذلك، سوف أجد إلهاما في هذا المشهد، وأكتشف صوتي في إيقاعاته. حتى تلك اللحظه، شببت في عزله على الجانب الآخر من الأطلنطي، كانت سنوات متخبطة عكست الفترات الأولى لتطور الهيب هوب.

وعلى الرغم من كل ذلك، فلم يكن من الممكن أن تكون بداياتي الأولى أكثر اختلافاً عن بدايات الهيب هوب. كان مكان مولدي ومسقط رأسي هو ساوث إند، وهي مدينة ساحلية في إيسكس. كانت إيسكس -في بريطانيا الثمانينات-متماشية مع السائد في ذلك الوقت: الانجذاب الشعبوي لتخفيض الضرائب الذي اقترحته تاتشر، والحق في شراء منازل السكن الحكومي المحلي، وكذلك الوطنية الكاسحة عالية الصوت والأخلاقيات الفردية، وقد كانت كلها مما ناسب المقاطعة تماما. لم يكن أحد يمثل كل ذلك بشكل يفوق نورمان تيبيت، عضو البرلمان من منطقة شينغ فورد المجاورة ورئيس مجلس إدارة حزب توري، وهو الوزير الذي قال للعاطلين أن يركبوا دراجاتهم، والذي كانت العروس الخشبية المشابهة له تماما (في برنامج سبيتنج إيمدج) تصوره في شكل ورداء حركة حليقي الرأس.

لم تكن ساوث إند التي شهدت طفولتي شبيهة بنيويورك على الإطلاق، لم تكن أبدا مكانا يمثل التباين الإثني ولم تزل كذلك. عدد سكانها الحالي 160000 نسمة، 96% منهم من البيض. كانت تلك النسبة حتى أكثر من ذلك عندما كنت أنمو. هذه الأيام هناك مجتمعات الكوسوفيين الألبانيين والغرب هنديين في المدينة، ولكن منذ ثلاثين عاما لم يكن هناك شرق أوروبيين وكانت المجتمعات الغرب هندية تقع بالجوار في مدن بيتيسي وباسيلدون. كان هناك القليل من العائلات الآسيوية في ساوث إند، حرفيا مئات قليلة من البشر، ليس أكثر من 0.1% من السكان. وفي ذلك الوقت إذا وقعت عيناك على وجه باكستاني أو هندي أو بنجلاديشي في

ساوث إند فعادة ما كنت تجد أنك تعرف والديهم وأين كانوا في عطلة العام السابق، وآخر الفضائح العائلية التي كانت تدور لديهم. كان من المحتم أن يترك النمو في مجتمع أقلية مثل ذلك أثره عليك.

كانت تجربة مختلفة كليا عن النمو في مجتمع باكستاني ضخم، في إيستهام أو برادفورد. كان ذلك يعني أنه لا خيار لدينا إلا التعامل مع المجتمع الأوسع، وكنتيجة لذلك، كبرت وأنا أشعر أنني معدٌّ بشكل أكبر للتعامل مع الاختلافات الثقافية. ما كان "ماجد" لو ترعرع في برادفورد ليعرف كيف يتصرف وأين يضع نفسه في مجتمع كله من البيض. وحتى في يومنا الحالي، هناك بنجلاديشيون في تاور هاملتز كبروا وهم يتحدثون البنجلاديشية كلغتهم الأولي، وبالرغم من كونهم ممن كبروا في المملكة المتحدة فإنهم لم يقوموا بتكوين صداقة واحدة مع شخص أبيض.

بمعنى آخر، فإنّ تلك المجتمعات كبيرة بما يكفي كي تحتوي داخلها حياة الناس بالكامل، عوضاً عن المغامرة بالخروج منها. وعلى هذا النحو، وبالنسبة للكثير من هؤلاء الناس الذين يترعرعون في مكان مثل برادفورد أو تاور هاملتز، فالتفاعل الوحيد الذي قد يحدث بينهم وبين الصبية البيض هو عندما يواجهونهم في قتال. وبالمثل، المرات الوحيدة التي يتواصلون فيها مع النساء البيض هو حين يدخلون معهن في محادثات آملين أن تنتهي بعلاقة لليلة واحدة. يؤثر ذلك النمط تأثيراً سلبياً بل وساماً على الطريقة التي ينظر بها كل من الطرفين للآخر. إنه وضع سيء لكلا الطرفين.

ولكني أستبق الأحداث، أنا في حاجة لأشرح بادئ ذي بدء كيف انتهى الحال بأسرتي في ساوث إند. يعود أصل عائلتي إلى جوجارات، ولا يجب هنا الخلط بينها وبين جوجارات الواقعة في الهند والتي منحت اسمها للمجتمع الأكثر شهرة في المملكة المتحدة وهو جوجاراتي. هناك جوجارات أخرى في الباكستان، وهي مقاطعة ومدينة في إقليم البنجاب، في شمال غرب البلاد، وتقع في اتجاه الحدود مع كشمير. إنها قريبة من إسلام أباد، ولكن، بوضع سوء حالة الطرق في الاعتبار، فإنها لازالت تقع على بعد ساعتين ونصف بالسيارة من العاصمة وعلى نفس المسافة من لاهور. تقع جوجارات على ضفاف نهر شيناب، ويقال إن عائلتي قد استوطنت المنطقة منذ القرن الثامن، نازحين من شبه القارة مع الجيوش العربية التابعة لمحمد بن قاسم.

إن جوجارات مدينة ذات تأثير غير متناسب مع حجمها على السياسة الباكستانية. لطالما امتلكت عائلة شودهريز نفوذا كبيرا في الجيش منذ زمن بعيد، وخرج من بين أبناء المدينة رؤساء وزراء وأحزاب سياسية قوية. ومن أساطير جوجارات كذلك قبيلتها، والعصابة المرتكزة في أوربيراداري، ونساؤها الجميلات. يحدد الفولكلور (القصص الشعبية) موقع أحداث قصة الحب التراجيدية القديمة لسوهني ماهيوال في جوجارات. يقال أن سوهني، وهي كلمة بنجابية تعني الجمال، غرقت في نهر شيناب فيما كانت تحاول يائسة الوصول إلى عاشقها الممنوع ماهيوال، والذي قفز -افتتانا بجمالها-في النهر كي ينقذها، لكنه غرق مع حبه الضائع.

مثّلت هذه القصة بدورها إلهاما للعديد من القصائد واللوحات والأغاني وحتى لفيلمين في بوليود. تقول أساطير عائلتنا إن جدي لأمي "نانا أبو" قضى طفولته أثناء حكم الراج البريطاني في رفقة لصيقة لطبيب إنجليزي كان يعمل مديرَ مستشفى في مدينة جلال بور الواقعة في منطقة جوجارات الممتدة. كان هذا الرجل الإنجليزي يسكن في أراضي المستشفى مع عائلته، ومع زيادة التقارب الوثيق بين الطبيب ووالد "نانا أبو"، كان الطبيب كثيرا ما يدعو العائلة إلى منزله لمشاركته الوجبات والأعياد والإجازات. (ويبدو أن مباني المستشفي لازالت موجودة حتى يومنا هذا بكل بهائها الإمبراطوري في جلال بور). عندما كان صبيا، تنامى في "نانا أبو" (ولقبه غلام نبي أو خادم الرسول) افتتانٌ كبيرٌ بهذا الطبيب الإنجليزي. ونظرا لكونه معجبا للغاية بثقافته وتعليمه وكرمه، فقد قرر "نانا أبو" أنه حين يتزوج وينجب ذرية خاصة به فسوف يكبرون ليصبحوا أطباء، ويديروا مستشفيات مثل هذه بالضبط. كان هذا هو الحلم الذي يقوده في حياته.

لم يكن التعليم الطبي متاحا بشكل مباشر لـنانا أبو، وبالتالي فقد قام، بقلب مثقل، بالانضمام إلى جيش الراج البريطاني آملا أن يمنحه ذلك الفرصة للسعي وراء طموحه. قام "نانا أبو" باتباع نظام صارم من الدورات المنهجية مع روتينه اليومي في الجيش، ونجح بسرعة في التأهل ليكون محاسبا وتم تعيينه لإدارة الحسابات العسكرية للطعام والمخازن. وبما أنّ الأمور استمرت في الجريان حسبما يشتهي، واستمرت إمكانية تحقيق حلمه، فقد تزوج "نانا أبو". كانت جدتي "ناني آمي" امرأة جميلة من جوجارات تسمى ثريا، ويعني ذلك كوكبة من النجوم. ولأنّ جدي "نانا أبو" متزوج حديثا ومليء بالأمل، فقد أخذ جدتي "ناني آمي" عبر الهند إلى لوكناو في رحلة شهر العسل، ولكن في ذلك الأسبوع ذاته حدث شيء مقدّر له أن يغير مسار التاريخ: التقسيم.

إنه العام 1947، السنة التي تقرر فيها تأسيس بلدين: الهند التي سوف تحتوي على أغلبية من الهندوس، والباكستان -في ذلك الوقت غرب باكستان وشرق باكستان (الآن بنجلاديش) -حيث ستكون الأغلبية مسلمة. كان معنى ذلك أنه توجب على أعدادا غفيرة من الناس مغادرة بيوتهم والانتقال بحياتهم عبر الحدود الجديدة: الهندوس إلى الهند، والمسلمون إلى باكستان. هنالك فوضى وهرج ومرج. حدث الخروج الكبير أمام أعين جدّي مباشرة خلال شهر عسلهم في الهند، فأسرعا في خضم هلعهم للحاق بقطار العودة إلى جوجارات، والذي صار بين ليلة وضحاها على الجانب الباكستاني من البنجاب المقسمة. ولكنّ الوقت كان قد فات بالفعل، تركّز عنف الغوغاء والقتل الجماعي المصاحب للطلاق الجغرافي السياسي الصادر من كافة الأطراف على القطارات، وكانت حشود متعطشة للدماء متوقدة إصرارا على الانتقام تعتلي العربات وتقتل

بلا تمييز كل الركاب المتجهين للباكستان، وكان القطار تلو القطار يقف في المحطة في باكستان وكل من عليه قتلى: إنّها قطارات الأشباح.

تواجد "نانا أبو" على أحد قطارات الأشباح تلك، وكان الغوغاء قد فصلوا عربات القطار إلى جزئين: الأمامي حيث كانت "نانا آمي" وكل النساء راكبات، والذي تم فصله والاستمرار به إلى الأمام، أما الجزء الخلفي، الذي كان فيه "نانا أبو" وكل الرجال فقد تم احتجازه ليتم ذبحهم جميعا. وبشكل ما استطاع "نانا أبو" -بما لا يمكن تسميته سوى كرم الله-أن يهرب من المذبحة التي تلت ذلك. في تلك الفوضى العارمة، والبحث اليائس عن عروسه الجديدة، وفي عصر بدون وسائل تواصل واسعة الانتشار، ركض "نانا أبو" من رصيف إلى رصيف حريصا على تجنب الغوغاء الهائجين الثائرين أثناء بحثه الحثيث عن زوجته، وأخيراً تعثّر بها ووجدها صدفة تنتظره بلهفة وذعر في محطة أخرى. معا، فر هذان الزوجان الجديدان المصدومان من الهند، التي صارت الآن بلدا أجنبياً، في طريق عودتهم إلى الباكستان، بلدهما الجديد.

بعد ذلك، في المرحلة التي تلت التقسيم، تغيّر كل شيء بشكل متسارع للغاية بالنسبة لـ"نانا أبو"، فنتيجة لكونه نما وكبر في الهند الموحدة متعددة الإثنيات والعقائد، فقد خسر العديد من أصدقاء طفولته، حيث أُجبر هؤلاء المنتمين إلى عقيدة "خطأ" على الهجرة إلى الهند، فيما هاجر غيرهم إلى إنجلترا. أصبح "نانا أبو" بعد ما حدث ونتيجة انزعاجه من ذكريات المذبحة التي شهدها على قطار الأشباح، وبعد اقتلاعه من بين الكثير من أصدقائه ضَجِرا ومتململا، وقرر بعدها بسنوات في عام 1965 أن يقوم برحلة إلى إنجلترا بحثا عن أصدقائه الضائعين منذ زمن بعيد، وكذلك كي يعيد إشعال جمرة عشرته مع الثقافة البريطانية، فقد كان ما يزال محتفظا بحلمه القديم ببناء مستشفي في جوجارات، ويخطط لأولاده كي يصبحوا أطباء ويدعموه في تحقيق حلمه.

لم يكن ثمّة نظام تعليمي مثيل للنظام البريطاني، وأراد "نانا أبو" أن يحظى أطفاله بتلك الفرصة. لو أتيح لك امتياز زيارة منزله في تلك الأيام المبكرة، فسوف تراه بشكل متكرر يوجه أطفاله: "لا تكونوا كالغرباء في التعامل مع لطف وطيبة الآخرين، يجب علينا أن نتبنى الاستقامة والحق والطيبة كجزء منا، بصرف النظر من أين جاءت."

وكذا استغل "نانا أبو" حقه في المعيشة في المملكة المتحدة، فحينها وببساطة شديدة لم تكن الهجرة في تلك المرحلة مشكلة. كانت ساوث إند هي المكان الذي انتهى بهم -بنا-المطاف إليه: بلدة على شاطيء البحر بلا روابط عائلية ولا محلات بيع لحم حلال ولا مساجد ولا مجتمع. وقع عبء تأسيس هذه الأشياء الآن على عاتق "نانا أبو" وأصدقائه، وقد قام ببناء أول مسجد في المدينة ونظّم مساحة لمدافن المسلمين في مدافن البلدة.

وعلى نحو سريع، ونظرا لتعليمه ومزاجه الجيد واعتداله وطبيعته المفكرة المراعية، فقد أصبح "نانا أبو" قائدا لمجتمعه، واحتفظ بعلاقات ود مع عضو البرلمان المحلي الخاص به وحظي باحترام الجميع.

كان "نانا أبو" مسلماً تقليدياً، والذي كان آنذاك يعني أنه متحفظ، ولكن بلا أي لمحة تطرف أو أصولية. كان -كمثال على تفكيره التقليدي-يتوقع أن يتقبل أولاده الزواج المدبر أو زواج الصالونات ويريد منهم الزواج من مسلمين آخرين. كانت باكستان تاريخيا، مثل معظم الثقافات الجنوب آسيوية، خالية من الدوجما (العقيدة)، وقد نجم ذلك عن الطريقة التي أصبحت بها الصوفية متجذرة عبر شبه القارة الهندية. كان جدي نموذجاً نمطياً لطريقة التفكير تلك، المتمثلة في كونه ليبرالياً (يؤمن بالحريات) في صغره وأكثر تدينا مع العمر. وهذا الآن -وكان دوما-شيء باكستاني للغاية. أقول هنا "كان" نتيجة تصاعد موجة التطرف بين الكثير من الباكستانيين الصغار في يومنا هذا.

إنّ أمي هي الثالثة بين تسعة أطفال، وكانت تقريبا في التاسعة من عمرها عند انتقال عائلتها إلى ساوث إند. استهلوا حياتهم في بادئ الأمر في عقار مؤجر لمدة شهرين أو ثلاثة، ثم قاموا بشراء منزلهم الخاص. بالرغم من كونه محاسبا في دياره فقد وجد "نانا أبو" أن مؤهلاته غير معترف بها بسهولة في إنجلترا. لم يمثل ذلك عائقا بالنسبة له، ومدفوعا قُدما بأحلامه الخاصة بالمستشفى، فقد قام بـإعالة عائلته عن طريق الحصول على وظيفة سائق حافلة، وغرس في أولاده ضرورة الدراسة والعمل الشاق وتحقيق أقصى ما يمكنهم تحقيقه لأنفسهم. كان جدي مثالا للصورة النمطية للمهاجر الكادح المجتهد، وكان عاقد العزم على منح أولاده الفرصة الأفضل وأن يضمن تمسّكهم بها بكلتا يديهم.

ونتيجة لذلك فقد كان أولاده ممتازين في المدرسة. كانت أولى مدارسهم من أسوأ المدارس قاطبة، ولكنّ المقام استقر بهم بعد ذلك في مدارس جرامر ومنها انطلقوا للجامعات. كان كل فرد من ذلك الجيل إما مهندسا أو طبيبا بمختلف التخصصات، إلى جانب الذين كانوا مثل أمي والذين زُوّجوا قبل أن يتمكنوا من الذهاب للجامعة. كان "نانا أبو" وعلى الرغم من كل تفكيره التقدمي لايزال مؤمنا بفكرة الأزواج المدبرين لبناته، وبينما نجد أن أختَي أمي الأصغر منها سِناً -شابا و شاز-متزوجتان من رجلين إنجليزيين في يومنا هذا ، فإنّ تقبّل هاتين الزيجتين سيبدو أمراً صعبا جداً على "نانا أبو" لو أنّه على قيد الحياة الآن.

وفي أحد الأيام، وبينما كنت أقفز صعوداً وهبوطا على الفراش الذي لم يكن مسموحاً لي بالوقوف عليه، دخلت أمي إلى الغرفة ودموعها تنهال على وجهها، فاعتقدت أنها غاضبة مني لأنني أقفز على الفراش.

"اجلس بيتا – إبني، يجب أن اخبرك شيئا ما، ولكن عليك أن تجلسَ قبل أن تسمع ما هو."

سألتها: "ماذا، يا أمي، لماذا تبكين؟ ماذا فعلتُ أنا؟"

"نانو، استمع لي، يجب أن تستمع لي. اليوم.. اليوم رحل "نانا أبو"، أعني أنه مات، ذهب إلى السماء، هل تفهم ماذا يعني هذا؟"

قبل أن يشرع في بناء مستشفاه الحبيب، انهار "نانا أبو" وتُوفّي نتيجة لجلطة مزدوجة. لم يتعدَّ الثامنة والخمسين من عمره. كنت في التاسعة من عمري حينذاك، ولا زلت أتذكر كم بكيت ذلك اليوم.

بقدر ما كانت تجربة "نانا أبو" استثنائية، كانت تجربة أمي وإخوتها مختلفة كذلك وإن بشكل مختلف. ولد وترعرع الكثير منهم في المملكة المتحدة، وكانت أمي، على نحو خاص، ليبرالية جدا ومتقدمة في فكرها ونظرتها للأمور. كثيرا ما يحدث في التجربة الباكستانية في المملكة المتحدة أن يكون الوالدان ترعرعا في الباكستان ومن ثم انتقلا إلى هنا، ولهذا، كان من غير المعتاد أن يكون لدي أم ترعرعت في إنجلترا وتتحدث بلكنة إنجليزية، فقد كان ذلك يعني أن تجربتها مماثلة لتجربتي. لقد كبرت وأنا أناديها "باجي" -وهو لقب للأخت الأكبر-وكان من السهل التواصل معها، أعني كان سهلا حتى اللحظة التي أصبحت مهتما فيها بالإسلام السياسي: فورا وفي لحظتها أصبحت هي ممثلة لكل الأشياء الليبرالية والغربية الي بدأت أنا في الحشد والدعوة ضدها، كيف يمكن أن يكون اغترابٌ كهذا قابلا للحدوث، ذاك ما تصفه بقية هذه القصة.

كان طريق الأدب الروائي أحد الطرق التنويرية التي كانت أمي -المعروفة بشكل محبب للجميع بإسم "آبي"-عاقدة العزم على تربية أولادها طبقا لها. وقد اعتادت دوما أن تحثني على القراءة منذ نعومة أظفاري، ولدي الكثير من الذكريات عن نوعية الكتب التي قرأتها في ذلك الوقت. كان روالد دال (Roald Dahl) من المفضلين بشكل خاص : شارلي ومصنع الشوكولاته و جايمس والخوخة العملاقة و دواء جورج العجيب وهلم جراً. وقدّ مثّل سي إس لويس (C.S. Lewis) واحدا من المؤلفين الآخرين الذين قرأت لهم، وذلك بالرغم من جهلي التام -حتى زمن متأخر عن ذلك كثيرا-بالدلالات الدينية الضمنية في قصة "تأريخ نارنيا". كنت كذلك أحب كتب الخيال القتالية تلك، مثل ساحر جبل فايرتوب وما شابهه، حيث تقرأ الصفحة ويمنحونك أن تختار ما تود أن يحدث بعد ذلك، إذ كانت تروق لي جدا فكرة أن أكون قادرا على خلق قصتي الخاصة.

بدا كل هذا مختلفاً بشكل تام عن التقاليد الباكستانية القديمة فيما يخص رواية الحكايات. في الوقت الحالي، وبالرغم من الطفرة الماثلة في الأدب الباكستاني المعاصر، فقد كانت التقاليد القديمة شفهية، وبالنسبة لي كان أكثر ما يمثل ذلك هو "تاي آمي" خاصتي، وهي زوجة عمي التي كانت تقص علينا قصصا مثل علي بابا والأربعين حرامي عندما كانت تزورنا، ولكنّها كانت تقصها بلغة الأوردو، ثمّ تعيد حكيها في وقت النوم. كنت أنا وأخي عثمان نحب الاستماع لتلك القصص لأن سردها محكية ينطوي على شيء سحري، يتمثل في تنغيمات صوت الحكي والعاطفة والمشاعر التي يرسمها كل سطر فيها، وبدلا من استمالتنا للنوم، كانت تلك

القصص توقظ جميع حواسنا وتشغلها في تخيّل أرض بعيدة تحتوي على الأبسطة السحرية والجن. لم نقل أبدا لـ"تاي آمي" أن قصصها توقظنا بدلا عن مساعدتنا في النوم. يحتوي ذلك التراث الشفهي على كم هائل من المهارة، ويدور كله حول سرد القصص بشكل يجعلها مثيرة ومشوقة. كانت "تاي آما" شديدة المهارة في ذلك، وكانت تلك الطريقة التي تربي بها الأم الباكستانية أطفالها، بينما نحن جالسون على أطراف مقاعدنا متطلعين لما سوف يحدث بعد ذلك.

بقدر الروعة التي تستطيع تقاليد المحكيات الشفهية تلك الوصول لها، إلا أنها لا تشجع الأطفال على القراءة بأنفسهم بالضرورة، وحتى يومنا هذا فالقراءة ليست منتشرة في باكستان بالقدر الكافي. ما أكثر القدرة على التعبير التي يكتسبها الأطفال في حال تم الجمع بين هاتين الطريقتين، القديمة والجديدة معا. أعتقد أنّ ذلك المزيج تحديدا هو ما أسهم في الحفاظ على رغبتي وحماسي المتقدين للحياة مشتعلين في داخلي في أصعب الأوقات. كان أحد الكتب التي اختبرت بصفة خاصة ليبرالية أمي "آبي" وكذلك آرائي المتغيرة كمراهق، كتاب سلمان رشدي"آيات شيطانية". عندما نُشر ذلك الكتاب في 1988، تسبب في ضجة ضخمة بين العديد من المسلمين حول العالم، وقد اعتبر وصفه للرسول محمد عليه السلام كفراً وزندقة، وأُجبر المؤلف على الاختباء بعد إصدار آية الله خميني فتواه المشهورة*. كانت أمي متسقة مع روحها المستقلة للغاية واشترت الكتاب وقرأته لتقرر بنفسها رأيها فيه، وكنت عند تلك النقطة في غنى عن أي توكيد آخر يدعم إيماني بأنها مخطئة بشكل جذري. وجاء رد "آبي" ردا ليبراليا كلاسيكيا: "دعه يكتب كتابه، وإذا لم ترضَ عنه، فاذهب واكتب كتابك الخاص رداً عليه"، وكان ذلك الرد خلاصة "آبي".

إن الشخصية الأخرى الجديرة بالذكر في عائلتي هو والدي، المعروف كتحبب للجميع بإسم "مو" والذي شبّ منذ نعومة أظفاره وهو يحمل كماً كبيرا من المسؤوليات، فقد توفي كل من أبيه وأخيه الأكبر وهو صغير السن مما تركه في وضعِ كبير العائلة قبل أن يتزوج. في الأيام الغابرة في الباكستان، حينما يتوفى رجل ما، فإنّ زوجته كثيرا ما كانت تعود لعائلة أهلها. كان انعدام دولة الرعاية الاجتماعية يعني أن شبكة الأمان الوحيدة تتمثل في أقارب الدم. أراد أبي -على العكس من ذلك-أن يقوم بالاشياء بشكل مختلف، فطلب من "تاي آمي"، وهي أرملة أخيه، أن تبقى معه حتى يكون بوسعهم تربية ابنتي أخيه اليتيمتين نرجس وفرح كما لو كانتا ابنتيه. وكان ذلك كفيلا بضمان ألا تضطر "تاي آمي" -وهي لم تزل جميلة من البنجاب ذاتها - للزواج مرة ثانية، وحتى يومنا هذا، و بعد ما يربو على أربعين سنة، لم تزل "تاي آمي" أرملةً، وذلك حبا في زوجها الراحل.

* أصدر الإمام خميني في إيران فتوى بإهدار دم سلمان رشدي في الرابع عشر من فبراير سنة 1989 -المحرر

بدأ أبي العمل في البحرية الباكستانية وتلقى تدريبه كمهندس كهرباء، ولكنّه لسوء الحظ أصيب بالسل وسرّح بشكل مشرف لأسباب صحية. في بادئ الأمر، تولت البحرية الإنفاق على علاجه وطالبته بالعودة للعمل، ولكنّه لم يستجب للعلاج التقليدي وفقدت البحرية الأمل فيه. ذهب أبي بعد ذلك لزيارة ما كان يُدعى حينئذ "حكيماً" -وهو معالج بالأعشاب مدرب على طرق العلاج الطبيعية القديمة-وزوده هذا بعدد من المساحيق. لكنّ المثير للعجب، هو أن تلك المساحيق كانت فعالة حيث فشل الطب الحديث، وأفترض أنني أدين بحياتي للحكيم المجهول متخصص الأعشاب، الذي توفي، على الأرجح، منذ زمن بعيد في أرض الأنهار الخمسة.

لم يعد أبي للبحرية ولكنه واصل حياته بوصفه مهندس كهرباء، فقام بوضع الكثير من الأساسات الكهربائية فيما أصبح الآن عاصمة الباكستان وهي إسلام آباد. وضع أبي كذلك أساساتٍ سياسيةً، وهذه هي نزعة التحدي والفخر البادية لديه والتي ورثتها منه. كان أبي على يعمل في مجموعة داوود -وهي مجموعة صناعية ذات نفوذ كبير-في باكستان، كانت الشركة ذات نفوذ سياسي هائل، وكانت النقابات ممنوعة، وفي ذلك الوقت صار العمال الباكستانيون -المغرمين بالاشتراكية السوفيتية-على وعي بقدراتهم التنظيمية وساخطين على أوضاع العمل وعالمين بأن أصحاب الأعمال لن يسلموا أبدا بحقوقهم إلا إذا تم إجبارهم على ذلك، وهكذا أسس أبي أول نقابة تجارية في مجاله.

حاولت مجموعة داوود إيقافهم، واقتيد والدي ومنظمته المستضعفة للمحكمة، وبدا ذلك في الواقع مثل حكايات داوود وطالوت (أو النملة والفيل)، ومثّل انتصارُ أبي في نهاية الأمر، ضربة مدوية في وقتها. قد يكون من الجائز جدلا -إذا وضعنا في الاعتبار الاضطرابات التي تعطل الجمهور، وهو مكونهم الأول، وتجعل منهم رهائن لمطالبات النقابات التي ما تنفك تتزايد- أن نسلم بأن النقابات المعاصرة قد تحولت إلى الوحش الذي كانت تحاربه، ولكن وبالرغم من كل ذلك، فلا يمكن إنكار الدور الأساسي للنقابات في تحسين أوضاع العمال ولا سيّما في بلاد مثل الباكستان.

تزوج والدي بعد ذلك من "آبي" زيجةً تقليدية عندما بلغ الرابعة والثلاثين، فيما كانت "آبي" في الثامنة عشرة فحسب. انتقل أبي من ثم إلى المملكة المتحدة واستغل خبراته كمهندس في الحصول على وظيفة في شركة أويسس (Oasis) للبترول في ليبيا، حيث عمل حتى تقاعده، وحيث كتب لنا زيارته في وقت لاحق.

وهكذا من خلال تقلبات القدر هذه، كنت واعيا لطغيان القذافي قبل أن يصبح ذلك متداولا بوقت طويل. كان أول ما أذكره عن المشاكل في ليبيا يعود إلى أواخر الثمانينات. سألت أبي ما سبب تغيير إسم شركته من Oasis باللغة الإنجليزية إلى واحة باللغة العربية، فشرح لي أن الجنرال القذافي أمّم الشركة وطرد جميع الغربيين انتقاما من الضربات الجوية الأمريكية التي قتلت ابنه. سألته بسذاجة: "ولكن لمَ لا تزل انت

هناك، إذا كان الحال كذلك؟" فأجابني برد مطمئن: "يرجع ذلك لأن الليبيين يحبون الباكستانيين". لم أفهم هذا. كان أبي بصفته متجنسا يحصل على مردود مادي جيد جدا في ذلك الوقت، وكنتيجة لذلك انتقلنا مع الوقت إلى منزل ضخم مكون من ست غرف. لماذا لم يعتبره القذافي بريطانياً؟ ما لم أكن أعرفه، هو أنّ القذافي ذهب إلى لاهور في عام 1974م وأعلن دعمه لحق الباكستان في امتلاك الاسلحة الذرية، وبدورها قامت الباكستان بإطلاق اسم القذافي على الاستاد الرياضي الأساسي في لاهور. لم يكن لدي أدنى فكرة كيف أنّ هذا السعي وراء امتلاك الاسلحة الذرية سوف يمضي قدما ليؤثر على حياتي بهذا الشكل العميق، ولكن، ها أنذا مرة أخرى، استبق الاحداث.

انغمس أبي في المظهر الشخصي المرتبط بالبترول. كان ذلك عصر مسلسل السوب أوبرا دالاس* وأبطاله جي آر وبوبي أيوينج. كنا جميعنا نحب مشاهدة دالاس؛ في الواقع لازلت أفاجأ بنفسي أحيانا أهمهم بلحنه الخاطف. كان أبي متسقا مع نمط الرجال الباكستانيين الجذابين المحنكين في عصره، فلم يشعر بحرج من التباهي بأناقته وأسلوبه. كان يرتدي قبعة الستيتسون وأحذية رعاة البقر وحزاما كبيرا حُفر اسمه عليه من الخلف مع ساعة باذخة من الذهب المحلى بالماس، في هذه الأيام يسمى ذلك مصاغا أو حليا. كنت مثل أي طفل يشب عن الطوق، لم أقم بتقييم ذوق أبي في الموضة، ولكنني بالتأكيد ورثت حبه لتنمية أناقته وفق أسلوب متفرد به.

كان التأثير الآخر الأساسي لعمل أبي على تربيتي هو أنه تسبب في وجود طفولة قطبية نوعا ما، فقد كان ينتقل من قضاء شهر في ليبيا إلى التنعم بثلاثة أو أربعة أسابيع في المنزل. وعندما يرحل كانت "آبي" هي رب المنزل، حيث تصبح نظرتها الأكثر ليبرالية هي السائدة. أما حينما يعود أبي فقد كنا نعيش بموجب قواعد منزلية أكثر صرامة وتقليدية، وقد خلق هذا نزاعا بين والديّ، مثّل في جوهره تضاربا في الخلفيات، وفجوة أجيال أكثر من أن يكون شيئا ذا أبعاد شخصية. كان أبي ليبراليا اجتماعيا ولكن بمصاحبة قيم عائلية تقليدية، فيما مثّلت "آبي" جمالا مستقلا حر الروح بشكل حاد، وكانت دوما أول من يرقص في الأفراح وآخر من يعود لمقعده.

مثّل العمل بؤرةَ حياة أبي، ولكنّ السياسة كانت الطريقة التي يتعامل بها اجتماعيا مع أصدقائه في الوطن. وكان هذا شيئا باكستانيا نمطيا وكذلك كان طريقة المسلمين النمطية في التعامل مع الأمور. كان موقفه تجاه الأسئلة الملحة في عصره يتمثل في ويقتصر على: "لعنة الله على بيتكما أنتما الاثنان" كان ضد الاستعمار بشكل جارف، ولكن لأنّه يعيش ويعمل تحت حكم القذافي فقد كان كذلك ضد الدكتاتوريين العرب. من الجدير بالذكر -وعلى العكس من الكثير من اليسار الأوروبي القديم-أنه لم يكن في صف الطغاة العرب

---

* أوبرات الصابون هي نمط من المسلسلات التلفزيوينة الموجّهة بشكل أساسي لربات البيوت وهنّ منشغلات بأعمال المنزل -المترجم

لمجرد أنهم يقفون في وجه الإمبريالية الغربية، كان على إدراك تام بسجل القذافي في التعذيب لفترة طويلة قبل أن يصبح ذلك متداولا في الغرب على نطاق واسع: كان على علم بالكراهية التي يحملها الليبيون العاديون لقائدهم.

ذهبنا في إحدى المناسبات في إجازة عائلية إلى طرابلس وكان هذا في أواخر الثمانينات بعد الضربات الجوية، ولكني لم أملك وقتها أي حس أو إدراك حقيقي لمعنى ذلك. صارت الحياة، بلا شك، أكثر إرباكا لأبي خاصة بعد حادث لوكيربي، عندما تم تفجير رحلة بان آم 103 في الجو فوق البلدة الأسكتلندية. شرعت الحكومة البريطانية في توجيه اهتمامها إليه، وعند تلك النقطة لم يكن هناك الكثير من البريطانيين الذين يسافرون إلى ليبيا للعمل. تم توقيفه واستجوابه في طريقه من وإلى المطار، بل وتعدى الأمر إلى مطالبته باستغلال موقعه في الاستخبار عن الليبيين، وهو ما رفضه بلطف.

من الصعوبة بمكان ألا نتمعن في "نانا أبو" و"آبي" ووالدي بدون التفكير في أنني قد ورثت شيئا من كلّ منهم. إن ما جمع بينهم، بالرغم من كونهم شخصيات شديدة الاختلاف عن بعضهم البعض، هو الطريقة التي خالفوا بها السائد في وقتهم: حيث ترك "نانا أبو" الباكستان المستقلة حديثا مفضلا ساوث إند كي يتابع حلماً ما، والتحديات التي مثلتها آراء "آبي" الليبرالية لمجتمعها، ووالدي وهو يواجه شركة رائدة لكي يؤسس أول نقابة تجارية فيها. في حال إذا ما نحيت جانبا كل الصفات التي قد أكون قد حظيت بوراثتها منهم، فأكثر ما يلفتني -بوصفه تأثيرهم الأعمق والأجدر بالذكر-هو هذه النزعة والغريزة الجامحة لخلخلة الوضع القائم.

الفصل الثانـي

هذه اللعبة ليست للباكيز

إنّ أول مواجهة لي مع العنصرية وبداية إدراكي لها كانت تقريبا عند سن الثامنة، كنت سأتناول طعامي في مدرستي الابتدائية إيرلز هول (Earls Hall) وكما جرت العادة فإنني أنتظر دوري حاملا بيدي صينيةً للحصول على الطعام من السيدة لمسؤولة عن الغداء، وفي هذا اليوم تحديدا كان السجق هو النوع المتواجد على لائحة الطعام. إنني، من غير معرفة الأساب، أعرف أنّ تناول السجق ممنوع بالنسبة لي، ولكنني كنت أعي أن أبي لم يكن يريدني أن اتناوله. وعندما بدأنا أنا وأخي عثمان في الذهاب للمدرسة، لاحظ أبي أن الطعام المقدم لنا قد يمثل مشكلة، وفي سبيل تجنب أن يصير ذلك قضية، قال لنا: "تناولوا أي شيء تريدونه حتى لو لم يكن حلالا، ولكنّ أهم شيء هو أن تتجنبوا لحم الخنزير. هكذا: السجق ممنوع."

وضعت المسؤولة الطعام في طبقي.

سألتها: "ما هذا؟"

أجابت: "سجق."

قلت بأدب، "أعتذر،" وأنا أعيد الطبق إليها. "ليس مسموحا لي بتناوله." في تلك المرحلة كنت إلى حد كبير صبيا صغيرا خجولا.

ردت مسؤولة الطعام بحدة: "ما الذي تعنيه بأنّه غير مسموح لك بتناوله؟"

كررت عليها بعصبية: "ليس مسموحا لي بتناوله،" وتمسّكت بموقفي، "أبي أخبرني أنه غير مسموح لي أن أتناول السجق."

"لماذا بحق السماء؟"

أجبت وأنا أرتجف، "لا أعرف، كل ما أعرفه هو أنني غير مسموح لي بتناوله"

عند تلك النقطة أتذكر شعوري بالخوف الشديد، ليس فقط بوصفي طفلا صغيراً أتمسك بموقفي أمام راشد، ولكن كذلك بسبب المبرر الذي جعل السجق ممنوعا. لم أكن أعرف حقا لماذا كان ممنوعا، ولكن كان أبي مصرا على عدم تناوله بحيث اعتقدت أنه لربما حدث لي شيء ما إذا أكلته. شعرت بجميع من في المكان وهم يحدّقون فيّ.

"لا تكن مزعجا هكذا!" صرخت مسؤولة الطعام وهي تدفع الطبق في يدي بحيث اضطررت للإمساك به، "هذا هو غداؤك وسوف تأكله."

خطت المسؤولة من وراء المنضدة وتبعتني إلى المائدة التي كنت أجلس عليها وأصرت على أن آكل السجق أمامها. كنت أبكي الآن وشعرت بأعين الجميع تحدّق بي كأنني نوع من المسوخ. كنت أشعر بتضارب داخليٍّ تام وكنت بالفعل لا أدري ماذا يجب عليّ أن أفعل.

احتدّت عليّ مرة أخرى: "يالك من طفل صعب الإرضاء، سوف تأكل السجق خاصتك."

كان الخوف يتصاعد حرفيا ككتلة صمّاء في حلقي وأنا محتجز بين كلتا السلطتين الأبوية والمدرسية. امتثلت للتهديد الآني، ووضعت قطعة من السجق في فمي، وعند تلك النقطة اقتص الخوف مني ودفع باللقمة الآثمة للخارج مع كل ما كان في بطني، تقيأت على كل ما كان في طبقي، وفيما استمررت في البكاء حدث تغيير في موقف مسؤولة الطعام.

قالت: "يا الله، لديك حساسية من السجق، لذا لا تستطيع أن تأكله."

هززت رأسي محاولا إخبارها أنه ليس كذلك، ولكنها كانت مقتنعة تماما وواصلت قائلةً: "كان يتعيّنُ عليك أن تقول، كان يجب عليك أن تذكر أنك تعاني من الحساسية." وبالرغم من جميع اعتراضاتي فقد اصطحبتني إلى العيادة حيث قضيت ما بقي من الظهيرة مستلقيا لضمان أنني بخير حتى موعد مجئ "آبي" لاصطحابي بعد المدرسة.

يبدو هذا الحدث بأكمله الآن خياليا نوعا ما، مما قد يوضح إلى أي مدى تغيّرت الدنيا في العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة. لا تجرؤ أي مدرسة في المملكة المتحدة على معاملة طفل بهذه الطريقة في يومنا هذا. لا أعتقد أن سيدة الغداء كانت عنصرية عن قصد، بل أميلُ إلى أنّ نيتها كانت طيبة في إطار أسلوب: "تناول خضراواتك". ولكنّ ما كان يحرك الموقف الذهني هو جهل ثقافي كسول يشي بالكثير حول المواقف الذهنية والسلوكيات في تلك الأيام، لم يأتِ حتى على بالها أنه قد يوجد سبب ديني لرفضي تناول السجق.

لم تكن هذه -في الواقع-أول مرة أواجه فيها مثل تلك المواقف. بادئ ذي بدء، ذهبنا أنا وأخي إلى أقرب مدرسة ابتدائية، والتي كانت مدرسة كاثوليكية تسمى ساينت هيلين. لم يكن بها أي ملمح لاحترام اختلافاتنا الدينية، ولا كان مطروحا للنقاش منحنا خياراً للانسحاب من التجمع الصباحي أو الغناء الصباحي للترانيم. كانت اللحظة الفاصلة عندما سألت أبي لماذا كان علينا جميعا أن نأكل قصاصات ورقية. كان أبي

مرتبكا مثلي حتى استنتج أن القصاصات الورقية الصغيرة التي كنت أتحدث عنها كانت جزءاً من التناول المسيحي. مرة أخرى، لا أعتقد إن انعدام الحس ذاك كان بنيّة الاستفزاز، ولكنّ غياب الوعي الواضح بصفة خاصة في الإطار الديني هو شيء صادم إلى حد كبير. انتقلنا أنا وأخي من المدرسة بعد ذلك.

كانت مدرسة إيرل هال تضمّ تقريبا طلابا بيضاً على نحو كامل، وكان الطفل غير الأبيض الوحيد الآخر من طائفة السيخ ويسمى "ساتنام". وبصفة عامة كنت أثناء السنوات القليلة الأولى لي هناك -باستثناء حادث السجق-سعيدا جدا. كنت ماهرا جدا في الرسم وكان هناك مسابقة فنية سنوية في المدرسة، وقد فزت بالجائزة الأولى لعدة سنوات متتالية. أتذكر بصفة خاصة لوحة رسمتها عندما كنت في الحادية عشرة من العمر، حيث نسختها من صورة فوتوغرافية لصبي على برميل وهو يكتب ماداً لسانه خارج فمه، وقد طُبعت لوحتي بألوان السيبيا البيضاء والسوداء للعرض في معرض المدرسة، وكنت فخورا للغاية بذلك. كنت أمثل في مسرحيات المدرسة بما فيها واحدة تدور حول اللاجئين في الحرب العالمية الثانية، بل وحتى كان لدي بشكل بريء جدا صديقة صغيرة اسمها سارة، أقصى ما قمنا به هو الإمساك بأيدي بعضنا وأعتقد أنني قّبلتها مرة على وجنتها. كنت أذهب إلى منزل والديها وكانت عائلتها دوما مضيافة بصورة لا تصدق. لاحقا، في أول أيامنا في المدرسة الثانوية، تركتُ سارة مبررا ذلك بأن "هناك الكثير جدا من الفتيات لأختار بينهنّ". كنت في الحادية عشرة من العمر، وبكت سارة، فأحسست بوخزات الشعور بالذنب واعتقدت بأن والديها الرائعين سيكرهاني، ولكنني تركتها على كل حال.

أصبحت "ظاهرا" أكثر من اللازم بالنسبة لبعض الأطفال، وقد يعود ذلك إلى أنني استطعت تكوين الكثير من الصداقات. كانت محاولات آمي لدمجنا في الثقافة البريطانية تبدو طبيعية للغاية حتى الآن، وكنت على سبيل المثال قد انضممت لأشبال الكشافة واستمتعت بذلك جدا. إلا أنه، وحين بلغت العاشرة أو الحادية عشرة تقريبا حدث تغير فجائي في تلك الأجواء في مدرسة إيرل هال الابتدائية. بدا، بين ليلة وضحاها، وكأنّ لون جلدي أصبح العلامة الفارقة الدالّة عليّ بالنسبة لأصدقائي الذين كانوا سابقا لا يرون إلا صبياً سعيداً وودوداً واجتماعياً. عندما يرى أي طفل العالم فهو لا يرى وجهه، بل يرى فقط كل شيء آخر حوله، وهكذا فعادة ما يكون من السهل للغاية بالنسبة للأطفال أن يتخيلوا أن الآخرين لا يرون وجههم كذلك. تكفلت حقبة الثمانينات بتغيير مفهومي عن ذلك للأبد، فقد تصاعد القلق حول متلازمة نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) في المخيلة العامة بحدة، وبالرغم من كل الأفلام الحكومية التعليمية حول المرض فقد أدى تزايد وتيرته إلى كافة أنواع الإشاعات والاتهامات في ساحة اللعب فيما يختص بأصله. وفي أحد الأيام، انقلب عليّ فتى ضخم الجثة

يسمى توني فجأة، وقد كان قبل ذلك صديقا جيدا لسنوات عدة. قال لي: "إن متلازمة نقص المناعة المكتسبة خطؤك أنت، أمثالك هم من تسببوا بهذا المرض."

في ذلك الوقت، كانت هناك قصص رائجة عن كيفية بدء المرض في أفريقيا، وليست القضية هنا أنني أفريقي، ولكني لم أكن أبيض اللون، وبالتالي -وفي حدود معرفة الفتى-فقد كان ذلك كافيا. شعرت لأول مرة منذ واقعة مسؤولة الطعام أن كل الأعين تحدّق بي، وشرع الأطفال في التهامس عني خلف ظهري وصاروا خائفين من لمسي.

استطرد الصبي: "إن جماعتكم تمارس الجنس مع القرود، وهذا هو سبب ظهور الإيدز"

كانت هذه الاتهامات ستبدو مضحكة لولا الغضب البادي في عينيه.

قلت: "هذا هراء."

رد ساخرا: "إنها حقيقة، لقد أخبرني أبي."

حاولت أن أتفاهم معه، فقد كان هذا الصبي صديقا لي وكنت ألعب معه بشكل طبيعي بالأمس فحسب، ولكنه رفض سماع أي كلمة من كل ذلك. "أخبرني أبي أنني ممنوع من الحديث معك بعد ذلك، اغرب عن وجهي الآن واذهب إلى الجحيم ولا تخاطبني مرة أخرى."

بعد ذلك بوقت قصير، كان لي صديق آخر يسمى باتريك يلعب كرة القدم مع أصدقائه وقت استراحة الطعام، فذهبت لمشاركتهم اللعب.

سألتهم: "هل أستطيع اللعب؟" ما كان يحدث عادةً هو أنك تدخل راغبا في الاشتراك في اللعب، فيشير لك أحد اللاعبين بالانضمام إلى الفريق الذي يحتاج لاعباً، ولكنّ الجميع تجاهلني في هذه المرّة، فذهبت إلى باتريك الذي كان أحد قادة الفريق لأسأله عما يجري. ودون سابق إنذار، استدار باتريك ولكمني بعنف في بطني أمام جميع الموجودين. تسببت الضربة المفاجئة في انقطاع أنفاسي تماما فانحنيت من فرط الألم المبرح وأنا غير قادر على التقاط أنفاسي، وأُصبت بالذعر التام لأنني لم أكن قادراً على سحب أنفاسي، حيثُ لم أجرّب مثل ذلك الشعور من قبل أبدا.

صرخ فيّ: "هذه اللعبة ليست للباكيز! لا تطلب اللعب مرة ثانية." ثمّ سار مبتعدا عائدا لفريقه، وتركني مشتت الذهن وأنا أشهق طلبا للهواء، فيما أتكيء على السياج مستندا عليه كي لا أسقط على الأرض.

حالما استطعت التقاط أنفاسي مرة أخرى، رفعت رأسي ورأيت أنني بالفعل أقف هنا وحدي، بينما كان جميع أصدقائي يلعبون كرة القدم. كان شعور الوحدة التامة ذاك، وليس الألم، هو ما جعل الدموع تملأُ

عينيّ. وفي تلك اللحظة، وفي ذلك المكان تحديدا –وبينما أصارع بكل إرادتي الدموع كي لا تسقط على وجهي-عزمت صادقا على أنني حين أكبر لن أقف وحيدا مرة أخرى أبدا.

تسبّب هذا الحادث في تدمير براءة طفولتي أكثر من أي شيء آخر، وأثناء وقوفي في ساحة اللعب بدموعي المنسابة سراً على وجنتيّ قمتُ باتخاذ قرار ينصُّ على أنّ العالمَ مثل سباق الحواجز، يجب علينا تجاوز العقبات فيه والوصول إلى القمة. يشعر أي طفل ينمو في المملكة المتحدة بسطوة وجاذبية ثقافة كرة القدم، ويتم عادة الحكم على أي طفل في ساحة اللعب طبقا لمهارته في اللعب، ويتم بسرعة تحديد نظام اجتماعي تراتبي بناءً على اللعبة. لم أشارك أبدا في كرة القدم بعد تلك الواقعة، فلم يسمح لي الأطفال في المدرسة الابتدائية بذلك.وبحلول الوقت الذي وصلت فيه للمدرسة الثانوية كنت محرجا من ضعفي في اللعب، وكان الرفض يرن في أذني ولم أحاول حتى أن أشارك. كان عليّ أن أكدح بشكل مضاعف لتجاوز عقبات السباق بدون ميزة لعب كرة القدم.

كان رد والديّ هو أن أدير الخدّ الآخر. ثمّة شعور كان سائداً عند الأجيال السابقة مفاده أنْ لا حق لهم في رد الصاع صاعين لأنهم كانوا ضيوفا، لقد كانوا مهاجرين. كانوا يقولون لي: "وماذا في الأمر إن نادوك بلقب باكي؟ لا تزد عن أنك باكي وأنك لفخور بذلك وغادرهم." كانت تلك بطبيعة الحال نصيحة مربكة لطفل، حيث يملك الأطفال في ذلك العمر حساً قوياً بما هو صحيح وما هو خطأ. في هذه الحالة، كان هناك ظلم فاضح، ولكن قيل لي أن أتقبله. هل كان متوقعا مني -بالرغم من الألقاب والاتهامات غير المقبولة-أن أتقبل سوء المعاملة وأنسحب؟

كانت الحقيقة المتمثلة في أن لون جلدي لم يكن قضية ذات شأن ولم يمثل مشكلة في السنوات المبكرة في المدرسة، تشي بكل ما يمكن قوله حول أصول العنصرية: إنها قضية ثقافية ومجتمعية وعائلية يتشبع بها الأطفال مع تزايد وعيهم بالعالم. من ناحية أخرى وفي حين كان جيلي في البداية يتبع ذات الموقف الذي تبناه والداي، فقد كان هناك فارق ملحوظ للغاية بين هؤلاء الذين شبوا عن الطوق في أواخر الثمانينات وبين من سبقهم. كان ذلك الفارق يتمثل في مستوى العنف الذي واجهناه، والعنف يولّد العنف.

كان الذي تغير خاصة في أماكن مثل ساوث إند هو تصاعد ثقافة حليقي الرؤوس وإحياؤها. لطالما كانت ساوث إند منتجعا شاطئياً مرتبطا بمصادمات عطلات البنك بين الموذ والروكرز*، وكان القتال بين عصابات حليقي الرؤوس والموذ معا ضد رجال تيدي والروكرز شيئا معتادا، كما كانت بالمثل المشاهد الجاذبة للأنظار للدراجات البخارية والسكوترات التي يستقلونها جميعا. بزغت ثقافة حليقي الرؤوس كفصيل من الهارد موذ. وجدير بالذكر إن المكان كان أصلا متقاطع الثقافات إلى حد كبير، حيث كان هناك فترة ما

* ألموذ والروكرز: فئتان إجتماعيتان متنازعتان من الشباب البريطاني لعهد بداية ومنتصف الستينات وحتى بداية السبعينات -المحرر

تواجد فيها حب لموسيقي ريجي واهتمامٌ بثقافة غرب الهند، ولكن وبعد الانفصال عن الكتلة الأم تبنى بعض حليقي الرؤوس خطاً إقصائياً يقتصر على البيض وموغلاً في العنصرية معا. بحلول منتصف الثمانينات، كان حليقو الرؤوس أصحاب خط العنف العنصري هم المنتصرون، ودانت لهم السيطرة على أندية كرة القدم. تم تصوير تطور ونمو هذه الحركة بشكل جيد للغاية في فيلم شاين ميدوز (Shean meadows) "هذه هي إنجلترا" والذي كان يتعين أن يمثل إنذارا لبريطانيا فيما يختص بالتوجه المستجد السائد لليمينية المرتكزة على كرة القدم وهي رابطة الدفاع الإنجليزية.

حدث الانفصال في حركة حليقي الرؤوس جنبا إلى جنب مع تصاعد الجبهة الوطنية، وكان هذا حزبا سياسيا يمثل أقصى اليمين ويدعو لسياسة عنصرية تدعو للترحيل من طرف خفي، وكان يتنامي حاصدا جماهيرية واسعة بذات الطريقة التي كان سيتفوق بها حزب أقصى اليمين "الحزب الوطني البريطاني "عليه بعد عقدين من الزمان. كانت تلك أوقاتا سيئة؛ في تلك الأيام كنا إذا رأينا علم بريطانيا "اليونيون جاك" أو العلم الإنجليزي معلقا في نافذة نتخوف من المالك بوصفه عضواً في الحزب الوطني البريطاني أو الجبهة الوطنية. قد يبدو هذا مضحكا الآن، ولكنّ أقصى اليمين كان قد خطف مدلول حيازة تلك الأعلام بشكل حصري تقريبا. بحلول أوائل 1992، انفصل شارلي سارجنت (Charlie sergent) -الذي وجد مدانا فيما بعد بتهمة القتل-عن الحزب الوطني البريطاني، وقام بتأسيس منظمة شبه عسكرية شديدة العنف وتمثل النازية الجديدة تسمي كومبات 18أو سي 18، واسمها مستقى من حقيقة أنّ أول أحرف اسم هتلر هي الحروف الأول والثامن من الأبجدية الإنجليزية. كانت هذه واحدة من عدة مجموعات مرتبطة -بشكل معقد ولا يمكن تفكيكه عنها-مع تصاعد وتيرة البلطجة الكروية (الهوليجانز) خلال تلك الفترة، والتي سوف تدعم إنجلترا بشكل صاخب وعنيف، إذ كانوا يعدلون النتائج في مباريات إنجلترا من خلال شطب أي هدف يحرزه لاعب أسود لصالح إنجلترا. وكانوا يضمون في صفوفهم مجندين حاليين ولهم تحالفات مع منظمات شبه عسكرية من الموالين في شمال إيرلندا. كانت سي 18 تعد جماعة مسلحة وخطرة.

مثّلت ساوث إند نتيجة لتاريخها مع المودز والروكرز مكانا يتمتع فيه جنود دوك مارتن ذوو الأحذية طويلة الرقبة بنفوذ مذكور يسمح لهم إلى حد ما بالتجول بحرية، وكانت ستراتهم الخضراء المنتفخة تمثّل شارتهم الواضحة للعيان، التي مثّلت زياً رسمياً للكراهية. وبالفعل، بدت الكراهية صاعدة بقوة آنذاك.

تحورت العنصرية العرضية الماثلة في سنوات مدرستي الابتدائية فجأة إلى شيء أكثر حدة وشؤما. كانت سي 18 –حسبما سأعرف بنفسي بشكل مؤلم لاحقا– قد كونت خلايا نشطة في ساوث إند، ولم يكن من المفاجئ والحال هكذا إذن، أنّ هؤلاء الأطفال بدؤوا في الإيمان بأنّ كرة القدم "ليست لعبة للباكيز". لم يكن الحل الوسط الذي أتيح للأجيال السابقة متاحا لنا: لم يعد خيار إدارة الوجنة الأخرى مطروحا، بل إنّ الخيارات

المتاحة تنحصر في إما الانسحاب إلى داخل مجتمعنا والبقاء بعيدا عن الشوارع، والإقعاء بعيدا عن الأنظار، وإما مواجهة هؤلاء البلطجية بكرامة وشرف.

الفصل الثالث

الطبيب الذي قال: "سُحقاً للشرطة"

من بين كلّ الناس، كان خالي "نصير"، شقيق "آبي"، هو من أدخلني عالمَ الهيب هوب، وقد كان يعمل طبيبا عاما في نيوكاسل في أوائل التسعينات، وكان قد انتهي به الأمر -عن طريق أحد أقاربنا غير المباشرين-بأن تزوج من ابنة عمي فرح، ابنة تاي آمي، المرأة التي كانت تقصّ علينا حكايات ما قبل النوم المذهلة. إنه خالي المفضّل، وهو رجل لطيفُ المعشر وشديدُ الذكاء ونافذ البصيرة، وقد تسبب زواجه من فرح، وهي بمقامِ أختي، بخصوصية في علاقتنا مع عائلتهم على نحو مختلف عن باقي الأقارب، كما جعل ذلك من أبنائهما رحيم وعالية وحبيبة أولاد عمومتي الأقرب لي.

يمثّل نصير في عاداته السلوكية وملبسه ومساره المهني ولغته الناتجة عن دراسته في مدرسة القواعد الإنجليزية النقيض التام لثقافة الشارع التي انتهجتها أنا في آخر المطاف، ولكنّ أكثر ما يميزه ويجعله مبهرا كان تعاطفه مع الأشخاص الأقل حظا. أتذكر كيف كان دائما يخرج ليتجول في المناطق الأكثر قسوة ضمن المساكن الحكومية ويتحدث مع فتية شارع جيوردي المحليين الذين كان شغلهم الشاغل في أي وقت عدا ذلك هو سرقة السيارات وافتعال المعارك. سألته ذات مرة لمَ كان يقوم بذلك؟ فأجابني: "إن عيادتي تقع في هذا المكان، ومعظم مرضاي من هذه المساكن، فإن لم أتحدث أنا معهم، فمن سوف يفعل ذلك؟"

أحببته أكثر من ذي قبل من أجل ذلك تحديدا، كما شعر صبية الشوارع هؤلاء بالحب نحوه، وهم الذين كانوا خطيرين إلى حد كبير في غير ذلك الموقف. لم يحدث أبدا أن تعرضت سيارته للسرقة، وقد علمني ذلك درسا قيّما.

ذهبنا في صيف 1989 إلى نيوكاسل في زيارة، وقرر "نصير" أن يسمعني أنا وعثمان نوعا من الموسيقى التي لم يتح لنا سماعها من قبل أبدا. قام، بلمحة خبث في عينيه، بتشغيل أغنية تدعى "سحقا للشرطة" تغنيها "نيجارز ويذ اتيتيود" (Niggaz Wit Attitudes)، ورفع الصوت عاليا. في 1988، صدر لنيجارز ويذ اتيتيود أول ألبوم غنائي لهم بعنوان "الخروج من كومبتون" (Straight Outta Compton)، وهو الشريط الذي بنى عليه كل من آيس كيوب (Ice Cube) و د. دري (Dr. Dre) وإيزي إي (Eazy-e)

ودي جي يلا (DJ Yella) وأم سي رين (MC Ren) قواعد وأسس ما سوف يعرف فيما بعد بـ"راب العصابات أو جانجستا راب". وقد ساعد د. نصير، من خلال تعريفنا بشريط الراب الوحيد هذا -وغالبا بلا إدراك منه لما حرره للتو-أولاد أخيه الاثنين على إيجاد صوتهما الخاص.

إن "سحقا للشرطة" هي بيان بقدر ما هي أغنية، إنها تهين الشرطة وتكيل لها الصاع صاعين في مقابل استهداف المجتمعات السوداء ومعاملتها كأنها حثالة، والافتراض الكسول بأن أي واحد منهم يملك سيارة أو بعض المال لابد أن يكون تاجر مخدرات. تصفعهم الأغنية لتحاملهم وعنفهم، وتمنحنا نيجارز ويذ أتيتيود الوعد بأن توزع انتقامها في شكل خيالاتها حول "دحر" شرطي أو اثنين. يتم توصيل كل ذلك من خلال متحكمي الميكروفون (MCs) المختلفين الذين يغنون بعدائية وحماس متقد يأخذ بتلابيب المستمع، مع صوت طبول مدوية يستحيل تجاهلها إذ إنها صادرة عن الغضب الخام المعتمل في النفوس والآتي من أحد أقسى جيتوهات لوس آنجلس، كومبتون. اسمعوها؛إنها درس في التاريخ.

بمنتهي البساطة، استحوذت الأغنية عليّ تماما وأطاحت بحواسي، لم أعد الشخص ذاته بعدها أبدا. كان ما جذبني وارتحت له فورا هو الموقف والثقة، لم يكن ذاك صوت شخص يدير الوجنة الأخرى، بل كان صوت مجتمع يتلّمس ويجد صوته ويستخدمه ليقول إنه ببساطة لن يستسلم أو يتقبل الضيم. كانت تقول إنكم تعاملوننا بمثل تلك الطريقة وسوف نعيد لكم الصاع صاعين.

كان خالي من ذات جيل أمي الذي شب عن الطوق وهو يستسلم ويتنازل عند بزوغ أي مواجهة. كان حب هذا الطبيب لنيجارز ويذ أتيتيود وحقيقة أنه يشارك أغانيها معي تشي بما قد يملأ مجلدات: لابد أنها مثّلت له تنفيسا عن جميع إحباطاته وهو يكبر. كان قادرا على رفع الصوت أثناء تشغيل أغنية "سحقا للشرطة"، ولازال حتى الآن، بالرغم من كونه طبيبًا عاما يحظى بالاحترام من الجميع، يجد حافزا وقوة في موقفهم. فيما يخصني أنا، فقد كان لموقف نيجارز ويذ أتيتيود دلالات أكثر عملية. على عكس خالي، الذي أبعدته وظيفته عن الحاجة إلى اتخاذ مثل تلك المواقف، فقد كانت سنوات مراهقتي أمامي. كانت التجارب العنصرية التي مررت بها في المدرسة الابتدائية قد شوّهتني، وكانت فكرة الاضطرار إلى تقبل سنوات أخرى منها فكرة مخيفة. أدركت، فيما كنت أستمع إلى نيجارز ويذ اتيتيود، أنني لست مضطرا لذلك. كان هناك آخرون يقاومون، وفي وسعي المقاومة كذلك.

حبّبتني حقيقة أن كلمات الراب تستفز الجميع سلبيا بمثل تلك الفرق أكثر وأكثر، وكان استهجان الناس للشتم يساعد الفرقة على الشعور بأنها مستساغة. أتذكر الاستماع إلى "سحقا للشرطة" في السيارة على مشغل الإسطوانات وكيف كان والداي مصدومين منها بشكل تام. سأل أبي: "ما هذا بحق الشيطان؟" حاول أبي التركيز على الطريق فيما "إيزي إي" يغني الراب حول "ساقطاته" اللاتي توفرن له خدمات جنسية. عادة

يرجع سبب رواج الموسيقي المستجدة تحديدا إلى حقيقة أن الجيل السابق يجدها صادمة، وكان هذا الحال هنا بكل تأكيد.

كانت هذه موسيقانا التي لا يفهمها الآخرون، ولكن في هذه اللقطة، وفّرتُ على أبي المزيد من الإحراج وشغلت الراديو بدلا عنها.

ما كان يصل لآذان معظم الناس عند سماعهم للراب كان مقتصرا على ركام من الصراخ والسباب: كانوا يعتقدون أن الموسيقى تنال إعجاب الشباب نتيجة لقيمتها الصادمة، ولكنّ ذلك كان خطأ تماما، كان هؤلاء الرابرز (مغنو الراب) أذكياء، ذوي حصافة شوارعية و مفوّهين؛ لخصت ألحانهم تجربة أن تكون يافعا وذكرا وأسود اللون بطريقة لم تكن -بكل بساطة-موجودة في أي إعلام آخر. وكان ذلك في الزمن الذي كانت فيه قشور الموز لازالت تلقى في وجوه اللاعبين السود أثناء مباريات كرة القدم، الزمن الذي كان فيه نيلسون مانديلا سجينا، وحيث تسببت حادثة ضرب رودني كينج (Rodney King) على يد ضباط قسم شرطة لوس آنجلس في أمواج من الصدمة حول العالم بأسره، كانت كافة مشاعر التهميش والحرمان من الحقوق وفكرة أنك لا تستطيع الاعتماد على الدولة للحصول على المساعدة أمراً واقعياً للغاية.

أحببت نيجارز ويذ اتيتيود من أجل أسلوبهم الذهني وموقفهم والطريقة التي رفعوا بها إصبعين في إهانة للمجتمع. عندما بدأ "آيس كيوب" في الغناء المنفرد وأصدر ألبوم "الأكثر طلباً للشرطة في أمريك ك كا" (AmeriKKKa's Most Wanted) أحببت ذلك أيضا. كان هناك سياسة في متن الأغنية -مع ذكر الكو كلوكس كلان* في العنوان- يبدأ الألبوم برجل أسود محكوم عليه بالإعدام صعقا بالكهرباء، يتم سؤاله قبل التنفيذ إن كان لديه أي كلمات أخيرة فيجيب: "نعم، لدي بعض الكلمات الأخيرة.. سحقا لكم جميعا!"

يدخل عند تلك اللحظة الإيقاع مغطيا على صوت صعقة الكهرباء، إنه كلام قوي متمرد. جذب اهتمامي ما قد نسميه المدرسة القديمة للهيب هوب، غراندماستر فلاش (Grandmaster Flash) رن. دي إم سي (Run D.M.C) وإريك بي وراكيم (Eric B. & Rakim) وعلى الرغم من وجود ألحان عظيمة، مثل "ذا ماسيج" و نجوم كبار مثل عصابة شوجر هيل (The Sugarhill Gang)، فقد بدا الكثير منها رخيصا ورديئا في إنتاجه مقارنة بالإنتاج الأحدث مثل آيس كيوب. كانت موسيقاه ذات صوت أكبر وأكثر امتلاء مع إيقاعات أفضل وأكثر صخبا وخطوط "باس" أكثر عرضا تتفجر مدوية من سماعاتك الستريو بشكل لا يشبه شيئا آخر على وجه البسيطة.

الشيء العجيب، حتى ذلك الصيف، تمثّل في كوني أنا وعثمان كنا في تشاحن متواصل-مثل غالبية الأشقاء الصغار-حول أي شيء تقريبا. لم يكن يفصل بيننا سوى عام ونصف، وبينما كان هو بلا شك الأضخم

* عصابة مكونة من البيض كانت تمارس كل أنواع العنف ضد الملونين في أمريكا -المحرر

بيننا فقد كنت أحب أن أعتقد أنني الأكثر ذكاءً. أدت هذه الدينامية أو التفاعل إلى علاقة أحاول فيها استخدام ذكائي ضد قوته. كثيرا ما أدى ذلك إلى مصادمات وتدخل من والديّ، ولكن حين أدخل "نصير" كلينا في عالم الراب وجدنا قضية مشتركة وهدفا مشتركا. بدا الأمر كأنما صرنا فجأة في ذات الركن من الحلبة في مواجهة البقية كلهم. توقفت مشاحناتنا وبدأنا مشاركة الموسيقى والخروج إلى ذات الحفلات ومشاركة الأصدقاء. انتقلنا من عدم القدرة على تحمّل صحبة بعضنا البعض أكثر من اللازم إلى بزوغ شعور بأننا فريق له قضية مشتركة، وكانت قضيتنا هي الثورة على الوضع القائم.

كان خالي هو من عرّفني على نيجارز ويذ أتيتيود، ولكنّ عثمان هو أول من قام بتعريفي على بابليك إنيمي. كانت "أغنية ثائر بلا توقّف" هي أول ما سمعت من أغانيهم، ولازالت معي حتى الآن. لدينا هنا فرقة تملك ما يتعدى الموقف الذهني، إلى نفاذ البصيرة السياسي المصاحب له كذلك. كان هناك دوما فلسفة نابعة من فكر متمعن تكمن في كلمات شاك دي وبروفيسور جريف (Chuck D and Professor Griff) وهي فرقة تقتبس عينات من تراث مالكوم إكس وتعيد رسالة الوطنيين السود إلى غرف معيشة المراهقين. كان لدى بروفيسور جريف فريق الأمن الخاص به، "منقذو العالم الأول" واهتمام بفصيل "أمة الإسلام" (Nation of Islam). كانوا لا يعرفون الخوف.

لم يعجبني ألبوم بابليك انيمي الأول "يو! بوم راش ذا شاو" (Yo! Bum Rush the Show) إلى ذلك الحد لأن الإيقاع لم يكن على نفس المستوى من الجودة؛ وبعد ذلك بكثير، وحين بدؤوا في إضافة تأثيرات الهيفي ميتال لم يرضني ذلك أيضا. لكن فيما بين هذا وذاك، وكلما كنت استمع للتسجيلات، بدأت الكلمات والتأثيرات تتسرب إليّ. لم أكن بالفعل قد سمعت عن أشخاص مثل مالكوم إكس قبل ذلك، أما الآن فقد نما لديّ شوق حقيقي لاكتشاف كل ما يمكنني عنه.

كانت حقيقة أن بروفيسور جريف مؤيد للإسلام ذات قيمة هنا كذلك. لم يكن الأمر مهما وأنا في طور النمو حين كنت أعتبر نفسي بلا دين وبالتالي فلم أكن أبدا شخصا متدينا. كانت المرات القليلة التي ذهبت فيها للمسجد كارثية، لم يكن الإمام يتحدث الإنجليزية إطلاقا وكان يقوم بتوصيل مضمون ما يقوله عن طريق استخدام عصا. أخبرت والديّ أنني لن أعود إلى هناك لأنه اعتاد أن يضرب الأطفال وكانت تلك خاتمة كل ذلك، لم يرغماني على الذهاب مرة أخرى.

كان أثر وأهمية بروفيسور جريف أنه جعل شيئا كنت أعتبره فيما سبق نزعة قديمة يكتسب لدي حياة وأهمية. لم يقتصر الأمر عليه فحسب: في 1993، استخدمت فرقة براند نوبيان (Brand Nubian) النداء الإسلامي للصلاة "الله أكبر" كدعاية لإحدى أغنيات ألبومهم الثاني: "نضع ثقتنا في الله". أحببته بلا حدود. لم يكن لدي وقتها علم أن معظم الرابرز الوطنيين السود هؤلاء ينتمون إلى فصائل إسلامية عنصرية ترتكز في

الولايات المتحدة مثل أمة الإسلام وأصحاب الخمسة في المئة. ما كان يعنيني، هو أن مثل ذلك الدعم والتصديق من الرابرز اليافعين المتمتعين بذكاء الشوارع ذاك جعلني أعيد التفكير في هويتي. لم تعد العقيدة التي ورثتها دينا قرويا متخلفا يجب الخجل منه أو الاعتذار عنه بعد ذلك. تم إعادة تسويقه كنوع من المقاومة وهوية للتمرد الداعم للذات. كان ما يجري على خلفية مثل تلك المبادرات هو أن معدل تحول السود للديانة الإسلامية صار يتعدى جميع التوقعات. في نهاية المطاف قام حتى أعضاء فرقة الهيب هوب البريطانية الناشئة كاش كرو بالتحول للإسلام، وصار، على نحو مفاجئ، من المقبول والسائغ أن تكون مسلما.

قمت، في سبتمبر ذاك في 1989، بتسجيل نفسي في مدرسة سيسيل جونز الثانوية، تحديدا في الوقت عينه الذي بدأ فيه الهيب هوب في الانتشار. لو اعتبرنا الراب هو الشكل، فقد كان الهيب هوب هو الثقافة. كان التدخل المحدود للدكتور "نصير" عن طريق تعريفنا بأغنية "سحقا للشرطة" قد جاء بالضبط في وقته. تركت المدرسة الابتدائية عاقدا العزم على عدم السماح لأي كان بمضايقتي مرة أخرى. قمت هنا، في سيسيل جونز، بتغيير طراز ملابسي وأصبحت أرتدي زيا فضفاضا مع سترتي المربوطة حول وسطي، وغيرت شعري قاصا إياه إلى درجة واحد على الأجناب وتاركا أعلاه ينمو، وكذلك ثقبت أذني اليسرى، لأنّ قواعد ايسكس كانت حينئذ تنص على أن الأذن اليمنى المثقوبة خاصة "بالمثليين".

أتذكر في أول أيام المدرسة وأنا في الحادية عشرة من عمري أنني، وأنا أعي تماما ما أفعله، قدمت نفسي للناس بوصفي شخصا لا يجدر بك العبث معه. في الواقع، جرفني هذا الإطار لدرجة أن أحدهم حاول بالفعل اختبار جدية ما أدعيه، وكدت أتعرض للضرب مرة أخرى. يتحكم نظام شديد البدائية بالأدوار والتصنيفات المتعلّقة باللعب في ساحات المدارس، يتم بموجبه معرفة "الأقوى" ضمن الأولاد و يتم تأسيس سريع ولكن صارم لنظام الأفضلية بينما يتصارع الأطفال لنيل مواقعهم في أول أيام الفصل الدراسي. أدركت باكرا أن مجرد استعراض نفسي بالكلمات فقط لن يفي بالغرض وأنني كنت في حاجة إلى الأصدقاء الصحيحين أي الطاقم الصحيح، وهكذا بدأت في البحث عنهم بلا هوادة.

كانت حقيقة أني أحد أوائل الأطفال في دفعتي دخولا إلى عالم الهيب هوب شيئا جعل من مهمتي في تكوين طاقم أو شلة عملية أسهل مما كنت أتوقع. كان الصبية البيض يصطفون للحديث معي، ليس فقط حول موسيقى الراب، ولكن حول كل مشهد الهيب هوب بأكمله، ومثّل الهيب هوب تعويضا، بل ما هو أكبر من ذلك، عن غيابي عن ملاعب كرة القدم. وأصبح لون جلدي، فجأة، شيئا يود الصبية الارتباط به، وسرعان ما صار آرون ومارتين، وهما على التوالي أقوى صبيين في سنتنا الدراسية، أقرب أصدقائي، وكان مقدرا لي أن أكون مصمم الصرعات (الموضة) الخاص بهما ومن يعلمهما طرق الـ"بي بويز" أو كيف يكونان شخصين يعيشان طراز حياة الهيب هوب.

تسبب ما سبق في نشوء رابطة فورية مع كل الصبية المشهورين في الدفعات السابقة أيضا. لم يكن هناك أي صبية سود في سنتي الدراسية ولم يتعدَّ الأمر اثنين باكستانيين أحدهما هو ابن عمي فيصل. خلافا لذلك، فقد تواجد في الدفعة السابقة صبي يسمى مايكل وكنا نطلق عليه اسم مو، وهو كيني بريطاني وله مجموعة من الأصحاب في دفعته، بما فيهم شقيق فيصل الأكبر ياسر. وتواجد في الدفعة الأسبق لتلك صبي يسمى مارك، وكان من غرب الهند وحائزا على ذات الاحترام وكان صديق عثمان. في تلك الأيام المبكرة، كنا مجتمعا صغير الحجم، وكان الهيب هوب أسلوب حياتنا. كان لنا طرازنا وأسلوبنا الخاص في الملابس، وكنا نتحدث بذات اللغة الدارجة، وقصصنا شعرنا لأقصر درجة على الجوانب وفي بعض الأحيان نقشنا أشكالا فيه، ومن ثم تركناه طويلا من الأعلى. كنا مؤمنين بأننا قد اكتشفنا معنى "سائغا ومقبولا" حيث فشل الآخرون كلّهم، ومثلت الموسيقي رابطا جمعنا سويا بسرعة شديدة.

ذاع في كل مكان أننا متواصلون مع المشهد الجاري في لندن، وفي حال عبثت معنا فقد نجري بعض المكالمات ونحضر صبية البي ذوي الثقل والمكانة من المدينة الكبيرة. كنا نرى فوائد هذا النوع من الضجة، ولكن حينها كانت القضية التي تشغلنا هي البقاء. كانت ما تعنيه تلك العلاقات مع لندن وأنني على معرفة بالصبية النافذين الأكبر مني بدفعتين وامتلاكي لطاقمي الخاص، أنه في سيسل جونز، لا يجرؤ أحد على المساس بي مرة أخرى. ذهب إلى غير رجعة ذلك الصبي الذي بكى وحيدا في ساحة اللعب في المدرسة لأنه كان ممنوعا من لعب كرة القدم.

بدا ذلك مماثلا تقريبا لامتلاك حراس شخصيين، حيث كان آرون ومارتين يقتديان بي من أجل معرفتي بمشهد الهيب هوب وملبسه وطرزه وأصواته، وبالتالي ازداد ولاؤهم لي، خاصة من طرف الأضخم بينهم، مارتن، الذي كنا نسميه ساف.

كان ساف يقف مستعدا للذود عني لو حدث وتجرأ أحدهم علي توجيه كلمة وقحة لي، لم أنس أبدا - رغم ذلك-كيف كان شعور أن تكون الضحية، والذي دفعني في العديد من المناسبات إلى منع أعز أصحابي من القسوة على الأطفال الآخرين أكثر من اللازم، ولكن، كذلك لم أكن أتدخل في كل الأوقات. في بعض الأحيان، شعرت في عقلي ذي الأثني عشر ربيعا أن الأطفال "يستحقون ما حدث لهم"، مثلما يحدث إذا تفوهوا بشيء عنصري. في مثل تلك الأحوال، لم أكن أتدخل معتقدا أن حسّ العدالة الخاص بي في ساحة اللعب يبرر مثل ذلك السلوك.

لقد أصبحت قريبا جدا من ساف بشكل خاص. كان يعيش مقابل المدرسة مباشرة مع جدته، وكنت كثيرا ما أقضي الليل في منزله. كنت أنا وهو نقضي الوقت في الاسترخاء وحسب، ونحن نستمع إلى الهيب هوب الهادئ في غرفته حتى ساعات الصباح الأولى. في الواقع، حدث أثناء وجودي لدي ساف في إحدى

الليالي، عندما كنت في الرابعة عشرة، أن تلقيت أكثر الأخبار عجبا. كان أبي قد اتصل، وطلبت مني جدة ساف أن أنزل للأسفل كي أجيب على الهاتف. نزلت وأنا قلق نوعا ما نتيجة لحيرتي بخصوص السبب الذي قد يدعو أبي للاتصال بي في مثل هذا الوقت المبكر.

"مبروك، بيتا، لقد حظيت بأخت صغري!!"

ركضت وأنا أصرخ من الفرح إلى خارج المنزل، وانضم لي ساف المخلص فى الحافلة، وركبنا معا حتى مستشفى ساوث إند العامة لنقابل ثريا الثانية، وهي كوكبة من النجوم، وحزمة من البهجة الصافية.

لم أكن أبدا واحدا ممن يقبلون بأنصاف الحلول، وحالما دخلت عالم الهيب هوب دخلت بكل ثقلي: ليس فيما يختص بالموسيقى فقط بل كذلك بالمظهر والملابس وكل شيء. كنت أرتدي ما نسميه بذلات "كليك" أو "المتطرفة": وذلك تبعا لتسمية العلامات التجارية. وتمثّل ذلك في زوجين من السترات والسراويل المتطابقة، عليك أن تكون السراويل فضفاضة بقدر ما يسمح خيالك: كانت تقريبا على منوال سراويل علاء الدين والجني، وكنا نقوم بعمل ثنيات فيها من الأسفل نسميها "ثنية الدبوس". كانت السترة فضفاضة كذلك، كاملة بالقلنسوة الخاصة بها.كانت الأحذية من ماركة أديداس، ضخمة وعريضة لكي تطابق كل ما سبق ذكره. كان ارتداء العلامات التجارية الصحيحة يمثل كل شيء، وكنا نشد الرحال للندن لكي نشتري تلك العدة من متاجر متخصصة في بريكستون وكامدن.

كنت قد فزت بجوائز في الرسم في المدرسة الابتدائية، وأنا الآن استغل موهبتي في كتابة الجرافيتي، واخترت "سلامر" كنيةً لي. كنت أتجول مع أصدقائي حول المنطقة ونحن "نضع الوسوم" و "نفجر". كان وضع الوسوم يعني أنك تكتب اسمك، في حين كان التفجير -في تلك السنين الغابرة-يعني أن تملأ حائطا بالكامل بوسوماتك. كنت أستخدم أقلام "بولكا"، وهي أقلام الكتابة غير القابلة للمحو الكبيرة ذات الرأس الأكثر عرضا من إبهامك. كان عليك أن تهز الماركر لكي تحافظ على فاعلية الحبر، ووقتما أتيحت لنا الفرصة، كنا نستخدم تلك الأقلام ونضع الوسوم على أي حائط. كنت أكتب -بجوار وسومي-كلمات وتعليقات مثل "كافحوا السلطة"، وأشياء من هذا القبيل. كما كنت أرسم "البود" التي تتكوّن هذه من أشكال لشخصيات صغيرة غريبة الشكل وشبيهة بالبط تقف بجانب رسمك. كنت كذلك أرسم "القطع"، وهي أساسا رسومات جرافيتي بالقلم الرصاص على قطع من الورق، تستخدمها بعد ذلك كنموذج يتم فيه رسم صورة رش أكبر، ولكني، في الواقع، لم أتعمق في الجانب الخاص برسومات الرش ولم أحاول أن اقوم بها سوى مرة أو مرتين.

كانت هناك منطقة في ساوث إند تسمى "الباحة" وقد تركتها الشرطة خصيصا للجرافيتي، وهي منطقة مهجورة متروكة بلا تدخل منهم، على أمل أن يجعلنا السماح بالوسم في هذا المكان نبتعد عن الوسم في أي مكان آخر. كان الكثير من الصبية يقفون هناك ليتناولوا المخدرات، وكان ذلك هو المكان الذي ذهبت إليه

في البداية. لم يطل الوقت بي حتى تخرجت منها إلى الشوارع، لأن ذلك هو المكان الذي كنتَ ترغب في أن يتم عرض عملك فيه. دائما ما احتفظت بقلمي معي، وإن حدث ورأيت حائطا يعجبني، والمكان آمن، فإنني كنت أضع عليه وسما على الفور. خلافا لذلك، فقد كنا، حين نذهب لقصف الحيطان بالجرافيتي نخطط للأمر أكثر قليلا من ذلك: كانت مجموعة مننا تستهدف مكانا ما وتقوم بالقصف في كل المنطقة في غارة محددة التوقيت والأهداف. كانت لعبة القط والفأر التي نلعبها مع الشرطة برمتها، تضيف إلى الإثارة التي أحصل عليها من القيام بذلك ولا تنقص منها شيئا، وقد طوردت من الشرطة في العديد من المرات ولكني كنت دوما أفر من بين أيديهم. كنت ذكيا بما يكفي لئلا يتم القبض عليّ أبدا، وذكيا بما يكفي لئلا أتعمق في الجانب المتعلق بالرسم بالرش. كانت تلك عملية أكبر كثيرا: أن ترسم بالرش على حائط مرتفع في الشارع يستلزم تغطية خمسة أضعاف المساحة، ولكي تفعل ذلك وتفعله بشكل صحيح، فقد يقتضي الأمر أن تستمر في المكان لمدة ساعة أو أكثر، وبالتالي ففرص أن يتم القبض عليك كانت أكثر بنسبة كبيرة، وإذا ما تم القبض عليك فعلا، فسوف يتهمونك بكل ما في القانون من قوة.

إن الجرافيتي ثقافة يسارع الجميع لنقدك إذا كنت سيئا فيها. كانت علامة احترام ما يصنعه فنان الجرافيتي هي طول فترة بقاء "قطعتك" أو وسمك على حائط ما. لن يقوم الفنانون الآخرون -بدافع من الاحترام الخالص-بالرسم فوق شيء يعتبرونه جيدا، وعلى كل من يرسم على قطعة جيدة بالفعل أن يتجهز لصرعه أرضا. على الجانب الآخر، إذا كان عملك غير جيد، أو إذا تم اعتبارك هاويا، فسرعان ما سوف تجد كلمة "سيء" مكتوبة فوق عملك، ومن ثم يترك صاحب التعليق وسمه الخاص على الجانب فيما يعد تحديا مباشرا لك، وكانت الطريقة الوحيدة لرد الاعتبار لنفسك هي أن تكون جيدا.

أكرر مرة أخرى، كان كل هذا يعد، في زمن ما قبل انتشار ثقافة الهيب هوب والتقدير الذي ناله فنانون مثل بانكسي، من الأعمال التقليدية في إطار الثقافة المضادة. لم يكن أحد يعرف، باستثنائي أنا وأصحابي، من يكون "سلامر"، ولكن، وعلى الرغم من ذلك، كان هذا الرجل واسمه المنقوش في كل أنحاء ساوث إند معروفا وموجودا. كان ذاك يمثل إصبعين مرفوعين في وجه الشرطة والقانون والنظام: كنا نتحدى سلطاتهم، ولم يكن بيدهم ما يفعلونه حيال ذلك. منحنا ذلك اليد العليا والمصداقية بين هؤلاء الذي يعرفون خبايا الأمور وشعرنا أننا نملك طريقة نرد بها الصاع صاعين.

دخلت كذلك -بجانب الجرافيتي-إلى عالم الرقص على أنغام الأغاني والراب الارتجالي أمام الجمهو، والمسمى بإدارة الموسيقى "MC" في النوادي الليلية. في ذلك الحين، كان الهيب هوب الإنجليزي في أيامه الأولى، وكانت فقرات مثل لندن بوس وسيلفا بوليت وجن شوت وبلايد وهايجاك وهارد نويز في طريقها لوضع قواعد لنجوم الصف الأول في الراب الإنجليزي، مع تواجد الكثير من الطرز الفرعية التي خرجت من

هذا المشهد مثل جرايم على سبيل المثال. كنت أفضل أن امارس الراب على إيقاعات الهيب هوب البريطانية، والتي كانت أسرع وأكثر خشونة معا. كنا نتردد على النوادي الليلية الخاصة بمن هم تحت سن الثامنة عشرة والتي تنتشر على طول الواجهة البحرية، أو "الواجهة" كما كنا نطلق عليها. ونتقافز حول المكان على أنغام أونيكس (Onyx) وهاوس أوف باين (House Of Pain)، ثم كنا نصعد على خشبة المسرح في رحلة كلامية على آلة ما. كان اسمي في حلبات الـ MC هو "السحر الاسود". لم يكن الأولاد البيض يعرفون ماذا يجب عليهم أن يقوموا به في ذلك الإطار، وبالرغم من محاولاتهم المضنية فلم يتمكنوا أبدا من الحركة والرقص على تلك الإيقاعات الجديدة الغريبة بشكل صحيح، وبالتالي اتخذونا قدوة في ذلك الأمر.

فزت ذات مرة بمنافسة رقص في أحد تلك النوادي، وكانت جائزتي هي لعبة ميجا درايف وكانت قد ظهرت لتوها في الأسواق وتمثل آخر ما وصلت له تكنولوجيا الألعاب. لو حدث وقمت الآن بمحاولة القيام بتلك الحركات الراقصة فسوف أكسر ظهري على الارجح! كنت اقفز عاليا في الهواء واهبط مباشرة على ركبتيّ فوق ما كان أرضية رقص خشبية: جنون. كنت أهب واقفا، من ذلك الوضع، وأقوم ببضع شقلبات وارتد واقفا. لم أكن ماهرا في الرقص وعملية الـ MC بنفس قدر مهارتي في الجرافيتي، ولكن ما ساعدني في ذلك الشأن هو قلة عدد الآخرين الذين يعرفون ما يجب القيام به أصلا.

استمر مجتمعنا الفرعي للبي بويز في النمو، وصرنا نقابل الصبية في الشوارع ويتم تكوين رابطة فورية معهم بكل بساطة لمجرد أننا نحب الشيء ذاته. وبدا الأمر كما لو كنا نعرف كيف نتعامل مع بعضنا البعض على الفور، وهذه هي الطريقة الي تعرفت بها علي مارك و شيل أو تسيلوا. كان مارك فتى أبيض وفنان راب عظيم، وكانت واحدة من قدراته الاستثنائية العديدة هي قدرته على الارتجال بلا تجهيز من أي نوع، وقد أثمرت مهارته في إكسابه الأصحاب الصحيحين. أما شيل فهو مهاجر حديث من زيمبابوي إلى المملكة المتحدة، وكان يركض في الاتجاه الخاطئ في ليلة حدثت فيها واقعة عنصرية تتسم بعنف خاص، وهي عملية هجوم تضمّنت أحداثها ضربة بمطرقة على رأس صديق، وقد كان ذلك طرازا مفضلا للهجوم عند العنصريين المرتكزين في ايسكس.

كنت قد لمحت شيل وهو يمشي في الاتجاه الذي كنا نركض منه، وأخبرته بما حدث وقلت له أن يظل معنا إذا كان يود أن يبقى سالما. كانت تلك شرارة البدء لأخوّة فورية بيننا، وقد قمنا معا بكم كبير من المغامرات.

في إحدى المرات عندما كنا في الخامسة عشرة من العمر، قررنا أن نرى إن كنا نستطيع أن ندخل إلى نادٍ خاص بالراشدين فوق الثامنة عشرة. وبدا من الواضح للعيان، من حيث البنية وانعدام شعر الوجه، أننا أصغر من ذلك بكثير. ما قمنا به في سبيل الدخول، هو قص بعض الشعر من رأسنا ثم لصقه على ذقوننا

بواسطة إصبع بريت. كم ضحكنا وضحكنا على سخافة منظرنا -وكان شيل صاحب الشعر الزنجي الأجعد يبدو كما لو كان هناك قطعة من الفلكرو ملصقة بذقنه-ولكننا ارتدينا ستراتنا واصطففنا في الطابور ولم يكشفنا أحد. ذهبنا مباشرة إلى الحمام وقمنا بإزالته كله، وبعد ذلك، وحيث أننا دخلنا سابقا، فقد كان الحراس يدعوننا ندخل في كل المرات التالية.

أظهر كل ذلك -الموسيقى والملابس وطراز الشعر والجرافيتي والرقص وارتياد النوادي والـ MC وأسلوب حياة الهيب هوب- أنه لم يكن فينا من يعاني من أي مشكلة في الحصول على الفتيات. كنّ تقريبا مثل فتيات الكورس في الفرق الغنائية، فتيات بيض من الطبقة الوسطى واللاتي دخلن عالم الهيب هوب وأردن أن يصبحن جزءا منه. وفي ذلك الوقت صارت العلاقات المختلطة سائغة ورائجة جدا، خاصة من جانب الإناث: كان هناك مجموعة كاملة من البنات، وظهر أنّ كثيرات منهن من مدارس جيدة تقتصر على البنات، وكن يردن الدخول في علاقات مختلطة. كن يتحدثن معنا حول مقدار لطف الأطفال مختلطي الإثنية، وقد دفعنا مثل ذلك الحديث للضحك، وأشعرتنا تلك العلاقات والاهتمام بنا بالنتعاش وعزّزت من تقديرنا لأنفسنا، فانخرطنا في العديد من العلاقات في مدن مختلفة عبر ايسكس. لقد كنا نحظى بوقت رائع وكان هذا كل ما في الأمر، وكنا ننبض بصوت وهوية نستطيع أخيرا أن ندعي أنهما لنا دون غيرنا.

الفصل الرابع

"مات" الغريب الذي طُعن َفداءً لي

في حين كانت الحياة في المدرسة تتحسن بشكل كبير، فإن الوضع خارجها كان على العكس تماما، إذ أخذ يتصاعد سلبيا بشكل أخطر كثيرا. وعلى الرغم من كل ما كان يحدث من تعرض جيلي للموسيقي التي تنبع من ثقافة السود واهتمامه بها، فقد استمر انعدام اهتمام الأجيال الأقدم بالهيب هوب بل وكانت تشعر أنها مهددة بالثقافة المرتبطة به. كان ذلك جيلا لم يزل يحتفظ بذهنية والد ذلك الصبي في المدرسة الابتدائية، الذي قام بشحن ابنه بكل ذلك الهراء عن مرض الإيدز. وكانت هذه المجموعات الأكبر عمرا والأكثر عدائية وعنفا من الشباب البيض من يتعين علينا الحذر منهم.

ونتيجة لذلك فقد كنا حريصين على ألا نمشي وحدنا في أي مكان حين نخرج للشوارع، فإذا كنا خارج المدينة، فإننا نسير في مجموعة من خمسة أو ستة أو حتى سبعة على سبيل الحرص. كنا مجموعة من الـ"بي بويز" يغلب علينا اللون غير الأبيض، وفيما نحن نغوص أكثر في ثقافة الهيب هوب، بدأ الكثير من أصحابنا البيض بالانسلاخ عنا إما بسبب الخوف من الهجوم عليهم أو الشعور بالاغتراب. استمر ساف، أضخم الفتيان في مدرستي -بالرغم من ذلك-في إخلاصه لي، وكان مستعدا للوقوف بجانبي حتى النهاية. لقد حدث بالفعل، أن رأيته وهو ينال ضربات بمواسير حديدية على رأسه، ولكنه كان يقوم واقفا رغم ذلك، ويزيل الغبار عن ملابسه ويمضي في طريقه كأنما لم يحدث شيء. من الصعوبة بمكان أن تجد رجلا أكثر قدرة على التحمّل من ساف. في الواقع، لم يزل يعمل في إدارة الأغاني في مناسبات الهيب هوب ويملك مجموعة من الأسطوانات القديمة التي قد تثير غيرة الكثيرين. انتهى الأمر بمجموعتنا -رغم ذلك- إلى الاقتصار على الهنديين الغربيين أو الباكستانيين. وكما ذكرت آنفا، فإنّ ما كان يوحدنا ويربطنا معا هو التهديد الذي واجهناه جميعا حين تأسست كومبات 18 في أوائل التسعينيات. كان ميكي هو الرجل الذي تربطه علاقة مع كومبات 18، وكان هو أو طاقمه، وحيثما وحينما تقع أعينهم علينا، يشهرون سكاكينهم ويطاردوننا كأننا حيوانات.

كيف كان لنا أن نجابه مثل هؤلاء الرجال الذين كانوا أكبر منا عمرا بهذا القدر، ومدججين بالأسلحة بذاك الشكل الخطر! وصل الأمر إلى النقطة التي دفعتني وأنا في الرابعة عشرة من عمري إلى حمل سكين كلما خرجت، واستمر هذا الوضع لعدة سنوات. قمت بشرائها من منطقة ليك، حيث ذهبت مع المدرسة في

إحدى رحلات المغامرة التي تتضمّن النزول على الحبال وركوب القوارب الصغيرة "الكاياك" وما يشابه ذلك. في تلك الأيام، كان بوسعك كصبي أن تبتاع سكينا بدون أن يتم طرح أي أسئلة عليك، شيء مجنون فعلا. كانت سكين صيد كبيرة؛ ستة إنشات من النصل المعدني، مع يد لها حزام تستطيع ربطه على ظهرك، وهو شيء مفيد جدا لإخفائها، وقد حدث ذات مرة أن قضيت بعض الوقت في زنزانة لدى الشرطة بدون أن يعرفوا أبدا أنها مخبأة تحت قميصي.

ما أحببته في تلك السكين بصفة خاصة هو احتواء تصميمها الأساسي على سكين ثانية خفية، وكنت أربط تلك الصغرى بخيط حول معصمي بحيث إن حدث أن انزلقت السكين الأكبر من يدي، فإني لا أزال احتفظ بالثانية مستعدة لتحل محلها.

ببساطة شديدة، قمت بشراء تلك السكين لمجرد الحماية فقط، وليس سعيا وراء المشاكل. كنت أتدرب على إخراجها كي أضمن أنني بالسرعة الكافية التي تسمح لي بفكها وإشهارها في لحظة واحدة، نوعية اللحظة التي قد تمثل الفارق بالنسبة لك بين أن يتم طعنك أو أن يتقهقر مهاجمك للوراء. كنت أحرص باستمرار على المحافظة على نصلها حادّا، والتأكد من أنه في أفضل حال، وتعلمت كيف أمسك بها بأفضل شكل ممكن في القتال. كنت على أتم الاستعداد لاستخدامها، ولكن، لحسن الحظ، وبفضل الحظ الخالص وليس بسبب حكمي الصحيح على الأمور، لم أضطر أبدا لذلك. في ذلك الوقت وثقت بتلك السكين أكثر من ثقتي بالله، ومن ثمّ تكونت بيننا رابطة، وإن كانت منحرفة نوعا ما. كنت عادة ما ألقي نظرة عليها من وقت لآخر، ممررا إصبعي على نصلها متسائلا عما إن كانت سوف تنقذني بالفعل أو سوف تتسبب في قتلي. لازلت أحتفظ بها في الدرج المجاور لفراشي لتذكرني بتلك الأوقات الصعبة، ولا زلت غير متأكد تماما إذا ما كنت أحبها أو أكرهها.

كان هذا ما أعنيه، عندما كنت اتحدث آنفا عن كيفية اختلاف وضعي عن وضع والديّ، فإن حدث وتعرضت لتهديد ما في أيامهما، فإنّ ذلك يعني قتالا بالأيدي أو ركلة بين الحين والآخر. نعم، لم يكن ذلك لطيفا، ولكنّه لم يكن بذات المستوى من العنف الذي قد تهددك فيه إصابة خطرة. لقد تغير كل ذلك مع ظهور حليقي الرؤوس وكومبات 18: حيث انتقلت السكاكين من كونها الاستثناء لتكون هي الشيء المعتاد. كان الشكل المفضل عندهم للهجوم هو المطارق أو مفكات البراغي، لكنهم كانوا يحملون إضافة لكل ذلك هراوات وسكاكين جزارين. أطلق ذلك العنان، إلى حد ما، لسباق تسليح محلي، حيث شرع الجميع في إعداد العدة كاستجابة لما يعده الآخرون. وعلى نحو مفاجئ، كان الجميع في ايسكس يحمل سلاحا -بشكل لم يكن عليه الهارد نوكز أو أشقياء العهد السابق منذ خمسة عشرة عاما. تأذى بعض أصدقائي القريبين بشكل خطير، مثل مو، على سبيل المثال، الذي سُحق رأسه بمطرقة وكان محظوظا أنه بقي على قيد الحياة. كان ذلك هو الجو

الذي واجهه غير البيض في ساوث إند، وكان هذا سبب حملنا للسكاكين. لقد نُطارَدُ في شوارعنا ذاتها على يد سي 18 كنوع من الرياضة؛ وبلغ الأمر حد أنه كان لديهم اسم لذلك: حفلة ضرب الباكيز، وكان لنا أصدقاء يتعرضون للطعن والضرب بالمطرقة والهراوات بشكل عشوائي، ليس لشيء إلا لأنّ لون جلودهم كان مختلفا لا غير. أتحدي أيا كان أن يقنع مراهقا أنه ليس على حق في حماية نفسه من مثل تلك الظروف، وإذا مثّل التزود بالسلاح أمراً يمكنه أن يمنع مثل تلك الهجمات، فقد كنا نؤمن، حقاً، أن هذا الأمر، ورغم كل المخاطر التي ينطوي عليها، شيء جدير بأن نفعله.

لقد حان موعد استكمال قصة ما حدث في المتنزه عندما ركض إلينا شيل صارخا طلبا للمساعدة، وانتهى بي الأمر حينها محاصرا بحليقي الرؤوس. إن كنت تتذكر، فقد كنت وحدي محاصرا بالكثير منهم بشكل فيه مفارقة كبيرة، وكنت قد تخلصت من سكيني بالفعل في محاولة يائسة لإقناع حليقي الرؤوس أنني لست عدواً لهم. على من كنت احتال؟؟ بالنسبة لسي 18، كان لون جلدي وحده يعد جريمة كافية! وأخيرا، وأنا محاط بهم، وأفواههم ترغي من الهستريا، وأعينهم تبدو زجاجية من فرط الشبق للدم، عرفت أن ساعتي قد حانت. لقد جاء هؤلاء الرجال من الجحيم في شاحنتهم البيضاء إلى حفلة ضرب باكي سوف يقيمونها على هذا الكيدولت ذي الخمسة عشر عاما. إن الاستسلام للموت شعور غريب؛ لا يمكن فهمه تماما سوى بالنسبة لهؤلاء الناس الذين لا يملكون خيارا سوى رؤية اليأس بوصفه شيئا جذابا. يبحث العقل عن طرق كي يواسي القلب قائلا له: "كل شيء على ما يرام، عندما تموت لن تشعر بالألم مرة أخرى."

وكان ذلك كل ما أريده حقا، أن يتم كل شيء بدون الكثير من الألم، ولكنني لم أمت. بل حدث، في الواقع، شيء في قمة الغرابة، كان وسوف يبقى شيئا خياليا. ثمّة شخص عابر، رجل أبيض ذو مظهر محترم وأكاديمي، حدث أن رأى الكرب الذي كنت فيه ودخل المعمعة واقفا بين حليقي الرؤوس وبيني. ورغم ذعر الموقف، أعتقد أنه استطاع أن يخبرني أن اسمه مات. ليس بوسعي التيقن من ذلك، ولكنني أشعر بدافع قوي لأنسنته، ولذا سوف أطلق عليه اسم مات على أي حال. قال مات: "لا تخف، أنا معك."

أتذكر أنني فكرت، "ما هذا بحق الجحيم؟ من أنت؟"، ولكن وبدلا عن ذلك شكرته بحذر.

لم يبدُ لي مات مقاتلاً بالمرة، ربما كان أحد أفراد العصابة، متخفيا ويحاول أن يستدرجني لحالة أمان زائفة. ربما كان مدججا بالسلاح سرا ومستعدا لإخافتهم. بدأت في التفكير: "ربما لن أموت هنا رغم كل شيء؟" ربما كان هذا الرجل شبيه بروسلي بشكل ما، وسوف يتمكّن وحده أن يتغلب عليهم جميعا وينقذنا من هذه العصابة. لماذا -إن لم يكن الحال هكذا-يلقي بنفسه في خِضمّ معركة بالسكاكين مثل هذه؟

لازلت كلما تذكرت ما جرى بعد ذلك تمتلئ عيناي بالدموع، فقد استدار مات لحليقي الرؤوس صارخا: "أيها الرجال، أيها الرجال!"، مما جعلهم يستديرون له متفاجئين. كانوا قد افترضوا أنهم في صفهم،

بما أنه أبيض واستطاع أن يقترب لهذا الحد من دائرة العنف المحيطة بي، فمن ذا الذي يملك الجنون الكافي ليضع نفسه في طريق مطارق وهراوات وسكاكين من أجل باكي مجهول في الخامسة عشرة من عمره؟

قال محاولا تحييد الموقف: "هيا، اتركوا هذا الأمر، أوكي؟ اتركوا هذا الصبي وشأنه."

استدار حليقو الرؤوس في مواجهة مات، لقد أغضبهم تدخله بشكل أكبر مما كانوا عليه سابقا.

زمجر أحدهم في وجهه: "إنه باكي ملعون، وأنت محب للباكي ملعون كذلك!"

قال مات بمزيد من القلق هذه المرة مستمرا في محاولته للتوسط كرّة أخرى: "يا رجال، هيا بنا، دعونا لا نقم بأي شيء أحمق هنا، إنه مجرد طفل، أوكي؟"

ربما شعر مات أنّ بإمكانه تهدئة الموقف لأنه لم يكن ينتمي إلى عالمنا هذا، فربما يكفي في المكان الذي جاء منه، أي طلب طيب النية وحوار عقلاني هادئ لحل أي موقف، ولكنّ هذا، خلافا لذلك، عالمي أنا وليس عالم مات. وفيما هم يهجمون آتين من كل صوب، عرفت أنهم سوف يتجاهلونه ويطعنونني على أية حال، فراودتني الأفكار: "شكرا مات، فأنت على الأقل حاولت يا زميل"، إنه شيء نبيل أن تفعل ذلك لشخص لا تعرفه. وهكذا، أعددت نفسي للنهاية.

لكنّ ما حدث بعد ذلك سوف يطاردني حتى يوم مماتي، شاهدت -في خِضمّ رعب مفاجئ ممتزج بارتياح غير مقبول-حليقي الرأس وهم يحولون انتباههم تجاه مات بدلا عني، انهالوا عليه مثل ضباع جائعة نهمة غارسين سكاكينهم عميقا في جسده ومنهالين بهراواتهم وقفازاتهم الفولاذية على رأسه.

صرخوا فيه: "أنت يا محب الباكيز يا ملعون!"

وقع كل هذا فيما كان الباكي نفسه بجوارهم مباشرة، متروكا دون أن تُمسُّ شعرة منه. كان مات رافعا ذراعيه اللتين تتحركان يمنة ويسرة لتمنع الضربات عن رأسه بكل ما وسعه من القوة، وكان في طريقه للانهيار تحت الوحشية العارمة لهجومهم الشرس.

لاحظت فورا -بخجل اخترقني وتملّك مني-أن مات لم يكن بروس لي ولم يكن مسلحا، لم يكن لدى مات أيُّ خطة. كان ببساطة يفعل من أجلي ما كنت الآن عاجزاً عن فعله لأجله. لقد دافع عني، وها هو الآن يُضربُ حتى الموت جزاء ذلك، في حين كنت مرغما على المشاهدة، وكنت أعلم أنني لو انضممت اليه فغالبا سوف أموت. حثني حس الشرف لديّ على القتال، هذه معركتي أنا، لا معركته، سحقاً! لكنّ المنطق كان يوبخني بدوره، لن يكون لي أي تأثير، كنت مجرد صبي غير مسلح! كل ما سوف أحققه، هو مقتلنا الإثنين. وهكذا، ولمدة ما بدت كما لو كانت أبدية من العار، تابعت -وأنا مسمر في مكاني-بلطجية سي 18 وهم يضربونه بالهراوات ويطعنونه ويركلون رأسه فيما كان مستلقيا على الأرض، دون أن توجّه أي لكمة أو ركلة تجاهي. دوت أصوات عربات الشرطة وهي قادمة من بعيد. الحمد لله، أخيرا كان أحدهم قادما، تعالوا!

أنقذونا! سمع بلطجية سي 18 الأصوات كذلك، وبسعادة عاينوا الأذى الذي أوقعوه، وفروا هاربين دون الالتفات نحوي ولو بنظرة. كان الأمر كأنما لم أكن موجودا، وفيما نظرت إلى مات الملقي عظاما وأشلاء على الأرض، شعرت أنني لا أستحق الحياة. تركتني سي 18 بدون أن تمس شعرة من رأسي، فيما استلقى هو على الأرض نازفا بغزارة، إنه إنسان لا أعرفه، وقد تلقي عني الضربات التي كانت موجّهةً لي.

وفيما اقتربت الشرطة وعربات الإسعاف، قام مات مترنحا من على الأرض سائرا في اتجاه سي 18 وصارخا وراءهم كما لو كان يقول: "ها أنا ذا، لازلت على قدميّ. لم تنالوا مني!"

عرفت لاحقا أنهم، بالإضافة إلى إصابته بجروح جراء طعنات متعددة، قد ثقبوا رئته كذلك. ولكن، وبشكل ما وبالرغم من كل ذلك، وجد قوة الإصرار الكافية للتلويح بقبضة يديه والصراخ وراءهم حتى غلبه المجهود الذي بذله وانهار مرة أخرى. أحاط به المسعفون الطبيون الذين وصلوا بحلول ذلك الوقت على الفور في محاولة حثيثة لإنقاذ حياته.

كانت الشرطة في تلك الأثناء في أزرى حالاتها، ألقوا نظرة على الرجل الأبيض المستلقي في بركة من الدماء على الأرض، وكانوا يسمعون صرخات غوغاء السي 18 الواقفين على مسافة، وقرروا أن من يلزم استجوابه فوريا هو الـ"بي بوي" الباكستاني ذو الخمسة عشر عاما في زي الهيب هوب الكامل. كنت ما أزال مسمرا في مكاني، ترفض قدماي أن تتحركا، حين أرسلت الشرطة بالراديو كود التعريف الخاص بي. للحظة عابرة، تساءل عقلي، بشكل عرضي غير مرتبط بأي شيء، كيف أنهم دائما يصنفونني "أي سي 2.3"، وهو كود الشرطة الذي يحدد انتمائي إلى ملف مزيج البيض الآتين من البحر المتوسط والأفروكاريبيين.

حاولت أن أشرح لهم: "كلا، إنكم تتحدثون مع الشخص الخطأ..."

أصر الضابط: "لن أسألك مرة أخرى، أريدك أن تخبرني ما الذي كنت أنت وعصابتك تقترفونه بحق هذا الرجل؟"

انتزعت نفسي من حالة الذهول التي كنت فيها، وأظهرت وجهي العكر لرجل الشرطة صارخا في وجهه وموجها له السباب بأعلى طبقات صوتي:

"لماذا توجه لي الاسئلة، أيها الخنزير الملعون؟ إنهم هناك أمامك مباشرة، الرجال الذين اثخنوه طعنا! باستطاعتك سماعهم يضحكون وبإمكانك رؤيتهم، لماذا لا تتحرك إلى هناك وتلقي القبض عليهم قبل أن يفروا؟"

كان رد ضابط الشرطة هو: "سوف أقبض عليك أنت إن لم تهدأ." فقمت باحتواء غضبي.

كان شغلي الشاغل هو إقناعهم بالقبض على هؤلاء الرجال الذين اعتدوا على مات. احتملت صابرا التحقيق آملا أنه قد يسرّع من وتيرة عملهم، لكنّ ذلك لم يحدث. اقتنع الضابط أنني برئ في نهاية المطاف،

ولكنّ حليقي الرأس كانوا قد اختفوا قبلها بكثير في شاحنتهم البيضاء، وكانت عربة الإسعاف تحمل مات إلى المستشفى.

تركوني بذلك الشكل، مرتبكا ومكشوفا ووحيدا وغاضبا في الشارع. قمت بالنظر حولي في جميع الاتجاهات، وتساءلت إذا ما كان ملاكٌ قد نزل لتوه لإنقاذ حياتي. هل كان مات حقيقيا أم كان مرسلا من طرف الله لإنقاذي من القتل؟ كنت شبه مقتنع أن حليقي الرأس سوف يعودون ويكملون المهمة، وأعتقد الآن -بعد قصوري في القتال إلى جانب مات-أنني أستحق ذلك. لقد كنت غير مسلح، ولكنّه كان كذلك أيضا. صحيح أنّني لست مكافئا لهم بالحجم كوني في الخامسة عشرة، ولكنّ مات كان غير مكافئ لهم في العدد، ولم يمنعه ذلك. منذ اليوم الأول لي في سيسل جونز، كنت مؤمنا تماما أنني شجاع، ولكنّني الآن غارق في العار وحسب. وجدت نفسي متجها، بشكل آلي، لاستعادة سكيني الذي كنت بكل حماقة قد خبئته آنفا، لو لم أتخلص منه لربما استطعت مساعدته.

لم تتح لي الفرصة لأشكر مات لتدخله أبدا، عرفت أنه لم يلق مصرعه، لأن ذلك الخبر كان سينتشر كالنار في الهشيم في كل الصحف، ولكنّني لم أكن أعرف لقبه أو كيف أصل إليه. كان قد دخل في حياتي، وتلقى الطعنات فداءً لي ومن ثم اختفى مرة أخرى. دفعني الشعور بالذنب الذي احتلني إلى الابتعاد عن أصحابي البيض، وأصبحت أكثر عدائية مما كنت للمؤسسة نتيجة لانعدام الكفاءة الذريع الذي اتسم به رد فعل الشرطة.

إنّ أسلوب تجاوب الشرطة مع الحادثة هو شيئ طبيعي تماما في ذلك الزمن، كانت ثقتنا بهم تساوي صفرا. "سحقا لهم"، كما علمتنا نيجارز ويذ اتيتيود، وكان شكنا فيهم لا يساويه إلا كراهيتهم الظاهرة لنا. كنت كثيرا ما أسمع كلمة "باكي" في صراخ موجه نحوي من شاحنات بيضاء من نوع آخر، شاحنات شرطة كنا نطلق عليها شاحنات اللحم. تزامنت تلك السنوات مع الحياة القصيرة لرجل أسود واعد يسمي ستيفن لورانس (Stephen Lawrence)، ففي 1993 وبعد عام من هذا الهجوم على مات، طُعن ستيفن لورانس حتى الموت في شارع في ساوث إند على يد غوغاء قتلة عنصريين مثل هؤلاء الذين اعتدوا على مات. اقتضى الأمر مرور ما يوازي عمراً آخر، نحو ثمانية عشر عاما، وشجاعة صديقه، وشاهد العيان دواين بروكس كي يتم تقديم من قتلوه للعدالة أخيرا. أتذكر مشاهدة تقارير تدور عن مقتل ستيفن لورانس بحزن غامر. كنت أنا دواين بروكس، الصبي الذي أفلت. وقد كان يمكن بمنتهى السهولة أن يكون هذا أنا الذي قتل في شوارع ايسكس منذ ما لا يزيد عن عام. مر بذهني ما إذا كان الفاعل هم نفس المجموعة أم لا، إن كان الفاعلان هما جاري دوبسون ودافيد نوريس وهما اللذان كانا قد طعنا مات. كنت متيقنا من شيء واحد، لم نكن في حاجة إلى تقرير ماكفرسون -وهو التحقيق الرسمي الذي أشار إلى إخفاق تنفيذ العدالة فيما يختص بمقتل ستيفن

لورنس-ليخبرنا أن الشرطة كانت "عنصرية بشكل مؤسسي"، فقد كنا نعاني بشكل يومي من مثل هذه العنصرية.

عند تلك النقطة، كان الـ"بي بويز" في فرقتنا مجموعة إثنية حصرية تقريبا، وتتضمن في ذلك الحين هؤلاء الموجودين في أوضاع مماثلة في المناطق الأخرى في ايسكس مثل بيتيسا وباسيلدون. كان الفارق بيني وبين عثمان لا يتعدى السنة والنصف، ولذا بدأنا في دمج مجموعتي أصدقائنا معا. تضمّن الطاقم الأصغر سنا كلا من شيل ومو واندري من ساوث إند وبول وآيد ويوسف من بيتيسا، من زمرتي أنا، وكان روان، شقيق ريكي الأكبر، هو قائد المجموعة الأولى. كان روان دائما بصحبة ويل وآرون، وكان عثمان ينضم لهم حالما يستطيع ذلك.

كان روان مشهورا بخطورته في كافة أنحاء ايسكس، وكان الناس يعرفون اسمه. أما روابط صداقتنا فكانت حميمة بشكل خاص، إذ تم صهرها وتشكيلها من خلال حب الهيب هوب المشترك بيننا، إنهم اشقائي الحقيقيون، وكنا مؤمنين أنْ لا شيء يمكنه أن يفرّق بيننا. كانت معظم الشلل الأكبر سنا آفرو كاريبية، ولكنّني أنا وعثمان أدخلنا واحدا أو اثنين من الآسيويين الجنوبيين، مثل ابن عمنا ياسر وصديقنا البنجلاديشي روني.

وفي أحد الأيام ذهبت مع عثمان ورون للعب البلياردو في وقت متأخر، وكان عثمان في وقت أسبق من ذلك اليوم، مثل كثير من الصبية في السادسة عشرة من عمرهم، يلهو بمسدس رش بلاستيكي نطلق عليه مسدس بي بي، حيث بدأ يلعب بشكل مكشوف أمام الجميع دون أن يفكّر في إخفاء ما يقوم به. يجب أن تتذكر أن الإرهاب في تلك الأيام كان مرتبطا بصفة أساسية بالمشاكل الجارية في شمال إيرلندا، ولكن أحدهم في مكان ما رأى ما كان عثمان يقوم به، فأبلغ الشرطة لأنه كان مقتنعا أنه كان يستعد للقيام بسرقة مسلحة، بينما كان عثمان غافلا عن ذلك تماما.

أخذت الشرطة هذا الاتهام بشكل جدي، وبدأت في عملية مراقبة قرابة الساعة. وهكذا بحلول الوقت الذي انضممت فيه لعثمان ورون لاحقا، كنا بالفعل قيد المطاردة السرية لمجموعة من الضباط المسلحين. انتهينا من لعب البلياردو في حوالي الثانية صباحا، واستقلينا سيارة رون لكي ننطلق للمنزل. كان جهاز الستيريو الخاص بنا يمثل كالعادة ضغطا على سيارة رون القديمة نتيجة دوي الباص الثقيل في أغاني الراب المتتالية.

قلت ساخرا من المقعد الخلفي: "إن هذا لغريب يا رجل، يبدو لي أن الخنازير قادرة على الطيران رغم كل شيء!" كنت أقصد حوامات الشرطة التي كانت تحوم فوقنا.

قال رون ضاحكا: "إن أحدهم في مشكلة كبيرة بالتأكيد، أعتقد أنهم يبحثون عن بعض الخطرين حقا."

أجبته ضاحكا: "نعم، يا رجل، إن أحدهم لن يحصل على كثير من النوم هذه الليلة."

"أنظر! إنها تهبط" قاطعنا عثمان، فيما سيارات الشرطة تمر بنا بأقصى سرعة وأصواتها تدوي، ولكننا كنا على موعد مع مفاجأة!

فجأة، قامت سيارات الشرطة التي تتقدمنا بالتوقف وإطاراتها تحدث ضجيجا، مغلقة الطريق أمامنا. ظهرت المزيد من السيارات من الخلف مما أعاق طريقنا للفرار، فوضع رون قدمه على المكابح.

"ماذا بحق الجح......؟" غمغم رون غير مصدق لما يجري، فيما يظهر من حيث لا ندري ضباط مسلحون يحملون رشاشات نصف آلية على جانبي السيارة.

"أوقف السيارة!"

"لا تحركوا أيديكم، لا تحركوا أيديكم! أبقوا ساكنين تماما! لا تتحركوا!"

جلسنا في ثبات الموتى في صمت مطبق، فلم يعد أحد منا يجد الوضع مضحكا ولو قليلا. وفيما تم تسليط كشافات الحوامة علينا، قام الضباط المسلحون بإنزالنا من السيارات، وجذب رون وعثمان من فوق مقاعدهم من خلال الأحزمة التي كانت لم تزل مربوطة حولهم، وألقوا بهم بعنف على الأرض، ثم أمسكوهم وقاموا بتقييد حركتهم. وفيما استمرت الشرطة المسلحة في توجيه المسدس إلى رأس أخي، سيطرت على عقلي تفاصيل هامشي، كانت السيارة تتهادى للأمام بشكل بسيط. "هذا غريب، لمَ تتحرّك السيارة؟"

" مكابح اليد!" فكرت في نفسي. "أحسنت يا رون، لم تشد مكابح اليد!"

في تلك اللحظة قامت يد ما بشد ياقتي، ورفعي خارج مقعدي، وإنزالي على الأرض بعنف وصوت مكتوم، حيث استقبلتني فوهة مسدس آخر. بالطبع، حسنا فعل رون إذ لم يشد مكابح اليد؛ فقد كانوا سوف يعتقدون أنه يمد يده إلى مسدس، وكانوا، على الأرجح، سوف يطلقون عليه الرصاص ويردونه.

لم يكن أي من هذا يبدو معقولا بالنسبة لي، لم أكن مع عثمان أثناء النهار، ولم تكن لديّ أية فكرة أنه كان يلعب بمسدس البي بي خاصته. ولكن لم يكن هناك وقت للتفكير، وبالتأكيد لم يكن هناك وقت للأسئلة.

صرخ الضابط في أذني: "أنتم مقبوض عليكم بتهمة الشروع في السطو المسلح."

"هه، ماذا.....؟" لم يكن عقلي مستوعبا الأمر.

"بكلمات أخرى، فقد وقعتم يا إخوة. أدخلهم في السيارة."

كنت في الخامسة عشرة من عمري ولم يكن لي سجلّ إجرامي. القوا بنا جميعا في الزنازين لفترة الليل في أثناء قيامهم بفحص "الأدلة". وحيث أنني كنت تحت السادسة عشرة، فقد اضطروا لإيقاظ آبي في الثالثة صباحا، وإخبارها هاتفيا أنّ كلا من ابنيها قيد الاحتجاز بتهمة الشروع في السطو المسلح، إنه شيء مجنون. في الصباح، وبعد كل ما حدث، سلموا عثمان مسدس الرش خاصته في كيس بلاستيكي وأطلقوا

سراحنا. وفي طريقنا للخارج، في قمة الغضب للتصنيف الذي تعرضت له، قررت أن أسأل سؤالا أخيرا: "هل هناك أي شيء، أي شيء خطأ ارتكبناه؟"

"كلا، لم تقوموا بأي خطأ، كان الأمر سوء تفاهم، ونحن آسفون لذلك." وكان ذلك كل شيء.

جعلنا مزيج انعدام الكفاءة والجهل الذي كانت عليه الشرطة نكرههم، فيما كنا نخاف سطوتهم في ذات الوقت. في المرة الوحيدة التي حاولت فيها أن أتعاون مع الشرطة انفجر الأمر كله في وجهي، فقد ذهبت إليهم لأقوم بالتعرف الإيجابي على متهم كان قد طعن صديقا لي، وأشرت لهم على الرجل الصحيح، لكنهم اضطروا لتركه يذهب نتيجة لما بدا أنه "خطأ في الإجراءات". الأسوأ من ذلك، هو أنني كنت الآن مكشوفا ومعرضا للخطر بوصفي الشخص الذي قام بالتعرف الإيجابي عليه. لقد فقدت القدرة على حصر عدد المرات التي تعرضنا فيها للهجوم بالسكاكين على يد عنصريين، وقد تم طعن الكثير من أصدقائي، ولكنّ الشرطة قلّما قامت بالقبض على أحد، ونادرا ما وجهت اتهامات لأحدٍ على الإطلاق. كانت عصابات العنصريين تتفاخر دوما بـ"علاقات" لها مع الشرطة. لا يوجد لدي معلومة ما إذا كان ذلك حقيقة أم لا، ولكنّ المحصلة النهائية لذلك أننا كنا بلا حماية. وفي غياب أي حافز يدعونا لتغيير شعارنا، فقد استمررنا في غنائه بأعلى صوت: "سحقا للشرطة".

كان عدم ثقتنا في الشرطة لحمايتنا يعني أننا يجب أن تعتمد على أنفسنا، وقد وجدنا الحماية في طاقمنا وفي رد الصاع صاعين. ما حدث أنه مع ازدياد أعدادنا ونمو ثقتنا في أنفسنا، فإنّ مستويات العنف التي نواجهها تصاعدت كذلك. كنا نجد أنفسنا تحت الهجوم بلا سابق إنذار، مثلما حدث في أحد النوادي الواقعة على الشاطئ ، عندما بدأت كرات البلياردو في الطيران بمحاذاة الرؤوس كأنها طلقات مدافع، أو حين تم طعن صديق أبيض آخر يدعى دان - أو تلك المرة في محطة حافلات ساوث إند المركزية حين تم طعن آرون في جانبه، ودافع روان عنه، وقام بإبعاد رجلين يحملان سكاكين كباب عن آرون، وهو أعزل إلا من عكاز استعاره من عجوز متقاعدة كانت تنتظر الحافلة. وحالما قام الرجال بطعن آرون والفرار، أعاد روان العكاز بأدب جم إلى العجوز المتقاعدة المذهولة. ذات مرة أضطر واحد منا للابتكار والاستعانة بمظلة مطر لها سن حديدي كسلاح يطعن به أحد حليقي الرأس من مشجعي نادي ميلول، والذي جاء إلى هنا قادما من لندن، وقرر أن يأخذ شارعنا من أوله إلى آخره صارخا: "نحن نكره الباكيز!"

انتهى به الحال يتلوى على الأرض بجمجمة محطمة. وكان هناك تلك المرة التي تم فيها مطاردتنا - ريكي وبول وشيل وأنا-إلى خارج أوكندون بواسطة عصابة من البيض تنشد أهازيج حول رفضهم لوجود زنوج يسرقون نساءهم في منطقتهم. عاد طاقمنا بالكامل في الأسبوع التالي ليقتحم منزل قائد حلقتهم. كنا نتعلم كيف نقاتل دفاعا عن أنفسنا، وكانت الرسالة التي ينطوي عليها ذلك تنتشر.

ذات يوم، حدث أن صادفت باتريك، الذي لكمني في سن الحادية عشرة في بطني لأنني جرؤت وطلبت أن ألعب كرة القدم معهم. كان –بتلك الضربة الوحيدة– قد غير الصبي الصغير الذي كنتُ عليه، وجعلني أرى البشر مصنفين طبقا للألوان، بينما كنت -قبل ما حدث-أراهم بوصفهم بشرا لا غير، وبدا الأمر كما لو أنّ أزمنة مرّت منذ أيامي في إيرل هال.

كنت أسير في الطريق العمومي مرتديا عدة الـ"بي بوي" الكاملة: رباط رأس أو باندانا حمراء، وقبعة كرة القاعدة الخاصة بالريد سكينز – لأنهم يستخدمون هنديا أحمر شعارا لهم – وبذلة الكليك الخاصة بي، وحذاء رياضيا ضخما، ورأيته هناك. كانت تلك اللكمة شيئا لن أنساه أبدا، وفي اللحظة التي لمحني فيها قادما استدار للجهة الأخرى، ففهمت من رد فعله أنه أيضا يتذكر ما قام به. أشعل ذلك شرارة بقايا الغضب داخلي، واتجهت رأسا إليه. لم يكن معي طاقمي في تلك المناسبة؛ كنت قد تركتهم في مكان بالجوار. نعم، لقد كان الأمر مقتصرا عليّ وعلى باتريك مرة أخرى، كان معي سكيني على ظهري كالعادة، ولم يكن باتريك رغم كل ثقته المتعجرفة آنذاك في المدرسة الابتدائية، فتى شوارع بالطريقة التي صرت بها أنا. رآني، ورأى النظرة التي كانت في عينيّ، وبدأ في الانكماش مرتعدا:

"أرجوك لا تضربني. ماجد، رجاءً لا تضربني."

لم أكن قد قلت أي شيء، وكان الصبي يرجوني ألا أفعل أي شيء.

"أنا آسف،" استمر، وهو يشرع في البكاء. "إنني آسف فقط لا......"، كان منظرا من أغرب ما يكون، كما لو أنه ينكمش أمامي.

كان باتريك الآن لا يستطيع أن يكرر تعليقه الذي قاله في ذلك الوقت، فلم يعد مقبولا أن يكون عنصريا بالشكل الذي كان عليه من عدة سنوات قليلة، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى سمعتنا نحن الـ"بي بويز".

عندما رآني تلك الأمسية، كان من الواضح أنه يعلم ذلك، إنّ الكرة الآن قد ارتدت، وانعكس ميزان القوى. كنت أرى ذلك وكذلك رآه هو، ومما يثير العجب أن ذلك كان يكفيني، فبالرغم من كل العنف الذي تورطت فيه، فقد امتلكت دوما مبررا له في عقلي المراهق؛ إنه مجرد شكل من تصاعد حالة الدفاع عن النفس. لم أكن أبدا قد اعتديت أو تنمرت أو سعيت خلف قتال مع شخص أعزل بلا حول ولا قوة، ولم أكن سأبدأ في ذلك الآن.

"إنك تافه!" صرخت فيه: "اغرب عن وجهي بحق الجحيم "

نظر إليّ باتريك وهو متفاجئ، إذ كان يعلم ما هي سمعتنا، ثمّ استدار وانسحب مدحوراً. لم أكن في حاجة لمهاجمته، بل كان يكفيني أن أرى رد فعله حين وقعت عيناه عليّ. كنت راضيا عن نفسي ومسرورا

أنني لم أصبح شريرا مثل هؤلاء العنصريين، ولكن كان ثمّة شيء يفوق ذلك أيضا: شعور بالرضا والبراءة، فقد كنت على الطريق الصحيح، والواقعة التي بدأت دوامة سوء المعاملة الذي تعرّضت له انتهت، وقد انتصرت.

الفصل الخامس

حقيبة الظهر الخضراء الخالية من أيّ قنبلة

يصعب للغاية فهم شعور الخوف والعجز الذي تجعلك العنصرية المنظمة تعيشهما، حين يعد جسدك كلّه، نتيجة للون بشرتك لا أكثر، هدفا متحركا، إذ ليس بوسعك ألا تصطحب جلدك معك، ولا أن تتصنّع أنه غير موجود، وفي أي لحظة كانت، قد يقوم بعض البلطجية الذي يلوّحون بالمطارق فوق رؤوسهم باعتبارك هدفا.

في مثل تلك الظروف المتطرفة، يجب أن يكون الدفاع عن النفس حقا مقدسا لكل إنسان، أما فلسفة "أدر خدّك الأخرى" فكانت بلا شكّ ستنتهي بنا في هيئة جماجم محطمة. وعلى كل حال، فإنّ الحقيقة المؤسفة، رغم كل ذلك، هي أنّ الدفاع عن النفس، في نهاية المطاف، عادة ما يتسبب في تفاقم دائرة العنف.

عندما قابلت خالي في نيوكاسل تلك المرة، وهو يعرّفني بأغنية نيجارز ويذ أتيتيود: "سحقا للشرطة"، اتّضح لي من استماعه لمثل هذه الأغاني، أن الحنق والغضب لا يختفيان ببساطة هكذا، بل إنهما يبقيان في حالة غليان تحت السطح. على المدى الطويل لا يعدّ احتكاك المجاميع الإثنية المختلفة ببعضها البعض طريقة صالحة لتعايش المجتمع. ليس ما أعنيه هنا هو أن طريقتي شبه الطفولية في التعامل مع الوضع كانت هي الخيار الصحيح، ولكنها كانت خياراً من ضمن الخيارات، وفي ذلك الوقت، بدت كما لو كانت الخيار الوحيد المتاح أمامنا. بدا الأمر، بدون دعم الشرطة أو المجتمع ككل، وكأنما تلك هي أفضل طريقة يمكن الاستجابة بها: أن نقف ونواجه ونعيد القتال إلى مضارب العنصريين، آمليين أنهم قد يتركوننا وشأننا. يوجد نوع من المنطق الوحشي في ذلك الوضع، ولكنه بدوره كذلك منطق لا ينفذُ إلى صميم المسألة. إنه نوع من أنواع تفكير "الحرب الباردة" حيث يتم استيلاد سلام غير مستقر، من رحم اليقين التام بالضرر الذي يستطيع الجانب الآخر إيقاعه بك في حال بدأت بالأذى.

تغير ذلك المشهد منذ ذلك الحين، نتيجة لعاملين اثنين، كان أولهما هو الطريقة التي تغير بها موقف المجتمع الذهني تجاه العنصرية، حيث تحوّل الأمر، في حياتي وأمام ناظريّ، من شيء مقبولٍ لا غبارَ عليه، إلى شيئ محرم ومحظور قطعيا. وفي وقتنا هذا، تدنت إلى حد كبير أعداد النماذج النمطية العنصرية على التلفاز، وتقلّص عدد الناس الذين يظهرون بوجوههم المطلية بالأسود وغيرها من تلك الأشياء التي أذكرها من صباي.

يعد الـ"جوليووج"، وهو عبارة عن عروسة في شكل كاريكاتير أو مغنٍ أسود اللون ملصق على برطمانات المربى من نوعية روبرتسون، من الامثلة الجيدة على ذلك، إنه شيء صغير لا يلقي إليه كثير من الناس بالا، وقد تكون هذه العروس السوداء صنعت بنيّةٍ أقل شرا وقتها في أواخر القرن التاسع عشر، ولكن في الوقت الذي كنا فيه مراهقين، كان الاسم قد اختصر فقط إلى الجزء الأول منه وهو "ووج" الذي يشير إلى شخصية جوليووج المشهورة التي ابتكرتها إنيد بلايتون (Enid Blyton) في قصص الأطفال "نودي" والتي كانت تمثّل شخصية لص عربات خبيث.

تم نزع هذا الشعار عن روبرتسون عند أول القرن، ويظهر التغيير التام الذي حدث بالمجتمع، في أنّ من غير اللائق بشكل قطعي الآن أن يتم إحياء ذلك الرمز مرة أخرى.

كان مقتل ستيفن لورانس، وتقرير ماكفرسون عن التحقيق الذي جرى بخصوص قسم شرطة العاصمة، حدثا فارقا كذلك. لقد ذكرت مقتل لورانس في وقت سابق، في سياق وصف المناخ الذي كنت أنمو فيه، فقد كان العنف الذي أدى إلى مقتله يمكن أن يحدث لأيّ منا: آرون عند موقف الحافلات، مو الذي هوجم بمطرقة، أو دان الذي أصيب بجرح قطعي في الذراع أثناء حمايته لوجهه، و"مات"، ولا يزال يذهلني انه لم تؤدِ أي من الحوادث، التي كنت طرفا فيها في أثناء الشبه طفولية الخاص بي، إلى مقتل شخص ما.

بقدر ما كان مقتل لورانس شيئا صادما، فقد كان انعدام تجاوب الشرطة مع الحادث بطريقة عادلة هو ما تسبب حقا في توترنا جميعا، حيث مثّلت حقيقة عدم إدانة أي شخص إشارة قوية إلى مجتمعات الأقلية، وبدا الأمر كما لو كانت الشرطة غير معنية، أو عديمة الكفاءة، أو كليهما، وكان ذلك سبب استمرار قيمة تقرير ماكفرسون بوصفه لحظة ذات أهمية ثقافية.

كان لهاتين الكلمتين، "العنصرية المؤسسية"، غالبا تأثيرٌ أكبر على العلاقات في هذا البلد من أي من الكتب التي تفوق الحصر عن هذا الموضوع. لم تكن المسألة تقتصر على بعض التفاحات الفاسدة، أو ضابط فاسد هنا أو هناك؛ بل كان هناك شيء وبائي بشكل أكبر متفشٍّ في الثقافة العامة، ولم يكن ثمة مناص من تغييره.

ولكي أكون منصفا في هذا الإطار، فقد تغيرت هيئة الشرطة، ولم يكن ذلك شيئا تم بين ليلة وضحاها -لا تتم حالات التحول الثقافي بتلك الطريقة-ولكنّ الموقف العام للشرطة كان قد شهد تحسنا، لا مراء فيه، عما كان عليه منذ عشرين عاما. بالطبع كان هناك الكثير مما يمكن أن يضاف بعد، كما أبرز حادث مقتل جين شارلز دي مينيز -البرئ من كل ذنب-ضربا بالرصاص في المترو، ولكنّ الشرطة كذلك لم تعد تصرخ "باكيز" من شاحنات اللحم الخاصة بها، وسبب ذلك يرجع جزئيا إلى أن الشرطة ذاتها لم تعد حكراً على البيض. ما وصل إليه الأمر الآن هو أن عاطف، وهو أحد أصدقاء عائلتي القدامى من خلفية باكستانية، يعمل

حاليا شرطيا مع شرطة ايسكس. إنه شيء مضحك حقا، أتذكر وأنا ألعب لعبة أطفال رائجة اسمها "قم بخداع جنجر" مع عاطف وأخته الصغرى سامية أننا كنا ببساطة ندق على أبواب الناس، ونفر هاربين. أعتقد كذلك أن إدانة قتلة لورانس الاثنين، في نهاية المطاف في 2012، كان شيئا هاما جدا. إن حقيقة ما تم من الالتزام بالتحقيق في الأمر، وإيجاد أدلة جديدة، ثم وضع نوريس ودوبسون في السجن بتهمة القتل أخيرا، هو شيء يشير إلى تغيير فعلي.

بالرغم من كل ما سبق، فقد كان لايزال هناك كم ضخم مما يتعين القيام به، ومع التسليم بكل هذا التقدم الجاري في قضايا العنصرية، فقد كان هناك شكل آخر من سياسات الهوية كامن في الظلال، ينتظر كي يخرج في نهاية المطاف بوصفه تحدياً أكثر تصلباً وعناداً. كان معظم البريطانيين الصغار ذوي العقيدة الإسلامية يرجعون لأصول شرق أسيوية، وقد ولدوا وكبروا في جيتوهات بريطانية مزدحمة أحادية الإثنية. كانت تلك الأماكن هي تلك التي تماثل تاور هاملتز(Tower Hamlets) بالنسبة للبنجلاديشيين، وبرادفورد (Bradford) لباكستانيي ميربوري. وعلى الرغم من حالات التوتر التي كانت تقع مع المجتمعات غير المسلمة في تلك المناطق، فقد كان جزءاً من المشكلة يتمثل في غياب التواصل مع الآخر. كان الحال الماثل، أنه فيما بدأ موضوع الأجناس يتراجع في الأهمية، وشرعت المجتمعات الأفرو كاريبية في الانضمام إلى الاتجاه السائد من خلال الموسيقى الرائجة والثقافة، فقد دخل عنصر مستجد على تلك الجيتوهات يتمثل في المسلمين الممزقين بالحروب، الوافدين من شمال أفريقيا والبلاد العربية والصومال. سرعان ما ظهر على الأرض جيل جديد من الشباب المولود في رماد النزاعات، وكان الشيء الوحيد الذي يجمعهم أنهم يتشاركون في هوية واحدة، ألا وهي: الإسلام.

بكل بساطة، لم يعتبر كثيرٌ من المسلمين المولودين في بريطانيا أنفسهم جزءا من جدال الأجناس السائد في المجال العام، وقد ساعدت قضية سلمان رشدي في هذا التحول نوعا ما. قامت هذه المجتمعات بتبني موقف أكثر انعزالا، واتباع سياسة الإقصاء الذاتي، وبالنسبة للكثير من الأشخاص، كان ثمة تغيير في طبيعة كيفية تعريفهم لأنفسهم، وبالتالي، فبدلا من تعريف أنفسهم بأنهم آسيويون بريطانيون كما كان والداي يفعلان، فقد كان هذا الجيل يقوم الآن بتعريف نفسه بوصفه مسلما بشكل حصري تقريبا. كانوا مؤمنين أن ولاءهم للمجتمع الإسلامي العالمي، الأمة، يقف حائلا بينهم وبين تعريف أنفسهم بوصفهم جزءاً من البلد الذي ولدوا فيه.

لمشاهدة كيفية تجذّر هذا الانفصال الذاتي، ما عليك سوى النظر إلى الطريقة التي تغيرت بها حفلات الزواج، فحين كنت مراهقاً، كانت الحفلات الآسيوية التي نذهب إليها مختلطة إثنيا ودينيا معا، وكانت كذلك

مختلطة تضم الجنسين معا، وكان الرقص شيئا طبيعيا. لكنّ حفلات زواج المسلمين تحوّلت ببطء شديد من كونها احتفالا، لتكون أقرب إلى طقس ديني وقور، بلا أي اختلاط بين الجنسين، وغني عن القول، بلا أي رقص. كان الفصل بين الجنسين يتم بواسطة ستار، وعادة ما يحرسه رجال محبطون يقومون بتقسيم العائلات حسب الجنس، وكان هذا التحول يرمز لكيفية التغيّر الثقافي الذي حصل.

كان سبب هذا التحول هو مزيج من التمييز المتبادل، والشك في الداخل المحلي، والوعي المتنامي بالأحداث الجارية وراء البحار. كانت البوسنة، تحديدا، كما كانت قضية سلمان رشدي قبلها، عاملا فارقا في تحقيق عملية تحول الهوية الذي حدث لدى مسلمي بريطانيا. كان ما يحدث في البوسنة هو ذبح المسلمين الأوروبيين، سكان البلاد الأصليين، زرق العينين وذوي الشعر الأشقر البيض، لا لسبب إلا لأنهم مسلمون. كان أثر ذلك عكسيا تماما، إذ بدأ مسلمو أوروبا -كرد فعل لتلك الفظائع- في إعادة تأكيد هويتهم الإسلامية بشكل يفوق ما كان عليه سابقا. وقد مثّل ذلك آلية دفاع طبيعية، ولكنّه تسببت كذلك في تصعيد عملية الانفصال الذاتي، كما أنه زاد من التحول تجاه تعريف هويتنا كمسلمين في الإطار السياسي.

سارعت جماعات تدعو إلى الإسلام السياسي، وهم الإسلامويون، للمشاركة في خضم تلك المعمعة. لم تسهم ظاهرة اخرى في صعود سياسات الهوية الإسلامية بقدر ما فعلت تلك الجماعات. سرعان ما أدركت تلك الجماعات -المنبعثة من الشرق الأوسط وجنوب آسيا في مرحلة ما بعد الاستعمار- أن ما كان يفوق فعالية الاشتراكية العربية في أثره على الناس إلى حد كبير، هو عقيدة تستغل المشاعر الإسلامية الموجودة لديهم بدلا من التقليل منها. انتشرت الجماعات الاسلامية بسرعة وتضاعف عددها ضمن النازحين إلى أوروبا مع طالبي اللجوء العرب والمهاجرين من جنوب آسيا.

كان هذا المنظور السياسي -بالنسبة للسنوات الوسطى في قصة حياتي-هو بالضبط ما كنت أؤمن به بحماس متقد، ولكنّ ذلك لم يحصل حتى توقيت لاحق. المهم حاليا، بشكل أساسي، هو معرفة أن صعود الجماعات الإسلامية كان عاملا محوريا في تحول المسلمين بعيدا عن هوياتهم الوطنية تجاه هوية إسلامية أكثر حصرية. استغرق الأمر بعض الوقت مني كي أصل لحل للكثير من تلك التحديات الملحة التي تمثلها أسئلة الهوية في عالمنا المعولم هذا. قد يكون الارتداد إلى أحضان الهويات الجماعاتية أداة مفيدة للتغلب على التفرقة القانونية والمؤسسية، بادئ ذي بدء وفي أساس الأمر، ولكن فيما وراء البعد القانوني، هناك نقطة ما، حيث لا يمكن حل قضايا الانقسامات الطبقية والاقتصادية والثقافية إلا من خلال تحقيق اندماج وتكامل ومشاركة متبادلة ومتزايدة بين الجميع في المجتمع الواحد. ما حدث خلافا لذلك أنه بدلا من الاندماج المتبادل، فإنّ ما شهدناه هو مجرد انتقال من العموم الإثني، حيث من المفترض أنه لا يصلح الا شخص ملون لتمثيل الملونين وما إلى ذلك، إلى العموم الديني، حيث من المفترض أنه لا يصلح لتمثيل المسلمين إلا مسلم. لم

تضف مثل تلك العمومية المتخندقة والمدافعون عنها، والذين أساؤوا للنوايا الأصلية لتعدد الثقافات، شيئا سوى الانقسام والبلقنة للمجتمعات الغربية وغيرها. وهذا الرأي هو تحديدا موقفي الحالي من تلك القضايا، ولكن هناك طريق طويل أمامي حتى أصل لهذه المحصلة. في البداية يجب عليّ أن اشرح كيف أصبحت إسلاميا في المقام الأول؟

كنت -مرة ثانية-في نفس المتنزه مع نفس الفرقة برفقة عثمان، وكذلك صديق يدعى ناس كان اسمه الأصلي كريستيان ناثانيال -وهو يوناني ومن خلفية يونانية أرثودوكسية، وكان مهتما مثلنا بذات الموسيقى، وكانت حقيقة أن جلده حنطي، كما هم أهل البحر المتوسط، كافية كي يعتبره حليقو الرؤوس "باكي"- لو لم يكن تحاملهم بتلك الخطورة، ويمثل ذلك القدر من التهديد، لكان مضحكا بشكل يدعو للأسى. كان ناس -تحت تأثير الوقت الراهن- قد تحول للإسلام، وغير اسمه الأول من كريستيان الى ناصر.

مرة أخرى، لمحنا ميكي وطاقمه؛ كان هناك حوالي نصف دستة منهم، يحملون مضارب كرة القاعدة، ويحملون السكاكين، بلا أدنى شك. أخذونا على حين غرة، ففررنا في اتجاهات مختلفة. في نهاية الأمر، وعندما تسلحنا بالشكل اللازم، خرجنا مرة أخرى باحثين عن بقية الفرقة، ومتجهين في طريق العودة الى نقطة لقائنا المحددة على ناصية شارع مقابل لمنزلي. كنا، عثمان وناس وانا، الوحيدين الذين عادوا، لابد أن الآخرين قد تفرقوا كل في طريقه.

ثم، ولا أعلم إن كان هذا عن حظ أم عن خبرة، رأينا ميكي وجماعته بالكامل متجهين إلينا. كنا أقل عددا بما لا يقاس، وكان هناك بعض العواميد الخشبية على جانبي الطريق، وبدؤوا في ضرب مضارب كرة القاعدة الخاصة بهم عليها، كأنما هي نوع من صرخات الحرب، وهم متجهون نحونا، ولكننا كنا قد أصبحنا مخضرمين في القتال بحلول ذلك الوقت، وهذه المرة، ورغم كوننا الأقل عددا بشكل صارخ، إلا أننا تمسكنا بمواقعنا ثابتين فيها. حصل ذلك خارج منزلنا مباشرة، وكان بوسعنا رؤية بابنا الأمامي. إن لم يكن لنا حق السير هنا، فأين -بحق الله- كان بوسعنا السير؟ كان معي سكيني المربوط على ظهري كالعادة، وكان عثمان يحمل حقيبة خضراء على ظهره.

استمرت المواجهة، وبالرغم من قلة عددنا فإنّ ميكي بدا قلقا، كنا ثلاثة فحسب، ولكننا نرفض التنازل عن موقعنا، مما أثار الشك في نفسه. ما تلى ذلك، وقد فاجأنا حدوثه، هو تقدم ميكي خطوة للأمام وطلبه التفاوض معنا. تبادلت مع عثمان نظرات مرتبكة، إذ لم يسبق أن تحدث ميكي بكلمة واحدة معنا من قبل. فجأة بدأت اللامنطقية -المبنية على كراهيته-بنحو مفاجئ تنطق جملا منطقية. استغرقنا الأمر برهة كي نعتاد على ميكي بوصفه أيّ شيء سوى شيطان آت من الجحيم خبير باستعمال السكاكين ولا يعرف من الكلمات سوى كلمة "باكي!" فحسب. حالما استجمعنا شتات أنفسنا، أشار عثمان إليه ليتجه الى الشارع، فيما عبر هو كذلك

الشارع، وانتظر ميكي لينضم إليه. خفت صوت صرخات الحرب الناجمة عن خبطات مضارب كرة القاعدة، وخطا ميكي، والقلق بادٍ عليه، تجاهنا لينضم لأخي، وتلى ذلك عدة دقائق متوترة. كان أخي وميكي في غمار الحديث، فيما تبادلنا أنا وناس مشاهدتهم ومراقبة رفاق ميكي الذين كانوا يرمقوننا بتحدٍّ، وكان الجميع متوثبا وأيديهم قابضة على مضارب كرة القاعدة، أو أصابعهم في وضع استعداد لإشهار السكاكين إن حدث وانفجر الموقف كليا.

بعد ما يقرب من عشر دقائق، لاحظنا أن الحديث قد توقف. كان ميكي وشقيقي يتجهان عائدين عبر الشارع، وقفا بين المجموعتين وتصافحا، وكان ذلك جنونا مطبقا، تابعت ـوأنا لا أكاد أصدّق عينيّ-ميكي وهو يعود لأصحابه ويخبرهم أن يتوقفوا.

قال لهم: "هذا يكفي يا رجال، لا مزيد من المشاكل هنا."

"هه، ماذا قلت له؟" سألت عثمان.

رمقني عثمان بقدر من الثقة البادية في عينيه قائلا: "أخبرته أننا مسلمون ولا نخاف الموت. إننا مثل هؤلاء الإرهابيين الفلسطينيين الذي يراهم على التلفاز وهم يفجرون الطائرات، إننا مفجرون انتحاريون. لقد تم تعليمنا كيف نصنع القنابل ومعي الآن واحدة في حقيبتي، فإذا حاولت حتى أن تقوم بحركة واحدة، فسوف أفجّر قنبلتي. ثق بي، إنني لا أهتم مقدار ذرة. إذا اضطررنا لقتل أنفسنا كي نهزمكم، فذلك ما سوف نقوم بفعله."

سألته: "اللعنة يا رجل! ماذا قال ميكي؟".

"لقد صدقني حين قلت له إنه يتورط مع الرجال الخطأ"

وبلا أدنى شك، فقد نجحت خدعة عثمان في استغلال عنصرية ميكي، فقد يكون قد شاهد الأخبار أو لم يشاهدها، ولكنه كان على علم تام بأدبيات سي 18 التي تعلمها، والتي تصور المسلمين بوصفهم إرهابيين، وتؤكد أننا كلنا قتلة متعطشون للدماء متى سنحت لنا أقل فرصة لذلك. وهكذا حين قال عثمان إن لديه قنبلة في جواله وأن لدينا روابط مع مفجرين انتحاريين، فقد أكد له بذلك كافة أحكامه المسبقة التي كان قد صدقها عنا.

"لو كنا نخاف الموت لكنا فررنا من أمامكم، ما الذي قد يدفعنا للوقوف هنا وأنتم أكثر عددا منا بهذا الشكل؟" قال له عثمان:

"يرجع ذلك لأننا نملك القدرة على استدعاء المساندة وقتالكم حتى الموت."

كان استدعاء المساندة والدعم نوعية اللغة التي يفهمها ميكي، حيث أن ذلك بالضبط ما كان قد فعله هو ذاته في مواقف سابقة، وبالتالي استنتج أنه من المؤكد أن يكون ما يقوله عثمان شيئا نستطيع فعله نحن أيضا. لو كان حتى قد اهتم بأن يتحقق من البروباجندا العنصرية التي ابتلعها، لربما كان قد فهم الخدعة، ولكّنه

شخص يعتبر أن" ناس" وهو اليوناني الأصل، يندرج تحت مسمى "باكي". كانت مثل تلك المقولات معقولة تماما في ضوء نظرته المختلة للعالم.

كان النقاش الذي دار بين عثمان وميكي نهاية مشاكلنا مع العنصريين التابعين له، إذ قرر ميكي أننا أخطر من اللازم، ولنا علاقات تجعلنا عصبيين على القتال، وبدلا من كل ذلك فقد قرر أن إرساء السلام معنا أفضل له. وفيما كان ميكي يشرح لجماعته موقفه من حيث التنازل عن القتال، فقد كان هناك تساؤل لازال يشغلني، وكما فعلت في نقطة الشرطة بالضبط فقد قررت أنني، كي أفهم، يجب أن أسأله عن شيء ما.

سألته: "اسمع، هل أستطيع أن أسألك سؤالا؟"

أجاب ميكي: "حسنا"، ولأول مرة، رأيت نظرة مختلفة في عينيه. كان الغلُّ قد اختفى منهما، وبدلا عنه، كان هناك قلق وشذرة من الخوف في نظرته.

"أريد أن أعرف، لمَ بدأت كل هذا في المقام الأول؟" قلت له، "في الماضي، في المتنزه في ذلك اليوم الذي طاردت فيه شيل، بدا كما لو أنك تعرف اسمه. ما الذي حدث؟"

تسمّر ميكي، ولمرة واحدة في حياته كان غير واثق من نفسه، ومع ذلك كان رده مثيراً للشفقة: "لقد تعبنا من جماعتكم التي تخطف نساءنا، كنا قد رأينا رفيقك شيل يجتذب كل هؤلاء الفتيات البيض وكنا قد اكتفينا من ذلك."

كان الأمر مثيرا للسخرية في الواقع؛ إذ ظهر أنّ الدافع الذي أدى إلى تلك الهجمة الأصلية كان يقتصر ببساطة على غيرة عتيقة الطراز مع لمحة من العنصرية. كان ميكي قد رأى الطريقة التي أثار بها الهيب هوب اهتمام الفتيات، وكيف كن كلهن يرغبن في الاشتراك في المشهد.

أثرت فيّ خدعة عثمان بشكل أكثر عمقا من أي حدث وقع لي حتى ذلك التاريخ، حيث أدركت للمرة الأولى عبيثة وانعدام جدوى الاعتماد على الرجال. مع التسليم بكل الأمان الذي وفرته معرفة أناس مثل روان، فقد كان هناك حد لا يمكن لذلك أن يتعداه. كان روان صخرة، وكنت أدين له بالكثير، ولكن لم يكن ثمّة طريقة يستطيع من خلالها أن يتواجد في كل الوقت، وفي حين وفر حمل السكاكين حماية محدودة، فإنّ دورها لم يتعدَّ أنها صعدت المشاكل بدون التعامل مع جذور المشكلة.

كانت المشكلة ببساطة هي الاحترام، ما أدركته حينئذ، هو أنه حين سألت ميكي لمَ هجم علينا بادئ ذي بدء، فقد حدق بي وحدثني بطريقة مختلفة عما سبق. لم يعد يحتقرني، أو ينظر لي من علٍ. كان في الواقع خائفا، وقد نبع هذا من الهوية الجديدة والواثقة التي تبناها عثمان؛ الإسلاموية. كانت الإسلاموية قد قامت بما عجزت عنه سنوات من القتال بالسكاكين. كانت قد انتصرت في تلك الحرب النفسية وهزمت عدونا. ولأول مرة، لمحت قبسا من قوتها، وكيف كانت قادرة -بضربة واحدة لا غير-على تبديل مركزي، من ضعف إلى

قوة. كان عثمان -الذي كان عند هذه النقطة قد أصبح إسلامويا ملتزما-يتحدث عن هذا الأمر منذ عام كامل، ولكنني لم أكن قد أخذته أبدا على محمل الجد. كنت لم ازل "بي بوي": كان ذاك ثقافتي، وكتاب القواعد الخاص بي الذي استخدمه لعبور سباق الحواجز الذي يسمونه حياة.

كان كل ما مر بي من العنف الذي تعرضت له، والتفرقة التي عانيتها من الشرطة، والوعي الأكبر بالنزاعات الخارجية -مثل البوسنة-قد جعلني بلا شك مستعدا لاستقبال الرسالة الإسلاموية ومرحِّبا بها. كنت أبحث بكل طاقتي عن إجابتي. لكن، وفيما كان كل ذلك خلفية لا غنىً عنها، فقد كانت تلك الأمسية في المتنزه، والخوف البادي في أعين ميكي، هو ما حفّزَ قراري للمضي قدما في هذا الأمر.

الآن، وهنا، مع عدو مهزوم ومنسحب، أدركت أخيرا ما الذي كان أخي يتحدث عنه، فهمت أخيرا أن الإسلاموية بوسعها أن تمنحني الاحترام الذي كنت أشتهيه منذ كنت في المدرسة الابتدائية. كان الهيب هوب قد ساعدنا كثيرا، فقد خلق لنا أصدقاء جدد، ولكنّ ذلك لم يكن كافيا لدحر أعدائنا، ولم يكن كافيا لتزويدي بالشجاعة لأساعد مات. ولكن هنا، واليوم، ونحنُ أقل عددا بشكل كبير، وقفت مكاني مع عثمان، وواجهنا، وانتصرنا، لأننا استحضرنا الله. كانت الإسلاموية في محادثة واحدة قد حققت ما لم يستطع الهيب هوب تحقيقه. كانت حية، تنبض في قلوب البشر، وكانت مستعدة للتضحية بكل شيء لاستعادة كرامتها المفقودة. لم تكن مهتمة بغناء "سحقا للشرطة"، بل كانت تصرخ من فوق ذرى الجبال: "سحقا لكم جميعا!"، وكنت أريد جرعة من تلك الشجاعة.

الفصل السادس

عندما سقط مسجد بابري في الهند

من الأهمية بمكان إدراك الفرق بين الإسلاموية والإسلام، إن الإسلام دين يمكن مقارنة الشريعة المنبثقة عنه مع التعاليم التلمودية أو الكنسية. يحتوي الإسلام، بوصفه دينا، على الانشقاقات العقائدية والمنهجية والتشريعية والتعبدية المعتادة في كل الديانات الأخرى، إذ يوجد، فيما يتعلّق بالأمور العقائدية، خلافات قديمة نتج عنها فصيلان رئيسيان هما السنة والشيعة اللذين انشق عن كل منهما ومن رتبهما فصائل متعددة. وإلى جانب النزاعات المنهجية، فإنّ المنظّرين التشريعيين التقليديين يتجادلون حول ما إذا كانت أفضل طرق تناول المقدس هي من خلال التدبر العقلي النظامي، أم من خلال التراث الشفهي.

أما من زاوية الاختلافات التشريعية، فقد نتج عن الإسلام مدارس تشريعية وقانونية كبرى، ومن الناحية التعبدية، فلطالما تواجد مسلمون تركوا الدين ومسلمون تقليديون ووصوليون ومتطرفون، لكنّ ما يعلو على كل هذه النزاعات الدينية، ويؤثر على كثير منها سياسيا، هو عقيدة الإسلاموية. يكمن تعريف الإسلاموية بكل بساطة في الرغبة في فرض أي تفسير بعينه -أيا كان ذلك- للإسلام، بوصفه قانونا يسري على المجتمع. عند فهمها بتلك الطريقة، فإنّ الإسلاموية ليست انشقاقا دينيا آخر، بل هي فكرة عقائدية تسعى إلى الوصول إلى نظام سياسي متماسك يمكنه أن يحتوي كل تلك الانشقاقات بدون أن يتخلص بالضرورة من أي منها.

في حين تتناول النزاعات في إطار الإسلام مسألة تعامل الشخص مع الدين، فإنّ الإسلاموية تسعى الى تناول مسألة تعامل الشخص مع المجتمع.

كان ما ألهم الإسلاموية -في إطار كونها مشروعا سياسيا-هو الفاشية الأوروبية المتصاعدة، ومثل نظيراتها من العقائد الأوروبية، فلم تكن الإسلاموية آمنة من انشقاقها هي نفسها. أرادت بعض الفرق أن تحقق "النظام الإسلامي" من خلال العمل مع الوضع القائم، وكان هؤلاء إسلامويون سياسيون مثل الإخوان المسلمين، في حين كان غيرهم أكثر ثورية وراغبين في الانقلاب على الوضع القائم.

تبدو مثل تلك الفرق الإسلامية للعين غير المدربة كما لو كانت "وسطية"، لأنها تسمو فوق النزاعات الطائفية، وتميل إلى عدم الرجوع إلى الأصولية في المسائل التعبدية، مع التركيز على السياسة بشكل أكبر، ولكن، حين نفهمها طبقا لما تم ذكره آنفا، يستطيع المرء أن يرى أنه وبالرغم من أن التطرف الديني

والأصولية قد ينتج عنهما تحديات مجتمعية ماثلة، فإنّ الإسلاموية هي التي تسعى للحصول على السلطة الحقيقية. إن الوجه الشمولي للإسلاموية –مثل فاشيي موسوليني والذين كانوا تقدميين اجتماعيا-هو محرك القلق الأكبر. سوف تؤثر الإسلاموية –بعد ذلك الزمن بكثير– على الأصوليين الدينيين كذلك، وسوف ينتج عن ذلك مولد الفصيل العسكري، وهم الجهاديون، وكذلك بزوغ نجم جماعات مثل القاعدة. فالجهادية هي إذن ما نتج عن دمج الدين المفسر بشكل حرفي مع السياسات الإسلاموية.

أسفرت رحلتي الشخصية في خضم الإسلاموية عن انضمامي لجماعة ثورية معروفة باسم حزب التحرير، وهو فصيل يتخذ موقعا وسطا بين الإسلامويين والعسكريين. يهدف حزب التحرير الى توحيد جميع البلاد ذات الأغلبية المسلمة في "دولة اسلامية" مع تبني مصطلح الخلافة ليكون دالا عليها، وكانوا يأملون في الحصول على السلطة من خلال الانقلاب العسكري ومن ثم السعي لفرض نسخة واحدة من الإسلام بحسب ما يرتؤون على المجتمع.

بدأت تلك الرحلة في 1992 بعثمان وهو يسير في الطريق العمومي في ساوث إند ويتلقى منشورا ورقيا. كان من الطبيعي بالنسبة لنا، بما أن ساوث إند كانت بيضاء لهذا الحد، أن نتوقف ونتحدث مع أي وجه ملوّن نراه. كان القائم بتوزيع المنشور رجل يسمى نسيم غاني وهو مسلم بنجلاديشي بريطاني، شب مثلنا في ساوث إند، وكان يدرس الطب في بارتس في لندن. وبدا أنه شخص بوسعنا فهمه بسهولة: كان مفوها وذكيا، ومما أثار إعجابنا، بوصفنا في الخامسة أو السادسة عشرة من عمرنا، أنه كان يدرس الطب؛ إذ يتعين عليك أن تكون ذكيا وملتزما لتحقق ذلك.

كان المنشور الذي سلّمه نسيم لعثمان يدور حول مسجد بابري في مدينة إيوديا في شمال الهند، والذي تم بناؤه على يد إمبراطور المغول الأول بابار، ويعود تاريخ وجوده في ذلك المكان إلى عام 1528، وكان مثار نزاعات دائمة وممتدة بين الهندوس والمسلمين، حيث كان الهندوس يعتقدون أنه مسقط رأس الإله الهندوسي لورد رام. بدأت التقارير حول العنف الديني عند المسجد في خمسينيات القرن الثامن عشر، وبحلول عام 1984 بدأ الهندوس في حملة "لتحرير" الموقع من خلال استبدال المسجد بمعبد للإله رام. عندما صدر حكم محكمة ينص على حماية المسجد، قرر مناصرو الهندوس التصرف بأنفسهم، حيث قام حشد مكوّن من 200،000 إنسان باقتحام الحاجز المقام حول المسجد وإزالته باستخدام مزيج من المطارق وأيديهم العارية، وقال شهود العيان إن الشرطة التي تم تعيينها لحماية المسجد وقفوا جانبا بدلا من التدخل لحمايته.

كان ذلك الحدث شرارة بعض أسوأ أحداث العنف التي شهدتها الهند منذ عقود كاملة، إذ قُتل ما يزيد عن 2000 شخص في أحداث الشغب التي تلت ذلك.

"هندوس بشعون يذبحون المسلمين" كان ذلك العنوان الكريه نوعا ما هو ما يتصدر المنشور، لازلت أتذكر ذلك تماما. لقد غير ذلك المنشور مسار حياتي على نحو من المرجح ألا يرد مطلقا على ذهن مؤلفه المجهول. كان المنشور قد فضح سلوك المتطرفين الهندوس، في واقعة صادمة، وتحمل نذر غضب عميق. بدأ عثمان، في هذا المنعرج من حياته، يهتم بالسياسة، وذلك تحت تأثير "عدو الشعب" للبروفيسور جريف وأمثاله، وكان يتابع الانتفاضة التي كانت تجري على قدم وساق ضد الاحتلال الإسرائيلي لغزة والضفة الغربية، ودور منظمة التحرير الفلسطينية التابعة لياسر عرفات فيها. كان صراع التحرر الفلسطيني هذا، والرد الإسرائيلي الكاسح عليه، مع الدعم الأمريكي الضمني لإسرائيل، يمثلان جرحا نازفا في العلاقات الدولية منذ فترة طويلة. وقد شكّل ذلك بلا شك، في سياق قصتي والكثير جدا غيرها، عاملا يقدم تبريرا للحجج الإسلاموية عن الظلم الذي يتعرضون له، إذ ظهر ذلك الصراع، واللامبالاة الغربية المصاحبة له، كخطأ فادح. وبدا أنّه من اليسير التوحد مع حركة المقاومة، حيث أنها دعمت ما كنا نمر به في شوارع ساوث إند، إذ كان المسلمون هم من يقع عليهم الظلم، وكانت الدولة هي التي لا تلقي بالا لذلك، ومثّل ذلك كله عنصرا في دفع هويتي بعيدا عن كوني بريطانيا أو باكستانيا، وتجاه تعريف ذاتي، حصريا، بأنني مسلم سياسي.

كانت الانتفاضة مستمرة منذ 1987، وهكذا، بحلول أوائل التسعينيات، لم تعد شيئا جديدا. وكما هو الحال في الهجمات العنصرية المنتظمة، فقد كانت القصص الواردة من غزة والضفة الغربية لا تعدو عن كونها جزءا من الوضع القائم: هذا هو ما كانت الأمور عليه. أما السبب الذي لفت انتباه عثمان إليها فهو حرب الخليج الأولى في 1991، عندما غزا صدام حسين الكويت، وقامت قوات مشتركة تابعة للأمم المتحدة بطرده منها. كان صدام حسين، على الرغم من كونه طاغية وحشيا، يعد بطلا بالنسبة للقضية الفلسطينية، وكان استفزازه لإسرائيل (بالتهديد بإطلاق صواريخ سكود على مدن إسرائيلية) يبقي على وجود القضية في الأخبار، وهو ما خطف أنظار عثمان.

وفضلاً عن كلّ ذلك، فقد مثّل حادث مسجد بابري في الهند شيئا مختلفا، إذ بدا التعدي على مكان عتيق للعبادة الإسلامية وتدميره صادما بشكل خاص، وكان عدد القتلى في العنف الذي تلى ذلك مرعبا بحق. دعم ذلك الحادث بقوة الرسالة التي كانت منشورات نسيم وحزب التحرير تروّج لها، ففي ساوث إند وغزة والبوسنة والعراق والهند، وحيثما أدرت وجهك في الدنيا، كانت القصة نفسها تجري: مسلمون عزّل ومستضعفون ومستهدفون، وقد حان الآن وقت القيام بشيء ما حيال ذلك. ففي نهاية المطاف، نحن لا نؤمن بأنّ الحلّ هو أن ندير الخدّ الآخر.

كان نسيم يمثل كل ما عجز إمام المسجد في ساوث إند عن تمثيله. لدينا هنا شخص صغير السن، أنيق، مفوّه وناجح، ولم يكن ملتحيا. كان يدرس ويعيش في لندن، ومثّل ذلك بالنسبة لنا، نحن القابعين على حواف ايسكس، أسلوب حياة ساحرا ومثيرا. حين أعطى نسيم عثمان ذلك المنشور، كان نسيم بحد ذاته، هو بالضبط الشخص الصحيح في المكان الصحيح في الوقت الصحيح. كان عثمان مستعدا لمثل تلك الرسالة، وعندما اقترح نسيم أن يأتي إليه ليتحدثا أكثر حول الفكرة، وافق عثمان.

من الجدير بالذكر في هذا السياق، كما سيظهر فيما بعد، أن نسيماً لم يكن موزع منشورات وحسب، بل كان في الواقع في طريقه ليصبح قائد حزب التحرير في المملكة المتحدة، ومؤسس المنظمة في بنجلاديش. أستطيع أنا، بوصفي شخصا انطلق بعد ذلك ليكون هو نفسه شريكا في حركات سياسية وقام بمقابلة العديد من القادة السياسيين من كل الأطياف، أن أخبرك بأن نسيماً هو أحد أكثر الناس الذين قابلتهم التزاما في مجال تجنيد المشتركين الجدد. لم يكن وسيما بشكل ملحوظ، ولا ذكيا بشكل خاص، أو أنيقا جدا في ملبسه، لم يكن كذلك عميق الورع، ولا مفوها بشكل فائق، ولكنه كان يملك -بالضبط- المستوى الصحيح من كل تلك الخصائص معا، مما جعله مؤهلا ليكون من نوعية القائد الآمن الودود الذي يعتمد عليه. نادرا ما أتيح لي الالتقاء بأي شخص يمتلك مثل تلك المهارة في انتقاء الكلمات الصحيحة في الوقت الصحيح بحيث يقنع الواقف أمامه أن يتبعه. لم يكن شخصا يقود من خلال القوة الغاشمة لشخصيته أو أي سلطة كانت، بل كان شخصا عمليا براجماتيا أكثر من كونه شخصا عقائديا. كان رجلا عاديا ولكنه كان -إن صح القول- عاديا بشكل استثنائي.

سوف يقوم نسيم لاحقا بلعب دور كبير جدا في حياتي، ففي السنوات التالية لذلك، وفيما هو يترقى في المراكز، صرت نوعا ما تلميذه النجيب. يبدو لي –عندما أتمعن في الماضي- أن مجيئه من خلفية مماثلة لخلفيتي يعد مصادفة مثيرة للانتباه، وربما كان ذلك جزءا من سبب ارتباطنا، فلو لم يكن نسيم في عطلة من الجامعة وقرر أن يوزع المنشورات في ساوث إند، فلربما كانت حياتي قد اتخذت منحى مختلفا بالكامل. ولكن ما حدث هو أنه استوقف عثمان، وفتح معه حوارا، وهكذا كان مولد الرابط الأول في المرحلة التالية من حياتي.

بدأ عثمان في مصاحبة نسيماً في خطبه و حلقاته الدراسية، وسرعان ما أصبح إنسانا آخر، فكل ما كنا نقوم به معا -الذهاب للنوادي ومطاردة النساء– صار الآن محرما لديه. في البداية، ظننته فقد عقله، كنت أسأل: "ما الذي أصابك يا رجل؟". كنت أسخر منه وأضحك عليه، ولكنه كان يفاجئني ويتقبّل ذلك بلا رد فعل. توقف عن الخروج مع جماعة أصحابنا، وأبلغ النساء أن يتوقفن عن الاتصال به في منزلنا. بصفة عامة، ما حادث هو أنه قام بالانسحاب من كل شيء.

بقدر ما فاجأني تحول عثمان، فقد أسعد أبي. بدا الأمر في المنزل، لسنوات عدة، كما لو كنا أنا وأخي أخذنا جانب أمنا – وانحزنا لأرائها الأكثر ليبرالية. لأول مرة، كان أحد أبناء أبي يهتم بالإسلام بشكل جدي. كان أبي عند تلك النقطة لا يفهم ماهية الإسلاموية. ما رآه أمامه هو ابنه وهو يهتم بالدين، ويتبني سلوكا يشابه المسلم التقليدي الذي لطالما أرادنا أن نكونه. كان موافقا على ذلك ومشجعا له تماما، مما أدى في نهاية المطاف إلى تغيير في الجو العام في المنزل: كان ميزان القوى، في الواقع يشرع في التبدل. كنت ترى ذلك في رد فعل آبي. لم تعرف كيف تتفاعل مع انتقادات عثمان لسلوكها أو تستجيب لها. لاحقا، وحين انضممت اليه، فإنها سوف تصبح حتى أكثر انعزالا.

كان انطباعي عن ممارسة الإسلام -عند تلك النقطة- لازال قائما على تجربة زيارتي للمسجد في بدايات المراهقة، ومن ثَمّ فلم يبدُ تحول عثمان بالنسبة لي حدثا فجائيا فحسب، بل بدا كذلك وكأنه خطوة ارتداد للوراء. كان ارتداد عثمان لذلك النسق، ورفض كل حياة النسوة والحفلات شيئا ضد المنطق، ولكن وعلى الرغم من كل مشاعري تلك، فقد كان عثمان مثابرا بشكل لا يوصف في محاولاته كي يستقطبني معه في هذا الأمر.

اشتغل عثمان خلال ذلك العام على استقطاب الأصدقاء الذين اعتقد أنهم أقرب لتقبل حديثه مثلي أنا ومو وناس، وفي نهاية المطاف، آمنا به جميعا. لم يكن هناك –رغم تجاهلي لما قاله في البداية– سبيل لإنكار ثقته الداخلية أو إيمانه الوثيق بذاته حين يتحدث. ومع استمرار حديثه معي، أدركت أن إحدى النقاط الأساسية التي لا يسع الكثيرون فهمها عن الإسلاموية، تكمن في أن الطريقة التي يتحدث بها عثمان لم تكن الطرق القديمة الدينية المطنطنة التي يتبعها الإمام باستخدام العصا، كان يتحدث عن السياسة وحول الأحداث كما تجري في ساعته وتاريخه. ويعد هذا الفهم شيئا مفصليا في إدراك ما تعنيه الإسلاموية حقا: ليست حركة دينية بعواقب سياسية، بل هي على العكس حركة سياسية بعواقب دينية.

كان عثمان قد تعلم بشكل جيد ما تلقنه في حلقات الدرس، ولا يوجد أدنى شك في أن نسيماً كان له معلما ممتازا. كان نسيم قادرا على تبسيط نظرياته في سرديات بسيطة مترابطة، وقد تشبع بها عثمان تماما. كان – كجزء من تدريبات حزب التحرير – يملك الإجابات والحجج المضادة في متناول يديه، بحيث يستطيع الرد والمحاججة عند إلقاء أي أسئلة أو الاعتراض عليه. كان مزيج تلك المهارة مع إيمانه الداخلي بما يقوله شيئا مثيرا للإعجاب.

عرف نسيم بأن كلا منا، أنا وعثمان، معاديان للمؤسسة (السلطة) بالفعل، وكان يعرف أن ما يجب عليه القيام به هو تحويل مسار طاقاتنا من الهيب هوب وقضايا العنصرية إلى شيء أكثر جدية وأكثر عالمية من ذلك، وقد كان لديه ما يحتاجه بالتحديد ليحقق هدفه، وهو التحجج الإسلاموي. فقد بدى ذلك التحجج سموما

قوية الأثر، وكما هو الحال، في كثير من الأحيان، في حالة كل الحجج والبراهين التي تبدو مقنعة، فقد كان فيها بصيص من الحقيقة. حاجج نسيم بأن المعاناة التي كنا قد مررنا بها في ساوث إند، وهجمات الكومبات 18، والتفرقة التي شعرنا بها من طرف الشرطة لم تكن كلها أحداثا معزولة علي وجه الإطلاق، بل كانت جزءا من صورة أكبر. كان الأمر يتعدى ساوث إند، ويفوق حدود أوكندون، وباقي ايسكس، إننا واهمون إن كنا نعتقد أن الأمر مجرد عنصرية فحسب. نعم، كانت العنصرية إحدى العوامل طبعا، ولكن حتى لو وصلنا لحل لها، فلن يرضى عنا المجتمع الغربي أبدا. ما هو مستوى بياض البشرة الذي تستطيع أن تحظى به للتفوق على بياض لون مسلمي البوسنة، و ماعليك الا ان تلقي نظرة على ما يجري هناك، في حين تقف بقية أوروبا متفرجة، وأضاف أنه يجب أن نلتفت إلى إخوتنا في فلسطين، في كشمير، أو إلى المسلمين الذين يتم قتلهم عقابا لهم على دفاعهم عن شرف مسجد بابري في الهند. ما هو سبب أن كل نزاع وحرب في أيامنا هذه ينطوي على مقتل مسلمين. هل أنتم بهذا العمى كي تصدقوا أن كل هذا مصادفة؟ هل أنتم في ضحالة العنصريين كي تعتقدوا أن الأمر يقتصر على لون البشرة؟ الحقيقة هي أنّ هناك جهودا دولية مبذولة للحط من قدر المسلمين. إنهم يتدخلون في الكويت من أجل البترول، ولكن يقفون جانبا متفرجين حين يتم قتل المسلمين في البوسنة، لأنهم في الحقيقة لا يستطيعون تحمل النفوذ الإسلامي في قلب أوروبا. إن كانوا غير قادرين على احتمال البوسنيين البيض، فما الذي يجعلك تعتقد أنهم قد يقبلونك أنت يوما ما؟ لقد انحدرنا من دولة عظمى - تتمثل في الخلافة الاسلامية- إلى موقع الاقلية المستضعفة التي يتم طعنها في شوارع ايسكس، وقد تدهور بنا الحال، حتى صرنا حتى لا نعرف كيف نقوم بتعريف المشكلة". لم أكن –حتى تلك المرة الأولى التي ذكر فيها نسيم مفهوم الخلافة– قد سمعت عنها من قبل، ولكن ذلك لم يزد حجته إلا قوة. "لماذا في رأيك لم تسمع عنها من قبل؟" سألني نسيم، "لأن الغرب هو من قام بكتابة كتب التاريخ و قرر ما الذي يريد أن يتم تدريسه، حتى في أراضي المسلمين، بعدما زرعوا فينا طرقهم الاستعمارية. طبقا للنسخة الرسمية من الأحداث، فقد كانت آخر معاقل الخلافة تسمي الامبراطورية العثمانية إنهم لا يطلقون عليها اسمها الحقيقي. انحازت هذه الخلافة إلى الألمان ضد البريطانيين في الحرب العالمية الأولى، ولذا لا يريدون أن يخبروكم بتلك القصة. يخبروكم بدلا من ذلك أن الامبراطورية التركية هي ما تم تفكيكه لأنّ ذلك هو ما يريدون منكم تصديقه. لا يريدون أن تعرفوا ماذا كانت الخلافة حقا، هل تعتقد أن الخليفة العثماني كان ليقف جانبا ويسمح بالمذابح في حق البوسنيين المسلمين؟ كان المسلمون متحدين وتحت حماية هذا الكيان قبل عام 1924. لا يريد الغرب لذلك أن يحدث ثانية، ولذا يعملون بكل جدية وجد ليمنعوا إعادة توحيد المسلمين."

كان هذا المنطق هو ما أدى لموقف حزب التحرير المستغرب نوعا ما في دعم غزو صدام حسين للكويت خلال حرب الخليج الأولى، حيث دعموه لأنه يتطابق مع حججهم حول المسلمين المتحدين في كيان

واحد، وكان كذلك يوضح سبب التدخل الأمريكي -لم يكن من أجل مناصرة مبدأ السيادة الوطنية- بل لأنهم يريدون منع بدايات تشكيل مثل ذلك الكيان. لم يكن الأمر أن حزب التحرير كان من معجبي صدام، بل علي العكس من ذلك، إذ كان أول شهداء حزب التحرير من قتلى صدام حسين في 1964، لأنهم كانوا من المعارضين اللدودين لفكرة الاشتراكية العربية– البعثية، لكن، وفي حال ما إذا كان صدام قد أصبح حاكم بلدين، فقد كان ذلك يعني التخلّص من طاغية من عدد الطغاة الذين يتوجب على الحزب نزعهم من الحكم.

كان ما احتج به نسيم يتمثل في أن القرار الغربي في رد صدام على عقبيه وتدعيم حدود الكويت الإقليمية لا يتعدى كونه تدعيما لماضيهم الإمبريالي. كان البريطانيون والفرنسيون قد قاموا بتشكيل الشرق الأوسط توقعا لانهيار الخلافة العثمانية: كانت تلك البلاد تملك حدودا تم رسمها –حرفيا– بمسطرة في قمة سايكس بيكو في 1916. ألقِ نظرة على الزاوية القائمة التي تفصل مصر عن السودان: هل هذا فاصل طبيعي تاريخي؟ تلك مفارقات تاريخية إمبراطورية لم تزل مرئية لنا على خرائط الوقت الحالي. كانت كل من العراق والكويت كيانات مصنوعة صنعا، إن الغرب في تدخله لحفظ هذه الحدود إنما يدعم القواعد الكولونيالية الاستعمارية الخاصة به، وليس قواعدنا نحن.

كان كل شيء يخص الشرق الأوسط، طبقا لحزب التحرير ناتجا عن هذه الكولونيالية أو الاستعمارية، بما فيها حتى حكومة المملكة العربية السعودية، وهي ظاهريا نظام حكم إسلامي غائر التحفظ، ولكنها في حقيقتها نظام دمية غربي – يسمح للأمريكيين بإنشاء قواعد لقواتهم وبيعهم نفطهم. كانت المملكة السعودية، في الواقع، قد خلقت كمكافأة لآل سعود على ثورتهم ضد الخلافة. كانت المنطقة بالكامل محكومة بواسطة عملاء للغرب يقومون بتعذيب المسلمين ومنعهم من السلطة: كان الحكام أمثال مبارك في مصر، والشاه في إيران قبل سقوطها في 1979، وحتى صدام حسين، مدعومين من الغرب لفترة تمتد إلى سنوات طويلة. كان الغرب يتشدق بالديموقراطية، ولكنه كان يستمر في ضخ الملايين في دعم هؤلاء الطغاة الوحشيين لكي يمنعوا القوة الحقيقية -الإسلام- من الوصول للسلطة. بالنسبة لحزب التحرير، لم يكن أي من تلك الأنظمة شرعيا: كانت سلطتهم السياسية تقوم على سلطة أسيادهم الحاليين وهم الكولونياليون الجدد.

كنت في السادسة عشرة من العمر حين بدأت في معرفة كل هذا. عندما تكون في ذلك العمر، وغاضب ولا منتمٍ بالفعل قبل ذلك، فأنت معرض جدا للوقوع في فخ المطلق. كانت عولمة مظلوميتنا بهذا الشكل هي ما سوف يعرفه الكثيرون لاحقا، بوصفه السردية الإسلاموية ذات التأثير الكاسح، والتي سوف تمضي قدما لتحرك قلوب آلاف المسلمين اليافعين حول العالم، مما أدى بدوره، إلى خلق فرق وجماعات تقوم بارتكاب العديد من الفظائع تحت راية هذه السردية. في ذلك الوقت، قبل بزوغ أي بادرة لمولد القاعدة، كان كل هذا يبدو لي قابلا للتصديق. لم يكن لدي المعرفة السياسية الكافية كي أعود إليهم مبديا أي اعتراض على

ما يقال لي، ولم أكن أثق في السلطات التقليدية كي أستقي منها الحقيقة. كان بوسعي أن أرى الحماس الذي يدافع به عثمان عن موقفه المستجد، واستمع الى سرديات نسيم المغزولة بعناية، وهي تنساب بنعومة من بين ثنيات ما كان يقوله، وكان بوسعي أن أشعر بالطريقة التي تناغمت بها السردية مع تجربتي الشخصية، وأن أستشف المزاج السائد في الشارع. كان الأمر –في إطار كل ما كان عقلي الصغير يراه حولي– يبدو قابلا للتصديق.

في بادئ الأمر، التزمت بما كنت أعرف: الهيب هوب والرسائل المضادة للثقافة السائدة التي كانت تحتويها كلماته، ولكن حتى هنا على هذا المستوى، كانت الأمور تتغير. فقد كان هناك دوما -داخل بابليك انيمي- صوتان متعارضان على الميكروفون، كانت الفرقة أولا وأخيرا فرقة شاك دي، الذي كان إيمانه الكاسح بقوة السود، وبضرورة ضمان وصول أعمال مارتن لوثر كنج ومالكولم إكس إلى الأجيال الجديدة، قد منح رسائل بابليك إنيمي سلطانا نافذا لا تشوبه شائبة، ولكن على الجانب الآخر، فقد كان البروفيسور جريف في ذات الأهمية بالنسبة لرسالة الفرقة. كان جريف عضوا في أمة الإسلام، ولم يكن يعاقر الخمر ولا يدخن، و كان جنود العالم الأول، الخاصون به، متشحين بعدة عسكرية ويحملون رشاشات آلية مقلدة على المسرح. كانت سياسات جريف أكثر أصولية و محط خلاف أكبر. كان هناك تحقيق صحفي له في الواشنطن بوست، ادعى فيه "أن اليهود أشرار.. (ومسؤولين عن) غالبية الشر الذي يجري في الكرة الأرضية". تساءل جريف عما إذا كانت "مصادفة أن اليهود يتحكمون في تجارة المجوهرات (Jewelry) وكلمة Jew بالإنجليزي معناها يهودي وهو المقطع الأول من الكلمة؟" كانت استجابة الفرقة هي رفد جريف بتهمة معاداة السامية. كان -انفصال الفرقة- بالنسبة لمعجب وغاوٍ مثلي حدثا صادما، كانت بابليك انيمي قد جعلتني كائنا سياسيا، وكان هناك الآن شقاقات في المعسكر الخاص بهم. هكذا كان، أنه وبينما منحني الهيب هوب سابقا وفي وقت ما القوة والهوية، فقد تدنى تأثيره إلى حد ما بسبب ذلك الارتباك. كنت الآن أواجه شقاقا يوازي الشقاق الجاري في المنزل بيني أنا وعثمان، وكنت أكافح بكل طاقتي لكي أقرر الطريق الذي سوف أمضي فيه.

أما الذروة التي حددت طريقي -بالرغم من كل ما سبق ذكره- فهي الاجتماع الأخير مع ميكي، كان استعراض القوة الذي كنت أحد شهوده في أوكندون يبدو الآن كما لو كان حادثا ضيق الانتشار يعكس شيئا أكبر منه. بدت القوة والمنعة التي أثبتها إيمان أخي، والسياسات المصاحبة لها، هائلة القوة، وكنت قد لمحت قبسا مما قد تحققه تلك السياسات في رد فعل ميكي. لم يسعني إلا الشروع في تخيّل أثرها إذا تم إعادة إنتاج ذلك على مستوى العالم. كانت حقيقة نجاح أخي، بحقيبة ظهر خضراء وحسب، في الانتصار، حيث فشلت قبلها كل استعراضات القوة المصحوبة بالقتال بالسكاكين، هي ما دفعتني للتفكير.

أتذكر شيئا آخر كذلك، ففي حين كانت حقيبته الخضراء قبل ذلك مزينة بشعار منظمة التحرير الفلسطينية بالجرافيتي، فإنّ عثمان قد شطبه الآن، و بدأ في كتابة اسم جماعة مجهولة لديّ: حماس.

سألته بسذاجة: "ما معنى ذلك؟"

قال: "إنسَ أنذال منظمة التحرير الفلسطينية، ليسوا إسلاميين، هذه حماس وهي حركة المقاومة الاسلامية. حماس هي المستقبل."

"أوه، هذا مشوّق." كان هذا ما مرّ بذهني. "كان بروفيسور جريف سيحبهم، إذن". ووافقت على الذهاب لحلقات الدرس معه كي أرى ما كُنْه حزب التحرير هذا.

الفصل السابع

أرضٌ تُنتزعُ منها الأجنّة من الأرحام

كانت حلقات الدروس الخاصة بحزب التحرير تقام في بيوت الناس، حيث يجلس خمسة أو ستة منّا في شكل دائرة يحتل المتحدث مركزها بينهم، فيما يتحدّث نسيم أو غيره في موضوع بعينه لمدة تقارب الساعة، ثم يجيب على الأسئلة فيما بعد. وقد كان المحتوى سياسياً أكثر من كونه دينياً، مع الإشارة من حين لآخر إلى الإسلام لتدعيم النقطة المذكورة. وقد اتّبعت تلك الحوارات منهجية محددة، وهو إطار عمل لازلت استخدمه بفعالية حتى يومنا هذا: دائما ابدأ بالهدم قبل البناء. كان حزب التحرير بارعاً في تفكيك الأحكام المسبقة، المتجذرة عميقا في النفس، وتعريتها حتى تبدو عناصرها الأساسية جلية للناظرين، ومن ثم إعادة بناء مجموعة جديدة من نقاط المرجعية بعد ذلك. وعادة ما كان يقال إنك إن حاولت البناء فوق ما يتواجد من مفاهيم فاسدة، فسوف ينهار بناء أفكارك مثل انهيار بناء من ورق. وجهت الحلقات التعليمية تركيزها أولا، طبقا لكل ما سبق ذكره آنفا، على توجيه نقدٍ شامل لأفكارٍ مثل الحرية وحقوق الإنسان والديموقراطية، بحيث يتم نقد كل موضوع من زاوية العقل وزاوية السياسة، وكذلك زاوية القرآن والأحاديث. ومثّلت تلك الحوارات عملية تطهير عميقة الغور، وهكذا كان كم احتقار نسيم للمجتمع الغربي، بحيث كان من الواضح تماما أن مسقط رأسه ليس جزءا من هويته أبدا، وبالفعل فقد قام بتعريف نفسه بشكل مضاد لمفهوم الوطن مباشرة.

لم يكن هناك أي رابطة بين حلقات الدرس هذه وبين المسجد المحلي، بل إنّ الانفصال بين الاثنين، على أرض الواقع، بدا أعمق من ذلك بكثير، حيث دأبت حلقات الدرس على انتقاد الفصول الدينية. كان هذا الازدراء قائماً على تاريخ مجتزأ، يحمل شذرة من الحقيقة التي تم زخرفتها بشكل مبالغ فيه للغاية.

أثناء حكم الراج البريطاني، راجت إحدى النظريات بين بعض المسلمين مفادها أن أفضل الطرق للرقيّ بالنسبة لهم، هي إرضاء حكامهم الاستعماريين. كان الهندوس هم الاغلبية، وقيل إنهم لو حكموا الهند فسوف يستخدمون نفوذهم لقمع المجتمع المسلم. وبناء على ذلك، فقد ظهر أنّ أفضل طريقة لحماية المسلمين هي الحفاظ على سلطة بريطانيا، فيما بدا أنه مقايضة بين السماح لهم بالصلاة والصيام وممارسة الشعائر، وبين الاضطرار إلى الانحناء لسلطة حكم أجنبي.

استخدم الإسلامويون هذا الموقف، الذي تبناه بعض شيوخ الدين في الهند دليلاً دامغاً ضد كل الشيوخ. لقد ضلوا الطريق وحولوا الاسلام إلى المسيحية، وهي عقيدة مستضعفة وروحانية بلا تأثير على الحياة ولا

سيطرة على المجتمع. ومرة أخرى كان هذا السرد يحمل بذرة من الحقيقة، فقد كان القادة الدينيون قد سمحوا للحداثة بالتمكن منهم بالفعل، وصاروا متهاونين سياسيا، وفاقدي الاتصال بالواقع بشكل مقذع كذلك. كان أمثال هؤلاء هم من يرسلون أئمة المساجد -الذين لا يتحدثون الإنجليزية- ليدرسونا في بريطانيا. ما حدث أنه، بدلا من الإعجاب بتقوى وإخلاص المسلمين الذين يمارسون إيمانهم في سكينة وهدوء، فقد قام الإسلامويون بالتقليل منهم بسبب عدم تحديهم الوضع الاستعماري الجديد الذي كانوا يعيشون فيه، وبسبب حالة "التماهي مع الغرب" التي صاحبت ذلك. كان التراث الاسلامي العلماني، والسائد تاريخياً بين المسلمين التقليديين، محل هجوم ضارٍ من الإسلامويين، ولم يكن من العوامل المساعدة في هذا الإطار، أن بعض أكبر دعاة هذه العلمانية والمنادين بها كانوا غير ديموقراطيين على الإطلاق، بل هم طغاة عرب. وترتب على ذلك أن أصبح منوطا بالإسلامويين تحرير أراضي وعقول المسلمين، وذلك من خلال تعليم المسلمين ماهية التأثير الذي يتطلبه الإسلام كمنهج للحياة والمجتمع والحكم، ويكون السبيل الى هذا هو خلع هؤلاء المستبدين، و رفض الغرب، واستعادة هويتهم، وكذلك تأسيس نظام المسلمين الحق المتمثّل في مفهوم "الخلافة". أما التراث العلماني المسلم فقد كان خارج نطاق الخدمة، وفاقد القدرة على الحركة والتأثير بشكل تام، وبالتالي اندحر وخرج من الحلبة.

كانت الاجتماعات إذن ذات نبرة سياسية أكثر منها دينية في أساس الأمر. أما الأكثر أهمية على الإطلاق فكان السردية العامة للإسلاموية، حيث إنه، وبدلا من البدء بالمعلومة ثم استنتاج نظرية منها، فقد كانت الوقائع التاريخية والنقاط الدينية منتقاة بعناية لدعم تلك السردية فحسب. وهكذا لم تكن المعلومات والقصص المنتقاة أكاذيب أو غير صادقة على إطلاقها، ولكنها نادرا ما كانت تحتوي على الحقيقة كاملةً. ما كان يتم، هو ذكر العنصر الذي يدعم القصة، وتجاهل العنصر الذي قد يتسبب في تعقيدها، وكان ذلك يسري على كل من التاريخ والدين، أما الإشارة إلى الله فتكون حينما يكون الحوار مرتبطا بذلك فقط.

لم يكن هناك على الإطلاق -في واقع الحال- حلقة تتناول كيفية الصلاة، كما لم يكن هناك مطلقا حلقة تدور حول كيفية الصيام، ولم تكن هناك أبدا حلقة عن كيفية قراءة القرآن. تعلمنا وحدنا كيف نصلي، وكنا نصلي لأنّ من المهم أن نحافظ على الشعائر، ولأنه كان جزءا من العقيدة ككل. ولكنّ ذلك، إلى حد بعيد، كان لا يتعدى جزءا من المخطط الكلي. إن الإسلاموية هي نظرية شاملة تحتوي وتتضمن السياسة والاقتصاد وشؤون المجتمع والقضايا الروحانية الشخصية، لقد كان عنصر الإيمان بالنسبة للاسلامويين شيئا مسلما به، فيما كانت السياسة والقضايا الأخرى هي بيت القصيد.

اعتاد المتحدث أن يأتي للاجتماع ومعه ما كان يسمى "منشور الاجتماع"، وهو في العادة صفحة واحدة من مقاس A4، مقسمة إلى عمودين وعنوان أعلاهما، ويكون هذا العنوان هو موضوع حوار ذلك اليوم، ويمثل فكرة مباشرة تريد الجماعة أن تتبناها.

كان عنوان المنشور، في أوائل حلقات الدرس التي حضرتها، هو "ولد ليكون ملونا"، وكانت الفكرة الأساسية هنا أن لون البشرة غير مهم، وإنما المهم هو الأفكار والسرديات. لا يكفي أن يكون المرء ملونا ليكون أخاك: فبمنتهي البساطة، قد يكون الشخص المماثل لك في اللون عدوك، بذات القدر الذي قد يكون فيه حليفك. ما يهم هو إن كنت مسلما أم لا، وتعني كلمة مسلم، في هذا السياق، بالنسبة لهم: أن تكون إسلامويا، وهو ما يعتبرونه المسلم الصحيح. لم يكن الخط الفاصل هنا هو الإثنية أو الوطنية، بل كان الإسلام في ناحية، ضد كل شخص آخر في العالم، وقد انطوى ذلك على إعادة تقويم هوية الإنسان، والبدء بتعريف نفسك كمسلم يقف ضد كل العالم.

علق هذا المنشور بالذات في ذهني، لأنه مثّل تحديا لكل الوشائج والروابط التي استخدمتها في بناء هويتي في سنّ المراهقة. كانت مجموعة أصدقائي تقريبا، وحصريا، من مجتمعات الأقلية في ساوث إند، وكان ما جمعنا هو التهديدات التي واجهناها معا، واهتمامنا المشترك بالهيب هوب، إضافة إلى ثقافة السود. أما ما يقال لي الآن فهو أن ما كنت أستقي منه القوة في السابق، لا قيمة له، وقد كان ذلك أكثر مما يمكن استيعابه بسهولة، ففي النهاية، كانت العنصرية التي مرت بي جزءا من المسار الذي أدى بي للرغبة في الانضمام إلى حزب التحرير، ومن ثَمّ فقد مثّل التوقف عن التفكير في إطار العنصرية، والبدء بدلا عن ذلك في التفكير في إطار المسلمين ضد بقية الدنيا، تحولا كبيرا جدا.

امتلكتُ عددا قليلاً من الأصدقاء الباكستانيين، فحينما كنت في طور النمو كان معظم أصدقائي من ذوي البشرة البيضاء وإنجليز وغير مسلمين، وحينما أطلّت العنصرية برأسها القبيح أصبحنا جزءاً من مجموعة غرب هندية. لم أشعر أنني أنتمي حقا لباكستان ولا لبريطانيا أيضا، وكنت أعرف انني لم أكن غرب هندي، ولذا فقد كان هناك فراغٌ حقيقي فيما يخصّ هويتي، وكان هذا بطبيعة الحال الوضع المثالي الذي يفضّل أن يكون عليه الإنسان قبل أن يتم تجنيده في منظمة إسلاموية، إذ كانوا يملكون ما يقدمونه لي، متمثلا في صورة الهوية الشخصية التي كانت غائبة عني حتى ذلك الحين.

كانت حلقات الدرس مدعومة بفيديوهات، وكان أكثرها تأثيرا تلك الخاصة بالصراع في يوغوسلافيا، والمعاملة المفزعة التي يلقاها المسلمون البوسنيون علي يد القوات الصربية. أعتقد مرة أخرى أنّ من الأهمية بمكان تذكّرَ أن كل هذا جرى قبل أن ينتشر الإنترنت، ولم تكن التكنولوجيا قد وصلت بعد إلى شكل ونوعية

توزيع ونشر الفيديوهات التي اعتدنا عليها اليوم. وفي تلك الأيام كانت أشرطة نظام الفيديو المنزلي VHS هي النوعية الرائجة من أشرطة الفيديو، وكان يتم نسخها، ثم ترتيب اجتماعات نشاهدها فيها. وقد احتوت الأشرطة على مشاهد غير متاحة في الإعلام العادي، وكانت مادة صادمة ومفزعة، خاصة لصبي فتيّ، لم يتعدَّ عمره السادسة عشرة.

وصلت المادة المصورة إلينا بواسطة أشخاص من المملكة المتحدة، ذهبوا ليحاربوا في البوسنة، وقد كان المسلمون البريطانيون يذهبون إلى هناك كمدنيين، و يتدربون في معسكرات يمولها السعوديون، ويذهبون للقتال في البوسنة، ثم يعودون مرة أخرى كي يقوموا بتجنيد المزيد من الجنود.

وقد جرى هذا على نحو عجيب في زمن كان فيه السفر للخارج بغرض القتال في حرب ما لا يعد سببا شائعا كي يتم إيقافك واستجوابك من أجله، طالما لم تكن تحارب ضد قواتك انت. على نحو ما لم تكن البوسنة تختلف عن أفغانستان، فقد كان هناك في كلتا الحالتين تمويل سعودي متاح من أجل التدريب والقتال، وكان هناك معسكرات تدريب في كل أنحاء البوسنة، وتزايد رهيب في أعداد المساجد التي تبنيها السعودية، والتي كانت تستهدف، بشكل جلي، تمويل صحوة دينية في تلك البلد. كان الفارق الأساسي بينها وبين أفغانستان يكمن في القرب الجغرافي، فقد كانت هذه حرب تجري في الأراضي الأوروبية، ومثّل ذلك صراعا يقع على بعد لا يزيد عن ثلاث ساعات بالطائرة. أما ما يحدث عند عودة هؤلاء المقاتلين إلى المملكة المتحدة، فهو أنهم يتلقون معاملة الأبطال، حيث كان هؤلاء الناس بلحاهم الطويلة، وحديثهم حول الإسلام، يبدون لنا كما لو كانوا تشي جيفارا الخاص بنا.

كانت الفيديوهات تعرض محتوى مزعجا ومريضا، فقد كان هناك صوانٍ تحتوي على ما يبدو أنه أعضاء تناسلية بترها الصرب من رجال بوسنيين، ومشاهد لنساء حوامل، ببطون مبقورة، وأجنتهم تنتزع منهم وهم أحياء. كنت ترى المرأة مقتولة على الارض، وجنينها ملقى بجانبها، والحبل السري لازال موصولا بينهما، والجرح ماثل في ظاهر بطنها. كان الفيديو كذلك يحتوي على مشاهد قتال، تصور مقاتلين مسلمين يدافعون عن أنفسهم ضد الصرب، وكانت تلك المشاهد معدة بشكل جيد، بالنسبة لحدود التكنولوجيا المستخدمة حينها.

على الرغم من عدم وضوح بعض المشاهد، فقد تم تحريرها بشكل مهني بحيث يتم إيصال الرسالة المؤثرة التي تتضمنها. إنني أشعر بالتردد عند استخدام كلمة "بروباجاندا" لما لها من دلالات سلبية، ولكن ذلك، تحديدا وحصرا، ما كانت عليه تلك الفيديوهات. إنّ ما حدث هناك تطهير عرقي بلا شك، وقد استُغلت تلك الجرائم البشعة في دعم نزعة تجنيد الناس في طول أوروبا وعرضها، وقد نجحوا في ذلك.

كان ما وضحته لي هذه الفيديوهات يتمثل في شيئين اثنين، أولا: إنها دعمت السردية التي كان نسيم قد علمني إياها في حوار "ولد ليكون ملونا"، حيث كان مقتل هؤلاء الأشخاص غير مرتبط بلون بشرتهم، بل كانت حقيقة أنهم مسلمون لا غير هي القضية المفصلية في هذا السياق الذي كان كل القتلى فيه بيض البشرة. ثانيا: كانت حقيقة عدم قيام بريطانيا والحكومات الغربية الأخرى بأي شيء حيال ما يحدث تدعم سردية تعامل الغرب مع الأمر بطريقة "الانتقائية" في السياسة العالمية، فحين يكون المسلمون هم المعرضون للهجوم، وفي حال عدم وجود بترول للدفاع عنه، فإنّ الغرب لم يكن مهتما بالتدخل، ولمَ يهتمون؟ كان هؤلاء قومنا نحن، لا قومهم هم، وهذا بالتحديد سبب حاجتنا لـ"الخلافة".

كانت الأحداث البشعة التي تتكشف عنها المسألة، موظفة على أكمل وجه، كخلفية تجنيد لقضية الإسلامويين، فقد كان أولئك الناس يقتلون لا لسبب إلا لكونهم مسلمين، بل والأسوأ من ذلك، وحيث إنهم مسلمون بلا فهم "صحيح" لما يجري حولهم، فليس لديهم حتى أدنى فكرة عما يحدث لهم. كانت الإسلاموية على العكس من ذلك، تقدم شرحاً موضحا لما يجري، وذلك سبب ما حدث من تحوّل في الهوية السياسية في كلتا الحالتين في البوسنة وعبر أوروبا. قد يكون من الممكن بطريقة ما التذرّع بأنه مثلما تولدت مشاكل باكستان مع الإسلاموية العنيفة (الجهادية) من رحم أفغانستان، فقد ولدت الجهادية الأوروبية من رحم ما حدث في البوسنة.

مثّلت المرة الأولي التي شاهدت فيها الفيديوهات تجربة صادمة ومؤذية، وتملّكني الغضب بسبب ما شاهدته، لدرجة أن رد فعلي التلقائي كان رغبة عارمة في الذهاب إلى البوسنة للقتال هنالك بنفسي. كنت أريد أنْ أتسلح وأدافع عن البوسنيين، وأتذكر أن نسيماً اضطر أن يأخذني جانبا في حديث طويل من أجل أن يهدئ من روعي. أخبرني نسيم أن أتوقف عن الانغماس في العاطفة، وأن ألتفت عوضا عن ذلك إلى المغزى المنطقي لكل ما يحدث. مهما فعلت، فلا يهم كم من الناس يذهبون للقتال، لن يغير ذلك شيئا على المدى الطويل، ولم يكن ما يحدث يقتصر على البوسنة وحدها، بل كان في كل مكان. كانت هناك نيران تستعر في كل مكان، قد يكون بوسعك أن تأتي بدلو، وتحاول إطفاء حريق واحد منها، أو على الجانب الآخر، فإنّ بإمكانك أن تأخذ خطوة للخلف، وتتمعن في السبب الرئيسي لكل ما يحدث. لو كنا نملك "الخلافة" لكان بوسع جيوشنا أن تمنع وقوع مثل تلك الفظائع. كانت هذه رسالة "حزب التحرير": ما كنا نحتاجه حقا هو العمل بفعالية للتحكم في أذهان كبار القادة العسكريين في البلدان ذات الأغلبية الإسلامية، لكي نقوم بتأسيس دولة في نهاية المطاف. إن الانضمام للقتال وحسب سوف يعني أن تفقد القضية جنديا آخر، وقد ينقذ ذلك إنسانا أو اثنين هناك، ولكنّه لن يتسبب في تغيير أي شيء على المدى الطويل.

مثّلت تلك الفيديوهات بالنسبة لحزب التحرير سلاحا فعالا في عملية تجنيد المؤمنين برسالته بلا شك. حيث كنا نقوم بتنظيم حلقات مشاهدة للناس، ونخبرهم -أثناء جلوسهم مشدوهين في مقاعدهم، مسمرين نتيجة ما يرونه أمامهم- أنهم يهدرون حيواتهم، في حين كانت كل تلك الفوضى تجري على قدم وساق. كنا نسألهم: "ما الذي تفعله بحياتك؟ كيف يمكنكم أن تكونوا سعداء بأنفسكم، وتخرجون لتضحكوا وتتناولوا الكباب في أمسيات الجمعة والسبت، في حين يحدث كل هذا على عتبة داركم؟" وكان الفيديو والخطبة التالية لهما نفس التأثير الجذري في كل مرة، حيث كان نصف المشاهدين يرغبون في الانضمام الى حزب التحرير في ساعته وتاريخه، ولكن على الجانب الآخر، فقد كان هناك آخرون مثلي أنا، يرغبون في القيام بعمل مباشر.

كان التحدي الماثل أمامنا، على غرار ما فعل نسيم معي، هو تهدئة هؤلاء الناس، ولكنّ ذلك لم يكن ينجح على الدوام، فعلى سبيل المثال كان عمر شيخ طالبا في كلية الاقتصاد بلندن، وقد حضر مؤتمرا في جامعته تحت رعاية حزب التحرير حول الوضع في البوسنة. كان قائد حزب التحرير في ذلك الوقت، عمر بكري فستق -والذي كان يستخدم محمد لقباً له- هو المتحدث الرئيس في هذا المؤتمر. وقد تضمّنت مذكرات عمر شيخ سردا للكيفية التي أثّر فيها المؤتمر عليه بشكل جارف، ولكنّ ذلك لم يكن كافيا بالنسبة له. كان حزب التحرير قد أتاح له تحليلا ساطعا للوضع الكائن، ولكنه لا يقدم له أية حلول، وكان الحل بالنسبة له هو الجهادية.

سافر شيخ إلى الخارج، ومازال إلى وقت كتابة هذه السطور، مسجونا في باكستان، بتهمة قتل الصحفي الأمريكي دانيال بيرل.

كانت الحرب في البوسنة عاملا حرجا وذا أهمية قصوى فيما يتعلّق بتنامي الإسلاموية وانتشارها عبر أوروبا، ويمكن من خلال ذلك وعن طريقه فهم كيفية انتشار الإسلاموية في كل من الشرق الأوسط وآسيا. لقد تم تحويل المسلمين الأوروبيين إلى أصوليين من خلال الأحداث الجارية في البوسنة، وتم تحويل المصريين من خلال الأحداث الجارية في فلسطين والباكستانيين من خلال الأحداث الجارية في أفغانستان إلى الأصولية. إنه في كل الحالات خيط واحد يربط الجميع: أحزانٌ، وأزمةُ هوية، وتجنيدٌ يتم بحرَفية على يد أشخاص يتمتعون بالجاذبية والحضور، ويمتلكون خطاباتٍ تحفّزُ النفوس. ليس من الصعب أن تتخيّل نفسك في ذات الموقف.

فيما يخصني أنا، فقد تطابقت مماطلة الحكومات الغربية في قضية البوسنة بشكل قوي مع تجاربي الشخصية في إيسكس واليد المغلولة التي رأيتها من الشرطة حينها. كان هذا ما كانت الأمور عليه، وكان هذا ما فكرت فيه: الدفاع عن المسلمين يقع على عاتق المسلمين أنفسهم. اليوم، حين نفكر في تلك الأيام من منظور عالم ما بعد أحداث التاسع من سبتمبر، الذي صار فيه التدخل الغربي شيئا متكررا بهذا الشكل، ننسي

أن عالم أوائل التسعينات، كان مكانا مختلفا تماما. كان هذا مشهدا دوليا لايزال يتأقلم مع نهاية الحرب الباردة، حيث كان يتم الوصول لكل قرار دولي في ضوء ما قد يكون الرد السوفيتي على ذلك القرار. طرحت أوائل التسعينات أسئلة جديدة حول ما إذا كان التدخل في شؤون دولة ما لأسباب إنسانية شيئا مبررا، وكانت رواندا والصومال أمثلة أخرى قد ترد في هذا السياق. طرح الوضع البوسني جميع أنواع الأسئلة المربكة للغرب: كيف سيكون رد فعل الروس على تدخلهم؟ هل كان هذا نزاعا داخليا في يوغوسلافيا؟ هل كانت محاولات البوسنة في الانفصال عن يوغوسلافيا مختلفة بأي شكل عن محاولات الشيشان للانفصال عن الاتحاد الروسي؟

وكان محصلة كل ما سبق هو أنْ تجاوبَ الغرب مع حالة البوسنة ببرود تام. لم ترغب الولايات المتحدة تحت حكم بيل كلينتون بالتورط، ورأت أن الموضوع شأن أوروبي خالص. أما استجابة بريطانيا بقيادة جون ماجور ودوجلاس هيرد وزير الخارجية، فتمثّلت في التذبذب وحسب. لو كان الغرب مبادرا أكثر، ولو كانوا قد تدخلوا بشكل أكبر وأقوى، مثلما فعل توني بلير والناتو فيما يخص كوسوفو، لكان الوضع قد تغير، ليس فقط فيما يخص البوسنة وحسب، بل ربما فيما يخص انتشار الإسلاموية وحزب التحرير كذلك.

في البوسنة ذاتها، كان الأمر متروكا للحكومة الجديدة كي تقوم بالتعامل مع الاختراق الإسلاموي المتصاعد. كان الرئيس الجديد يعرف ثقافة وتاريخ بلاده، وعلى اطلاع على التراث الإسلامي الذي أتى اليهم من جذور الصوفية التركية العثمانية، وليس من جذور سعودية سلفية أو نصية. بدأت الحكومة البوسنية في اجتثاث الجهاديين الذين أتوا للقتال هناك، لقد أدركوا الخطر الكامن بالداخل، وإمكانية حدوث أفغانستان أخرى إذا توانوا في اتخاذ ما يلزم. ولكن، وفي حين نجحت البوسنة في تحقيق ذلك، فقد استمر تأثير تلك المعركة عليها بعد ذلك التاريخ بزمن طويل.

ما هو الحل الذي يراه حزب التحرير كاستجابة لكل ذلك الظلم الواقع على مواطني العالم المسلمين؟ كان الحل هو تحقيق "الخلافة"، وهي دولة إسلامية حاكمة تكتسح كل الحدود الدولية المعروفة. سوف تكون نسخة الإسلام الخاصة بحزب التحرير، هي الفلسفة الحاكمة في دولة "الخلافة". كان الإعدام هو ما ينتظر جميع المرتدين والزناة والأقليات التي تثير الاشمئزاز، مثل المثليين علي سبيل المثال. حيث سيتم التعامل مع الإجرام من خلال عدالة قاسية، وسوف يتم قطع يد اللصوص، وسيتم اختصار واختزال حقوق مثل حرية التعبير، لأن "القانون الإلهي" يجب أن يسود على الجميع.

قد يكون من المفاجئ لبعض الناس، معرفة كم كان من السهل بالنسبة لي، أن أقوم بتحويل طريقة تفكيري لزاوية الرؤية الجديدة تلك. كنت قد شعرت أنني قد وجدت مكاني في ثقافة الهيب هوب، ولكنها تهاوت داخلي بلا أي مشكلة. لماذا حصل هذا؟ يعود ذلك جزئيا إلى خصوصية ظرفي وتنشئتي، كانت رسالة

الإسلاموية مصنوعة خصيصا لشخص مثلي تقريبا، فقد كنت صاحب ذهنية محبة للاستطلاع، وقد نشأت في بيئة غربية الطابع. لم أكن املك عائلة أو خلفية دينية، لكي تقف في مواجهة ما كان نسيم يخبرني به. كانت طريقة حزب التحرير في تحليل الأشياء، وهو شيء يدعو للسخرية والتأمل معا، تمثل بالنسبة لي تفسيرا حديثا، أوروبيا، سياسيا واجتماعيا للدين. وتلك هي الطريقة التي تم تنشئتي بها في المدرسة، ولذلك فهمت المنطق فيها منذ لحظة البدء الأولى.

ثانيا، كان هناك نسيم نفسه، وهو شخص ذو ذهنية جاذبة وحاضرة. كانت القوة والثقة التي يتحدث بها عن العديد من المواضيع التي يصعب حصرها ذات أثر ضخم في نفسي، في عمر يسهل فيه التأثير عليّ، فالمواضيع التي يتحدث عنها بدت متعلقة بحياتي بشكل مباشر، وهو شيء عجز أبي أو الإمام عن القيام به. كان عليما بالسياسة والفلسفة وعلم الأديان، وكل القضايا التي كانت فرق مثل بابليك إنيمي تثيرها، ولكنها غير قادرة على المتابعة أو التوسع فيها. لقد بدت الطريقة التي ربط بها بين جميع تلك القضايا المختلفة ساحرة على المستوى الذهني، لا أقل من ذلك، كانت تبدو ثورية، وذلك بالتحديد ما كانت عليه: داعية الى ثورة.

ثالثا، كان العنصر السياسي في الهيب هوب قد بدأ يتداعى. ما أثار اهتمامي في البداية هو السياسة التي أدخلتها فرق مثل بابليك إنيمي ونيجارز ويذ اتيتيود إلى المشهد. كانت بابليك انيمي قد استمرت بدون بروفيسور جريف (وقد لقي ألبومهم التالي "الخوف من كوكب أسود" نجاحا باهرا)، ولكنّ قصة العداء للسامية أضرت بانتشارهم، وكانت أفضل أيامهم قد انتهت. أصبحت طليعة الهيب هوب -يوما بعد يوم- هي راب الجانجستا، وكان النجوم الجدد هم أناس مثل سايبرس هيل، وكانت الرسائل المتضمنة في الأغاني، تدور بشكل أقل حول النسق المضاد للسلطات، وتجنح أكثر إلى التبجح بالمخدرات والعنف والنساء. يصف شاك دي في حادثة مشهورة، نمرة من أوائل أعماله، حيث حدث أن رأى أحد معجبي بابليك إنيمي منشورا يحمل صورة مالكولم اكس وسأل عمن تكون هذه الشخصية "مالكولم العاشر". (رقم عشرة باللاتيني يكتب في شكل اكس). كان الجيل الجديد من معجبي الهيب هوب يسألون تلك النوعية من الاسئلة.

لقد دعمت الطريقة التي يتغير بها الهيب هوب ما كان نسيم يخبرني به في حلقات الدرس: "ما كان يلمسك في أغانيهم هو مرورك بتجارب مماثلة من حيث العنصرية والتفرقة، ولكنّ شاك دي ليس مسلما، ولا فلافور فلاف مسلم، ولا آيس كيوب مسلم. إنهم لا يعرفون حلا للمشاكل التي يغنون بالراب حولها، لأنه وببساطة شديدة لم يتسن للرسالة أن تصل لهم". وهذا هو المكان الذي احتله وشغله حزب التحرير والإسلاموية لدي، لذا كان من الطبيعي للغاية أن يتجه الهيب هوب إلى طريق، وأن يتجه فكري الى طريق آخر. توقفت عن الاستماع الى الموسيقى وبدأت استمع الى حزب التحرير بدلا عن الهيب هوب.

الجزء الثاني

إسلاموي

أن تحيا هو أنْ تحاربَ مسوخَ القلبِ والروح

أن تكتب هو أن تجلسَ في مقعدِ الحكم على ذاتك

هنريك إبسن، بيير جينت

الفصل الثامن

استيلاء إسلامي على السلطة

في السادسة عشرة من عمري تجنّدت للانضمام إلى حزب التحرير، وأنا الآن ممتلئ حد الثمالة بحماس الصالحين، وأريد الانتقال إلى لندن لأكون بجوار موقع الأحداث. وفي ضوء انتهائي للتوّ من اختبارات الثانوية البريطانية، فقد أخبرت والديّ أنني أريد الدراسة في كلية باركنج (Barking college) في شرق لندن لكي أحضر دورة متخصصة في التصميم الغرافيكي. استطعت إقناعهم أن الدورة لم تكن متاحة في أي كلية في ساوث إند، وتقبّل كلاهما ذلك، فقد كانا عند تلك النقطة لا يعرفان شيئا عن طبيعة معتقداتي الإسلاموية، وكان أبي بصفة خاصة يري أمامه ابنا أكثر هدوءاً عما كان في صغره، ويرى أن البي بوي الذي كان أيام مراهقته المبكرة، يبدو كأنه ماضٍ على طريق الاستقرار في شكل حياة مسلم تقليدي تتمحور حياته حول العمل بجد واجتهاد. وهكذا حدث، تركت منزل والديّ من أجل الدراسة.

غني عن القول إن دورة التصميم الغرافيكي لم تكن إلا حجة بالطبع، فقد كان حزب التحرير أكبر كثيرا في العاصمة عن حجمه في ساوث إند، وكنت أرغب بشدّة في أن أصبح جزءا منه. عند تلك النقطة، كان نسيم مسؤولا عن أنشطة حزب التحرير في شرق لندن، وحصلت بمساعدته على غرفة في شقة مع ناشطين آخرين، وكانت تقع في 69 شارع شسترفورد، في منطقة مانور بارك (Manor Park) الواقعة في شرق لندن. كان هذا المنزل معروفا باسم منزل الدعوة، وهي شقة مخصصة لتخطيط شؤون حزب التحرير، ويقتصر سكانها على أعضائه. كنت حينذاك "دارساً" في حزب التحرير، وهي المرحلة التي تسبق العضوية الكاملة فيه، وذلك يعني أنني ملتزم بحضور وقائع حزب التحرير، والمشاركة في الأنشطة الرسمية، وكان شركائي في السكن، وكلهم "دارسون" في حزب التحرير، قد جُندوا من خلال الجامعة.

ومن ضمن هؤلاء تواجد طالب يدعى سليم، وهو لاعب كمال أجسام سابق، وهو بصفة عامة رجل ودود. وكان هناك سهيل، وهو طالب من ميلتون كينز(Milton Keynes) في عامه الثاني في جامعة جيلدهول (Guildhall university) وكان رجلا فكاهيا. وتواجد كذلك ياسين، وهو رجل ذكي، انتهي به الحال الى ترك حزب التحرير وأصبح مدرسا فيما بعد. ثم إضافة إلى كل من سبق، فقد كان هناك علي الذي اعتاد على زيارتنا من حين لآخر ليبقى معنا، وكان محل احترام وقتها لأنه كان عضوا بالفعل. كان أحد

شركاء السكن هؤلاء هو "ناس"، وهو الصديق اليوناني الوافد من ساوث إند، وكان قد أسلم وانتقل إلى لندن معي، وأصبح من داعمي حزب التحرير.

كان منزلنا منزل دراسة حقيقي، مع كل الفوضى التي ينطوي ذلك عليها، ولكن، أن تكون فيه، في خضمّ ووسط ما يحدث كله ومحاطا بالـ"إخوة"، فقد كان ذلك شيئا مذهلا فعلا، وقد أحببته بدون حدّ.

كان المنزل، من أول لحظة، مستخدما لأنشطة حزب التحرير، حيث كنا نذهب في جولات لإلصاق المنشورات، ووضعها هي والبوسترات على الحوائط، وتوزيع مواد وورق الدعاية، والقيام بخطب دعائية. وكنا نقضي الليل بطوله في هذا العمل: تقطيع الصناديق لصناعة ألواحنا، ولصق البوسترات على الورق المقوّى وثقبه، وتمرير الخيط خلالها، كي تكون جاهزة للربط. ومن ثم كنا نقوم بتحميل الحمولة في سيارة أحدهم، وننتشر في طول وعرض المنطقة المحلية، واضعين بوستراتنا على عواميد الإنارة في كل الأنحاء. كان الناس يأتون إلى الشقة من كل أنحاء لندن، وقد كانت النقلة من أجواء البلدة الصغيرة في ساوث إند، وإحساس الانتماء إلى أقلية مشاكسة متمردة، قد جعلتني أشعر أنني جزء من مجتمع أكبر كثيرا، يتمثل في شكل شبكة لندنية مزدهرة وتعج بالأفكار عجا.

كانت هذه الترتيبات المعيشية سببا في تعجيل عملية التزامي بحزب التحرير، وبينما اعتدت قبل ذلك على الذهاب إلى حلقات الدرس مرة أسبوعيا فقط، فإنني الآن أعيش مع نشطاء آخرين أتحدّث معهم عن القضية كل يوم. ولأول مرة في حياتي، كان لديّ إدراك حقيقي لكُنْه وحقيقة الحركة بوصفها ظاهرة وطنية وعالمية معا. كان هناك وحدة تجنيد في كل الجامعات الكبرى -مثل أكسفورد وكامبردج وإكستر ودورهام-في كل مكان، وكنا نستحوذ على كل شيء بسرعة شديدة. مثّلت التسعينات عقد الإسلاموية في لندن، وكان عدد النساء المنضمات للحركة مماثلا لعدد الرجال، وقيل لنا، في إحدى الجلسات، أن شريك حياتنا المستقبلي كان غالبا في انتظار أن يلتقي بنا. خلق كل هذا داخلي إحساسا غامرا مفاده: إن هذه الحركة سوف تشكل بقية حياتي.

صاحب ذلك الوضع، حقيقة أنني كنت أعيش في لندن لأول مرة، إنّ إيستهام لا تبتعدُ عن ساوث إند بقدر كبير، ولكنّها تبدو كما لو كانت عالما مختلفا تماما. كان المجتمع المتنوع في إيستهام يجعل العنصرية قضية أقلّ أهميّة، وكانت القوة المتصاعدة للإسلاموية والجهادية تعني أنه، ولأول مرة، صار للمسلمين منعة، وليست الإساءة إليهم من الحكمة في شيء، فأتاحت لي تلك المعرفة إمكانية السير في الشوارع بثقة واطمئنان.

عندما وصلت الى لندن، قام نسيم بتعيين أحد تلاميذه، وهو إد حسين، كي يساعدني على الاستقرار في المكان. كان إد، وهو "دارس" متحمس في حزب التحرير، يدرس في كلية نيوهام، وسرعان ما صرنا أقرب الأصدقاء. سألني إد قبل بدء الدراسة عن الكلية التي سجلت فيها اسمي، وأخبرته أنها كلية باركنج.

"ليست باركنج هي ما تريده يا أخي، إذ تقع كل الأحداث في كلية نيوهام. إنني في الحرم الجامعي في نيوهام التي تقع في إيستهام، وذلك هو المكان الذي يضم كل المسلمين، وذلك هو حيث يمكننا البدء في تحقيق الأمور معا."

ذهبت معه إلى الحرم الجامعي في إيستهام، وذهلت من عدد المسلمين هناك، وهكذا حدث أن قمت بالتحويل من باركنج إلى نيوهام، ومن دورة التصميم الغرافيكي إلى دراسة مستوياتA. لم اقم بإخبار والديّ على الفور، فلو اكتشفوا أنني ادرس مستويات A فقط، لكان رأيهم أنه لا يوجد سبب لعدم دراستي في ساوث إند مثل عثمان، وعندما اكتشفوا ما حدث حينذاك، كان وقت التغيير قد فات. لم يكونا سعداء، ولكنهما تقبلا أسبابي -أو على الأقل-الأسباب التي ذكرتها لهما، قالا لي: طالما أنّك في مسار الدراسة، فذاك هو المهم، فأكدت لهم أنني في مسار الدراسة بالفعل.

أما الحقيقة فهي أنني كنت في نيوهام من أجل استحواذ حزب التحرير عليها، وبدلا من الدراسة، كنت أقوم بحملات دعائية تستهدف المؤمنين بالقضية وتقوم بتجنيدهم، وكنت أتغّيب بانتظام عن الدروس لكي أقوم بذلك الأمر. اتضحت لي فورا، حالما خطوت أولى خطواتي في نيوهام، إمكانيات التجنيد المتاحة في المكان، فقد كانت نيوهام كلية كبيرة ولها حرمان جامعيان -أحدهما في إيستهام والآخر في وستهام-ويحتويان على آلاف الطلبة، والكثير من المسلمين.

ولأنّ إد حسين في سنته الدراسية النهائية فقد كان يحتاج إلى تسليم وحدة حزب التحرير الخاصة به إلى شخص آخر، وظهر أنني البديل المثالي. كان إد من النوع المجتهد دراسيا، وعند بلوغه العشرين من العمر كان يرتدي قميصا وسترة لحضور الدروس، وكان متحدثا عاما جيدا، وأكثر إخلاصا عما كنته أنا، أو عما سوف أكونه في يوم من الأيام. كنت أحب تقواه الدينية، حيث ساعدتني على تهدئة جانبي الأكثر جموحا، وقد نمت بيننا صداقة عميقة ودائمة، وذهبت لزيارة منزله، وصرت أعرف والديه، وأتذكر قضاء رمضان معهم أثناء الإفطار. سرعان ما أصبح من الواضح أنني أمثّل مع إد فريقا قويا معا، حيث قمنا بقيادة جماعة مكوّنة من أربعة من أهم داعمي حزب التحرير المفصليين: سافراز ومصطفى، وهما رجلان ضخمان يمكن الاعتماد عليهما، وشاهزاد، وهو رجل اجتماعي يعرف الكثير من الناس، وريحان الذي يسميه منافسونا تحببا بالسيد "بين" نتيجة لبنيته البدنية، وميوله للاستفاضة في الجانب الذهني والفكري من الأمور. كنا نستطيع طلب الدعم من الكليات المجاورة، مثل ريد بريدج، حيث كان ثمة دارس صغير السن في حزب التحرير، ورغم أنه صغير الحجم فإنه ناري الطباع، ويسمى عبد الرحمن، ويقوم باستنساخ وتقليد ما نصنعه في نيوهام، كنا نتشارك بانتظام في الأفكار والموارد معا.

عندما سنحت فرصة كي أصبح رئيس اتحاد الطلبة، اقترح إد أنني يجب أن أترشح للمنصب، وأن تقف جماعتنا في حزب التحرير موقفا موحدا من ذلك. مثّلت حملة الترشح لرئاسة اتحاد الطلبة تجربة نافعة لعدة أسباب، أولها هو السبب الذي دعانا للترشح في أول الأمر، وهو رغبتنا في أن نصبح الجماعة المسلمة ذات اليد العليا داخل الكلية. عندما قمت بالتسجيل في الكلية، كانت الجمعية الإسلامية (Isoc) في نيوهام تحت سيطرة السلفية السعودية، أو أصحاب النص. في تلك الأيام، قبل أن يتم الاندماج بين بعض السلفيين والإسلاموية، كان السلفيون يكرهون حزب التحرير وكل ما نمثله من أفكار. وقد تواجدت جماعة في المملكة المتحدة تسمى جيماس (Jimas)، تقوم بتنسيق جميع أنشطة السلفيين، وكانت منافسا معروفا لنا. كانوا يحتقروننا أكثر مما يحتقرون غير المسلمين، وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أننا نقوم بتحريف الرسالة الاسلامية. كانت الفلسفة السلفية أكثر تدينا بكثير من رسالة حزب التحرير، إذ لم يكن هناك عنصر سياسي في تفكيرهم، وقد رفضوا آراءنا لأنها غير دينية بشكل كافٍ بالنسبة لهم، ورفضناهم بدورنا، لأنهم يوفرون غطاء دينيا للملك السعودي، والحكم المطلق الذي يمارسه كل الحكام الآخرين.

كان السلفيون يتحكمون في اتحاد الطلبة في الكلية، وكان ذلك يعني أنهم يتحكمون في صلاة الجمعة، ومن ثمّ قدرتهم على إحضار جموع حاشدة إلى أي حدث تابع لهم، ما ساعد في تقوية شوكتهم وسيطرتهم.

لم يكن حزب التحرير أبدا، قبل أن أصل إلى نيوهام، في موقع يجعله بالقوة الكافية التي تسمح له بتحدي هذه الهيمنة، ولكن، إذا نجحت في أن أصبح رئيس اتحاد الطلبة، فحينها، سوف أصير مسؤولا عن تمويل منظماتٍ مثل المجتمع الإسلامي مثلا، ومن ثم يكون باستطاعتي تخفيض المال الوارد لهم، وتقليل تأثيرهم بضربة واحدة، بل إنني قد أتمكّن من توجيه المال نحو حزب التحرير، ونحو أهدافنا نحن.

قمنا بتقديم مرشحين في كل المواقع المختلفة في اتحاد الطلبة التنفيذي. كان السلفيون معدومي الفرصة أمام خططنا، وسرعان ما وجدوا أنفسهم متخلفين عنا في الحملة. كنا الأكثر معرفة بمداخل ومخارج الناس، والأكثر وعياً من الناحية الثقافية، حيث امتلكت أنا خلفيتي كـ"بي بوي" في مقابل السلفيين الذين كانوا يرتدون الثوب العربي التقليدي، ويبذلون الجهد كله ليكونوا متدينين صالحين. كنا نستمع للموسيقى، ونلبس الجينز، ولم يكن لديهم أدنى فكرة كيف يتعاملون مع ذلك، كان باستطاعتهم أن يروا أن كل ذلك كان يمنحنا قبولا ورواجا، ولكنهم كانوا يعتقدون أنه سلوك غير ديني. كان التركيز الكاسح في رسالة السلفيين هو النقاء والصلاح، ودار كتيّب تعليماتهم كله حول الجلوس في غرفة الصلاة، والحديث عن كيفية الصيام، وفوائد الزهد في العالم. مثّلت النصوصُ فقط نقطةَ انطلاقهم، في حين تمثّلت نقطتنا نحن في الحياة الواقعية، و كنا نتحدث عن أفغانستان والبوسنة بطريقة تجعل رسالتنا تبدو ذات معنى، في حين كانت رسالتهم -بمنتهى البساطة- تفتقد للتواصل مع الواقع.

كان الصوت الأنثوي الإسلامي، بصفة خاصة، من نصيبنا، وذلك، جزئيا، نتيجة لأننا بدونا شبابا على صلة مع الحداثة، وجزئيا، نتيجة موقف السلفيين من المرأة. كان السلفيون ينتقدون المرأة لعدم ارتدائها الحجاب، وهو ما كنا نرد عليه بحجة: "هل تعتقد أن المرأة البوسنية المسلمة كانت ترتدي الحجاب حين اغتصبوها؟ كيف يجعلها ذلك أختك بشكل أقل عن المحجبة؟" كان لدينا داعمة لحزب التحرير من الإناث تمثل دور ضابطة مسؤولة عن النساء، ولم تكن ترتدي الحجاب، وقد تحمّلنا ذلك بوصفه وضعا ملائما لنا، خاصة إن كان سيأتي لنا بالفوز في الانتخابات. فزنا بالانتخابات واكتسحنا تصويت الإناث بالفعل.

على مستوى أكثر عمقا مما سبق، فقد كنا الأكثر حزما وعدوانية في الجدال والمحاججة. كان نسيم قد علمنا أن نرد على منافسينا الصاع صاعين، وكنت قد تعلمت كافة الإجابات على أسئلتهم كلها، بحيث صرت قادرا على الرد السريع والمفحم على أية اتهامات يوجهونها لنا. ومثّل ذلك شيئا قويا وذا تأثير كبير، فعندما تقوم به في غمار مناظرة تجري أمام جمهرة من الناس يجعلك ذلك قويا، وذا إجابات متماسكة. لم يكن لدى السلفيين رد ذو وزن في الواقع، وكان كل ما يملكونه هو صلاحهم الديني الذي لم يكن له ذات التأثير والصدى في حياة معظم الناس.

سوف يتغير كل هذا لاحقا بالطبع، وذلك بعد بضع سنوات، حيث ستندمج كل من الإسلاموية والجهادية معا في كيانات موحدة يعدّ أشهر تجلياتها على أرض الواقع هو بزوغ نجم القاعدة، ولكن، كان كل ذلك لايزال في المستقبل البعيد.

كان الفوز في الانتخابات ساحقا ماحقا، فلم أصبح رئيس اتحاد الطلبة وحسب، بل فاز كذلك جميع مرشحي حزب التحرير الآخرين أيضا. وهكذا تغلّبنا في غضون أسبوعين فقط، وبشكل تام، على السلفيين في جيماس (Jimas) وإيسوك (Isoc)، وصرنا -الآن- أكثر الطلبة نفوذا في الحرم الجامعي، ولنا سلطة الاعتراض على إيسوك، و تمثيل الطلبة أمام الإدارة، والتحكم في تمويل أنشطة الطلاب. وقمنا، في ذات الوقت، بتأسيس جماعة المناظرات، لكي تقوم بتنظيم الوقائع وإحضار المتحدثين الخارجيين. قمنا على النماذج الرسمية الخاصة بذلك، بالادعاء أن ملهمنا في القيام بهذا العمل كان جلادستون ودزارئيلي والمناظرات البرلمانية. استطعنا أن نخدع الإدارة ونقنعها أن تتركنا نؤسس جماعة تكون -واقعا- واجهة لحزب التحرير. كان مثل ذلك الاستحواذ يحدث في كل حرم جامعي عبر المملكة المتحدة، كانت الإسلاموية صاعدة لا تلوي على شيء.

الفصل التاسع

12,000 مسلم يصرخون "خلافة" في ملعب ويمبلي

لم يكن سلفيو إيسوك فقط هم الوحيدون غير القادرين على التعامل معنا، فقد سرى ذلك أيضا على سلطات الكلية التي أُخذت على حين غرة. كان مدير شؤون الطلبة شخصا يدعى دايف جومر، وهو نقطة التواصل بين سلطات الكلية والطلبة. كان رجلا ودودا، دمث الاخلاق وطيب السريرة، وكانت سياساته قد تشكلت في عهد سابق، حين كانت مظاهرات الطلبة تدور كلها حول الاعتصام والإضرابات واحتلال اتحاد الطلبة. كانت مظاهرات الطلبة بالنسبة لشخص من جيل دايف تتمثّل في مفهوم: "الاطفال سوف يكونون أطفالا"، ويعد ما يفعلونه جزءا صحيا من التثقيف السياسي للجميع. بوسعك أن تتصور إلى أي حد كنا متقدمين عليه بسنوات ضوئية.

علي عكس مظاهرات الطلبة في الستينات، فقد جئنا إلى المائدة بمصطلحات -عن طريق استخدام الدين والثقافات المتعددة كغطاء- لم يروا لها مثيلاً من قبل. لقد قمنا -ونحن مدركون تماما- بتقديم مطالبات سياسية بوصفها شيئا من الدين والتعدد الثقافي، وقمنا عمدا بعنونة أي اعتراض على مطالبنا بوصفه عنصرية وتعصباً. بل والأسوأ من ذلك، فقد فعلنا كل ذلك، مع الجيل نفسه الذي كان متعاطفا مع الاشتراكيين في شبابه. جيل كان متعاطفا مع اتهامات العنصرية، والذي يتبوأ الآن مراكز إدارية متوسطة المستوى، أناس مثل دايف جومر. لم يكن من المستغرب، والحال هكذا، أن السلطات لم تكن مستعدة للتعامل مع الدين السياسي بوصفه مصدر قلق عقائدي، وكانوا يشعرون أنهم عنصريون إن حاولوا منعنا.

ومما يثير العجب أن الاشتراكية كانت أقرب ما يمكن مقارنته بنا من حيث الخطط. لم تكن الحرب الباردة مجرد معركة بين قوتين عسكريتين عظيمتين، والدول الموالية لهما فقط، بل كانت بين نظامين ذوي عقائد متنافسة. كان الغرب يدرك أن الاشتراكية تهديد مباشر لطريقة حياتهم وتعاملاتهم، وكان الاتحاد السوفييتي يمثل خطرا ماديا ووجوديا كذلك. ومثّل هذا سبب كل ذلك القلق الدائر حينئذ و حركات مثل "الحمر يكمنون في الداخل"، و حملات الاضطهاد الجارية بحق المشكوك في شيوعيتهم التي قادها مكارثي في فترة الخمسينيات. استمرت هذه الحملة القائمة ضد الشيوعية حتى نهاية الحرب الباردة بالضبط، جنبا إلى جنب مع

رونالد ريجان وهو يطلق على الاتحاد السوفيتي اسم "دولة الشر"، في خطاب ذلك العهد حول "حرب النجوم".

كانت الإسلاموية تطالب بما لا يقل عن انقلاب جذري في أصول وفروع المجتمع، ولكن، ولأنها كانت مموهة في رداء ديني، فلم يكن أحد يعرف بالتحديد كيف يتصرف معها، وكان الناس حريصين للغاية ألا يقوموا بأي شيء قد يمثل إهانة أو إزعاجا. كان هناك ارتباك قائم حول تعريف أنشطتنا، ما إذا كانت هوية ثقافية أو عقيدة أو إيمان، وبالإضافة إلى كل ذلك، فقد مرت الإسلاموية بعقد كامل احتضنها فيه كل من جناحى اليمين واليسار. كان الموقف الليبرالي المائل لليسار بشكل أساسي، هو احتضان الحركة كجزء من الحساسية تجاه تعدد الثقافات، فقد كان ما يرونه هو أن إخبار الناس أن يتوقفوا عن ممارسة شعائرهم شيء يرجع إلى إمبريالية عهود التسعينات، وبقايا استعمارية تقارب بل وتكاد تكون عنصرية. بدلا عن ذلك، فما تم هو احتضاننا بوصفنا جيلا جديدا من الشباب السياسي المعادي للاستعمارية. ولعلّ ما يثير الاستغراب في هذا الصدد هو أن الموقف الأساسي لليمين كان احتضاننا أيضا، ويرجع هذا لأن الأفغان المجاهدين، المدعومين من وكالة الاستخبارات الأمريكية، هم من قاتلوا الاتحاد السوفيتي. وكي لا ننسى، فقد كان هذا يجري حين كانت الأفلام في هوليود، مثل رامبو 3 من بطولة سلفستر ستالون ترسم صورة بطولية للمجاهدين الأفغان.

على أرض الواقع، لم يتواجد في تلك المرحلة سوى مجموعتين تعارضان حزب التحرير، مثل جيريمي نيومارك وهو الآن مع مجلس القيادة اليهودي، وبيتر تاتشيل القائم بحملات حقوق المثليين. كانت تلك المعارضة الصادرة من هذين الطرفين تمثل بروباجندا مذهلة للسردية الإسلاموية: كانت المعارضة التي تواجهنا عبارة عن أصوات مناصرة لليهود وحقوق المثليين، وقد ساهم هذا في دعم الرسالة التي كنا نحاول توصيلها لعموم المسلمين. كان تاتشيل حينئذ صوتا وحيدا، نوعا ما، ضد حزب التحرير، ولم يكن أحد ينصت له، ولكن، رغما عن ذلك، يجب إعطاء الرجل حقه، حيث كتب وقتها: "إن حزب التحرير هو اكثر الإسلاميين الأصوليين خطرا، وهو نشط بصفة خاصة في أماكن الحرم الجامعي في لندن ومانشستر، يوجد كتلة صلبة من الأصوليين المهووسين، ويعتقد الكثير منهم أن المسلمين سوف يحظون بالجنة إن هم مارسوا القتل في سبيل الله". كانت آراؤه وتحذيراته تلك تذهب أدراج الرياح ويتم تجاهلها، وكنا نحن نضحك على جهل الناس. في الواقع، وبصفتي رئيس اتحاد طلبة نيوهام، أتذكر مناسبة تسلمنا فيها، أنا وإد، منشورا صحفيا من اتحاد الطلبة اليهود يتضمن تحذيرا موجها إلى جميع الاتحادات من أنشطة حزب التحرير في الحرم الجامعي، وكانوا قد قاموا بتنظيم يوم تدريب وتوعية. قررنا نحن، اتحاد طلبة نيوهام، حضور ذلك اليوم، وتعرفنا يومها على كل ما كانوا ينوون فعله لتثبيطنا، وبكل بساطة، عدنا أدراجنا إلى نيوهام لكي نستخدم تلك المعرفة ضدهم.

كان على السلطات أن تتصرف بطريقة مختلفة.

تخيّل لو أنّ الحزب الوطني البريطاني، التابع لأقصى اليمين، هو الذي كان نفوذه يتصاعد في الحرم الجامعي، أظنّ أنّ العنصرية -بدلا من الإسلاموية- هي التي كانت ستنتشر كالنار في الهشيم في صفوف مجموع الطلبة، وأن الحزب الوطني البريطاني سيقررأن يترشّح في انتخابات اتحاد الطلبة. لو كان ذلك قد حدث، واستحوذ الحزب الوطني البريطاني على الاتحاد، لكانت الكلية قد اتخذت اللازم فورا. كانوا بالتأكيد، وبلا أدنى شك، سوف يرون ضرورة الوصول لحل، ولو لمجرد الحفاظ على سمعتهم، وفي سبيل تفادي تأثير مثل ذلك الحدث على نسبة القبول في الجامعة. كانوا سيقومون بتفعيل دستور الكلية الذي ينص على منع وتحريم خطاب الكراهية، مستندين على حقيقة أن الحزب الوطني البريطاني هو جماعة سياسية خارجية تهدف إلى الاستحواذ على الكلية، وكانت على الأرجح منعتهم من ذلك. ولكنّ ما حادث هو أننا تُركنا وشأننا، خلافا لما سبق ذكره في المثال السابق وما كان سوف يتم القيام به في أي حالة مماثلة. كان ذلك نتيجة للعنصر الديني الكامن في رسالتنا، والرغبة القوية لدى السلطات المعنية في عدم جرح مشاعرنا الدينية.

بدا نجاحنا في الفوز بانتخابات الطلبة كأنه جزء من صورة أكبر، فقبل ذلك ببضعة أشهر، كان حزب التحرير قد أقام "مؤتمر خلافة" عالميا في ملعب ويمبلي، وكان مكتظا عن آخره. كنت واحدا من 12000 شخص حاضرين من كل أنحاء العالم، ومثّل ذلك مشهدا مهيبا، و دافعا قويا عزّز من إيماني بالقضية. لازلت أذكر زئير الحشود وهو يتصاعد لمستويات أسطورية، وكان كل واحد من الـ12000 فرد الحاضرين، ينشد: "الله أكبر". أستعيد في ذهني كيف كان الرعد المتصاعد من دبيب اقدامهم يهز الملعب، وكيف التفت إلينا الإعلام العالمي أخيرا، وأعارنا كامل انتباهه. كان من الصعوبة بمكان، أن تغادر الملعب بدون أن يمر بذهنك أن زخم التغيير التاريخي كان في صفنا ومعنا.

بدا منصب رئيس اتحاد الطلبة كأنه امتداد لهذا الزخم، و كانت نيوهام هي أول كلية نجح فيها حزب التحرير في الحصول علي السيطرة على الاتحاد، والذي كان بدوره يعني: إن قيادة حزب التحرير قد لاحظت جهودنا، وهكذا كان؛ فقد أقنعتُ قائد الحزب في المملكة المتحدة عمر بكري محمد أن يأتي ويلقي خطابا في الكلية، وأصبح ذلك نصرا آخر في مسيرتي.

إنّ عمر بكري محمد لاجئ سياسي سوري في المملكة المتحدة، وكان في تلك الأيام شخصا ذا جاذبية لا يمكن إنكارها، وقد اكتسح حزب التحرير -تحت قيادته- كافة أرجاء المملكة. لم يكن هذا الإنجاز قابلا للحدوث لولا وجود الجماعة المحيطة به من المساعدين المؤثرين والمفوهين في الرد والخطابة. كان أكثر هؤلاء المساعدين سطوعا هو فريد قاسم، وهو اشتراكي سابق وقد عاد للإسلام عندما انضم إلى حزب التحرير. كان فريد طلق الحديث للغاية، وذا ذهنية متوقدة أيضا، وكان هو الذي قاد المبادرة لتجنيد مجموعة

الطلبة في حزب التحرير، مستخدما في ذلك تكتيكات الاشتراكية التي تعرّف عليها سابقا معهم. وهناك ايضا دكتور عبد الواجد، وبرهان حنيف، و الإخوة خان الثلاثة. قام هؤلاء المساعدين، تحت قيادة عمر بكري، باستهداف الجامعات بنجاح تام، وصولا إلى قدرة المنظمة على حشد 12000 داعم للمؤتمر العالمي في ويمبلي.

ولكن، فضلا عن التزايد العددي للأعضاء، فقد حصل قطاع المملكة المتحدة من حزب التحرير على شهرة كبيرة، وأثار ذلك مخاوف القيادة (قيادة حزب التحرير العالمية). كان حزب التحرير (الذي تم تأسيسه في القدس عام 1953) يملك فروعا في كل بلد في العالم تقريبا، وكان هدفهم الأوحد هو استخدام تواجدهم العالمي في إعادة تأسيس الخلافة في بلد ذي غالبية مسلمة. على العكس من أي مكان آخر، فقد كان حزب التحرير في المملكة المتحدة موجها بشكل مباشر ليكون رأس حربة في صراع الجماعة مع المجتمع البريطاني. قام حزب التحرير في المملكة المتحدة، تحت قيادة عمر بكري، بكتابة منشورات دعائية تتضمن وصفا عن كيفية انتصار الحزب علي المؤسسة السياسية، و كيف سيجعلون العلم الإسلامي يرفرف فوق مقر الوزارة البريطاني في 10 داوننج ستريت. علاوة على ذلك، فقد تضمنت بعض المنشورات الأخرى محتوى، تلميحا لا تصريحا، معاديا للسامية. كانت تلك التكتيكات مستفزة وملفتة للنظر، وبدأت تضع الجماعة تحت المجهر، ولم ترضَ القيادة عن ذلك، حيث كان ما تريده هو استخدام المملكة المتحدة كقاعدة للتمويل والتجنيد، ومحطة إعلامية، وكغطاء دبلوماسي كذلك. لم تكن القيادة راغبة مطلقا في أن يقوم الجناح البريطاني من المنظمة بقلقلة هذه السفينة، الموزونة بعناية والجالبة للأموال، بأي شكل كان.

واصلنا نحن في نيوهام، في إشعال الأمور عوضا عن تهدئتها، فبالإضافة إلى السيطرة على اتحاد الطلبة والمال المخصص له، فقد كان لنا نفوذنا الكبير في الشوارع أيضا. كانت هناك عصابة باكستانية محلية ومعروفة في إيستهام، وكان الجميع على علم بهؤلاء الأولاد وما يمثلونه من خطر يستدعي عدم الاحتكاك بهم. وهكذا كان من دواعي سرورنا الغامر أنْ قرر أحد أعضائهم الأساسيين الانضمام إلى حزب التحرير، إذ منحنا هذا الحدث الاحترام في شوارع شرق لندن القاسية، وكنا بعده قادرين على الدخول إلى أي نادي شباب أو تجمع، أيا كان، آمنين مطمئنين، لأننا تحت حماية تلك العصابة.

تصاعد معدل استفزازية حملاتنا في الكلية، وصار من الصعب تجاهلها، فقمنا، على سيل المثال، بوضع سلسلة من البوسترات التي تحمل صورة امرأة مسلمة ترتدي حجابا للوجه، وبجوارها أي كي47، وهو سلاح آلي. كانت الصورة لحارسة ثورية إيرانية، لم يكن الأمر أننا من المعجبين بشيعة إيران إطلاقا، بل أن الصورة كانت ممتازة فحسب لتدعيم النقطة التي أردنا إثباتها. كان عنوان البوستر الذي يدعو إلى حضور خطاب يجري تحت رعايتنا، هو: "يا نساء الغرب، عليكن أن تقومْن بستر أنفسكم أو عليكن أن تخرسوا"،

ووضعناه في كل مكان. يمكنك بالطبع أن تتخيل مقدار ما سبب ذلك من استفزاز للطلبة وهيئة التدريس، حيث كانت تلك أول مرة يتم فيها استدعاؤنا لمقابلة دايف جومر، لم نشعر بأدنى حاجة للاعتذار عما فعلنا، بل بررتُ فعلنا مدافعا عن موقفنا حتى النهاية.

دافعت عن موقفنا مستخدما الخدعة نوعا ما، وقلت: "إن كل ما نطلبه هو أن يتركنا الناس وشأننا، هذا هو ما نؤمن أنّ على النساء أن يرتدينه: إن كنت لا تريد ارتداء ذلك، فهو قرارك، ولكن لا تنتقد نساءنا للقيام به"، مما كان يعني: اخرس!

قمنا، في هذه الأجواء، بتنظيم لقاء كي يخاطب فيه عمر بكري محمد الطلبة، أردنا أن نترك انطباعا جيدا لدى القيادة، وقضينا الأسبوع السابق للحدث برمته في الدعاية والترويج لزيارته. كانت القاعة مكتظة عن آخرها يوم خطبته، والجميع يود أن يراه، و يستمع لما لديه بما في ذلك السلفيون الذين حضروا آملين بمضايقته أو إزعاجه، و لكنّ ما حدث هو أنه أفحمهم ببراعته المعهودة. كان هذا شخص ملتحيا فعلا، يتحدث العربية، ولديه السلطة الدينية التي منحتها له دراسته للشريعة في جامعة دمشق. بدأنا، من خلال عرض قدراتنا علي الجدال الديني، لا السياسي فحسب، في التغلّب على السلفية. كانت هذه الخطبة نصرا كاسحا وضربة معلم بالنسبة لنا.

جاء ظهور عمر بكري في خضم التوتر المتصاعد في أروقة الكلية، وكان الصراع بين حزب التحرير والسلفيين لا يتعدى كونه أحد المعارك الجارية في أرجاء الحرم الجامعي. أما الأكثر خطورة من ذلك الصراع في بعض مناحيه، فهو التوترات العنصرية التي كانت تتزايد وتتراكم بين الطلبة الباكستانيين والطلبة الأفارقة، فقد كان الأفارقة لفترة طويلة هم القوة المسيطرة والخطرة في الكلية، وكانوا يُرهِبون الطلبة الباكستان، ومسؤولين عن موجة من السرقات العنيفة التي كانوا يطالبون فيها الطلبة بتسليم أموالهم، وكانوا يتقاتلون حول النساء. كان الطلبة الأفارقة يقومون بكل ذلك مدركين أن الطلبة الباكستانيين، علي الأرجح، لن يقاتلوهم.

كنت أرى نفسي في هؤلاء الطلبة الباكستانين، نفسي الأصغر، التي تم لكمها وركلها في بطنها. كنت متمرسا بالقتال ومحنكا في المعارك من قبل، وهكذا كنت أفهم بشكل غريزي أن ما ينقص هؤلاء الطلبة هو قضية لا غير. لو امتلكوا سببا يدعوهم لمجابهة هؤلاء البلطجية، لانقلبت الأوضاع تماما. لم تكن الجماعة الأفريقية في الكلية في حجم الجماعة الباكستانية، ولكن كان العنصر النشط في الأولى هو الأكبر حجما.

وهكذا أخذت على عاتقي تغيير ذلك الوضع، وشرعت في التنسيق مع الطلبة الباكستانيين لتكوين قوة توضع في الحسبان. افتقر منافسيّ إلى سلاحي السري -بما أنهم افريقيون غير مسلمين- وذلك السلاح هو الإسلام. عرفت على الفور ما الذي قد يلهم الباكستانيين، كنت أحتاج إلى إعادة إنتاج لحظة الجوال الأخضر

في المواجهة التي وقعت بين عثمان وميكي هنا في الكلية. كان عليّ أن أغرس فيهم حمى الشوفينية الإسلامية، وهكذا، وبلا سابق إنذار، دخلنا إلى كافتيريا الطلبة، ووقفنا أمام الطاولات، وقمنا بالحديث مع كل الطلبة، بكل بساطة، أمام جميع الحاضرين.

وجهنا تحديا سافرا للأفارقة غير المسلمين أمام الجميع، مما وضعهم في موقف يظهر فيه ما إذا كانوا يتجاسرون على التقدم لمجابهة قوة الإسلام، و حذرناهم من غضب الله إن عبثوا مع المسلمين. كنا أقل عددا إلى حد كبير خلال تلك الوقائع، فلم يتعد عددنا اثنين أو ثلاثا، ولكننا جابهناهم بلا خوف، ونار الإيمان تستعر في صدورنا، كانت نوعية الإيمان التي تحرك بواعث المرء وتحفزه. لم يعرف الطلبة الأفارقة ماذا يتعين عليهم عمله، إزاء ثقتنا العارمة التي شتتتهم، ووقفوا هناك فاغرين أفواههم، وهم يتابعوننا، فيما نحن نقوم بتحقيرهم شفهيا. كان تصرفنا ينطوي على خلط محسوب، بين رسالة حزب التحرير، والدفاع عن النفس، وتجييش وتعبئة نفوس الطلبة بسردية حزب التحرير، إضافة إلى جذب انتباههم لأنشطة الجماعة في ذات الوقت.

كنا نلهم الطلبة بروايات الجهاد، ونضمن لهم دعمنا من خلال شبكاتنا، ولكن وأكثر من أي شيء آخر، فقد كنا نقودهم من خلال تقديم الأسوة الحسنة. واعتدنا في وسط مثل تلك المجابهات التي كانت كثيرا ما تمتد إلى فناء الكلية، البدء فجأة في الصلوات الجماعية، في المكان نفسه وأمام أعدائنا. وبعد انتهاء صلواتنا، نقف ثانية على أرجلنا، ونصرخ: "الله اكبر" بأعلى صوت كلنا معا، كأنما هي صرخة حرب. كان كل الطلبة الأفريقيين يملكون السكاكين، وكان بعضهم حتى يحمل سيوفا، ولكن بعد كل ما عانيته في ساوث إند، فلم تكن مثل تلك الأسلحة تنال مني. كنت، عند تلك النقطة، أتجول حول المكان، وسكيني مربوط إلى ظهري، منذ سنوات كثيرة، وصار ذلك الطبيعي بالنسبة لي، وكنت قد فقدت كل حساسيتي تجاه مخاطر العنف التي قد تواجهني، بحيث أنني كنت أستطيع الوقوف أمام الطلبة الافريقيين بدون لحظة تردد. كان الحال هكذا إذن حين قمت -وأنا ممتلئ بمعتقداتي الاسلامية، و الثقة التي حصلت عليها عند فوزي بالانتخابات- بوضع النار فوق البنزين، بهدف إشعال الموقف، المتأزم بالفعل. وأثمر استعراضنا، الذي أظهر حميتنا الدينية التي لا تهاب شيئا، وقام بتجييش عواطف الشباب الباكستانيين، وجعلهم يواجهون التحديات من خلال هويتهم المسلمة، وكانت مجرد مسألة وقت قبل أن يتأذى أحدهم بالفعل.

الفصل العاشر

خادم القهار

كان موقف حزب التحرير من العنف أنه في حين أنها تدين وتشجب هجوم أعضائها على بعضهم البعض، فقد كان الدفاع عن النفس شيئا معقولا ومقبولا. لم تكن تلك سياسة متفقا عليها بين أعضاء الجماعة؛ فقد كان بعض أصحاب الفكر يعتقدون أنه من الأفضل عدم حمل الأسلحة بتاتا، محتجّين على ذلك بما يلي: يجعل حمل الاسلحة شكل الجماعة سيئا، ويرفع من احتمالية وإمكانية أن يستنتج الناس أننا إرهابيون. وقد احتجوا بأنه من خلال عدم حملنا لأي شكل من أشكال الأسلحة، فإننا نرسم خطا أكثر وضوحا وتحديدا بيننا وبين الجهاديين. كان ذلك يبدو شيئا نظريا بالنسبة لجميع من كان يواجه جماعات شبيهة بالأفارقة، أما في الإطار العملي فقد كنا في حاجة لأن نكون قادرين على الدفاع عن أنفسنا، ولذا شجعتُ الطلبة الباكستان في الكلية على الوصول لحالة "دفاعية" ولكن بشكل أكثر عدوانية. سرعان ما أدرك الأفارقة أن هناك شيئا مختلفا يجري هنا، ولأول مرة استوعبوا أن الأمور لا تجري بطريقتهم، ولكنهم بقوا غير واثقين مما ينبغي أن يفعلوه.

في أحد الايام، وأثناء حدوث كل ما سبق ذكره، اقترب مني طالب لم أكن أعرفه من قبل، وقال: "أخي ماجد، هناك شخص في الحرم الجامعي يسأل عنك، إنه يتجول حول المكان محاولا العثور عليك"

"كيف يبدو؟"

"يبدو طويلا، رجلٌ أسود شديد الطول"، أجابني الطالب.

فجأة، بدأت جميع صفارات الإنذار الداخلية تدق في أذني، فكرت في أنه لابد أن هذا الرجل صديق للأفارقة، لابد أنهم طلبوا دعما ليستطيعوا إيقافي عند حدي. هذه هي النهاية، فكرت، لقد حان وقتي.

علمني كل ما مررت به في إيسكس أن أواجه مثل تلك المخاطر وجها لوجه، وهكذا تجولت حول الحرم الجامعي باحثا عن هذا الرجل. كنت أريد أن اكون أنا من يجده وليس العكس، وهكذا كان. بدا من الصعب ألا تراه، فقد كان بالضبط كما وصفه الطالب: رجل أسود، عشريني طويل ورفيع البنية، كان أطول مني بمقدار رأسه وكتفيه. خطوت مباشرة تجاهه -والأدرينالين يضخ في عروقي- متوقعا تماما حدوث مشاكل، "هل تبحث عني؟"

استدار إليّ ببسمة عريضة، وحضن دافئ قائلا: "السلام عليكم يا أخي، هل انت الاخ ماجد؟". كانت تفوح منه روائح الزيوت المعطرة التقليدية المسماة عطر، والتي كان يفضلها الرسول عليه السلام، والتي تباع في متاجر الكتب الاسلامية المعاصرة.

تبيّن أن الغريب الطويل مسلم جهادي من جنوب لندن، يسمى سعيد نور، وقد جاء ليعرض دعمه على إخوة حزب التحرير المشهورين (سيؤوا السمعة) في كلية نيوهام.

"اخي ماجد" -كان دوما يخاطبني بفائق الاحترام- "لقد سمعت عن الأعمال العظيمة التي تقوم بها أنت وإخوتك هنا، وقد أتيت لأعرض عليك دعمي، لن يستطع أحد العبث معك في وجودي، هذا وعد مني أن شاء الله."

كان سعيد نور قادما من مشهد جهادي وليد، ينمو باضطراد في بريكستون التي كانت حينئذ إحدى أكثر مناطق لندن قسوة. كان يمثل الاندماج بين النصوص الدينية الحرفية والإسلاموية التي ذكرتها آنفا. وبالرغم من أنني لست جهاديا، فقد شعرت بارتياح شديد لأنني وجدت هذا الدعم منه، وكنت أشعر بالثقة في قدرتي على كسبه في صف قضيتنا مع الوقت. أصبح سعيد -في الواقع-حارسي الشخصي، وبالرغم من أنه لم يكن هو ذاته يفتقر إلى السلاح، فقد كان يتحدث عن إحضار "خمسين رجلا مسلحا بالمسدسات" من بريكستون، إن لزم الأمر. مد يده -في ذلك الاجتماع الأول-إلى داخل سترته الجلدية وسحب سيفا منها.

قال: "هذا هو عبد الجبار."

في التراث الاسلامي يعد "جبار" واحدا من أسماء الله الـ 99: ويعني ذلك "القهار" (في اللغة العربية الجبار يعني جبار الكسور ولكن اصطلح علي تفسيره بانه الذي يقهر الآخرين). كان وضع كلمة عبد قبلها يعني خادم القهار. وكان ذلك الاسم الذي اختار سعيد إطلاقه على سيفه.

سأل سعيد وهو يبدو منزعجا فعلا: "سمعت أن لديك بعض المشاكل هنا في الكلية، مع بعض الكفار السيئين، هل يزعجون إخواننا؟" وضع السيف في غمده مرة اخرى، مضيفا "ما عليك في أي وقت تحتاج فيه إلى مساعدة إلا أن تتصل بي يا أخي، ولسوف آتي -في سبيل الله-و أحل لك كل شيء". ومن ثم زودني برقم هاتفه مكتوبا على قطعة من الورق، واستأذن مني بعد حضن آخر، قائلا -في مفارقة عجيبة-"السلام عليكم."

كانت المرة الاولي التي ظهر فيها سعيد نور تبدو مثل هدية من الله. كان لدي هنا شخص يبدو كما لو كان ظهر بلا مقدمات، ليعرض علينا دعما عضليا غير مشروط. كانت السيرة -وهي قصة حياة رسولنا عليه السلام- تبدو وكأنما تعضد مثل ذلك التدخل الإلهي، حيث تقص كتب التراث الإسلامي كيف تم منح الرسول مثل تلك النصرة (الدعم)، من خلال تحول عمه المقاتل حمزة للإسلام. قمنا من خلال -الربط بين المتماثلات في ظهور سعيد وقصة حمزة- بالحصول على تدعيم، يؤكد لنا إيماننا بأن طريقنا كان طريق الصالحين.

وبدت حقيقة أن سعيدا أسود اللون مثالية، فقد أكدت و دعمت النقطة التي كنت أوضحها للباكستانيين، والمتمثلة في أن الأمر لم يكن قضية عنصرية. كان الخط الفارق يقع بين المسلمين وبين بقية العالم. ليس هناك فارق بين المسلمين البيض في البوسنة، والمسلمين السود مثل سعيد، أو المسلمين الباكستانيين، كان ديننا هو الشيء الذي يمنحنا هويتنا ويوحد بيننا.

في المرة التالية التي جاء فيها للحرم الجامعي طالب سعيد بإصرار شديد أن يقابل الأفارقة. أشرت له عليهم، وسار إليهم ليتحدث مع طاقمهم، وفيما كان ما حدث سابقا وقت مواجهتي لهم قد فاجأهم، فقد كانت رؤية هذا الطويل الأسمر ينحاز لنا شيئا صادما لهم بشكل يفوق ذلك. كنت قد حذرت سعيدا سلفا من أنهم يحملون سكاكين، ولكن، نظرا لوجود عبد الجبار داخل سترته والله في جانبه، فإنّ ذلك لم يسبب له الكثير من الإزعاج على الاطلاق. سار مباشرة إلى منتصف مجموعتهم، أمام الطلبة المكدسين والمنذهلين في غرفة الطلبة العمومية، وعرض بأعلى الصوت أن يقاتلهم جميعا دفعة واحدة.

زأر قائلا: "أيها الكفار الأنجاس! هل تظنون أنكم خطرون؟ سوف آتي بخمسين رجلا مسلحا بالمسدسات هنا في غمضة عين! إننا نحب الموت أكثر مما تحبون الحياة، تعالوا كلكم وتذوقوا الموت إن كنتم تجرؤون!"

لم يكفه كل ما وصل له من مستويات الإرهاب الجسدي الذي قام به بالفعل، فقد مر بعدها عليهم واحدا واحدا، ليسألهم إن كان فيهم من يجرؤ على منازلته، ولم يتقدم أحد.

قال سعيد: "حسنا، إن لم يكن فيكم رجل بما يكفي من الجسارة لينازلني، فلتبقوا بعيدا عن إخوتي إذن!"

وهكذا جرت الأمور، كان مسلمو نيوهام قد وجدوا لتوهم لحظة الجوال الأخضر الخاصة بهم. لم تكن هذه مواجهة خاصة، لقد رآها الجميع وانتشر الخبر بسرعة عارمة، حيث تكاد ترى القصة وهي تنساب عبر كيان الطلبة. إنهم الآن يعرفون يقينا أن لديهم سعيدا لدعمهم، والوقوف بجانبهم إن حدث أيّ شيء. وبالمثل، أدركوا أنه وبالرغم من أنني لم أكن أمتلك حضور سعيد المنذر بالخطر، فقد حدث أن تحديت الأفارقة وخرجت منها سالما.

جرت تلك الأحداث على مر شهرين، تغيرت فيهما أجواء الكلية بالكامل. كان سعيد يأتي بانتظام للحرم الجامعي، ويتجول حوله كأنه محصن، وكان الأمن -يجب أن نذكر هذا-متراخيا إلى حد ما.

لم تعترض السلطات أبدا على حقيقة أن رجلا في العشرينات كان يتجول حرا في المكان، ولم يكن هناك أي كاشفات معادن كي تكشف حمله للسيف. قمنا -تحت حمايته-بحملات مثل وضع بوسترات "غطوا أو

اخرسوا". كنا ندعو عمر بكري وقادة آخرين بارزين ليخطبوا، واثقين من الاستقبال الذي سوف نتلقاه. كان الطلاب الباكستانيون يثبتون وجودهم لأول مرة، وجرت خططنا الخاصة لأسلمة الكلية حسب الخطة.

كان الأفارقة في تلك الاثناء، لايزالون في طور التأقلم على هذا التغيير في موازين القوى. وبعد مرورهم بصدمة تحديهم بذلك الشكل، ومشاهدة الطلبة المسلمين يثبتون وجودهم، بدأت الكتلة الصلبة للعصابة في إعادة تجميع شتات نفسها. ذات يوم، كان هناك مواجهة في الغرفة العمومية، وكان هذا حدثا نمطيا معتادا يمر مرور الكرام لو لم يحدث في هذه المرة أن قام واحد من الطاقم الافريقي -ايوتوندي أوبانوبي-بسحب مدية وإصابة طالب مسلم بجرح قطعي، لم يصب أحد بسوء، ولكنّ الجميع هرب، وانتشر الخبر في الحرم بسرعة شديدة.

كنت في غاية الغضب، وفي الصباح التالي قمت بتنظيم استعراض للقوة، جئت فيه بكل ما كان بوسعي جمعه من الطلبة المسلمين معا في الفناء لكي يشاركوا في حشد تلقائي، صدحت فيه أصواتنا عاليا ونحن في مسيرة حول الميدان، مؤكدين وجودنا وصارخين: "الله أكبر!"، فيما وقف الطلبة الأفارقة يتابعوننا وهم مذعورون.

قمنا مرة اخرى، بالصلاة في ذلك الشارع أمام الفناء، واثقين تماما أن الأفارقة لن يجسروا على مهاجمتنا أثناء الصلاة. كانت الصلاة بالنسبة لنا أداة للبروباجندا، وطريقة للترهيب، وليست تجربة روحانية تجلب الهدوء والسلام، كما كان مقصودا أن تكون عليه. وصل سعيد في تلك اللحظة، لست متأكدا من هو الذي اتصل بسعيد، كان قد زود الجميع برقم هاتفه، ولكنه كان عالما بالحدث الذي جرى في الغرفة العمومية، وكانت عيناه حمراوين كالجمر. لو كنت أكثر وعيا، أو مهتما بأن أعرف، لكنت قد تعرفت على النظرة التي كانت في عينيه على حقيقتها، وهي أنها نظرة تعكس شبقا وتعطشا للدماء.

فجأة، صارت الأجواء مليئة بالتسرع والأدرينالين. كان ايوتندو هناك مع عصابته، وتابعنا باحتقار فيما نحن نسير وننشد. كان قد جاء مستعدا، وجاهزا للمشاكل، وفجأة اقترب منه سعيد وبدأ يتحاور معه. قررت أنه يجب عليّ الاقتراب منهما، وكان ايوتندو قد سحب بالفعل من ملابسه زوجا من سكاكين الجزارين: نصلين كبيرين قبيحين ومخيفين، وكان يلوّح بهما ويصرخ في وجه سعيد، ويهاجمه. كان ايوتندو يضرب يمينا ويسارا بسكاكين الجزارين التي كانت معه، قاطعا الهواء، موجها إياها الى سترة سعيد الجلدية، محاولا أن يطعنه. ماذا يجب أن أفعل، ما هو رد الفعل المناسب؟ أمد يدي إلى سكيني، أفك القفل الخاص بها، ماذا يجب أن أفعل؟؟؟

ولكن حالما دوى صوت سعيد عبر الفناء، كان عالمي قد تباطأ نسقه مرة أخرى. كانت تسيطر عليه حالة من الهدوء التام، وكان في حالة غريبة خارقة للطبيعة، تقترب من التنويم المغناطيسي، فيما يختص

بالتحكم بمشاعره. لو كان يشعر بالخطر حينها، فإنّ ذلك بالتأكيد لم يظهر عليه أبدا، وبدلا من ذلك، نظر إلى ايوتندو وقال له بنبرة قطعية: "لو لم تضع هذا جانبا في التو واللحظة، سأضطر الى قتلك."

تؤرقني هذه الجملة، حتى يومنا هذا. لم يلقِ ايوتندو بالا لتحذير سعيد، وبدلا من ذلك، استمر في التلويح بالسكاكين، في حركات تقطيع موجهة لسترة سعيد الجلدية. كنت عند هذه النقطة متأكدا من أن ايوتندو سيتأذى، أخبرت نفسي أن هذا دفاع عن النفس. فكرت في أننا نحن المسلمون مجرد بشر، ولكننا لسنا دعاة سلام، إننا لا نتعدى، ولكن إذا أراد أحدهم ان يبدأ قتالا معنا، فيحسن به أن يكون على استعداد لخوض قتال حتى الموت.

فتح سعيد سترته الجلدية وأخرج عبد الجبار منها.

بعد ذلك لمحت من طرف عيني ويدي ما تزال على سكيني، دايف جومير، هو المسؤول عن التواصل مع الطلبة. كان يقف وراء ايوتنودو مباشرة، حيث جاء راكضا خارج المبنى بعد كل تلك الفوضى، رأيته يستوعب الوضع، ويدرس ايوتند وهو يلوح بسكاكين الجزارين، وسعيد مع سيفه، فيما أقف أنا وراء سعيد.

لم يتعرف جومير على سعيد، ولم يكن مدركا حقا من يكون ايوتندو، ولكنّه كان يعرفني جيدا. نظر نحوي، في عينيّ مباشرة، نظرةً توقفك حيث أنت، نظرة إحباط وخيبة أمل أكثر منها نظرة غضب، نظرة شخص يشعر أنه قد خُذل بشكل فظيع. وثقت بك، كنت أراه وهو يفكّر بي: وثقت بك لتحافظ على كل هذا تحت السيطرة.

لم يكن جومير من مكان وقوفه قادرا على معرفة أنني قد أخرجت سكيني من غمده، لأنه كان ما يزال مخبئا خلف ظهري وتحت ملابسي، ولكنني كنت هناك، وبالنسبة له، كان ذلك كافيا.

كانت إحدى تلك اللحظات الفارقة في حياتي، والتي كان يمكن أن تتجه في اتجاهين متاحين. أحيانا تؤدي أصغر القرارات إلى أضخم العواقب. ولكنّ نظرة جومير كانت قد ثقبتني حتى العضم، اخترقت خيبة أمله الباردة جرّاء ما كنت أفعله النار البيضاء التي خلفها الأدرينالين في جسمي، وجذبتني للوراء بحدة، وأدركت في ومضة معرفة، في جزء من الثانية، ما أنا على وشك فعله. أدخلت سكيني في غمده، وشبكت القفل، وانسحبت إلى الوراء، كل المسافة إلى الوراء. لم يكن أحد يعلم ما فعلت، ولا أحد يعلم الحد الذي اقتربت فيه من الحافة. حتى يومنا هذا، لا يعلم دايف جومير أثر نظرته تلك على نفسي، على الأرجح يعتقد أنه فشل في عمله في تلك الكلية، ولكن، لولا وجوده هناك، لكانت حياتي قد اخذت منعرجا مختلفا تماما، لذلك، سوف أبقى ممتنا له للأبد.

كانت الحقيقة المحزنة أنه فيما كنت أنا محظوظا بما يكفي ليكون دايف جومير بجواري ليصحح سلوكي، فلم يكن ثمة أحد ليصحح مسار سعيد. لم أكد أضع سكيني في غمده، حتى كان سعيد يفعل العكس تماما بسيفه بحركة وحيدة خاطفة، تكاد تكون آلية، غرز سعيد نصله الوحشي، عبد الجبار خادم القهار، عميقا في صدر أيوتندو.

كانت تلك هي الإشارة، في اللحظة التي قام سعيد بطعن ايوتندو فيها، هرع نحونا صبية باكستانيون من كل حدب وصوب، بعضهم يحمل أسلحة مثل المطارق والسكاكين، في حين اكتفى الآخرون بالركل واللكم. كان هجوما متوحشا مهتاجا، خرج تماما عن سيطرتي عند تلك المرحلة. لم يكن لأيوتندو -حسبما أدركت على الفور- أدنى فرصة في النجاة.

كان دايف جومير من التعقل الكافي كي لا يقوم بأي تصرف هو الآخر، لو تدخل لكان من الممكن أن يلقى ذات مصير الناظر فيليب موريس الذي لقى حتفه اثناء محاولته فض نزاع آخر بالسكاكين في لندن. عندما اتضح بشكل جلي أن أيوتندو لن ينهض مرة أخرى فر الجميع هاربا، وسادت الفوضى التامة، وكان هناك أناس يصرخون، وعدد من المارة يريدون الخروج من المعمعة. أما هؤلاء الذين يحملون أسلحة، فكانوا يريدون الاختفاء قبل ظهور الشرطة على الساحة، وكان هناك دماء في كل أنحاء الأرضية. فيما وصلت خدمات الطوارئ الى المكان، تم ببطء استعادة شكل ما من أشكال النظام. ذهب المسعفون مباشرة الى ايوتوندو، وحاولوا بكل ما في وسعهم إسعافه، فيما كان جسده يتشنج في لحظاته الأخيرة قبل الموت، وقفت هناك وشاهدت ايوتندو ابانوبي يموت.

الفصل الحادي عشر

الرحم الذي حملني

كان فناء الكلية قد أصبح مسرح جريمة الآن، وسرعان ما بدأت الشرطة في طرح الأسئلة. لم أكن قد تورطت في الهجوم نفسه، و شعرت أنه لا يوجد سبب يدفعني للفرار. أردت أن أشرح للشرطة القصة من وجهة نظرنا، وأن أشرح ماذا كان يجري. كان أيوتوندي هو البادئ بالهجوم، وقد أحضر سكاكين إلى معركة ظهرت فيها السيوف، وقد خسر. كان ما فعله سعيد نور دفاعا عن النفس. يبدو ذلك وحشيا، أعرف ذلك، ولكني كنت مؤمنا به في ذلك الوقت.

على الرغم من أنني لم أكن أبدا معرضا لأن يتم القبض علي -وذلك نتيجة لأني كنت قد تجنبت لتوي التورط المباشر في الأمر- فقد أرادت الشرطة أن ترى ما إذا كان يمكنني أن أكون شاهدا في صالح المجني عليه. تم تقديمي لمحام صغير السن، وقد كان في ذلك الحين "دارسا" صاعدا في حزب التحرير. كان اسمه أنجيم شوداري.

بعد أن قصصت على أنجيم أحداث اليوم السابق، أكد لي أنه لا يوجد ثمة شيء فيما سردته قد يثير التحامل على المتهم أو يسيء إلى وضعه. جلسنا معا في مطعم الوجبات السريعة نتناقش حول هذا الأمر، وأتذكر أنجيم وهو يبدي ملحوظة حول مدى "ذكائي" مقارنة بأعوامي السبع عشرة.

"سوف يكون هذا داعية -ناشطا- عظيما يوما ما"، قال أنجيم، وهو يستدير ليحدث زميله.

سوف يمضي أنجيم شوداري بعد ذلك، ليكون لاحقا قائدا لواحدة من أكثر المنظمات السلفية الجهادية سيئة الصيت (والتي تم حظرها في نهاية المطاف) في بريطانيا، والمعروفة بإسم "المهاجرون".

كان أنجيم، عندما التقينا مؤخرا، قد نسي اجتماعاتنا تماما، واستمر نسيانه حتى أيقظته بفظاظة خلال مناظرتنا الشهيرة، التي استضافها جيريمي باكسمان (Jeremy Paxman) على قناة بي بي سي، في برنامج نيوز نايت (Newsnight). إنها مناظرة تستحق أن تشاهدها على الشبكة العنكبوتية، وذلك من أجل محتواها الترفيهي لاغير.

قمت عند عودتي إلى كلية نيوهام، بإعادة سرد قصتي على الشرطة مرة ثانية، وأنا أشعر بالظلم الفادح. ذكرت أن أيوتوندي كان مسلحا بسكينين، و كان هو البادئ بالهجوم. شرحت كيف كان هناك تاريخ

طويل من التنمر الذي يقوم به الطلبة الأفارقة ضد الطلبة المسلمين، وأن هذا الحدث هو ذروة كل ذلك. كانت آرائي حادة إلى درجة أنه عندما تم القبض على سعيد نور، واتهامه بالقتل، لم تصل أيّ من آرائي تلك إلى قاعة المحكمة، ولم يتم استدعائي للشهادة عن طرف المدعي كذلك، إذ لم تكن ذكرياتي عن الحدث ملائمة للحصول على إدانة للمتهم. لم يتم استدعائي للشهادة لصالح الدفاع كذلك، لأن الأمر كان سيبدو كما لو كان سعيد جزءا من مؤامرة إسلاموية منظمة، ولم يكن ذلك شيئا مفيدا للدفاع. كان عليّ لاحقا أن أكتشف بنفسي أن سعيدا نال حكما بالسجن المؤبد، وتم كذلك إدانة أحد الطلبة الذي كان في السادسة عشرة من عمره فقط، ويسمى عمران قدير، بتهمة المشاركة في جريمة القتل، في حين تم إسقاط التهم في نهاية المطاف عن طالب آخر يسمى كازي نور الرحمن الذي ستقبض عليه الشرطة لاحقا وهو يشتري ثلاثة مسدسات نصف آلية من نوعية أوزي، و يشرع في مفاوضات شراء صواريخ سام 7، وقنابل تقذف صاروخيا.

مر بجواري، فيما بدأت الحشود في التفرق، أصدقاء أيوتوندي وهم يهمسون بتهديدات عارمة بالانتقام. دخلت غريزتي على الخط، وأدركت أنني يجب -لكي أتجنب انتقام هؤلاء الرجال- أن أريهم بالضبط لأي مدى نحن مستعدون للدفاع عن أنفسنا.

كان لابد أن تكون المبادرة من طرفنا نحن، وكانت السرعة هي كل شيء. في تلك الليلة عينها، اصطحبني بعض أفراد العصابة الباكستانيين في سيارتهم، وكانوا قد استطاعوا سلفا اكتشاف محل إقامة بعض الطلبة الأفريقيين هؤلاء. وصلنا إلى عنوانهم، وصففنا السيارة بالخارج، مع إبقاء المحرك دائرا والأنوار مضاءة. كان هدفنا أن يرونا، ولذا انتظرنا بالخارج حتى جاء أحدهم للنافذة ورآنا. تبع ذلك إرخاء الستائر على الفور، فيما بدا أنه -على الأرجح- دلالة على الخوف. أردنا أن نخيفهم و نرسل لهم رسالة مفادها: إذا لم تكونوا قد اكتفيتم بعد، فنحن لازلنا هنا، ولدينا المزيد لنقدمه لكم. حالما تأكدنا أنهم قد لاحظونا، انطلقنا بالسيارة، لقد انتهت المهمة.

لست فخورا بما قمت به، ولم يكن مثل ذلك السلوك، بكل تأكيد، شيئا يدعمه حزب التحرير. كان ما قمنا به تلك الليلة تحركا محسوبا، لغرس الرعب في قلوب هؤلاء الرجال بعد مقتل صديقهم مباشرة، وكان على الأرجح أحطّ ما تدنيت إليه في حياتي، وذلك على الرغم من كل ما حدث منذ ذلك الوقت.

ترددت في إدراج هذه التفاصيل في روايتي، لم يزل صوت سعيد نور، المنخفض بشكل هادئ مثل التنويم المغناطيسي، وهو يصدر تهديدا يثلج القلوب: "لو لم تضع هذا جانبا الآن على الفور، فسوف أضطر لقتلك"، يجمد الدم في عروقي حتى الآن، بعد مرور سبعة عشر عاما. ولكن، في نهاية المطاف، فما أريده من خلال هذه السطور هو أن يحصل الناس على لمحة حقيقية عما كان عليه الحال خلال ذروة أيام لندنستان، وكيف وصلنا إلى ذلك الحال.

من الصعب تبرير ما حدث وتبرير ذهابنا لمكان سكنهم الآن بوصفه دفاعا عن النفس، ولكنّ الأمر كان على هذا النحو. كانت حجتي وأنا في السابعة عشرة من العمر، أن الأفارقة هم من بدؤوا كل شيء. كانوا قد جاؤوا مدججين بالسلاح، وقاموا بتوجيه نصالهم إلى سعيد نور، وكان من الضروري أن نصيبهم بالذعر إلى الدرجة التي تكفي لحثهم على الانسحاب، وقد نجحنا في ذلك، ببساطة شديدة: توقفوا.

إنني أرسل تعازيّ العميقة لعائلة أيوتوندي. إن مثل هذه الاستجابة الباردة لمقتل شخص آخر، مثّلت جزءاً لا يتجزّأ من الشخص الذي تحولت إليه. كانت هناك حالة تامة من انعدام الإحساس، ناتجة عن العنف الذي حاصرني وأنا أكبُر. كان رد فعلي -كذلك- مرتبطا برباط لا يمكن فصمه أو فصله عن عضويتي في حزب التحرير. كل ما أنا عليه اليوم، وكل العمل الذي أقوم به لمحاربة الإسلاموية، لم يكن ممكنا لو لم أنضم لحزب التحرير، ثم أتركه، وانا أكثر حكمة واستبصار.

من الصعب جدا فصل كينونتي اليوم عن كل ما مررت به. ومثلما سرد علينا ويليام جولدنج (William Golding) بوضوح وجلاء في روايته سيد الذباب (Lord of the flies) فسأظلّ موقنا أنّ معظم الناس العاديين يمكن أن ينحطوا إلى الدرك الأسفل بسلوكهم إذا توافرت الظروف المناسبة لذلك. نعم، ربما كنت الآن أقوم بحملات نشطة ضد الأفكار التي اعتنقها حزب التحرير، ولكنّ ذلك لا ينفي أنّ كافة مهاراتي الخاصة بالقدرة على المناظرة، والتنظيم، والحشد، والإلهام، قد اكتسبتها كلها بلا شك، في فترة تدريبي في تلك المنظمة.

ومن ثم فإن سؤالي عما إذا كنت نادما على الانضمام إلى حزب التحرير، هو سؤال تصعب الإجابة عليه. إنه يعني أنني نادم على من أكون أنا اليوم، وأنني نادم على عملي الحالي، وعن نفسي، فأنا لا أعتقد أن الحال هكذا. ربما لن يعجَبَ كثيرٌ من الناس بإجابتي هذه، ولكن هذه هي الاجابة الصادقة الوحيدة التي أملكها. قد تكون الحقيقة هكذا في بعض الأحيان، أقسى وأصعب وأكثر مرارة عما قد يعترف به الناس طواعية. ولذلك السبب، تستمر حقيقتي في إيلامي كل يوم.

ضاعفت حادثة القتل تلك من التزامي وارتباطي بحزب التحرير. كان تدخل دايف جومير يبدو متطابقا مع آراء قيادة حزب التحرير التي ترى أن العمل المباشر ليس هو الحل. حالما خطوت في هذه الطريق، فأنت تُعرّض نفسك للعواقب الناجمة عنه. كنت كلما فكرت أكثر في الأمر وأنا في السيارة مع بعض أفراد العصابة السابقين، أدركت أنه لم يكن من المحتوم أن تجري الأمور حسب رؤيتي وفكري. كان هذا انحرافا عن الدرب الصحيح، وكانت فلسفة حزب التحرير هي التحدي وتحريك المياه الراكدة، ولكن على ألا يتعدى الأمر ذلك. دعمت حادثة القتل، حسبما فكرت، رأي حزب التحرير في الأمر، واقتنعت بأن ذلك هو الخط الواجب اتباعه.

كان كل ذلك يحدث على الرغم من الطريقة التي استجابت بها قيادة حزب التحرير للأحداث. وكنت أنا وإد حسين المسؤولين عن حزب التحرير في الكلية. لم يكن إد متواجدا بالقرب من الحدث، فقد كان يذاكر بجدٍّ عندما وقعت حادثة القتل. وبما أنني كنت الشخص الموجود في خضمّ الاحداث، فقد ذهبت لأقابل عمر بكري لأشرح له ما حدث. كنت أتمتع بما يكفي من الذكاء كي لا أذكر أعضاء العصابة السابقين، ولكنني أخبرته بكل شيء عدا ذلك. كنت – فيما يخصني– قد اتبعت تعليمات الجماعة حرفيا، أدير المكان، وأحرك المياه الراكدة، وأثير الزوابع طبقا لتعليماته هو. وعلى أيّ حال فقد زار عمر بكري الكلية الأسبوع السابق على الأحداث، ولم ينتقد سلوكنا بالمرة، بل على العكس من ذلك، بدا سعيدا للغاية بما أنجزناه.

لكن ومع كل ذلك، فقد كان عمر بكري يرزخ تحت ضغوط من القيادة، فكما ذكرت آنفا، تم توجيه انتقادات له نتيجة الطريقة التي كان الجناح البريطاني يلفت بها الأنظار نحو المنظمة ككل. وكان هناك بالإضافة لذلك أصوات داخل المنظمة، في المملكة المتحدة، تنتقد تكتيكاته: وتضمنت تلك الأصوات عالم الفيزياء فؤاد أبو محمد. كان الوضع إذن أن عمر بكري كان تحت نير الانتقاد، وكان الهجوم الموجه لقيادته الاستفزازية يأتي من جبهتين لا جبهة واحدة، والآن وبعد وقوع جريمة القتل، ارتفعت هذه الاصوات المعترضة إلى الذروة لتشكّل عاصفة.

كنت أنا، حتى بعد كل ذلك، لا أزال اتوقع دعمه لي فيما حدث. جلس عمر بكري واستمع لكل ما قلته، ثم تجاهله تماما. خرج للإعلام، ومنحهم مقابلات وأجرى حوارات أنكر فيها أيّ دور لحزب التحرير في الحدث، وقال إن المنظمة لم تقم أبدا بأي حملات في الحرم الجامعي، وأدان سعيد نور فيما يخص الهجوم، وقد أصابني الحزن الشديد جراء ذلك. بالرغم من حقيقة أن حزب التحرير لم يكن متورطا بشكل مباشر في الجريمة بحد ذاتها، فقد كانت إدانة سعيد نور، بدون توجيه أي إدانة لأنفسنا، خطوة غير مقبولة لدي. كان سعيد قد جاء للكلية لمساعدتنا نحن، وكنا نحن -تحت قيادة وتوجيهات من عمر بكري- الطرف الذي أثار الموقف وتسبب في تصاعد التوتر بهذا الشكل. ما حدث الآن، هو أنه تم بيع هذا الأخ، ليكون كبش فداء في سبيل النفعية السياسية. لم يهتز دعمي لحزب التحرير، ولكنّ ثقتي بعمر بكري لم تعدْ لسابق عهدها بعد ذلك الحدث أبدا، ففي حين إنني كنت فيما سبق سأتبعه مهما كانت التعليمات التي يعطيني إياها، فإنني الآن أشعر بالشك في إخلاصه.

وهكذا، ومع تطور الأحداث، كانت إحدى نتائج جريمة القتل تلك هي إنقاذي من اتباع خطى عمر بكري. لم تكن محاولاته لتدعيم موقفه عن طريق إبعاد الجماعة عن جريمة القتل كافية لإنقاذه، وتدهورت جودة قيادته، لدرجة أن القيادة قامت بإيقافه بعد ذلك بما لا يزيد عن عدة أشهر. قام بكري –في سياق بحثه عن مركز آخر– بوضع نفسه في موقع أكثر تطرفا مما سبق، وأصبح سلفيا جهاديا، ومضى قدما ليؤسس الجماعة

المحظورة حاليا وهي جماعة "المهاجرون" والتي تطورت في صورة: جماعة "الإسلام من أجل المملكة المتحدة" المحظورة. رحل معه أنجيم شوداري، وعبد الرحمن الذي أتى من كلية ريد بريدج، وكان صغير الحجم، ولكنّه ذو حماس شديد، إضافة إلى بعض البارزين الآخرين من نشطاء حزب التحرير، وصاحبوا عمر بكري في هذه الخطيئة. تم منذ ذلك الحين إدانة دستة، أو ما يقارب ذلك، من أعضاء جماعة "المهاجرون" باتهامات مرتبطة بالإرهاب، وذلك في المملكة المتحدة وحدها. استمرت تلك الجماعة الجديدة في اتباع ذات التكتيكات العدوانية، التي استخدمها عمر بكري، في أثناء ولايته في حزب التحرير، وكانت أكثر تلك الأنشطة شيوعا من حيث سوء الصيت هي مظاهرات "ووتون باست (Wootton Bassett)"، عندما تم إعادة جثث الجنود من أفغانستان. أدت تلك المظاهرة، وفيما يُعدُّ استجابة لها، إلى تأسيس جماعة "مضادة – للإسلام"، تسمى رابطة الدفاع الإنجليزية، ADL، ويرأسها تومي روبنسون، واسمه الحقيقي ستيفن لينون. إنها لمفارقة شديدة العمق، أن يكون ما يجمع الجماعات الإسلاموية، مع الجماعات ضد – الإسلامية، هي علاقة تبادل المنفعة مع بعضها البعض، حيث يتغذي كل منها على بارانويا أو فوبيا الخوف والبروباجندا: التطرف لدى أقصى اليمين يغذي الإسلاموية التي تغذي أقصى اليمين الأكثر تطرفا، فيغذي بدوره المزيد من الإسلاموية، وهلم جرا.

لو لم يقم عمر بكري بتلك الحوارات الصحفية، فلربما كان قد احتفظ بدعمي المتواصل، وربما كنت سأتبعه وأنضمّ إليه عندما أسس منظمته الجديدة، أنا وكثيرون من أعضاء حزب التحرير، ولكن نتيجة لفقداني الرابطة العاطفية تجاهه، فقد كان من الأسهل بالنسبة لي أن أبقى مع حزب التحرير الأصلي، ومع سياستهم الجديدة في الابتعاد عن العدائية. وكمثال على ما سبق ذكره، فقد اتّخذ قرار مفاده أن عرض الفيديوهات الخاصة بالفظائع الجارية في البوسنة كان يهيّج العواطف إلى حد يصعب التحكم فيه، حيث كان الخط الفاصل بين الإسلاموية والجهادية يفقد ملامحه. أرادت القيادة الجديدة أن تنأي بنفسها عن أيّ ملمح للعنف، وخرجت الأوامر تقضي أنه : ممنوع قطعيا حمل أيّ نوع من السكاكين أو الأسلحة الأخرى.

كنت أنا –في إطار المشاعر– أقرب لموقف عمر بكري، من موقف هذه القيادة الجديدة، ولكنّ عمر بكري قد خذلني، في حين ناصرني الذين بقوا، ولذا منحتهم الفرصة. كان نسيم ذا أثر مهم هنا، حيث كان يترقى بسرعة كبيرة في صفوف حزب التحرير، وأصرّ على بقائي في الجماعة. الأهم مما سبق كله هو إيمانه بمنظوري للأحداث التي جرت في نيوهام. كان ذلك يعني الكثير بالنسبة لي، وبالمقابل، فقد انصعت لتوجيهات الجماعة الجديدة، وتوقفت عن حمل سكيني معي لأول مرة منذ سنوات طويلة. كنت قد اعتدت على وجودها مربوطة إلى ظهري، بحيث كان الأمر في البداية مستغربا، وكأنما ينقصني جزء مني. أعتقد أنه كان

بوسعي أن أتخلص من سكيني هذه، ولكن بدلا من ذلك، قررت أن أحتفظ بها. لازالت في درج مكتبي حتى يومنا هذا، لكي تذكرني بما كنت عليه فيما مضى، والحال الذي جئت منه.

لم يكن عمر بكري هو الوحيد الذي غادر حزب التحرير، قرر إد حسين في ظروف مختلفة جذريا، ولأسباب مختلفة كليا، المغادرة كذلك. كان مختلفاً عنّي، إذ لم يكن قد نما في مثل أجواء العنف تلك. تسببت حادثة القتل في إفاقته بشكل عنيف، و لم يعد يريد أيّ نوع من التعامل مع الأمر، ولا مع المنظمة بعدها أبدا. الأهم من كل ذلك، هو أنه كان قد قابل فاي لتوه، وهي طالبة أخرى في الكلية، وزوجته المستقبلية. استطاعت فاي أن توجه إد في طريق آخر، ووضحت له أنه لا يتعين عليه أن يكون غاضبا بهذا الشكل، وتبع إد خطوات فاي نحو نسخة أكثر نعومة من الإسلاموية، قبل أن يهجر الفكرة بشكل كامل. حاولت كثيرا أن أغير رأي إد حول مغادرة الجماعة، وذهبت إلى منزله في العديد من المناسبات لكي أثنيه عن رأيه، ولكني لم أنجح في مسعاي. كنا نتحدث على موجات مختلفة، كنت احاول أن اتناقش منطقيا وفكريا، كي أقنعه بأن يبقى، ولكنّ قرار إد –على الجانب الآخر- كان في أساسه قرارا عاطفيا. كانت مغادرة إد للجماعة لحظة مؤلمة، إذ كنا قد اصبحنا قريبين للغاية في غضون الأشهر القليلة السابقة، وكنت أعرف أن علاقتنا، ببساطة شديدة، لن تكون أبدا مثل سابق عهدها.

كان التغيير الأخير هو تغيير في إطار دراسي. فقد بدأت الكلية الآن، بعدما سمحت بتصاعد الموقف لهذا الحد، بتعويض قصورها السابق. قامت الكلية، في إطار عزمها على اقتلاع المشكلة بشكل جذري، بفصل لجنة اتحاد الطلاب بالكامل، في ساعته وتاريخه. كان الخطاب يقول: "إن وجودك لا يساعد على تواجد بيئة آمنة وبلا مخاطر في ربوع الكلية". ما حدث تبعا لذلك، وكما قد تستطيع أن تتخيل بنفسك، أن ثار والداي ثورة عارمة. ومرة أخرى، كان ما أنقذني وحفظ ماء وجهي، هو أن الطرد لم يكن بتهمة القتل. لم يكن قد تم القبض عليّ، ولا تم توجيه أي اتهامات لشخصي، وبالتالي كنت أستطيع إخبار أمي أنهم يبالغون في ردة الفعل، وأنهم كانوا قد طردوني نتيجة لنشاطي السياسي لا أكثر.

لكن ومع ذلك، نشب بيني وبين آبي خلاف ضخم حول خطوتي التالية. كنت أريد البدء مرة أخرى في كلية جديدة في لندن، وذلك كي أستمر كما كنت سابقا، متابعا أنشطتي في حزب التحرير. ولكنّ آبي كانت تريدني أن أعود إلى ساوث إند، حيث يمكنها أن تبقيني تحت أنظارها.

"لماذا لا تذهب إلى مدرسة القواعد المحلية؟"، قالت آبي في معرض الحوار.

كانت مدارس القواعد مدارس انتقائية، ولازالت في مقاطعات مثل ايسكس، لا تقبل إلا الطلاب الحاصلين على درجات مرتفعة، لكي يتم تعليمهم في بيئة متسارعة، بعيدا عن نظام المدارس الشاملة.

"لديك الدرجات اللازمة ويمكنك أن تبلي بلاءً حسنا هنا".

كان تفكيري كله محصورا في حزب التحرير، وأصررت على العودة إلى لندن. استمرت هذه المناقشة تروح وتغدو طوال الليل، وقالت آبي إنها لن تقدم لي المال اللازم لأعود للمعيشة في لندن، وكان ردي أنني ذاهب، وسوف أجد المال اللازم لذلك.

مثّل كل هذا شيئا يفوق احتمالها، وبالرغم من أنني لم أكن مفصولا بتهمة القتل، وعلى الرغم من أنها لم تكن حقا تفهم الأمر، فقد فهمت أمي أن شيئا ما قد حدث في الكلية، وتسبب في فصلي. كان بوسعها أن تدرك وجود شيء في هذه الجماعة التي كنت متورطا معها، شيء تود أن تبعدني عنه. احتدمت المناقشة، واحتد الخلاف أكثر وأكثر، حتى حوالي الساعة الرابعة صباحا، حين فقدت آبي الأمل في إقناعي، بعد أن أرهقتها تماما، ولكنها لم تتوقف، ففي قمة السخط والغضب بسبب ابنها الخاطئ العنيد الذي لن يعود للمنزل، انخرطت آبي في موجة بكاء، ضاربةً بيديها على رحمها.

"إنني ألعنك!" قالت باكية بين الخبطات التي كانت توجهها إلى بطنها. "إنني ألعن الرحم الذي أعطاني ابناً مثل هذا: ابنا لن يستمع لما تقوله له أمه ذاتها!"

راقبتها في ذعر، شاعرا بكل ضربة توجهها لنفسها. "توقفي!" توسّلتُ إليها وأنا اقوم بإنزال يديها إلى الأسفل، وبدأت أبكي. لم أكن قادرا على مراقبتها وهي تفعل ذلك؛ كان الأمر يفوق قدرتي على الاحتمال، ما الذي فعلته بأمي؟ وهكذا توقفت عن الجدال، ووافقت على العودة للمنزل، وأن أحاول الحصول على القبول في مدرسة القواعد. كان ذلك أفضل قرار اتخذته منذ زمن طويل.

ذهبت بعد ذلك بقليل إلى مقابلة في مدرسة ويستكليف الثانوية للبنين، وكان ناظرها حينئذ السيد بايكر. كان انغماسي في ثقافة الهيب هوب في المدرسة الثانوية يعني أنني لم أكن أُعنى بدروسي كثيرا، ولا بدرجاتي في الثانوية العامة الإنجليزية، والتي بالكاد أهلتني للقبول، ولكنها لم تكن حتى قريبة من الدرجات التي أحرزها كل الطلبة الآخرين الموجودين في هذا المكان. ولكن، وبالرغم من ذلك، فقد تمكنت من إقناع السيد بايكر بقبولي.

شرحت له: "إنني أكثر نضجا بعد الراحة التي أخذتها، إنني أريد أن أدرس، وأعتقد أنني قادر بالفعل على أن أبلي بلاء حسنا".

لم أخبر السيد بايكر أنه قد تم فصلي من كلية نيوهام، بل قلت عوضا عن ذلك أنني قررت أن آخذ العام كفترة راحة. كان القيام بذلك الأمر، قبل عهد دخول الحاسوب في الصورة، أسهل كثيرا من الآن. في الواقع، لم يحدث إلا بعد ذلك الوقت بسنوات طويلة -عندما دعاني السيد بايكر لأعود للمدرسة لأخطب في تجمع الطلبة- أن قلت في معرض الحديث الذي قدمته، كيف أقنعته بقبولي دون أن أخبره أيّ شيء عن جريمة

القتل والفصل. انفجر جميع الطلبة في الضحك، بشكل يشي برضاهم وبصوت مرتفع، في حين اكتسى وجه السيد بايكر بكل ألوان وظلال اللون الأحمر، حتى أنني ظننت أنه سوف يعاني من سكتة قلبية.

لو لم استفد بأي شيء آخر من تجربتي مع حزب التحرير، فقد زودني تدريبي لديهم بمهارات الجدال والمحاججة. لابد أن السيد بايكر قد رآني –كصبي في السابعة عشرة من عمره– في صورة طالب مفوّه وواثق من نفسه. لقد أثرت إعجابه، مما كان له أبلغ الأثر في شعور آبي بالراحة، وعرضّ عليّ مكانا غير مشروط في المدرسة. كان تدخل آبي اليائس لإجباري على البقاء في ساوث إند، هو ما أنقذ مستقبلي الدراسي والأكاديمي. لم أكن لأصل للجامعة أبدا، بالتأكيد وبلا شك، لو لم تقم آبي، في تلك الليلة -في الساعات الأولى من الصباح– بالانهيال بالضرب على الرحم الذي حملني.

الفصل الثاني عشر

تصويت بالأيدي لتقسية القلب

لم يكن من الممكن أن تكون مدرسة وستكليف الثانوية للبنين (Westcliff High School for Boys) مختلفة بشكل أكبر من ذلك عن كلية نيوهام. كنت قد انتقلت من مدرسة ثانوية أستطيع فيها أن أحصي عدد السود والآسيويين في دفعتي على يد واحدة، إلى حرم جامعي لندني مثّل الطلبة المسلمون فيه كتلة كبيرة من الناس، وها أنا الآن قد عدت إلى مدرسة تقتصر على البنين فقط في ساوث إند، وحيث كان الآخرون ذوي بشرة بيضاء مرة أخرى.

كنت من اللحظة الأولى طالبا بارزا، ليس فقط بسبب لون بشرتي، بل لأنني متفرد في دفعتي بسبب السنة التي اقتطعتها بهدف "الراحة". كنت أكبر من الجميع بعام كامل، وأكثر خبرة منهم جميعا، إضافة لامتلاكي سيارتي الخاصة، وهي فوكسهول استرا اس ار أي (Vauxhall Astra SRI)، وكان لدي سمعة مهيبة، إذ كان الكثير من الصبية يعرفون من أنا. "هل أنت ماجد؟ الـ "ماجد؟"، كنت اقول: "نعم، هو أنا، وها أنا قد عدت."

ما كان يعنيه هذا المزيج مما سبق ذكره، مضافا لحقيقة أنها مدرسة قواعد، هو أنني لم أكن مهددا بأي خطر للمرة الأولى في حياتي الدراسية برمتها. كان بقية الطلبة أذكياء ومجتهدين، وكانوا ذوي نشأةٍ منغلقة نوعا ما، ولم يختبروا الحياة حقا، ولكنهم طيبو النية. أما أنا، فعلى العكس من ذلك، إذ بدوت لهم على الأرجح مثيرا وخطيرا. كانت مشكلة العنصرية بشكل عام قد تضاءلت كثيرا في أثناء الوقت الذي مضى منذ انضمامي لحزب التحرير في لندن. كان الجيل الأصغر من الـ"بي بويز" مثل شقيق مو الأصغر، وشقيق شيل الأصغر، وآخرين غيرهم، قد تسلم زمام الأمور، ولم تكن ساوث إند ستعود إلى ما كانت عليه في سابق عهدها أبدا. لم أختبر خلال السنتين اللتين قضيتهما وأنا أدرس للحصول على شهادتي في مستويات A أيّ شكل من أشكال الحالات العنصرية.

وقد أتاحت لي حالة الهدوء تلك الوقت والمساحة اللازمين للتطور الفكري والذهني الحقيقي. لطالما كنت أملك قدرات معقولة، ولكنني لم أبالِ أبدا بالعمل الجاد على تطوير نفسي، فقد كنت أعتمد على "الفهلوة" فحسب في تحقيق أهدافي دون بذل الكثير من الجهد. أما الآن، ومع إحساسي بالاستقرار، فقد انغمست في

الدراسة، و اكتشفت الكم الذي يمكنني إنجازه إذا وجهت تركيزي إلى ذلك فعلا. ألهمني ذلك الشيء وأثار حماسي.

الدكتور وايت هو معلم التاريخ، إنه يحمل درجة الدكتوراه في مادته، وهو ملم بها تماما، وقد كان العديد من الطلبة يخافون منه بسبب صرامته، ولكنّه كان مذهلا على المستوى الذهني والفكري، وظهرَ أنّ مزيج الالتزام والمعرفة الذي يمتلكه يعني أنه يحظى باحترام بالغ في المدرسة. كان السيد موث والسيد سكيلي اللذان يقومان بالتدريس في صف الاقتصاد لدينا، معلمين مذهلين أيضا، وكنت مقدرا تماما حقيقة أن أساتذتي يبدون وكأنهم معجبون بي، وأن بوسعي تبادل الحديث معهم ندا لند.

كان السيد موث رجلا جميلا، وكان مثليا، ومتسقا تماما مع ذاته، ولكن، ونتيجة حساسيتي أنا تجاه المثلية، فلم أكن مدركا لذلك. وقد حدث حوار بيني وبين بعض الطلبة حول موضوع المثلية ذات مرة، ووجدت نفسي ألقي نكاتاً ضدها على الملأ في أثناء انتظارنا لبدء حصة الاقتصاد. كانت حبكة النكات كلها تدور حول حقيقة أن الموت، طبقا لحزب التحرير في دولة الخلافة، هو مصير المثليين. دخل السيد موث إلى الفصل في ذروة إلقائي للنكات، وأكملت أنا سردي لها بلا أيّ اكتراث لمدى الأذى الذي قد تسببه نكاتي له. جاراني السيد موث، كونه روحا طيبة، في نكاتي الطفولية تلك، إذ اختبأ تحت المائدة، وتصنّع أنه يرتعش خوفا، فيما علا زئير الصف بكامله وهم يضحكون ملء أفواههم.

لم يخبرني الجميع إلا لاحقا : "لقد كنت تعلم أنه مثلي، أليس كذلك؟". سبب لي ذلك إحراجا بالغا.

استمر السيد موث، على الرغم من كل ذلك، في معاملتي بشكل لا يقتصر على الاحترام فحسب، بل يتعداه إلى التشجيع كذلك. يمكنني القول إنّ الفضل يعود إلى السيد موث في مساعدتي لأول مرة في حياتي على إدراك ما يمكنني إنجازه على المستوى الأكاديمي. كنت قد بدأت في ذلك الحين أفكر في الحصول على درجة علمية في القانون، وكانت تلك الدرجة، قبل أن تستلزم درجة "A" ستار، تتطلب من أجل القبول لدراستها أن يحصل الطالب على ثلاث درجات "B"، في مستويات A. فاجئني السيد موث وقتَ التقديم للجامعة، عندما قام بتحديد درجة التوقع الرسمية له بالنسبة لي بـ A في الاقتصاد، مما كان يعني أنني مؤهل للقبول في دراسة اللغة العربية والقانون، وهما المادتان اللتان كانتا تتطلبان هذه الدرجات الأعلى من أجل التقديم لدراستهما. أتذكر أنني سألته وأنا غير مصدق لما قام به: "هل أنت متأكد؟"، ولكنه أجابني: بأنني بلا أيّ شك أستطيع القيام بذلك.

"أتوقع لك أن تحقق الكثير في رحلة الحياة يا ماجد، سوف تصبح سفيرا أو ما شابه ذلك، أو ستتولى منصباً مساوياً لذلك في الأهمية."

فكرت في نفسي: عن نفسي فإنني أفضل أن أكون سفير دولة الخلافة في بريطانيا.

ولكن، رغم ذلك، فقد كنت شاكرا لحقيقة أن السيد موث يحترمني بهذا القدر. كانت تلك لحظة مشابهة للحظة التي رمقني فيها دايف جومير قبل أن تقع جريمة القتل مباشرة. كان لدي شعور غامر بأنني لا أريد أن أخذل السيد موث، إذ كان توقع درجة A لفتى من الـ"بي بويز" آت من مدرسة شاملة، يمثل مخاطرة بالنسبة للسيد موث، ولكنه بالرغم عن ذلك، ولأنه راعٍ ومعلم وقد وهب حياته للتعليم، فقد آمن بي، وفي المقابل بذلت أنا المزيد من المجهود من أجل خاطره.

كنت لا أزال غير قادر، مهما كان الحد الذي وصلت إليه درجة إجادتي في مدرسة ويستكليف، على التخلص من شعوري بالاختلاف. تضمّن جزء من المنهج التاريخ البريطاني الإمبراطوري، وهكذا درسنا الهند البريطانية. تناولنا الراج بشكل مفصل، ودرسنا أحداثا تاريخية من تلك الحقبة، مثل التمرد "الهندي" على سبيل المثال، حيث كان حتى اسم الحدث ذاته يمثل أهمية ودلالة في السياق. فمثلا كان يشار إلى "التمرد" الوارد في منهجنا، بجملة "حرب الاستقلال الأولى" في مناهج شبه القارة الهندية حيث حدثت الواقعة، بدلا من تسميته: "تمردا"، وهي كلمة لها مدلول يوحي بثورة زائفة. وجّه المعلم سؤالا للصف كله أثناء أحد الدروس، ونحن نتناقش حول الهند والراج، قال فيه: "كم واحداً منكم هنا فخور بالامبراطورية وإنجازاتها؟". رفع الجميع أيديهم إلا أنا. "هل هناك أي شخص لا يشعر بذلك؟". التفت الجميع نحوي، وأنا أرفع يدي. علقت تلك اللحظة بذهني بشكل كبير، وأنا جالس في ذلك الصف، وفكّرت لبرهة من الزمن أنه "مهما بلغ الحد الذي أساير فيه هؤلاء الناس، ومهما أخفيت اعتقاداتي، فسوف يرونني دائما، بوصفي أنتمي إلى جنسية قاموا بتمدينها". كان ذلك يكفي بالنسبة لي لمحو تأثير الطيبة واللطف الفرديين اللذين أظهرهما لي السيد موث، وكافيا بالنسبة لي لتفسير سلوكه بوصفه استثناء للقاعدة، لا أكثر من ذلك.

بشكل عام، وبالرغم من أنني كنت أدرس الاقتصاد والسياسة والتاريخ، فلم تتعارض المادة العلمية مع المعرفة التي حصلت عليها في حزب التحرير. لم يكن المنهج يتضمن الإمبراطورية العثمانية ولا تاريخ المسلمين، ولذا لم يتم تناول تلك القضايا أبدا. درسنا في مادة الاقتصاد، نظريات مختلفة مثل نظريات كينيز والكلاسيكيين؛ أما في السياسة، فقد كان الأمر يدور حول دراسة النظم المختلفة وكيف تعمل، ولم يسفر كل ذلك إلا عن تدعيم وتقوية ما علموني إياه في حزب التحرير. وكان هناك، حتى عند مناقشة موضوعات مثل الهند، اختلاف آراء طبيعي بين الطلبة الآخرين وبيني، وكان ذلك شيئا مقبولا، وجزءاً من الطريقة التي يتم بها تدريس التاريخ في المدرسة، (كما كان الحال في بقية المواد بطبيعة الحال). كانت تلك الطريقة تتمثل في تناول سلبيات وايجابيات أيّ قضية، وبالتالي فقد كانت حقيقة أنني أعتبر التمرد الهندي ثورة أو انتفاضة شيئا مقبولا، حيث إنّ ما يهم في ذلك الشأن هو القدرة على إدراك مضمون وجهتي النظر المتعارضتين، قبل الوصول إلى أيّ محصلة أو نتيجة.

أتذكر أحد نقاشاتي مع معلم الاقتصاد الخاص بي –السيد برجن (Mr. Bergen)– حول الديموقراطية وعيوبها. كانت حجتي أن النظام البريطاني قام هنا بخلق وضع معين طبقا لنظام "أول من يعبر القائم" (ويعني هذا أن أول القادمين يحدد النسق بعد ذلك حتى لو كان قد سبق ببوصة واحدة)، إذ يستطيع حزب ما الفوز بأقلية في التصويت، ولكنه، بالرغم من ذلك يحصل على أغلبية مقاعد البرلمان. كانت إجابة السيد برجن على ما قلته له : أن اقتبس مقولة ونستون تشرشل التي تقول: "إن الديموقراطية هي أسوأ نظم الحكم قاطبة، باستثناء بقية النظم الأخرى جميعا". اعتبرت هذا الرد نصرا لي، إذ فكرت في نفسي: إنك تفكر بتلك الطريقة لمجرد أنك لا تعرف أيّ شيء حول البديل، وهو "الخلافة"، ولكنني لم انتهز الفرصة للرد عليه بمعتقداتي التي تعلمتها في حزب التحرير، فلم أكن متواجدا هناك في المدرسة للترافع عن قضيتي، أو الدعوة لها أو التجنيد لصالحها. كنت هنا كي اتعلم. كنت أريد دخول الجامعة، وأن أصبح في مركز يسمح لي بالبدء في تجنيد المؤمنين مرة أخرى. وقمت بدلا عن ذلك بالاستمرار في اختبار حججي وصقلها.

كانت خطة حياتي، بالرغم من مغادرتي لنيوهام وشقة لندن، وتركي لكل المناقشات المنتظمة مع نشطاء حزب التحرير، لا تزال تتركز إلى حد كبير حول الجماعة. عندما غادر عمر بكري، لم يقتصر ما اصطحبه معه على التكتيكات الأكثر عدوانية فحسب، بل اصطحب معه كذلك العناصر الأكثر عنفا وبلطجة في حزب التحرير أيضا. كان ما بقي في الحزب هو الجانب الأكثر عمقا من ناحية الفكر والجدية من المنظمة، وكان كل الانتباه موجها الآن إلى تركيز النشطاء على دراساتهم. لم يكن حزب التحرير راغبا في أن يتم فصل أعضائه أو تخريب مستقبلهم العلمي. بل أرادوا إنتاج كوادر وركائز تتبوأ مراكز مرموقة في المجتمع، وتؤمن بعقيدتنا، وتعمل فعلا في البلاد ذات الأغلبية المسلمة.

في صدى متكرر لعملية هجرة جدي إلى بريطانيا، والتي قام بها ليستفيد أولاده بقدر الإمكان من نظامها التعليمي، اهتم حزب التحرير بالقدر والمكانة التي يحظى بها النظام التعليمي البريطاني في الخارج. كان الحصول على مؤهل من بريطانيا، ثم السفر للعمل في أماكن مثل مصر وباكستان والأردن، من شأنه أن يمنح النشطاء قدرة على الحصول على أفضل الوظائف. وكان ذلك هو ما سوف يخدم قضية حزب التحرير بالشكل الأمثل، إذ كانوا يريدون التحكم في الخط الذهني والفكري للأمة، والوصول إلى مركز مؤثر يسمح لهم بالاستحواذ على الجيش، والقيام بانقلاب. وقد منحتهم حقيقة أن التجنيد يجري في جامعات بريطانيا على قدم وساق فرصة سانحة لتحقيق ذلك.

استمر نسيم في رعايتي، وتم توجيهي عبر طرق مختصرة – وأنا لم أزل أدرس للحصول على درجة مستوي A – حتى حصلت على القبول في جماعة متميزة، مكونة من خمسة نشطاء، أرادوا لهم أن يصبحوا أعضاء في أقرب وقت ممكن.

كنت أسافر لحضور حلقة الدرس (حلقة الدرس الخاصة) مرة أسبوعيا، وكان مستوى الحاضرين مرتفعا، ومرة اخرى، كنت الأصغر في مجموعتنا، وقد ساعدتني جدية تلك الجلسات في عملية تعليمي. فعلى سبيل المثال، كانت الماركسية، ومفهوم الجدلية المادية ضمن المادة التي درسناها في تلك الجلسات، وكانت التفاصيل التي تعمقنا فيها متقدمة كثيرا عما كنت اتعلمه في دروس السياسة الخاصة بمستوى A، بحيث أنني كنت عند عودتي للصف أمتلك معرفة وقوة فكرية تسبق بقية الطلبة بمراحل عدة، وفي العديد من النواحي كذلك. إنه جهل مركب، ذلك هو ما أسمي به ذهنية حزب التحرير التي تملكتني في ذلك الحين، نوع من شبه التفكير الذي قد يملأ مراهقا، بالظبط، بما قد يشعره بالذكاء والتفوق الشديد.

خصصت عطلات نهاية الأسبوع الخاصة بي لعمليات التجنيد، بالإضافة لحلقات الدرس في بقية أيام الأسبوع. كانت القيادة، وعلى الرغم من الطريقة التي صارت إليها الأمور في نيوهام، لا تزال معجبة بما أقدمه فيما يختص بجلب الاهتمام والنشطاء لنصرة القضية. وهكذا تم اختياري كجزء من فريق يسعى لتكوين خلية لحزب التحرير في جامعة كامبريدج. كنت أذهب إلى هناك يوم السبت صباحا، حيث أقضي معظم عطلة نهاية الأسبوع. وتواجد ضمن الفريق طالب طب يسمى أمجد إيزمث (Amjad Izmeth)، وهو من كلية بارتز الطبية (Barts Medical College)، وطالب آخر بريطاني إيراني، يسمى رضا بانكهيرست (Reza Pankhurst) من كلية كينجز(Barts Medical College)، وكان يدرس علوم الكمبيوتر.

كنا نذهب لصالة الصلاة والمسجد، ونبدأ في الحديث مع الطلبة. كنا نصادقهم وندعوهم للطعام، وندخل معهم في نقاشات حول الإسلام، وفي نهاية المطاف، حول الإسلاموية. كان هناك طالب يسمى أرشاد (Arshad) يدرس اللغة العربية في كامبريدج، وقد أبدى اهتمامه بحزب التحرير بالفعل. كان تدعيم وتقوية ذلك الشعور، وجعله ملتزما بالقضية بشكل صحيح يقع على عاتقنا نحن. في تلك الاثناء، وبالإضافة للذهاب إلى كامبريدج، قمت كذلك بتجنيد خلية في ساوث إند، ومثّل تحوّلي أنا وعثمان بهذا الشكل مفاجأة سعيدة للمجتمع الإسلامي هناك، واعتبرني الكثيرون قدوة لأبنائهم، وقد قمت باستغلال ذلك على أفضل وجه، إذ قمنا باستغلال تلك الشهرة وتوظيفها، وأطلقنا على أنفسنا اسم المنتدى الإسلامي في ايسكس. ومن ضمن الذين قمت بتجنيدهم ساجد فيردا الذي كان ممثلا ناجحا استطاع الحصول على دور في نسخة تلفزيونية من أدريان مول (Adrian Mole)، وكان، حتى الوقت الذي قمنا بتجنيده فيه، في طريقه إلى تحقيق نجاح أكبر من ذلك. قلنا له أن يهجر التمثيل، ويقوم بالتركيز على أنشطته، وهو ما فعله بالضبط. كانت تلك النصيحة غير

الناضجة هي على الأرجح ما قضى على مستقبله. قمت كذلك بتجنيد طلاب من مدارس تعليم القواعد المجاورة، مثل ثانوية هاي إند للبنين. على الرغم من تواجد مسلمين في ويستكليف، فقد كنت قد اتخذت قرارا يقضي بأن لا أقوم بالتجنيد من هنا. لم يكن بوسعي المخاطرة بأن يتم فصلي مرة اخرى، وتركت الطلاب وشأنهم لدرجة إنني لم أكن حتى أتبادل معهم الحديث.

كنت في ذلك الوقت أفكر في الخيارات المتاحة أمامي في الجامعة، فقد كنت راغبا في دراسة اللغة العربية، في حين كان أبي يود أن أدرس القانون. كانت هناك جامعة واحدة تقدم شهادة في كلا المجالين، وهي كلية الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن (SOAS: the School of Oriental and African Studies in London). أسعدني جدا أنني كنت قد حصلت، بالضبط، على الدرجات التي كان قد توقعها معلميّ، وحصلت على مكان في تلك الجامعة. أسعد ذلك والديّ كثيرا، وكان الأهم بالنسبة لي، إنه أسعد حزب التحرير أيضا. كنت الفرد الأول من ضمن مجموعتنا المميزة، الذي تم اختياره ليصبح عضوا كاملا في الجماعة، لقد صرت "حزبيا". لم يكن احتفالا كبيرا، ولم يتعدَّ جلسة منفردة مع نسيم، والذي كان قد صار أحد قادة الجماعة الوطنية في ذلك الوقت. أقسمت قسم الولاء لله والقرآن، على أن أطيع وأتّبع التعليمات الواردة من قائد الجماعة، وهو "الأمير". قطعت وعدا ينص على أن أمثل الأيديولوجية والعقيدة مهما كان الثمن، وأن أكون مستعدا للتضحية بالغالي والنفيس في سبيل القضية. كنت، بما أنني مقتنع بعدم عدالة عدم اعتناق الإسلام (الكفر)، أعني كل كلمة نطقت بها، بكل الإخلاص الأعمى الذي يحمله المؤمن الحق.

الفصل الثالث عشر

رومانسية الصراع

لو أنني اعتقدت أن العضوية الكاملة في حزب التحرير سوف تقودني لتكوين سكون داخلي مبني على فهمٍ نفسيٍ عميق، لكانت ثمّة صدمة في انتظاري. فبعد ما لا يتعدى يومين فقط من تاريخ القَسَم الذي أقسمته، كنت بدلا من ذلك، في عالم مليء بالصراع الباطني والانقسام الفكري. تلك هي النسخة المهذبة من الصراع، كان شيئا مماثلا تماما لأحداث فيلم مونتي بايثون "حياة برايان"، حيث كانت جبهة الشعب اليهودي تتصارع مع الجبهة اليهودية الشعبية. لم يكن الوضع هنا كوميدياً بالمرة، ولكنه كان وضعاً واقعياً مليئاً بالشراسة ذات الناب الأزرق. لم يكن الأمر يقتصر على فرع المملكة المتحدة من حزب التحرير، حيث ثارت النزاعات حول السياسات فحسب، بل كان يجري مثله في القيادة العالمية كذلك. كانت القيادة العامة في يد عبد القديم زلوم، وهو من فلسطين حيث يقع مسقط رأس الجماعة، وكان مدعوما هناك بشدة بين صفوف الأردنيين والفلسطينيين. على الجانب الآخر، فقد كان بعض العناصر الأكثر تصلبا ومثالية عقائديا في الجماعة، غير راضين عن الطريقة التي يتّبعها في تسيير الامور. كانت إحدى النزاعات الكثيرة - وهنا تبدأ الأمور في اتخاذ منحى مسلسلِ "قصة حياة برايان"- تدور حول إضافة الألوان إلى المنشورات. كانت كتب حزب التحرير التقليدية بيضاء وعليها خط أحمر اللون على الغلاف، وتحت قيادة زلوم أُدخلت العديد من الألوان في منشورات الجماعة، وكان ذلك بالنسبة للمثاليين شيئا خارج النص، إذ كانوا يشعرون أن مظهر الكتب بدا دائما مختلفا ويسهل التعرف عليه في متاجر الكتب، في حين صارت الآن تبدو مثل الكتب الصادرة عن الجميع، وكان ذلك يرمز لديهم للطريقة التي كانت تفقد بها الجماعة -تحت قيادة زلوم-الشكل المتفرد لرسالتها.

تولى أبو رامي، الذي كان عضوا في لجنة القيادة سابقا، قيادة جماعة جديدة، وكان موقف أبي رامي حائزا على الرضى في أوروبا والشرق الأقصى، في حين كان داعمو زلوم متركزين في الشرق الأوسط. كانت المملكة المتحدة إحدى البلاد غير المتيقنة ممن يجب عليها دعمه، حيث قرر بعض أعضائها الكبار، مثل فريد قاسم، بشكل عفوي الانحياز إلى أبي رامي، والذي كان في الماضي راعيا لنسيم، بنفس الطريقة التي كان بها نسيم راعيا لي في ذلك الوقت.

كان كل ذلك يجري في الوقت الذي أصبحت فيه عضوا، وما أن مرت عدة أيام على القَسَمِ الذي أقسمته، حتى كنا نستقبل مندوبين من الشرق الأوسط، جاؤوا يستميلون حزب التحرير في بريطانيا إلى جانبهم، وبدا أنّ هناك عنصراً من الجاسوسية والسرية يحيط بالأمر كله.

لم يكن أحد يعرف على وجه التأكيد أين تقع القيادة العالمية، حيث إنهم أبقوا موقعهم سرا لأسباب أمنية، وكذلك لم يكن أحد يعرف من أي طرف جاء المندوب على وجه التحديد، هل هو من القيادة الأصلية، أو من طرف أبي رامي؟ هل يحاول أن يحتال علينا، وهو من طرف الجانب الآخر لكي يعرف رد فعلنا؟ كان كل هذا الشك والريبة وانعدام اليقين نموذجا للكيفية التي تُقاد بها المنظمة.

اجتمع ما يقرب من ثلاثين عضوا في منزل أحد الأعضاء في جنوب لندن، لكي يتم إبلاغ أعضاء المملكة المتحدة أن اختيار من نقوم بدعمه شيء يعود لضمائرنا وحدها، وربما كنت حينئذ أصغر الموجودين سنا، ولكنني شعرت أنه كان يجب عليّ أن أتحدث.

انفجرتُ فيهم صارخا: "كيف تتجاسرون على الإتيان إلى هنا وإخبارنا أن نختار! أنتم تعلمون أن طريقة تحديد القيادات تتم من خلال الكلية التصويتية التابعة للقيادة. ما كان يجب عليكم قوله، هو أنّ أبا رامي ناكث (أي نكث بوعده)، وباغٍ، وغاصب. لا يوجد لديكم خيار سوى أن تعتبروه هو وكل من تبعه غاصبين."

اندهش المندوب من شراسة حجتي، وسألني: "أخ ماجد، منذ متى وأنت عضو في حزب التحرير؟"

أجبته: "يومان"

"حسنا"، ثم قال بشكل متعالٍ نوعا ما: "أنا عضو منذ خمسة عشر عاما."

أجبته بحدة: "لا يهمني ذلك" وقد ازددت غضبا عما كنت عليه نتيجة لأسلوبه، وأضفت: "الحقُّ لا يكترث بمدة عضويتك، ولا يتم الحكم عليه تبعا لها، الحقُّ حقّ ولا يوجد ما يقال أكثر من ذلك."

عند هذه النقطة، وبالرغم من أنه لم يكن قد قال ذلك، كنت واثقا أنه يشجعنا على الانضمام لجماعة أبي رامي.

بعدها بيومين جاءنا مندوب ثان من الشرق الأوسط، كان جزائري الجنسية وقد حضر ليدعو إلى قيادة عبد القديم زلوم، كان هذا الرجل يبدو بالنسبة لغالبيتنا واضحاً، ظاهره كباطنه، وكنا نميل إلى وضع ثقتنا فيه. قمت أنا وعضو آخر في الحزب يدعى عرفان باصطحاب الجزائري في رحلة العودة إلى فندقه، حيث كان مقيما، وعدت إلى أروقة السكن الدراسي الخاص بي وأنا أشعر بارتياح أكثر تجاه الموقف ككل.

غير أنه، في الصباح التالي، حين ذهب عرفان ليقله، لم يكن هناك رد من غرفته. أقنع عرفان موظفي الفندق -بعد القرع المتكرر على بابه بلا جدوى-بإدخاله إلى الغرفة، ليجدَ حينها المندوبَ الجزائري مستلقيا بلا روح على أرضية الحمام، وسرواله حول كاحليه، دون أن يكون هناك أي أثر لجرح ناجم عن

إصابة أو رصاصة في جسده. لم يكن انطباعي عنه حين رأيته في الليلة السابقة أنه شخص على وشك الموت، وفي الوقت نفسه، فلم يكن الأعداء الذين يودون أن يروه ميتا قليلون، وكانت تقنيات القيام بذلك متاحة للجميع. فمثلا، كان الاسرائيليون معروفين باستخدام سموم غير قابلة للاكتشاف، وكنا نعرف -بما أننا كنا نحاول التخلص من أنظمة بعينها-أنّ من المرجح أن تكون أنظمة الاستخبارات الخاصة بها تسعى خلفنا. وكان من المحتمل أن يكون موته نتيجة عملية داخلية كذلك، فقد كانت الجزائر غارقة في حرب أهلية شرسة بين قادتها العسكريين والثوار الإسلامويين والجهاديين. كان هناك أيضا شائعات تفيد بأن المخابرات الأردنية هي السبب في الانقسام الذي حدث في صفوف حزب التحرير عن طريق اختراقها صفوفنا، وشائعات أخرى تزعم أنّ أبا رامي يعمل لحساب المخابرات الأردنية، وأنهم هم من قتلوا المندوب لمناصرته لزلوم. لم نصل أبدا للحقيقة، ولن نصل لها أبدا على الأرجح.

مات أبو رامي بعد ذلك، ومرة أخرى كان اكتشاف ما حدث بالضبط شيئا مستحيلا. كان زلوم قد كتب خطابات سرية لكل قادة حزب التحرير في العالم -قبل موت أبي رامي-يعرض فيها عليهم العفو عن أي عضو كان قد غادر قبل ذلك، فقد كان بوسعهم العودة للجماعة خلال فترة سماح محددة. مات أبو رامي في تلك الاثناء بالتقريب، وكتب زلوم بعدها رسالة أخرى هاجم فيها بضراوة أبا رامي وتابعيه: لن يتم السماح أبدا بالعودة لكل من لم يكن قد عاد وانضم مرة أخرى قبل موت أبي رامي.

ومع كل تلك الأحداث، فقد كانت حياتي تمضي قدما. كنت طالبا في كليّة دراسات الشرق الأوسط وأفريقيا، أدرس دورة كنت أرغب في حضورها، وكنت عضوا عاملا كاملا في حزب التحرير. كنت معدودا من الأعضاء الأكثر فاعلية ضمن القائمين بالتجنيد في المنظمة ككل.

تم تكليفي بمسؤولية تنسيق الأنشطة في وسط وجنوب لندن، وكان آدم محمد وعماد الشوبكي -وهو فلسطيني استشهد أخوه في البوسنة-اثنين من الدارسين لدي. سوف يتم لاحقا القبض عليهما في 2007، بموجب قانون الإرهاب الإنجليزي بعد سعيهما المحموم لحضور دروس في الطيران، تم الادعاء أنها مدفوعة نقدا، وبعد ربطهما بطيار في خطوط الطيران البريطانية يدعى سمير جمال الدين الذي كان أخوه كذلك على صلة بحزب التحرير. تم تبرئة آدم وعماد والطيار سمير في نهاية المطاف، ولكنّ سميراً خسر وظيفته في خطوط الطيران البريطانية، وعاد عماد وآدم على الأرجح إلى شبه الثقافة الإسلاموية.

قابلت خلال تلك السنوات صديقي القديم إد حسين الآتي من نيوهام، صدفة، بجوار سلالم كلية الدراسات الشرقية والأفريقية. كان إد في ذلك الوقت طالباً يدرس التاريخ في جامعة شمال لندن، وكان قد انضم لحزب العمال. تبادلنا تحية دافئة، وسرعان ما انتقلنا لمناقشة حول حزب العمال الجديد، كان إد قد أصبح من كبار المعجبين بتوني بلير.

سألته: "كيف يمكنك أن تعجب بهذا الكافر؟".

أجابني إد وهو محبط إلى حد ما: "لماذا، ما مشكلته؟"

"إنه عدو الله."

"ماجد، ينبغي عليّ أن أخبرك أن كل من يدعو توني بلير عدو الله هو عدوي أنا."

فوجئت بذلك، إذ كان هذا في يوم ما صديقي الأقرب، الذي كنت أحبه كثيرا.

"حتى أنا يا أخي؟"، سألته وانا مضطرب نوعا، وأردفت: "لا يسعني أن أقول غير ذلك، توني بلير عدوي."

"إذن لا يمكننا أن نكون أصدقاء بعد الآن." بتلك الكلمات غادر إد حسين حياتي إلى غير رجعة، قاطعاً كل الصلات بيننا.

قلت في نفسي ساخرا: "إن هذا لتطرف منك"

وبتّ أشعر في هذه المرحلة أنه ينقصني شيء ما، شيء يتمثل في احتياجي إلى علاقة ذات معنى. كنت قد استمتعت بنصيبي من العلاقات الرومانسية بالفعل، بدءا بساره، الفتاة التي كنت قد تركتها في أول أيامي في المدرسة الثانوية بسبب "كثرة الفتيات هنا". كانت الفتيات في سيسل جونز (Cecil Jones) جزءا كبيرا من مشهد الـ"بي بويز"، وكنت أعشق ذلك، ولكنّ كلّ ذلك تغير حالما انضممت إلى حزب التحرير. كانت الجماعة تستاء من مثل تلك السلوكيات، وأرادت من أتباعها التمتع بالحشمة والتركيز على الدراسة، فقد أراد حزب التحرير منك أن تؤدي الأشياء بالشكل الصحيح.

إن حدث وشعرت بالاهتمام تجاه فتاة معينة، فيجب أن يكون ذلك شيئا جديا وأن تتواصل مع عائلتها بغرض الزواج، وفي حال وافقت العائلة، فيجب عليك عند ذلك أن تقوم بخطبتها. مسموح لك أن تراها وأن تتحدثا معا، ولكن من غير المسموح بالعلاقة الحميمية مطلقا، يجب أن تصبر وتنتظر ترتيبات الزواج.

قبل فصلي من نيوهام تواجدت هناك فتاة باكستانية طويلة وجميلة تحضر بعض خطبي، ولم تكن محجبة حينها. قمت بالتصرف الصحيح، ووسّطت صديقي إد حسين لكي يحدثها نيابة عني. شعرت الفتاة بالإطراء، وعبّرت عن اهتمامها بالأمر، حتى أنها قامت بارتداء الحجاب بعدها بقليل. تواصلنا مع كل من العائلتين لإبلاغهم أننا نريد أن نكتب الكتاب، على أن يكون الزواج بعد نهاية دراستنا، فالتقت عائلتانا لمناقشة الأمر، ولكنّ أهلها، للأسف، اعترضوا على علاقتنا، مما أحبطني.

كان والدها بالفعل قد أعد لها زواجا مرتبا ضد رغبتها في الباكستان، وقبل بداية دراستها الجامعية ذهبت الفتاة إلى الباكستان مع أهلها وهي تعتقد أنها مجرد زيارة للعائلة هناك، وأثناء ذلك، زوّجت من ابن عمها. كان زواجا مرتبا بالإكراه، حيث تم خطف الفتاة التي انتظرتها لمدة سنتين فجأة، وبلا سابق إنذار،

فغضبت بشدّة، فيما انكسر قلب الفتاة. هاتفتني وقالت إنها مستعدة للفرار منهم لتكون معي، كانت آبي في غاية السعادة بفكرة أن بوسع فتاة ما أن تكبح جماح الغضب الذي كانت تراه يتصاعد في نفسي، وعرضت أن تأخذها في كنفها وتحميها.

أما أنا فكنت، كما أنا دوما، عقائدياً حتى النخاع، وكنت أحاول جاهدا أن أكون صالحاً، فخذلتها على نحو بائس. لم أكن أريد القيام بأي شيء ضد تعاليم حزب التحرير، أو يسيء لسمعة الجماعة. وهكذا لعبتُ اللعبة طبقا للقواعد، وأخبرتها أنني لا أريد أن أتسبب في قطع الروابط الأسرية، وقلت إن المسألة الآن مسألة دينية، وأنها يجب أن تستشير شيخا ما. أخبرتها أن ذاك الشيخ سوف يكون قادرا على الحكم على شرعية زواجها في الباكستان، وما إذا كان الزواج -نتيجة لكونه بالإكراه-شرعيا من عدمه. أخبرتها أنه إذا حكم الشيخ أن الزواج غير شرعي، فبوسعنا أن نتابع علاقتنا بكل حرية.

كان الشيخ الذي اختارت الفتاة أن تلجأ له سلفياً، وكانت الفتاة بريئة قليلة الخبرة، وتجهل هذه الأمور، ولم تكن من الذين يتابعون الصراع كله بيننا وبين السلفيين، فبالنسبة لها، كان المسلم هو مجرد مسلم. حالما سمعت اسم الشيخ شعرت بالغثيان، وعرفت سلفا الإجابة التي سوف يقدّمها، كان الشيخ السلفي، على العكس منها، على علم بالموقف، ويعرف تماماً من أنا، ومن ثَمّ فحين شرحت الفتاة له ما حدث، أسرع لمناصرة الأهل قائلا: "إن زواجك شرعي تماما، ويجب عليك نسيان كل شيء عن علاقتك بماجد." وعلى هذا النحو، قلت لنفسي: حصل السلفيون على انتقامهم أخيرا. كنت قد فزت بعقول الناس في نيوهام، ولكنهم هم من أكدوا خسارتي لقلبي.

وهكذا، وأنا ممتلئ بمشاعر التقوى والصلاح والتضحية، ودّعتُ حبيبة الكلية بعدما فشلتُ في منحها الدعم الذي كانت تحتاجه بشدة، وفي أعماق قلبي وجدت ذلك شيئا صعبا للغاية، أنْ أقول بأنّ الرومانسية قد ماتت، لكنّ ما حدث هنا، هو أن رومانسية القضية أو الصراع، خرجت منتصرةً من المعركة الحاسمة ضد رومانسية الحب.

في نهاية المطاف، ومع إدراك عثمان للوضع الذي كنت فيه، وبينما هو يدرس الآن في جامعة الملكة ماري وويست فيلد، أخبرني أنه تعرّف على امرأة باكستانية صغيرة السن، يعتقد أنها قد تكون مناسبة لي. التقيتها في عدة أماكن عامة مثل المقاهي، وسرعان ما أدركت أنها كانت بالفعل كل ما كان يراه أخي فيها، وأكثر، وربما كان أهم شيء يميزها أنها قائدة فتيات حزب التحرير في جامعتها. كانت تسمى رابعة، وهو اسم تقليدي شائع لامرأة صوفية مسلمة تسمي رابعة البصرية؛ وكان الاسم يعني حرفيا الرقم أربعة. كانت مصداقا لاسمها، فهي الأخت الرابعة ضمن سبع أخوات، وكانت تدرس الأحياء، وقد ترعرعت بين كراتشي ولندن.

كانت توحي بالمنزل والدفء العائلي، ولها وجه جميل وصوت هادئ مرتفع، وكانت إجمالا شخصا متعقلا ومخلصا.

قمت مرة أخرى بعملية التواصل مع الأهل حول احتمالية الزواج من ابنتهم، ولكنّ الاستقبال كان مختلفا هذه المرة. كان الأب موظفا كبيرا سابقا في بنك حبيب في باكستان، وكانت كل بناته السبع من مؤيدي حزب التحرير، وقد ضغطوا عليه ليصبح مؤيدا للحزب كذلك. كان رد فعله على ذلك أن أصبح أكثر صلاحا والتزاما، إلى حد أنه ترك عمله قبل عام من يوبيله الذهبي في البنك، إذ كان قد وصل لليقين بأن فوائد البنوك ربوية، وهو ما يحرمه الإسلام. ترك عمله، ولم يتسلم حزمة المعاش الخاص به، وبدلا من ذلك أسس متجر كتب إسلاميا في شيبرد بوش، وكان هذا الوقت هو الذي تحدثت فيه معه حول ابنته.

وافق الأب هذه المرّة على خطبتي لابنته، إذ كان يراني شابا ذكيا، دارسا للقانون، يتعهد أن يرعى ابنته بالطريقة الإسلامية. وهكذا، ولسعادتي البالغة، تمت خطبتنا أنا ورابعة أحمد.

أخذت في السنة الثانية راحة من الجامعة كي أتزوج، وقد فعلنا ذلك ونحن غارقون بالمثالية، خلال شهر رمضان في 1999، حيث كنت في الحادية والعشرين من عمري. انتقلنا للعيش في شقة -كان عثمان يعيش فيها سابقا-تحتوي على غرفتي نوم في ستيبني غرين (Stepney Green)، شرق لندن. لم تكن بداية جيدة لحياة زوجية، إذ حدث بعد أسبوع واحد فقط من الانتقال إلى الشقة أن استعاد المالك شقته وطردنا خارجا. انتهى بنا الحال في غرفة قذرة بسرير نوم في وايتشابل (Whitechapel) وهي واحدة من أقذر الأماكن التي عشت فيها يوما. أصبت هناك بحساسية مزمنة للتراب، ولم يعد أنفي لسابق حاله بعدها أبدا.

لم يكن مقدرا لنا أن نبقى طويلا في تلك الشقة، إذ وجدنا شقة اخرى، وهي مكان لطيف في ويمبلي، كنا على وشك استئجاره عندما استولت واستحوذت على اهتمامي، مرة اخرى، أنشطة حزب التحرير. كانت رابعة على موعد مع اكتشاف ومجابهة المدى الحقيقي لانجذابي لرومانسية الصراع بنفسها، فقد صدر منشور من القيادة يطالب أعضاء الحزب الباكستانيين البريطانيين بالذهاب إلى الباكستان للمساعدة في تأسيس جماعة هناك على الفور. أخبرت رابعة، وأنا ممتلئ بأحلام انقلاب يليق بخليفة، أنني أريد تلبية النداء.

الفصل الرابع عشر

أحلام الخلافة النووية

في 1999 قامت الباكستان باختبار أول قنابلها النووية، وصارت الآن عضوا في تلك الجماعة الصغيرة من البلدان التي تستطيع التباهي بقدراتها النووية. كان ذلك يعني بالنسبة لحزب التحرير أنه يستطيع اختراق العسكرية الباكستانية، وينجح في التحريض على انقلاب عسكري، ومن ثم تستهل الخلافة التي يحلمون بها حكمها بوصفها قوة عالمية عظمى. وهكذا، بين ليلة وضحاها، أصبح حلم الدولة الإسلامية وهي في شكل قوة عظمى أقرب كثيرا عما كان عليه.

تمثّلت المشكلة الأولى في عدم وجود أي ممثلين تقريبا عن حزب التحرير في باكستان، إذ لم يسبق للحزب أن استثمر أياً من وقته هناك نتيجة للرأي الذي كان سائدا ومفاده أن الخلافة يجب أن تبزغ من بلد تكون العربية هي لغته الأم، أما المشكلة الثانية فتمثّلت بالفشل الذريع الذي كان يعانيه العدد القليل من ممثلي حزب التحرير الموجودين هناك بالفعل في تجنيد مؤمنين بالقضية.

جاء رد الفعل المبدئي على فكرتي سلبياً، وكان نسيم رافضا بشدة لسفري، وشعر أنه من الأفضل أن أستكمل دراستي. كنت، في إطار دراستي، متجها بالفعل لدراسة اللغة العربية لمدة سنة في مصر، حيث سأكون أكثر نفعا هناك. شعر والداي كذلك بالتردد، فأخبرتهم أنني أود أن أذهب إلى الباكستان لكي أدرس لمدة سنة واحدة هناك، ولكي أتواصل مع جذوري الباكستانية. اعتقدت آبي، وفي ذهنها باكستان طفولتها الأكثر تقبلا وتنوعا وروحانية، أن هذه الرحلة قد تكون مفيدة في الحدّ من حَميّتي واندفاعي الإسلاموي، ولكنّ أبى كان متوجسا ويشعر بوجود خطر ما. قال لي: "سوف أدعمك في دراستك، ولكن إن ذهبت للباكستان، فإنني أخشى أنه لا يسعني دعمك."

امتلك أبي، بحلول ذلك الوقت، فكرة أكثر وضوحا إلى حد كبير عن حياتي السياسية، وكان لا يريد التورط فيها بأي شكل.

أخذتُ بنصيحة نسيم، ووافقت من حيث المبدأ على البقاء في دراستي، ولكنّ ما حدث هو أنّ منشوراً جديدا وصل في هذا الحين من القيادة، وكان أكثر إصرارا عن الذي سبقه، ويدعو الأعضاء بكل حرارة، بل ويتوسل إليهم أن يتركوا كل شيء خلفهم، وينتقلوا للباكستان فورا. كان ذلك المنشور الثاني هو ما دفعني

لاتخاذ القرار. أخبرت نسيماً أنني أريد حقا القيام بهذا، فلم يحاول منعي هذه المرة. جاءتني الموافقة على السفر بعد ذلك بقليل.

حدث صدفة، فيما أنا أستعد للمغادرة، أن قابلت رضا بانكهيرست مرة أخرى، كان رضا هذا أحد الطلبة الذين قادوا معي عملية تجنيد دفعة من الطلاب في جامعة كامبريدج، وهو الآن يعيش في مصر، وقد عاد إلى لندن في زيارة مؤقتة لإنهاء بعض متعلقاته. أخبرته بما كنت في صدد القيام به، وأبهرته هو أيضا فكرة الانتقال إلى باكستان.

قمت مع رابعة بتجهيز أغراضنا، وقد فهمت، بوصفها عضوا في حزب التحرير، سبب رغبتي في الذهاب إلى هناك، وشجعتني على ذلك. أما أبي فكان ملتزما بكلمته، ومستاء مما أصبح ابنه عليه، وأصبح، بحلول هذا الوقت، شديد الانتقاد لحزب التحرير، ومن ثمّ فقد رفض دعمي ماليا بأي شكل كان. قال لي أبي ألا أخبر آبي عما كنت قد عقدت النية على القيام به فعلا، كي يحمي مشاعرها، ولذا لم أفعل. وحيث إنني كنت قد سجلت في جامعة البنجاب لمدة سنة، فقد كانت آبي راضية عن السماح لي بالدراسة وتجربة الحياة في الباكستان. أخبرتها كذلك أنني كنت أريد أن تلتقي رابعة بعائلتنا، وقد كان ذلك معقولا إلى حد ما، ولذا قامت آبي بتزويدي بالمال بدون علم أبي، واستمرت في التواصل معي بشكل دؤوب. ومثّلت هذه المساعدة التي منحتها أم يائسة تحاول أن تشفي ابنها شيئا لا يقدر بثمن، إذ لم يكن هناك أيّ تمويل من جهة حزب التحرير. كانوا يدفعون قيمة تذكرة الطيران إلى الباكستان، ولكنّنا بعد ذلك مسؤولون عن أنفسنا.

في إحدى الأمسيات، وقبل أن أغادر إلى الباكستان، شعرت في أعماقي أنني يجب أن أصل إلى حل في شيء ما. فقد اعتقدت أنني لن أعود أبدا، وأردت أن أصلح الأمور مع صديقي القديم إد حسين قبل مغادرتي. كان كل منا قد ذهب في طريقه بشكل غير ودي في ذلك اليوم على سلالم كلية الدراسات الشرقية، ولكنّ كل ما كنت أريده الآن هو أن أعانق صديقي في وداع أخير قبل أن أرحل، وهكذا، قفزت في سيارتي التي كانت في ذلك الوقت نيسان ميكارا بنية اللون وأسرعت بها إلى فورست جايت (Forest Gate) في وقت متأخر من إحدى الليالي، وطرقت بابه الأمامي.

"من بالخارج؟"، جاء السؤال الحذر من خلف الباب المغلق.

"أنا، إممم، السلام عليكم، هنا ماجد، أتيت لأرى إد، هل هو موجود؟"

"آسفة، لكنه ليس هنا".

وهكذا، انطلقت إلى هيثرو متجها للباكستان. أتذكر عثمان وهو يتركني في المطار، وكيف بكى حين عانقني مودعا. فقد كان يعرف سبب ذهابي.

قال لي: "أرجوك انتبه لنفسك."

وهكذا، في عام 1999، في الثانية والعشرين من عمري، وأنا أفيض بالحماس الإسلاموي حدّ الثمالة، وصلت إلى لاهور عازما على المساعدة في التحريض على انقلاب عسكري في باكستان. بالرغم من أنني كنت قد زرت البلاد سابقا، فقد كان ذلك وأنا طفل صغير، واستغرق الأمر بعض الوقت حتى اعتدت على محيطنا الجديد. كنا، بسبب قيمة الباوند الكبيرة مقارنة بالروبية، نستطيع أن نعيش في مستوى مريح جدا مقابل القليل من النقود. يمكنك الحصول على منزل فاره ضخم بحمامات سباحة وجاكوزي وكل شيء.

ولكن في الخارج أمام ذلك المنزل الفاره، بالرغم من ذلك، يتواجد على الأرجح شارع غير مكتمل الرصف، إلا إذا كنت مستعدا لتسديد ثمن رصفه. يحدث كثيرا ألا تتوافر الكهرباء بانتظام، ويكون عليك أن تبتاع مولدا كهربائيا خاصا بك. بدا كل ذلك مؤشرا عن فشل الدولة والحكم السيء، وكانت باكستان مهيأة لقيام ثورة.

على عكس الأنماط المبسطة لتوصيف البلدان، فإن باكستان في الواقع بلد متنوع وغني ويملك ثقافة ثريّة. لا توجد إثنية واحدة تسمى "باكستاني" بل بالأحرى هو بلد مكون من العديد من اللغات والإثنيات التي تتضمن البنجاب والبلوش والسنديين والبشتون والكشميريين، إضافة إلى إثنيات أخرى. تمتد الكثير من تلك الإثنيات واللغات عبر ولايات مجاورة كذلك، مما يفسر إلى حد ما الشخصية الباكستانية غير مكتملة الجوانب. من الأدق بدلا من وصف الباكستان في إطار الكيان السياسي الموجود أمامك على الخريطة، أن تصفها في إطار كونها "باكستانات" بالجمع، إذ ليست البلاد تعددية بشكل عميق على المستويات الإثنية واللغوية فحسب، بل إنها تحتوي كذلك على اختلافات شاسعة من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية، وتشمل تلك الاختلافات، بشكل يثير البهجة بالفعل، اختلافات الأطعمة. كانت إحدى موروثات الانفصال فيما بعد مرحلة الاستعمار هي انقسام مقاطعات عديدة من المنتصف، حيث أصبح نصف المقاطعة في الباكستان، ونصفها الآخر في الهند. لازال لدى العديد من الباكستانيين الأكبر سنا أولاد عمومة من الدرجة الأولى عبر الحدود. تكونت في كراتشي كتلة سياسية ذات نفوذ كبير تسعى إلى تمثيل المهاجرين وهم أولئك الذين انتقلوا عبر الحدود من الهند بعد وقوع الانفصال.

وتأسيساً على ما سبق فإن ما يربط هذا البلد بعضه ببعض، أكثر من أي حس بالموروث المشترك، هي روابط صناعية تتمثل في أحلام مؤسسها محمد علي جناح، بالإضافة إلى خوف جماعي مما كان يمكن حدوثه في حالة بقاء المسلمين كأقلية في الهند. أراد جناح خلق ملجأ آمن للأقلية المسلمة في شبه القارة التي يسيطر عليها الهندوس، وكان بالإضافة إلى ذلك، يتخيل بلادا تحتمي فيها الأقليات الأخرى. نجح جناح، في 1947، في التفوق في استخدام المناورات على الجميع تقريبا، ونجح في الحصول على الاستقلال لشرق وغرب الباكستان، ولكنه توفي بعد تحقيق حلمه بوقت قليل. غرقت الباكستان منذ ذلك الحين، وبعد وفاة

مؤسسها بهذا الوقت المبكر، في مستنقع لا يرحم ولا يتوقف من الطائفية الإثنية والدينية واللغوية. حانت لحظة المجابهة حين نجح البنغاليون في شرق الباكستان في الحصول على أغلبية المقاعد في البرلمان الوطني، وأرادوا تكوين الحكومة. لكنّ البنجاب المسيطرين على الغرب رفضوا قبول تلك النتائج، وحلت المصيبة في شكل حرب أهلة، وانسحب البنغاليون من غرب باكستان في 1971، ليتم بعدها تأسيس بنجلاديش المعاصرة.

بعد تلك الحرب، بدا كما لو كانت الفكرة المؤسسة للبلاد، والقائلة أن بوسع المسلمين رعاية بعضهم البعض بشكل أفضل مما فعل الهندوس، قد صارت فكرة مهدَّدة، ومن ثمّ وقع عبء الدفع في اتجاه "أسلمة" باكستان على عاتق جيش غرب الباكستان، بوصف تلك الأسلمة مظلة وطنية تشمل الجميع، أو تمثل بشكل ما صمغا أو لاصقا يجمع الأمة في بوتقة واحدة عن طريق استخدام الدين المسّيَس كشكل مستجد من الهوية الوطنية. استولى الجنرال ضياء الحق على الحكم في 1977 عن طريق انقلاب عسكري، وقام بالضبط بما سبق ذكره في الفقرة السابقة، ولم تعد الباكستان لسابق عهدها بعد ذلك أبدا.

بالطبع، وبذات القدر الذي يبدو به الوضع محيرا بالنسبة لمعظم الأجانب، إذا كان عدد المسلمين في الهند مساويا لعدد هؤلاء الموجودين في الباكستان، فما هو بالتحديد الشيء الذي يجب أن يمثل هوية باكستان الوطنية؟ وهذا هو السؤال الذي يحيّر الأمة حتى وقتنا هذا. لقد بدت الأمور على أرض الواقع أكثر تعقيدا بكثير عن المثاليات، على الرغم من كل مثاليتي عندما كنت مراهقاً في نيوهام حيث تصوّرت أن المسلمين مترابطين بشكل حصري، وبلا رابط آخر يجمعهم سوى الإسلام.

عند وصولي إلى هذا المستنقع في 1999، وأنا مؤمن أننا نملك جميع الإجابات، أدركت أنني يجب أن أتعلم الأوردو سريعاً، وهي اللغة الوحيدة التي يفهمها جميع الباكستانيين بغض النظر عن المقاطعة التي يعيشون فيها. لم أكن قد نشأت وأنا أتحدث الأوردو، حيث أنني كنت أتحدث الإنجليزية بوصفها لغتي الأولى، ولكني سمعت الكثير عنها، وهكذا كنت أعرف مبادئها. كان عم رابعة في استقبالنا في مطار لاهور، وهو رجل لطيف المعشر، وودود، وغني، وكريم، ويسمى عبد القيوم. كان يعمل طبيبَ أسنان محترما، وذا مركز جيد في بلدة تدعى رحيم يار خان، تقع بالضبط في منتصف الطريق تقريبا بين كراتشي ولاهور. لم يكن عضوا في حزب التحرير في هذه المرحلة بعد، ولكنه كان سلفياً شديد التدين، له لحية رمادية ضخمة وابتسامة دافئة. بدأ عم قيوم، بعد انضمام بنات أخيه السبعة إلى حزب التحرير، في استكشاف أكثر دقة للقضية الإسلاموية.

قمنا في بداية الأمر بالبقاء في لاهور مع أحد أصدقائه، وهو عضو في جماعة الإسلام، والتي كانت جماعة إسلامية سياسية في باكستان، تماثل الإخوان المسلمين من حيث خطها الفكري. كان هذا الصديق -

وهو رجل أعمال- لا يبدو متدينا بشكل خاص، ولكنه أصر على أن ترتدي زوجته النقاب الكامل. كان يبدي دعمه كما عرفت في وقت لاحق، ليس من خلال الصلاح والتقوى الدينية بل من خلال التمويل. وجدت في نهاية المطاف مكانا أسكن فيه في لاهور، وهي شقة في الدور العلوي في مجمع نشتار (Nishter) في بلدة العلامة إقبال (Allama Iqbal). كانت تحتوي على الأساسيات فقط، ولكنها كانت مجددة حديثا، وقمنا بتزويدها ببعض الأثاث مثل المراوح والسجاجيد وقطع الأثاث.

كان سبب تعييني في لاهور هو أن امتياز مالك، وهو قائد حزب التحرير في باكستان، كان متمركزاً هناك، حيث كان قد فشل في الإقلاع بالحركة والتقدم بها، ما جعل القيادة تستشعر أنه في حاجة إلى العون.

ذهبت لمقابلته على الفور، كان أكبر مني سنا، في أواخر الثلاثينات، ولكن سرعان ما تبخر احترامي لفارق السن. كان شخصية غير مثيرة للإعجاب بالمرة، واستطعت على الفور إدراك سبب فشله في تجنيد الناس للقضية. اقترح امتياز أن الخطة الأفضل للعمل هي أن يتم تجنيد الناس في القسم الإسلامي في جامعة بنجاب المجاورة، وبدا هذا الطرح ذا منطق معقول، حيث كان البدء مع الطلبة من أفضل الطرق في جذب المجندين للقضية في المملكة المتحدة. كانت جامعة البنجاب هي أكبر مرفق للدراسة العليا في باكستان، وكانت حقيقة أنني طالب تعني أن الأمر سيكون سهلا بالنسبة لي. بدا أنّ هناك شيئا واحدا يعيب تلك الخطة، وكان من المفروض فعلا أن يدرك امتياز ذلك. كانت الجامعة بالفعل تمثل مرتكزا ومعقلا من معاقل جماعة الإسلام، ومن ثمّ فإنّ هؤلاء الطلبة كانوا يعرفون تماما ما هو الإسلام، وكانوا يدرسونه ومن الصعب تحويل وجهتهم تلك. كان أيّ قسم آخر في الجامعة عدا ذلك القسم يمثل خيارا أفضل.

بدا أنّ كلية الطب ستمثل أفضل مكان للانطلاق، كانت الكليّة على الجانب الآخر من شارع القناة، حيث الأجواء هنا مختلفة. اكتشفت أن الطلاب العرب كانوا يأتون إلى هنا منذ سنوات، وكان من ضمنهم أعضاء في حزب التحرير. عند وصولي، حدث أن شاركت الوظيفة مع عضو فلسطيني في حزب التحرير كان يحاضر في بعض حلقات الدرس هناك. كان هذا على وشك الرحيل، ولم يكن بوسعي إلا أن أفكر في أن هذا الشخص غير الباكستاني قد أنجز في وقت قصير للغاية مثل ما أنجزه امتياز في خمس سنوات كاملة.

قام الحزب في غضون أسابيع قليلة بإرسال المزيد من الدعم من المملكة المتحدة، وكان أحدهم عرفان وحيد الذي كان المشرف الخاص بي في لندن. ثم ظهر في الصورة، بعد وصول عرفان بقليل الدكتور عبد الواجد كذلك، وهو أحد أعضاء حزب التحرير الذين كانوا من الدفعة الأولى من القائمين بمهمة التجنيد في جامعات بريطانيا. كان متحدثا خبيرا ومتمكنا، وذا خبرة عريضة، ويجيد التجنيد كذلك. لم يكن عرفان يملك مهارات عبد الواجد الخطابية، ولكنه كان منظما ومديرا جيدا إلى حد كبير. بالإجمال، بدا الفريق قويا، وكان تقريبا الأقوى، وبدأت أشعر بالحماس الشديد لوصولهم، وأننا قادرون على إنجاز الكثير معا بالفعل.

جلست مع عرفان ووافيته بملخص حول ما كنت أراه بخصوص امتياز، وقد استمع إليّ بحرص كبير، ولكنّ ما أثار فزعي الشديد هو أنّ عرفان ذهب إلى امتياز، ويبدو أنه كرر عليه كل ما قلته له عنه من اتهامات. لم أصدّق ما حدث، لقد حاولت أن أصور الأمر بدقة لعرفان لأنني أردت أن أكون عونا للقضية. فيما ظهر أنّ كلّ ما فعله عرفان هو استخدام تلك المعلومات لكي يكتسب الحظوة لدي امتياز، ويقصيني في ذات الوقت.

لقد تنازلت عن أشياء كثيرة لانتقل إلى الباكستان، ولم أكن قد أخبرت كلية الدراسات الشرقية والأفريقية أنني قد رحلت، وكنت في الواقع قد تنازلت عن درجتي العلمية، ووضعت مستقبلي الدراسي على المحك، أما الآن فأواجه موقفا ذهبت فيه تضحيتي تلك أدراج الرياح. بدا ذلك أمرا موجعا، ولكنّ ما مسني حقا كان شيئا أساسيا بشكل أكبر من ذلك. كنت ناشطا ملتزما ومخلصا تماما لحزب التحرير، ومؤمنا بالجماعة بشكل مطلق، بحيث إنني كنت مستعدا للقيام بأي شيء تطلبه مني القيادة، وترى أنه يسهم في إنجاز عملنا. لقد تركت دراستي بعد زواجي مباشرة، نتيجة للالتزام الأعمى الذي كنت عليه.

على الجانب الآخر فتحت أفعال عرفان عينيَ؛ إذ رأيت أنه عوضا عن قيام كل فرد في المنظمة بعمل ما يسهم في تقدم القضية، فقد ظهر أن هناك نوايا أكثر انحطاطا متواجدة في المعادلة كذلك. كلما نظرت إلى عرفان، منذ ذلك اليوم وصاعدا، كان كل ما أراه، فيمن كنت أعتبره أخا لي قبل ما حدث، يقتصر على شخص يحب المناورة في سبيل المراكز. كان إدراك ذلك شيئا موجعا بالنسبة لشخص مثالي مثلي، وعندما أفكر في ذلك بأثر رجعي، أجد أن ذلك كان نهاية برائتي السياسية.

وفي المملكة المتّحدة، في الوقت نفسه تقريبا، كان عثمان قد قرر أنه لا يمكنه كذلك أن يبقى دارسا في الجماعة لوقت أكثر من ذلك. لم يكن قد وصل أبدا إلى مرحلة العضوية الكاملة، ولكنّه قطع أواصره مع الجماعة في نهاية المطاف. كان حزب التحرير قد صار مسيطرا ومتحكما أكثر من اللازم بالنسبة له، وبدا أنّ الحزب أكثر تصلبا مما تحتمله طبيعته الفضولية الساعية للمعرفة. بدأت بالتعاطف مع منطق عثمان سرا، وقررت ألا أهب كل نفسي بنفس الطريقة لشيء ما أبدا بعد ذلك. سوف يكون هناك دوما جزء من نفسي أبقيه لنفسي فقط. كنت قد وهبت نفسي برضى وبشكل غير مشروط لله، ولكن ليس لحزب التحرير. تبدأ العملية الذهنية المرتبطة بمغادرة جماعات مثل حزب التحرير، أول ما تبدأ، بالشك في الفرد صاحب السلطة، ومن ثم التكتيكات، وبعدها الاستراتيجية، ومن ثم المنهجية، وفي نهاية المطاف الشك في العقيدة أو الأيديولوجية ذاتها. لو أحببت أن أضع يدي على السبب الذي أدى بي إلى مغادرة الجماعة، فإنه يعود غالبا إلى هذه البذرة غير المحسوسة والبدائية الأولى.

كانت هذه المرة الأولى التي عملت فيها بالقرب من عبد الواجد كذلك، وكان هذا الرجل الذي بدا من بعيد وكأنه من أفضل القائمين بالتجنيد قدرة والتزاما، يبدو لي عن قرب متعطشا للسلطة. بدأت في رؤيته كواحد من هؤلاء الناس: متسلطا بشفافية فيما يختص برغبته في التحكم، بسبب إيمانه الشخصي بأنه دوما صاحب القدرات الأكبر من بين الذين حوله. وكما فقدت حظوتي مع امتياز وعرفان من قبل، فقد قال عبد الواجد الآن بوضوح وجلاء أنه يعتبرني عميلا للمخابرات المضادة التي تحاول زرع الخلافات في صفوف حركة حزب التحرير الوليدة في باكستان. كان موقفه مخيفا بالنسبة لي بلا شك، وكان اليقين الذي بدا أنه قرر به ذلك الشيء من الأشياء التي جعلتني أتمعن في مخاطر غياب المساءلة في قمة أيّ منظمة. ماذا سنفعل وكيف سيكون الحال لو قام أناس مثل هؤلاء بالاستيلاء على البلاد؟ كان الشيء الوحيد الذي استطيع فعله هو التجنيد، وكانت استراتيجيتنا في البلاد ذات الأغلبية المسلمة استراتيجية طويلة المدى. كنا نعرف أنه منذ انقلاب ضياء الحق في السبعينات فإنّ عملية أسلمة مؤسسات باكستان كانت تجري على قدم وساق منذ مدة كافية، وقد كانت الجماعات الإسلامية الآن تسيطر على الكثير من الجامعات، وتتحكم في الغوغاء بالفعل، وتجتذب مئات الآلاف إلى مؤتمرات الحشد الخاصة بهم. كانت النخبة الفكرية في البلاد تخشى الإرهاب الإسلامي وتستمر في تقديم التنازلات لهم. يعود الفضل في إنجاز معظم مهمتنا المتمثلة في بث الإسلاموية في حشود الباكستانيين إلى الطريقة التي نجح فيها الإسلامويون في عملية السطو على رؤية وحلم جناح، فشكرا لهم، وشكرا للجهاد الأفغاني، وسياسات المخابرات الباكستانية والمخابرات المركزية الامريكية، شكرا لصعود طالبان، شكرا للتنازلات التاريخية من الحكومات التقدمية في باكستان، وشكرا للفساد والحكم السئ، شكرا لهم جميعا على المسافة التي قطعوها نيابة عننا.

ولكن، وعلى أية حال، فقد كنا نعرف أن كتلتيّ النفوذ ذات الأهمية الحقة في باكستان، والقطاعين اللذين لا يمكن تحقيق أيّ تغيير دونهما، هما المخابرات والجيش. وهكذا، وبدلا من إهدار جهودنا في محاولة بناء حركة حشد جماهيرية كانت بكل صراحة جارية بالفعل، فقد بدأنا في استهداف الطبقات المتوسطة والعليا والقوات المسلحة. كان هؤلاء يمثلون أغلبية الأشخاص الذين يحكمون الأمة في واقع الأمر، ولو استطعنا الاستحواذ على الحياة الفكرية للأمة والجيش، فسوف تتبعنا الحشود بسعادة ورضا.

كان هناك فريق متخصص يقوم بتنسيق العمل فيه حاليا بالفعل عضو حزب التحرير البريطاني الباكستاني عمر خان، وكان يتولى العمل مع الجيش، ويوجه تركيزه إلى تجنيد مرشحي ساندهيرست (Sandhurst cadets). كان عملنا هو استهداف الكليات الإنجليزية المرموقة متوسطة المستوى مثل جامعة لاهور للعلوم الإدارية (Lahore University of Management Sciences)، وهي الأماكن التي كانت في السابق معاقل للفكر الليبرالي، وبدأنا في زيارة المقاهي الفارهة في شارع مول، ونوادي الشباب

المتفرنجة، حيث تحدثنا معهم باستخدام مخارج ألفاظنا الانجليزية المثالية، ودرجاتنا العلمية التي حصلنا عليها من كلية الدراسات الشرقية والأفريقية، وكلية لندن للاقتصاد (Lse) وجامعتي أوكسفورد وكامبردج (OXBRIDGE) وحججنا التي كانت بحلول ذلك الوقت قد تم صقلها بشكل تام.

لم يكن أحد قد رأى مثيلا لنا من قبل، كنا إسلامويين، ولكننا كنا حليقي الذقن، وصغار السن، وميسوري الحال، ومتحركين، وكنا ذوي مظهر حسن، ومتعلمين في الغرب. وبالرغم من كل ذلك، فقد كنا ننادي بـ"الخلافة". اكتسحنا تلك الأماكن في وقت لا يذكر.

عقدت العزم، بشكل شخصي، ووجهت تركيزي في اتجاهين، أحدهما كان استهداف تكوين كتلة من المؤيدين في جامعة البنجاب، والآخر هو تأسيس المنظمة في رحيم يار خان وهي البلدة التي يعيش فيها أقارب رابعة. وصل في هذه الأثناء عضو آخر من لندن إلى لاهور: محمد نواز، وهو محاضر من جامعة شيفيلد. قمت بمساعدته، على خلاف تعليمات امتياز، لكي يحصل على وظيفة في كلية العلوم الإدارية، وكنت قد استطعت كذلك أن أقوم بتجنيد طالب ذي قدرات كبيرة يسمى سليم، وكان من صفي بالجامعة وقد سلمته لنواز ليتولى تدريبه. كان سليم حافظا، أي حفظ القرآن كاملا عن ظهر قلب، وأصبح ناشطا ذا قدرات مهولة.

كنت أنا، بعيدا عن لاهور، أحرز تقدما ملموسا في رحيم يار خان التي كنت أسافر إليها في عطلات نهاية الأسبوع، وكنت قد قمت بتأسيس ثلاث حلقات درس في وقت قصير للغاية. إضافة لذلك، لم تكن تلك الحلقات مليئة بالطلاب، بل تتضمن أفرادا أكبر سنا وأكثر تأثيرا. استطعت أن أقوم بتحويل عضو من لشكر طيبة (Lashkar-e-Taiba “LeT”)، وهي منظمة إرهابية محظورة حاليا، بل وقد انضم إلينا حتى إمام مسجد سلفي محلي. ثم كان هناك كذلك، المبتسم دائما عم قيوم، الطبيب الودود، صاحب اللحية الرمادية الضخمة. كانت اللحية مهمة في السياق الباكستاني، حيث كانت تدل على جدية وتدين الفرد. وكان رجلا مخلصا حقا بشكل مليء بالتقوى والطيبة، حيث يترك منزله عند الفجر، ويسير حتى المسجد ليصلي، وبعد أن يغلق عيادته الجراحية في الظهيرة، يتواجد في الشوارع لتوزيع الطعام على الفقراء.

قال لي ذات مرة: "ماجد بهاي(أخي)، لقد علّمنا رسولنا -عليه السلام- أن نعامل جيراننا معاملة جيدة. تعريف الجار هو كل فرد في شارعك، وهذا هو سبب قيامي بالسعي لتوزيع الطعام على شارعي بالكامل، كي أتحصل على الثواب الكامل."

كان محبوبا من طرف عائلته وأصدقائه وجيرانه جميعا بسبب صلاحه، كما كان محبوبا لدي، حيث كنا أنا والعم قيوم شديدي القرب، وصار ذا أهمية كبرى لكل شيء كنت أقوم به من أجل حزب التحرير في رحيم يار خان. كنت قد جندت ابنه وأخاه والكثيرين من أصدقائه، وكان جميع من قمت بتجنيدهم متجذرين في

المجتمعات المحلية، وكانوا، على وجه التحديد، ركائز التأثير الذين كان حزب التحرير يحلم أن ينضموا تحت لوائه. كانت الفرصة، بالاستعانة بهؤلاء الناس، سانحة وحقيقية لتحقيق التغيير الثقافي المنشود.

في أحد الأيام جاءتني مكالمة هاتفية مليئة بالحماس من العم قيوم: "ماجد، اسمع بهاي، لقد اتصل بي رجل يطلق عليه اسم المخلص. كان هذا المخلص يجول في الأنحاء ويقوم بالتبليغ والدعوة لقضيتنا لما يقارب الاثني عشر عاما الآن، وحده تماما، وقد وجدنا مرة أخرى أخيرا! لقد سمع عما تقوم به خلال بعض الأشخاص الذين كان يحاول تجنيدهم في رحيم يار خان، وقد وصل لتوه إلى عيادة الجراحة الخاصة بي. يجب أن تأتي وتلتقيه، جالدي أجو، تعال بسرعة؛ إنه هدية من الله لقضيتنا!". كان الأمر ينتشر بكل تأكيد، وكانت خلايانا في رحيم يار خان تتضاعف في العدد.

كان كل هذا قد صار ممكنا بما لا يتعدى زيارات في عطلات نهاية الأسبوع، ومما ساعدنا بلا شك هو تواجد أقارب رابعة هناك، فقد منحني ذلك مصداقية لديهم. كانت رابعة كثيرا ما تبقى في منزل عم قيوم مع بقية عائلتها خلال الأسبوع، حيث تقوم على تقوية تلك الجذور أكثر وأكثر. وحتى مع ذلك، وإذا وضعنا في الاعتبار وضعي وافتقاري إلى المهارات اللغوية المتقدمة في لغة الأوردو، فقد كان انجازا عظيما.

كنت حريصا على ضمان استمرارية هذا العمل، فطلبت من عبد الواجد أن يأتي إلى رحيم يار خان ليرى ما كنت في صدد القيام به. كان رافضا متشككا في البداية، ولكنه حينما جاء في نهاية المطاف، نطقت ملامحه بالمفاجأة. ربما لم يكن لديهم ثقة بي، ولكن لم يعد في وسع امتياز والآخرين إنكار ما أحققه من نجاح. بدأ حزب التحرير في تمويل رحلات الطيران الخاصة بي إلى رحيم يار خان، آملين في خلق معقل حقيقي لهم مماثل لما كان قد حققته جماعة لشكر وطيبة في بلدة تسمى موريدك. كان هذا بالنسبة لي تسليما واعترافا ببراءتي وانتصاري. كنت أعرف أن أيا من الآخرين لم ينجز نصف ما أنجزته، وكانوا الآن مضطرين إلى التنازل عن كبريائهم، والتعامل مع هؤلاء الذين قمت بتجنيدهم بشكل مباشر.

كانت تراودني فكرة الرحيل، رغم ما سبق ذكره من إنجازات. وكانت رابعة، في خضم كل هذا العمل، حاملا، وكنت أرفرف من السعادة، خاصة في ضوء كل ما كان يجري مع حزب التحرير. هاهنا كان لدي شيء نفيس وغالٍ ولا يمت للجماعة بصلة. كنت أعرف أنها تريد أن تلد طفلها في المملكة المتحدة، وأن تكون بجوار أهلها ليدعموها، وكان ذلك بداية العد التنازلي لعودتنا. قمت بالاستمرار في عملي في التجنيد، وأنا أضمر في داخلي التفكير والتخطيط في العودة إلى بريطانيا. كتبت خطابا إلى كلية الدراسات الشرقية والأفريقية شارحا لهم مكاني وما كنت أقوم به، وكانت تلك أول مرة أتواصل معهم ولم يكن لدي أدنى فكرة عما سيكون عليه شكل استجابتهم. ولكنّ ما سمعته منهم وأراح فكري، هو أنّ بوسعك مد عطلتك لفترة سنتين، وهو ما يعني أنه بوسعي العودة لاستكمال منهجي كأنّ شيئا لم يكن.

عندما استعيد أحداث تلك الفترة، أجد أن فترة معيشتي في باكستان كانت غنية بالأحداث. كان هذا عند منعطف القرن، عندما تم ازاحة الحكومة الديموقراطية التابعة لنواز شريف في انقلاب عسكري، واستولى الجنرال مشرف على الحكم. كان تزامنا غريبا أن تتطابق فترة الحكم العسكري مع محاولاتي لمساعدة حزب التحرير على اختراق العسكرية الباكستانية، لكي نخلع ديكتاتورية من أجل استبدالها بأخرى. في المرة التالية التي سوف أعود فيها إلى باكستان بعد ما يقرب من عقد من الزمان، ستكون البلاد تحت الحكم الديموقراطي مرة أخرى، وسوف أقوم بحملات لترسيخ الثقافة الديموقراطية فيها. كانت تلك صدفة أن تعكس قصة باكستان قصتي أنا الشخصية.

من الصعوبة بمكان ألا نرى تلك الفترة -بعيون الحاضر-بوصفها تمهيدا لـ11/9. لم يكن هناك مخلوق واحد يمكنه أن يتوقع ما هو آت، ولكن كنا جميعا نشعر بقوة الحركة والموجة، والطريقة التي كانت أفكار الإسلاموية والجهادية تنتشر وتترسخ وتتجذر بها. كان الأمر يبدو بالفعل كما لو كنا جزءا من شيء أكبر، كنا تقريبا على شفا الاستحواذ والسيطرة. وكانت حركة طالبان في أفغانستان، والحكومة السودانية، تبدوان كأنهما مقدمات وحسب لشيء لم يكن الغرب يدركه بعد. فطالبان في تلك الأيام كانت تؤمن أن باكستان دولة إسلامية بالفعل، ولم يكن لديها مشكلة مع البلاد. أتذكر لقاء مع قائد طالباني مرموق في رحيم يار خان، في محاولة لإقناعه أن باكستان كانت كيانا استعماريا غير شرعي. لم يستغرق الأمر طويلا كي تتبنى طالبان في باكستان موقفنا الأكثر ثورية.

كانت لشكر طيبه، وهي الجماعة المسؤولة عن هجمات مومباي في 2008، منظمة ثورية متخبطة أخرى، وكانت مثلها مثل حزب التحرير، تسعى للحصول على الدعم والمناصرة. بالرغم من أنهم كانوا سلفيين من حيث العقيدة وجهاديين في منهجيتهم، فلم يكن هناك فارق يذكر، في إطار الأيديولوجية، بين تعاليمهم وبين تعاليم حزب التحرير. في الواقع، كانت أفكارهم متماثلة مع أفكارنا إلى الحد الذي سمح لتلك الجماعة باستخدام منشورات حزب التحرير كجزء من جهود التجنيد الخاصة بهم. كان الأمر جديدا تماما، ولذا كانت السلطات غير منتبهة للمخاطر التي تمثلها تلك الجماعات.

وكما حدث بالضبط في الفترة التي سبقت جريمة القتل في نيوهام، لم يأخذ أحد بجدية التحذيرات التي صدرت عن أمثال بيتر تاتشيل، بحيث أن ما حدث هو أن السلطات الباكستانية لم تقم بشيء يذكر لمنع تفشي تلك المنظمات. فمثلا، في تلك الأيام المبكرة من الأمر، كانت لشكر طيبة تقيم مؤتمراتها السنوية -اجتماعها- في الهواء الطلق في معقلهم في بلدة موريدك (Muridke)، وقد حضرتها بنفسي. أتذكر أنني لمحت بعض مؤيدي عمر بكري المنتمين إلى الجماعة المحظورة حاليا -المهاجرون-ضمن الحضور أيضا. أعتقد أنني لمحت عبد الرحمن المشتعل حماسا من أيام نيوهام العصيبة هناك أيضا. كانت ستتم إدانة عبد الرحمن هذا

لاحقا بموجب قانون الإرهاب من أجل جريمة قام بها في المملكة المتحدة. إنّ ما يوضح الصورة تماما حول رؤية السلطات للمخاطر الماثلة في ذلك الوقت، هو أن المتحدث الرئيسي في مؤتمر لشكر طيبه، كان الجنرال حامد غول، وهو المدير السابق لمخابرات باكستان العسكرية مرهوبة الجانب، ISI.

الفصل الخامس عشر

الخلفاء في كوبنهاجن

عندما عدت إلى المملكة المتحدة، كان الأمر تقريبا كما لو أنّ شيئا لم يتغير، فقد احتفظت بمكاني في الكلية، حيث يمكنني استكمال دراستي والحصول على شهادتي، وكان أبي يعتقد أنني قد عدت إلى جادة الصواب، ورجعت كي استمر في دراستي، ومن ثمّ فقد رحّب بي عند عودتي. من ناحية أخرى، وفيما يخص مركزي في حزب التحرير، فقد طاردتني مشاكلي مع امتياز. قام هو ومن معه بإرسال تقرير مثير للاشمئزاز إلى قيادة المملكة المتحدة مفاده أنني على الأرجح "عميل" وكيف أنني لم أكن موضع ثقة. كان نسيم، بحلول هذا الوقت، قد أسس حزب التحرير في بنغلاديش، وكان القائد البريطاني الجديد هو شخص بريطاني هندي يدعى جلال الدين باتل، وعلى خلاف نسيم، لم يكن جلال الدين يعرفني، فلم يكن قد شهد ذلك الصبي-الشاب المتقد حماسا، والبالغ من العمر ستة عشر عاماً، والذي كان يرتدي عصابة الرأس وهو يمشي ويعرج بعصبية، غاضبا من كل الظلم الكائن في هذا العالم- وهو يتحول إلى أفضل من يقوم بتجنيد أنصار للقضية الإسلاموية على المستوى العالمي.

إنّ جلال الدين من تلاميذ عبد الواجد، وكان تكوينه على غرار ذات القالب. مُنحتُ دوراً في جامعة محلية، وكان مشرفي دارسا سابقا في حلقاتي يدعى "أمير"، ويعمل بموجب تعليمات صارمة بعدم الثقة بي. لم أكن أغبط أميراً على وضعه، ففي هذا الوقت، كانت مهاراتي في الدعوة معروفة على مستوى حزب التحرير، وها هو أحد طلابي السابقين في هذا الموقف المحرج الذي يرغمه على التظاهر بأنه يقودني. قلت في نفسي: لا بأس، لقد استطعت التعامل مع هذا في الباكستان، وأنا قادر على التعامل مع هذا هنا. كان أمير - كي أعطي كل ذي حق حقه-أخا ذكيا ومستقل التفكير، وقد تعامل معي بشكل منطقي، ولم يستغرق الأمر طويلا حتى تم فصله من حزب التحرير نتيجة استقلاليته تلك.

من ناحية أخرى، كان هناك تغيير بالغ الأهمية في حياتي، وكان ذلك مولد ابني عمار، والذي يعني اسمه "الشخص الذي سوف يبني أشياء عظيمة". أسميناه اقتداءً بالصحابي الجليل ذائع الصيت عمّار بن ياسر، المحبوب من طرف كلٍّ من السنة والشيعة، وابن اثنين من أوائل شهداء الإسلام، وهما ياسر وسمية اللذين عُذّبا حتى الموت علي يد مالكهما أبي جهل، وهو واحد من قبيلة قريش الوثنية التي كانت تحكم مكة في ذلك الحين. كان ابننا كذلك مولودا لأبوين سوف يقومان بالتضحية بكل شيء من أجل القضية، وبدوره كان

هذا ما استشرفته له ليقوم به كذلك. كان عمار الأصلي قد قُتلَ في نهاية المطاف في أول الحروب الأهلية في الإسلام، وهو يعمل جنرالا في جيش ابن عم الرسول وزوج ابنته عليّ -كرم الله وجهه- ضد قوات معاوية الثائرة عليه: رومانسية الصراع.

كانت رابعة، بوصفها عضوا في حزب التحرير، قد تبعتني إلى الباكستان عندما أردت الذهاب إلى هناك. ولكن في المملكة المتحدة، وعلى العكس من ذلك، وفيما نحن نستقر في إطار حياتنا الجديدة في الشقة الكائنة بويمبلي، بدأت أولى بوادر الشقاق في علاقتنا تطفو على السطح. كانت تجربة رعاية طفل وليد، كما يعرف أيّ والد مستجد، شيئا مرهقا للغاية، حيث تمثّل الليالي الطويلة التي لا تنتهي ولا سبيل للنوم فيها ضغوطا كبيرة على أفضل العلاقات. كانت فترة تحتاج فيها رابعة إلى العون مني، وإلى أن أشدَّ عزمي وأقدم لها الدعم والمساعدة، ولكن كان هذا هو الوقت الذي أدركت رابعة فيه حقا وصدقا أن علاقتنا كانت تحتوي على ثلاثة أطراف، أنا وهي وعقيدتنا. كنت ملتزما بالقضية إلى الحد الذي بدا فيه انسحابي ولو خطوة واحدة للوراء لكي أساعدها في رعاية ابننا، وكأنه تخلٍّ عن واجبي. بل إنني قمت خلال تلك الفترة بزيادة عملي في الحملات كي أبتعد عن إغراء البقاء في المنزل في أحضان زوجتي المريحة وابني المولود حديثا.

من السهل كثيرا القيام بأفعال أنانية وقاسية عندما تكون تحت تأثير وهم التزكية الذاتية والأخلاقية، سواء أكانت دينية أم سياسية. لقد حطّمتُ أحلام تلك المرأة وأنا أطارد تلك "الخلافة" غير المحددة المعالم. فبعد أن حرمتها من شهر العسل، كنت الآن أحرمها من دعمي خلال أصعب الأوقات التي مرت عليها. كنا صغار السن بشكل لا يُعقل، فقد دخلنا العشرينيات من العمر لتونا، ولا زلنا ممتلئين بذاك المزيج المُسْكر الذي يدير الرؤوس والذي يتكون من الإيمان بالذات واليقين الأيديولوجي معا. وبينما هي ترغب في الاستقرار بشكل أكبر في الحياة الزوجية، كنت على الجانب الآخر أشعر أنني صادق دوما معها، فهي تعرف من أنا حين تزوجتها، وتعرف ما الذي أود تحقيقه في حياتي. وكانت حجتي حين نتحاور: لو أنني أصبحت الشخص الذي تطلبين مني أن أكونه الآن، فما كنتِ ستحبينني في المقام الأول. لم تكوني أبدا ترغبين في الزواج من ذلك الشخص، ولذا لا تطلبي مني أن أصبح ذلك الشخص الآن. كنت كثيرا ما أترك المنزل بعد تلك الكلمات، وانا أتساءل حول إيماني المطلق بأن الرابطة الأيديولوجية وحدها كافية لاستمرار الزواج.

كان هذا العمل يبدو أكثر أهمية من أي شيء آخر: بالرغم من أن 2001 كان العام الذي قفزت فيه السلفية الجهادية إلى الشهرة العالمية بعد 11/9، فقد كانت ذروة الحركة فيما يختص بالدعم والزخم قد حانت بالفعل قبل هذا الوقت باثني عشر شهرا. لو كان هناك ثمة تغيير، فقد كان ذلك الزخم، بحلول 2001، في طريقه ليصبح أقل قليلا. قمت بأفضل ما في وسعي لاستغلال هذه الطفرة في الاهتمام بالإسلاموية. وجدت في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية أخا آخر أشاركه في فريق الدعوة، وهو أشرف الحق الذي صار شريكي

كما كان إد حسين قبله في كلية نيوهام. أخبرني أشرف أنه رفض عرضا من أكسفورد كي يحضر للدراسة في الكلية، لأنه أراد أن يكون من تلاميذي. بعد أن أشرفت على القسم الذي أقسم عليه أشرف عند حصوله على العضوية، قمنا معا بإعادة مجد الأيام الخوالي هنا في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية، واستطعنا أن نقوم بتجنيد ثلاث حلقات أخرى من التابعين الجدد للقضية.

كنت أرشد أشرف وأوفر له الحماية في أروقة حزب التحرير، وصرنا متلازمين، وربط بيننا احتقارنا المشترك لأي مديرين عديمي الكفاءة في حزب التحرير. وبالرغم من أننا لم نكن ندعو إلى الجهادية في أيّ من تعاليمنا، فقد كانت عملية التسييس التي بدأناها قد وضعت قدم العديد من الطلاب بالفعل على أول هذا الطريق. كان زيشان صِدّيقي أحد الذين قمت بتجنيدهم ذلك العام، وتم لاحقا القبض عليه واحتجازه في أفغانستان على يد القوات الأمريكية، بعد ذهابه هناك للانضمام للجهاد. عند إعادته للمملكة المتحدة، تم وضع زيشان تحت أمر مراقبة ولكنه استطاع الهرب منه بشكل ما.

تم كذلك منحي الفرصة لتقديم العون في تجنيد الجنود الباكستانيين. وكان هناك جماعة من الضباط العسكريين الذين تم إرسالهم في بعثة دراسية للتدريب في ساند هيرست، وكان هذا يمثل كنزا بالنسبة لحزب التحرير، فكما أسلفت، كانت منهجية استيلائهم على بلد ما هي اختراق الجيش والتحريض على القيام بانقلاب. حدث أنّ أحد هؤلاء الطلاب كان له، عن طريق أقاربه، روابط مع حزب التحرير، وكان واحدا من أفراد عائلته يدير مرأبا للسيارات في ستيبني جرين (Stepney Green)، والتي كنت أصلح فيها سيارتي فيما مضى. كان ابن مالك المرأب يسمى أفتاب، وهو من دارسي حزب التحرير. وبالرغم من أنه ليس من القائمين بالتجنيد في السياق الطبيعي، فقد استطاع أن يثير انتباه هذا الجندي. كان الضباط على وشك العودة إلى الباكستان، وبالتالي فقد تم إحضاري لتقديمي إليهم، كان ذلك يعود جزئيا نتيجة إلى مهارتي في التجنيد، وجزئيا لأنني، وبالرغم من كافة جهود امتياز في ذلك الصدد، كنت أمتلك سمعة ممتازة نتيجة عملي في الباكستان. كانت مهمتي تنحصر في تزويدهم برسالة أخيرة تحمل تشجيعا لهم، وتدور حول كيفية قيامهم بتجنيد المؤيدين للقضية في صفوف الجيش الباكستاني.

قابلتهم في إحدى الشقق التي يملكها أفتاب في فورست جيت، وتحدثت معهم حول حزب التحرير، وشرحت لهم كيف يمكن لهم أن يكونوا ذوي دور محوري في خططنا الخاصة بالاستحواذ على البلد. قلت لهم أنه عوضا عن انضمامهم للحزب بشكل علني، فإن مسؤوليتهم هي العودة لباكستان ودعم الجماعة بشكل سري، إضافة إلى البدء في بناء خلايا داخل الجيش. كان يجب عليهم بعدئذ الانتظار، والاستعداد للاشتراك في الانقلاب العسكري.

بدت هذه خطة مرتفعة المخاطر وذات عواقب وخيمة حال فشلها. قام الصحفي الباكستاني أحمد راشد، في 2003، بعمل تقرير في جريدة التليجراف اللندنية، حول قيام الجنرال مشرف بحملة تطهير داخل الجيش الباكستاني، واقتلاع ما أسماه بخلايا متعاطفة مع القاعدة. كان محقا فيما يخص الخلايا، ولكن مخطئا فيما يختص بالانتماء، فقد كانت تلك الخلايا من داعمي حزب التحرير الذين قابلتهم في تلك الشقة المهترئة في لندن، وقمت فيها بتحريضهم على الثورة. عندما سمعت الاخبار شعرت بصدمة. كنا، بحلول هذا الوقت، في خضم عالم "الحرب على الإرهاب"، ولم يكن هناك الكثير مما قد يرعوي المستجوبين عن القيام به، فيما يختص بتعذيب هؤلاء الجنود أثناء التحقيق معهم. حدث بعد عدة سنوات أن قابلت البريطاني الباكستاني المسؤول عن تلك الخلية والمختص بهؤلاء الجنود، عمر خان، في لندن. أكد عمر لي كل ذلك، فقد كان في ذلك الحين همزة الوصل العسكرية السرية بين هؤلاء الجنود وبين حزب التحرير، وقد تم القبض عليه معهم. تم وقتها ضربه، ووضع مسدس في رأسه خلال الاستجواب، قبل ترحيله إلى المملكة المتحدة، فيما لم يحظَ الجنود الذين بقوا في الباكستان بمثل حسن الطالع هذا.

كانت مسؤوليات الدعوة كفيلة بأن تشغلني بما فيه الكفاية، وذلك مع دراستي العلمية وابني المولود حديثا. ولكن لم يكن هذا إلا جزءاً من العمل الذي قمت به لصالح القضية خلال سنة 2000. كان حزب التحرير يعقد مؤتمرات بانتظام، وسرعان ما أصبحت واحداً من المتحدثين الرئيسيين في تلك المناسبات. كنا نقيم الحدث خارج السفارة الأمريكية، وفي ميدان الطرف الأغر (Trafalgar Square)، وقمنا بقيادة مسيرات تجوب شارع إدجواير (Edgware Road)، وقمنا بإدارة مؤتمرات لمتحدثين وخطباء في هايد بارك (Hyde Park). لم تكن أيّ من تلك مناسبات صغيرة الحجم، كانت الحملات تجتذب عادة حشودا تربو على ثلاثة آلاف فرد. كانت هذه مهارة مختلفة عن مهارة التحليل الدقيق الخاص بقيادة حلقة، ولكني احببتها. يشعر بعض الناس بالقلق إزاء مخاطبة الحشود، ولكنني استمتعت بإثارة الجمهور، وكنت أستلذ بفرصة توصيل رسالتنا إلى كل هذا الحشد. ولم تزدنا حقيقة أن المؤتمرات كبيرة بهذا الشكل إلا إيمانا ويقينا فيما يختص بإدراكنا أن الحركة على شفا فتح عظيم.

إضافة إلى كل ما سبق، فقد أجبت كذلك نداء لتقديم يد العون في مولد فرع دانمركي باكستاني لحزب التحرير في الدنمارك. كان هذا يماثل النجاح المذهل والسرعة الصاروخية التي أنجزت بها مهمتي في رحيم يار خان في باكستان. كنت أقضي الأسبوع في لندن حيث أقوم بعملي الدراسي في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية نهارا، وأحضر الحلقات مساءً، ومن ثم أقلع في مساء الجمعة إلى كوبنهاجن، وأقضي عطلة نهاية الأسبوع في الدنمارك. جعل هذا عملي في حزب التحرير يمتد طيلة أيام الأسبوع، وخلق جدولا تسبب في وضع حتى المزيد من الضغوط على زواجي المضغوط أصلا.

صارت الدنمارك محط تركيز القيادة بوصفها مكانا يرغبون بشدة في العمل فيه، وذلك للمعاونة في تأسيس جذور لحزب التحرير في القارة. كانت هناك عدة أسباب خلف عدم تطور الفروع الأوروبية كما كان مفترضا بها أن تفعل. وكانت القيادة الحالية لحزب التحرير في الدنمارك قد وقعت تحت سلطة القيادة الأوروبية في ألمانيا، واتبعت سياسات التجنيد الخاصة بهم، والتي تقضي باستهداف مهاجري الجيل الأول الذين كانوا قادمين للبلاد لأسباب اقتصادية، ونتيجة لذلك فإنّ الفروع الأوروبية كانت مكونة تقريبا بشكل كامل من أفراد شمال أفريقيين وأتراك، أما في المملكة المتحدة فقد بدا الوضع على العكس من ذلك، حيث جل التركيز موجه للمولودين والناشئين في البلد ذاتها، وهم الجيل الأصغر الغاضب: طلاب الجامعة والشباب الساخط.

لم تتضمن الاستراتيجية الألمانية أبدا هؤلاء الناس، إذ كانوا يعتبرونهم عاطلين لا أهمية لهم، في حين أوضحت التجربة البريطانية أن مثل هؤلاء الأشخاص ينبغي أن يكونوا أول المستهدفين للتجنيد. وقد قرر إخوتنا في الدنمارك اتباع نموذج المملكة المتحدة، وكان حزب التحرير يتوسع بسرعة هناك، ولكن لم يكن هناك أي اختراق محسوس للمجتمع الدنماركي الباكستاني الشاب، والذي كان بإمكانه أن يقدم للمنظمة معبرا آخر إلى داخل الباكستان كما كان قد حدث في بريطانيا من قبل.

في ضوء خلفيتي وبالنظر إلى خبراتي التي حصلت عليها في كلا من الجامعات، وخارج البلاد، فقد كنت الشخص المثالي لقلب الأمور رأسا على عقب. سرعان ما دخلت في روتين اللحاق بطائرتي في نهاية الأسبوع، ثم لقائي في المطار مع خالد أمين، وهو دانمركي فلسطيني كان يصطحبني خلال أجندة العمل المكتظة طوال 48 ساعة من الاجتماعات والخطب.

ومرة أخرى، أحرزت تقدما كبيرا في المجتمع، فأسست حلقات للدرس، بل وحتى قابلت بعضا من مجندي الجيش الباكستاني الذين لم يكونوا مثل هؤلاء القادمين من ساند هيرست سابقا، ولكنهم كانوا جنودا على أية حال، وكانوا مستعدين وراغبين في دعم القضية.

الجدير بالذكر فيما يختص بالدنمارك، هو كيف أنها مختلفة بشكل ملحوظ، وعلى نحو غير إيجابي، عن المملكة المتحدة فيما يتعلّق بالعنصرية. وفي بعض الجوانب، بدا الأمر كما لو كنت قد عدت في الزمن للوراء، إلى أيام مراهقتي في إيسكس. هذا ما كانت الأجواء تذكرني به، وكان ذلك هو مقدار تخلّف الدنمارك عن المملكة المتحدة فيما يختص بالعلاقات بين الأجناس. كانت المسألة في المملكة المتحدة قد خفتت إلى حد ما، وكان المجتمع قد مضى في طريقه مخلفا إياها وراء ظهره، في حين كان الناس في الدنمارك يشتكون من العنصرية. كانت الخطوط في القارة مرسومة بشكل مختلف، فقد كان أتراك الجيل الثالث المولودون هنا

والذين كبروا في ألمانيا، لا يزالون مصنفين كعمال زائرين. كانت مثل تلك السياسات تخلق أجواء مختلفة تماما فيما يختص بكيفية رؤية الناس لهوياتهم.

وبدا أنّ استجابة مجتمعات الأقليات في الدنمارك لمسألة العنصرية مماثلة تماما لما كانت عليه استجابتي في ساوث إند، وتمثّل ذلك بالعنف. كان المجندون المحتملون الذين قابلتهم كلهم ذوي قصص تحتوي على أنشطة إجرامية خطرة، فهم رجال عصابات، وموزعو مخدرات سابقون. وفي حين كانت ساوث إند ذات ثقافة سكاكين ومديات، فقد كان الجميع هنا مترعرعين في أحضان المسدسات. قيلت لي العديد من الروايات حول معارك جرت بالمسدسات مع الشرطة، ومحاولات سطو مسلح، وحدث أكثر من مرة أن تم أمامي رفع قميص في مباهاة ليكشف عن جرح أو اثنين جراء طلقات الرصاص.

لقد استطعت، نتيجة لخلفيتي، أن أشعر بما يرويه هؤلاء المجندون، وأتعاطف معه بشكل فشل فيه باقي القائمين بالتجنيد. كان المجندون المحتملون مهتمين برحلتي، وكيف انتقلت من الغضب إلى اعتناق الإسلاموية الثورية كحل للموقف. قد يكون الأمر أنني كنت محظوظا إذ حظيت بفرصة السفر إلى الدنمارك في ذروة حماسها الإسلاموي، فقد سهل لي ذلك عملية القيام بالتجنيد بلا شك. نجحت في وضع بذرة مزدهرة للفرع الدنماركي الباكستاني، وشعرت بالفخر للطريقة التي نشرت بها الرسالة في بريطانيا والباكستان، والآن في أوروبا القارية أيضا. يحزنني أن أقول هذا، ولكنّ فرع حزب التحرير في الدنمارك يعد أحد أكثر الفروع تطرفا حتى يومنا هذا. في آخر الأمر، سوف تفرض الحكومة الألمانية حظرا على أنشطة حزب التحرير، وفي 2006، تم إدانة متحدث فرع الدنمارك الرسمي فادي عبد اللطيف بتهمة بث الكراهية والتحريض على العنف.

ربما لم يكن من المستغرب أن تتأثر دراستي سلبا مع كل هذا الالتزام بحزب التحرير. وعندما ظهرت نتائج الاختبارات، كنت قد نجحت في الأجزاء الخاصة بالقانون، ولكنني فشلت في النحو العربي، وهو أصعب كثيرا من القانون، في حال كنت تتساءل عن ذلك، فلم أكن أستطيع الانتقال إلى الجزء التالي من منهجي الدراسي دون النجاح في اللغة العربية، كان الجزء التالي هو سنة من دراسة اللغة العربية في المدينة المصرية الجميلة: "الإسكندرية". شعرت رابعة بالإحباط، لأنني بدلا من الحصول على بعض الراحة في فترة الصيف، فقد كان على أن أقضيه في مراجعة المواد استعدادا لإعادة الامتحان.

حصلت على وظيفة حارس أمن في قاعة لندن الملكية للاحتفالات، حيث سمحت لي الوظيفة بالجلوس في كشك يفتح ويغلق الحاجز الذي يسمح للسيارات بالعبور. جلست في ذلك الكشك، وقمت بمراجعة دروس اللغة العربية من التاسعة وحتى الخامسة كل يوم، مع توقف من حين لآخر لكي أسمح لسيارة ما بالدخول. لم يكن أفراد الأمن الآخرون يصدقون حظهم، فمن هذا الذي يود أن يقضي النهار بطوله جالسا في

ذلك الكشك؟ ولكنني كنت، مع امتلاء ذهني بحلم إعادة إحياء حزب التحرير في مصر، أصب كل تركيزي في دراستي. كنت شديد التركيز إلى حد أنني قمت حتى في إحدى المرات بغلق الحاجز على إصبعي، فنتج عنه جرح عميق، ولازال الندب الناتج عن ذلك الحادث مرئيا حتى يومنا هذا.

أتى كل ذلك العمل الشاق بثماره، أعدت امتحان المنهج العربي في بداية سبتمبر 2001، ونجحت هذه المرة. كنت أستطيع الآن أن أحتل مكاني في جامعة الإسكندرية، في مركز كلية الآداب لدراسة اللغة العربية للأجانب. مرة أخرى قمت أنا ورابعة بحزم حقائبنا وممتلكاتنا، وقد كانت عند تلك النقطة قد فقدت كل أحلامها حول علاقتنا. تبعتني مرة أخرى إلى بلد آخر، وقمت أثناء إقلاع طائرتنا، بمراقبة لندن وهي تختفي تحت الطائرة، وعمار بين ذراعي، وفكرت في نفسي: "اثنا عشر شهرا وأعود إلى هنا، يجب عليّ حقا الالتفات إلى زواجي من أجل عمار الصغير". لم أكن اتوقع أبداً أنّ أعواماً كثيرة ستمر قبل أن أضع قدميّ على أرضٍ بريطانية مرة أخرى، وسوف أكون قد تغيرت بلا رجعة. ولم أكن أعلم كذلك أنه في وقت وصولي إلى الإسكندرية، كانت ثمّة أحداث تجري في الجانب الآخر من الأطلنطي، على متن أربع رحلات ركّاب جوية، وتتضمن برجين، على وشك تغيير العالم بشكل لا رجعة فيه.

الفصل السادس عشر

السجال

إنكم تلقون بالقنابل على قومي وأنتم تعلمون تمام العلم أن مستوى الأضرار التبعية – ما نسميه نحن "مسلمين أبرياء" – سوف يتعدى بمراحل كثيرة الضرر الواقع على أيّ "هدف شرعي". إن قتل أولادنا بالجملة، بالنسبة لكم، وهو ما تصرون أنتم على تسميته"أضرارا تبعية"، هو عاقبة لا يمكن تجنبها عند تنفيذ سياساتكم في بلادنا. بالنسبة لنا، فإنهم، ببساطة شديدة، أطفال وحسب.ألا تعتقدون أننا كنا نبكي كذلك، كما تبكون أنتم الآن، منذ سنوات؟ هل تعتقدون أننا لا نشعر بأي ألم فيما أنتم تغتصبون وتنهبون أرضنا وتقصفون مدننا؟ تسألون: أي بلاد وأي مدن؟ إنّ عجرفتكم لا يفوقها في تراكمها إلا جهلكم. انظروا إلى العراق، قمتم بقتل ما يزيد عن نصف مليون طفل في سبيل خلع صدام حسين بعد حرب الكويت، لمجرد أنكم تستطيعون ذلك. لأنكم تستطيعون ذلك!! ولأنّ قومي أكثر تيها وخسرانا من أن يمنعوكم. هؤلاء أطفالنا، ونحن نبكيهم حتى عندما لا تشعرون أنتم بشيء على الإطلاق. ماذا عن سؤال ليزلي شتال (Lesley Stahl) الذي ألقته على وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت (Madeleine Albright) في برنامج 60 دقيقة؟

"لقد سمعنا أن نصف مليون طفل ماتوا – أعني أنه عدد أكبر من عدد الأطفال المقتولين في هيروشيما– أترين ما أقصده، هل العائد يستحق ذلك؟"

لقد حُفر ردّ أولبرايت القاسي في ذاكرتنا، ولوّث براءتنا بكمية السم الكامنة فيه:

"أعتقد أنه خيار شديد القسوة، ولكننا نعتقد أنّ العائد يستحق"

وتتساءلون لم نحن بهذا القدر من الغضب؟ تتساءلون الآن، حتى بعد كل هذه السنوات، وفيما نحن ننطق بهذه الكلمات، لماذا يجتاحنا كل هذا الغيظ؟ أيكون العائد من مقتل نصف مليون طفل باستخدام قنابلكم منضبّة اليورانيوم يستحقّ المتابعة، أما نحن، فالويل لنا لمجرد أننا رددنا الصفعة! في عالمكم أنتم، لم يُذكر الحديث الذي قالت فيه أولبرايت ذلك إلا لماما، ونتج عن بحث قام به داو جونز في مصادر الأخبار الرئيسة، ما لا يتعدى إشارة واحدة للمقابلة في جريدة في أورانج كاونتي. أما على الجانب الآخر، في عالمنا نحن، في الجحيم الذي نعيش فيه، فكانت مقولتها فقرة رئيسية في الأخبار. إننا لن ننسى قتلانا لمجرد أنكم قوم بلا مشاعر.

هل يعدّ قتلُ المدنيين شيئا مبرراً عندما يتعلق الأمر بأهداف سياستكم الخارجية فقط؟ إنكم تدّعون أنّكم، خلافاً لنا نحن، لا تستهدفون المدنيين، وأن غايتكم نبيلة، وأنكم تراعون الاعتبارات الإنسانية وحسب. كم هو عدد القتلى من المدنيين "غير المستهدفين" الذين قتلتموهم ليكون ذلك مبرراً في منحنا الحقّ بالقيام برد فعل؟ خمسة أم عشرة أم مئة أم نصف مليون؟ هل ثلاثة آلاف قتيل كافون لإشعاركم بألم كلّ وأيّ أم "لم تستهدفوها" باليورانيوم المنضّب ؟ إن كانت الإجابة بلا، فلتعلموا إذن أنّ نوايانا عندما تسببنا في موت قتلاكم قد تكون نبيلة كذلك، نحن أيضا نستطيع إلباس الدمار ثوب الاعتبارات الإنسانية. ليس زرع الدمار تحت اسم النوايا الحسنة حكرا عليكم، وعليكم أن تستحوا من ترديد مثل ذلك القول، أيتها الوحوش المتعجرفة. يمكنكم أن تدعموا وتقدموا التمويل والتدريب ليحكمنا الدكتاتوريون الذين يعذبون إخوتنا ويغتصبون أخواتنا في سجونهم منذ عقود كثيرة، ومع ذلك تحتلون بلادنا وتدّعون أنكم تأتون بالديموقراطية؟ أتقرؤون علينا القانون الدولي، في حين أنكم تتجاهلون عن عمد احتلال إسرائيل لفلسطين طبقا لمنطوق حكم الأمم المتحدة؟ إننا لن ننسى أبدا علاقات الصداقة التي تربطكم بمبارك والأسد، ودعمكم اللا نهائي لإسرائيل المحتلة، والطريقة التي استخدمتم بها المجاهدين في أفغانستان، فقط لكي تنقلبوا علينا حالما حصلتم على مبتغاكم. لقد اخترتم الجانب الذي تقفون فيه، وكذلك فعلنا نحن.

لقد اكتشفنا أنه ليس ثمّة قدرٌ، مهما كان، من التوسَل المتحضر، ولا كميّة، مهما كانت، من مخاطبة إنسانيتكم أو رحمتكم، ولا أي التزام كان باللعب بشروطكم يمكنُ أن يحرّك فيكم شعرة واحدة. إنكم تعيشون كالبلهاء في جهلكم السعيد، في حين ننزف نحن وينز الخمج والصديد من كل مخارجنا. لا يوجد أي شيء يمثل لديكم قدرا أو ثمنا سوى حياتكم وسعادتكم وتغيّبكم الأناني عن العالم. إن كان تعرضكم لما يساوي وزن ذرة من الألم الذي نعانيه على أيديكم كفيلا بإيقاظكم من الغيبوبة التي ترزحون تحت نيرها، وسوف يرغمكم على الاستماع إلى صرخاتنا ونحن نغرق، فما يؤسفني للغاية أننا قررنا أخيرا أنه بالرغم من كونه: "خيارا شديد الصعوبة، فنحن نعتقد أن العائد يستحق".

إن هذا كلام شديد القوة، وقد حقق الغرض منه بالفعل، ولكن بالنسبة لعقلي، وموقفه الجدلي من كل هذا، فقد كان -بوصفه يعكس بالفعل استجابتي العفوية بعد 9-11 مباشرة- لا يمثّل سوى نصف الحقيقة فقط. ما أسهل أن تقوم أيّ ضحية بنسج مجموعة حجج من أنصاف الحقائق، لتُمثل إلهاما للآلاف باسم السخط الصالح.

من ناحية أخرى، فإن الجانب الآخر لا يرى سوي نصف الحقيقة كذلك، وهنا تكمن المشكلة. إن عملية إدراك كيف وصلتُ أنا إلى مثل هذا الموقف المنفصل الإقصائي شعوريا، هو مفتاح فهم

كُنه ذهنية الإسلاموي الذي يعيش حياته بأسرها على حوافّ العنف، فقد كنت مؤدلجا، وكان هذا الفكر هو ما أرى العالم من خلاله. كان من الصعب على العوام غير المسلمين أن يدركوا بشكل حقيقي من أين أتى هذا السخط الإسلاموي وما مصدره، ولكنّه كان شيئا ملموسا ومحسوسا، ولم تزد عمليات الغزو التي قادتها الولايات المتحدة في أفغانستان وفي العراق بعد 11/9 تلك المواقف إلا قوة ودعما أكثر فأكثر. إن كان من حق الأمريكيين القصف والغزو كرد مناسب على قصفهم، فلماذا لا يكون من حق المجاهدين القيام بالقصف والغزو استجابةً لمقتلنا نحن؟ وحتى في حال إن كان ما يثقل الموازين ويميل بها إلى جانب ما هو أن هذا الجانب دولة، في حين أن الجانب الآخر هو جماعات متفرقة، فبالتأكيد وبلا شك، فقد كان من الواجب على الدولة أن تكون الطرف الأكثر تحملا للمسؤولية.

على الرغم من أننا في حزب التحرير كنا نعارض التكتيكات التي وظفتها القاعدة، فقد شاركهم معظمُنا حسَّ الانتقام الذي كان لديهم. كان ما يثير الفضول، من وجهة نظر الموقف الجدلي المذكور آنفا، أن موقفي لم يكن منفصلا بالكامل عن الاعتبارات الإنسانية، بل عوضا عن ذلك، كان مرتبطا بها بشكل كبير، بل كانت هي بشكل حتمي الحافز لذلك الموقف. ولكنّ الفارق أنه في حالتنا هذه، كانت الاعتبارات الإنسانية تخص المسلمين وحدهم، على حساب"الآخر". لو كان مقدرا لجهودي التي أقوم ببذلها الآن أن تحقق ولو شيئا واحداً لا غير، فليكن ذلك بناء وتكوين فهمٍ وإدراكٍ لتلك الذهنية التي قد تجعل الناس يشعرون بهذا الكم من السخط والغضب، بحيث يفقدون كل حس لديهم بالتعاطف مع الآخرين، عليهم أن يضفوا الأنسنة حتى على "هؤلاء" الذين ينزعون الإنسانية من غيرهم، بحيث تتاح الفرصة للجميع للبدء في عملية التعافي. قد يكون موقفي الجدلي السابق ذكره غيرَ مريح كمادة للقراءة بالنسبة للكثير منكم، خاصة بالنسبة لأصدقائي الناجين من هجمات 11/9، وأنا أعتذر عن ذلك. الحقيقة هي أنه لازال هناك الكثير من الناس في عالمنا هذا يفكرون بهذه الطريقة، سواء أحببنا ذلك أم لا، وسوف يكون من المفيد ألا نتصنّع غير ذلك

قمت منذئذ بزيارة الموقع صفر (موقع البرجين) في العديد من المناسبات، وتشرفت بإلقاء خطبة هناك تلبية لدعوة من مجلس أمناء النصب التذكاري لـ11/9. كانت تلك تجربة تبعثُ على التواضع، وكنت سأبدو شخصا غريبا بالتأكيد، لو لم تتحرك مشاعري بعمق شديد عند زيارة الموقع. قال ستالين في واقعة منتشرة وسيئة الذكر: إن قتيلا واحداً يعدّ مأساة، في حين أن مليون قتيل لا يعدو أن يكون مجرد إحصائية. كان هذا ما صار إليه رد فعلي على أحداث 11/9. لم يكن الأمر يخص أفراد من الناس، بل كان حول الصورة الكاملة، وقد كنت عند تلك النقطة منغمسا للثمالة في معاناة

"قومي أنا"، بحيث لم يبق لدي ذرة تعاطف أو شعور متبقٍ تجاه معاناة هؤلاء الذين ألعنهم هم أنفسهم لأنهم السبب في تلك المعاناة. هناك درس مستفاد هنا، فيما أعتقد، للعناصر الأكثر ميلاً للعنف في المجتمعات الغربية كذلك.

قد يبدو رد فعلي الأصلي لـ11/9 صادما في سياق غربي، ولكنه كان معتادا نوعا ما في بلدان مثل مصر والباكستان. أتذكر -في تبادل أدوار يثير القشعريرة-ما حدث حين طلب معلم التاريخ في صفي في ويستكليف من الطلبة توضيح موقفنا من الإمبراطورية البريطانية من خلال رفع أيدينا، أنه وبعد أسبوعين من حضوري لمصر، وفي صف لغة عربية حضرته، أن قامت المعلمة المصرية بتوجيه سؤال للجميع عما كانوا يشعرون به تجاه الأحداث الجارية في أمريكا. كان الصف مليئا بالطلبة من كلية الدراسات الشرقية والأفريقية والجامعات الأجنبية الأخرى، وأعرب الكثيرون منهم عن اشمئزازهم مما حدث. فيما كان للمعلمة المصرية ،خلافا لذلك، رأي آخر، حيث شرحت للفصل كيف كان المصري العادي سعيدا للغاية جرّاء تلك الأحداث. وصفت المعلمة كيف أنّ الوقت قد حان لكي يذوق الأمريكيون السمّ الذي طبخوه. فوجئ كثيرٌ من الطلبة الأجانب بوجهة النظر هذه، ولكنّ ذلك، في الواقع، كان الرد الطبيعي في العالم العربي والمجتمعات ذات الأغلبية المسلمة كلّها، فقد اعتقد الكثيرون -مصداقا لكلمات مالكولم إكس ذائعة الصيت- أن الأمر يقتصر على أن تلك بضاعة أمريكا، وقد ردت اليها.

فيما كنت أهضم أحداث 11/9، كان أكثر ما يهمّني ليس هو الضحايا وعائلاتهم، بل بالأحرى أنّ ما كان يجرى سوف يؤثر بشكل سلبي على حزب التحرير وعلى الإسلاموية. لم أقتنع بالمنطق الكامن خلف الهجمات، وإن كانت اعتراضاتي غير معنية إلا قليلا بالثمن الإنساني المدفوع جراء ذلك. في الماضي حين كنت في كلية نيوهام، كانت قيادة حزب التحرير العالمية تنتقد سياسات عمر بكري العدائية لأنها تمثل ضغوطا على الجماعة، نتج ذلك عن جريمة قتل واحدة، في حين كانت هذه حادثة قتل فيها الآلاف في قلب نيويورك، ناهيك عن الرمزية الهائلة لدلالات تدمير البرجين التوأمين. كانت الضغوط الماثلة على الإسلاميين فى طريقها للتصاعد المضطرد، ولم يكن الأمر سيقتصر على استهداف بن لادن والقاعدة، بل كان سيستهدف الجميع لعدة سنوات قادمة.

كنا كذلك نشعر بالقلق حول الكيفية التي ستتأثر بها المشاريع التي طالما رعاها حزب التحرير في ضوء رد الفعل الغربي على ما حدث. فيما اتضح أن أفغانستان كانت ستتحمل نصيب الأسد من رد فعل الولايات المتحدة، فقد كان حزب التحرير على وشك خسارة ما كان يعتبره رابطا أساسيا في حلقات نمو "الخلافة". كان حزب التحرير، بدءا من نقطة انطلاقي منذ عدة سنوات، قد بدأ

في غرس جذورٍ خطيرةٍ وذات شأن كبير في باكستان، وكان ذلك ينطبق على اوزبكستان أيضا، حيث قامت منظمتنا بتكوين أكبر جماعة معارضة في البلاد ضمّت بين صفوفها آلاف المؤيدين. مثّل حزب التحرير خطرا شديدا لدرجة أن الرئيس الاوزبكي –إسلام كريموف (Islam Karimov)- لجأ إلى عمليات تعذيب غير مسبوقة لكي يوقف انتشاره. كان السفير البريطاني المستقبلي هناك، كريج موراي (Craig Murray)، سوف يتقدم باستقالته في نهاية المطاف، ذاكرا كيف كان كريموف، أثناء جهوده الرامية إلى سحق الجماعة، يقوم بوضع إخوتنا في حزب التحرير أحياءً في الغلايات.

كان حلم حزب التحرير يتمثل في الاستيلاء على السلطة على جانبيّ أفغانستان، في باكستان وأوزبكستان، وبعدها التواصل مع طالبان لتعمل معنا بوصفها معبرا يستخدم في بناء أول دولة إسلامية عظمى وحديثه ومسلحة نوويا. ووصل الأمر في عام 1999 إلى حد أن قام حزب التحرير بإرسال وفد من فلسطين، مكون من الأعضاء العرب المرموقين، لكي يعرض على طالبان مثل تلك الشراكة في تأسيس خلافتنا النووية المستقبلية. كانت طالبان في تلك الأيام، لم تصل بعد إلى يقين بأن الباكستان بلدُ كافرٌ وغير إسلامي، فرفضوا التعاون مع حزب التحرير بكل أدب. ولم يستغرق الأمر وقتا كبيرا حتى قامت دعوتنا بتغيير موقف طالبان من باكستان، وقاموا بحلول 2009، بالاستيلاء على أجزاء كبيرة من شمال البلاد. إن ما تسببت فيه أحداث 11/9 من خلال ما نتج عنها من احتلال الناتو لأفغانستان، قد أدى بضربة واحدة إلى تدمير حلم الخلافة الوسط آسيوية. لقد انتقدنا دائماً الجهادية بوصفها الطريق الخاطئ للوصول إلى "الدولة الإسلامية"، ولم تزد أحداث هذا الصباح عن تأكيد أنّ الجهادية قد أكلت ذيلها (جنت على نفسها) أو أحرزت هدفا عكسياً في نفسها.

بدأت بدراستي بعد مرور أسبوعين من استقراري في الإسكندرية، وتواصلت مع حزب التحرير في مصر.

لقد شهدت مصرُ-مثلما حصل في باكستان-تصاعدا للإسلاموية المدعومة من الدولة في السبعينيات، تماماً مثلما كنا قد شهدنا من قبل صعود الاشتراكية في كلا البلدين أيضا. وقد قام الرئيس السادات بإطلاق سراح آلاف الإسلاميين من معتقلات سلفه جمال عبد الناصر، في محاولة منه لتوفير الدعم لنظامه الجديد في مواجهة الشيوعيين"الملحدين". قام السادات إضافة إلى ذلك بإضفاء النبل على ذاته من خلال تسمية نفسه "الرئيس المؤمن" أي رئيس المؤمنين، وعلى الرغم من ذلك، فقد كان مُقدّراً للسادات، أن يتعلّم بالطريقة الصعبة، أن الإسلاموية ليست وحشاً يسهل ترويضه.

تأسس حزب التحرير في بلد يقع على تخوم فلسطين، ومن ثمّ، فقد كان حزبا يعمل داخل وخارج مصر منذ أواخر الستينات. وقد استطاع الحزب، عن طريق استغلال سياسة السادات في أسلمة البلاد، أن

يكتسب كتلة حرجة من المجندين الذين قاموا بالتخطيط لانقلاب عسكري في مصر في توقيت مبكر جدا، في 1974. سمّيت تلك المحاولة الفاشلة بقضية الأكاديمية الفنية العسكرية (Qadiyyat al-Fanniyyaal-Askariyya)، وكان المسؤول عن تخطيطها عضوا فلسطينيا في حزب التحرير يسمى صالح السرية. وقد أدت تلك المحاولة الفاشلة إلى خسارة الكثير من الحيوات، والبتر الكامل لخلايا حزب التحرير في مصر. لم يستسلم حزب التحرير رغم ذلك، وفي أواخر السبعينيات، قام أردني كان عضوا في الجماعة اسمه سليم الرحال بمهمة إعادة إحياء الدعوة إلى الجماعة في الإسكندرية.

كان حزب التحرير في هذا الوقت تحت أعين الأمن المصري نتيجة لما حدث سابقا في قضية الأكاديمية العسكرية، ولذا قام الرحال في 1977 بتأسيس منظمة جديدة تسمى تنظيم الجهاد أو منظمة الجهاد. كان الرحال -على كل المستويات-رجلا رفيع القدرات وشديد الخطورة. تم اكتشاف حوالي ثمانين شخصا من تابعيه في وقت لاحق ذلك العام، أثناء غارات أمنية في الإسكندرية. تم لاحقا ترحيل سليم الرحال بدعوى أنّه يمثل خطرا شديدا في حال بقائه في مصر. لكن، وكما علمونا في حزب التحرير، فإن الأفكار أكثر خطرا من الناس، وقد ترك الرحال مكانه لتلميذه كمال حبيب ليكون مسؤولا عن ملف الإسكندرية، في حين بدأ رجل يسمى عبد السلام فرج في التوسع في فرع تنظيم الجهاد في القاهرة في 1979 تقريبا.

استطاع كمال وفرج، وكان تركيزهما كله لازال موجها إلى الاستراتيجية العسكرية، العثور على عبود الزمر، وقد كان هذا ضابط مخابرات عسكرية انضم للتنظيم في 1980. كان هذا القلب الصلب المكوّن من النشطاء الإسلاميين هم قادة تنظيم الجهاد الذي أسسه الرحال عضو حزب التحرير، والذين استمروا في طريقهم حتى اغتالوا أنور السادات في 1981. وفي صدى وتكرار لما حدث إبان انفصال البولشفيك والمنشفيك* (Bolshevik-Menshevik) قبل ثورة لينين، انفصل تنظيم الجهاد بدوره إلى فصائل عدة، ونجم عن ذلك تكوين الجماعة الإسلامية الأكبر والأكثر شهرة، الجهاد الإسلامي، وهي الجماعة الأصغر ولكن الأكثر خطورة، والتي أسسها شخص يدعى أيمن الظواهري، قام الظواهري في وقت لاحق بدمج جماعته مع ابن لادن لتكوين القاعدة والبقية -كما يقال في الغرب-صار جزءاً من كتب التاريخ. وهكذا، يتضح أمامنا مسار الدورة التدميرية: الأثر الذي يمكن تقصّيه لتأثير حزب التحرير على عالم الإسلاموية بالشكل الذي نعرفه.

بالعودة إلى مصر في 2001 فقد تركّزت مهمتنا في إحياء منظمة حزب التحرير الأصلية في البلد. بدأت عملية التواصل معي عن طريق بريد إلكتروني، جاءني فيه رقم هاتف لكي أتصل به، فخرجت وهاتفت

* البولشفيك والمنشفيك هما توجهان ظهرا في حزب العمل الاشتراكي الديموقراطي الروسي قبل ثورة 1917، حيث كان المنشفيك يؤيدون الحلول السلمية، فيما كان البولشفيك يؤيدون الحلول الثورية واستخدام القوة، وقد استحوذ البولشفيك على الحزب، ووصلوا باستخدام القوة للسلطة بعد ثورة 1917 التي عرفت نتيجة لذلك بالثورة البلشفية -المحرر

الرقم من صندوق للهاتف. زودني الصوت الذي حدثني بتعليمات تنص على أن أقوم بالسفر إلى كفر الشيخ، حيث قابلت رجلا يدعى "هشام"، وبدأنا الدراسة في حلقة درس على نحو مطلق السّرّية. بعد فترة من ذلك، تم ترتيب اجتماع بيني وبين علاء الزناتي، وهو قائد حزب التحرير في مصر. قابلت الزناتي، وناقشت معه خبراتي السابقة في الباكستان، والدنمارك، والمملكة المتحدة، فأعجب بي بشكل كافٍ ليكلفني فوراً بتولي مسؤولية أنشطة الحزب في الإسكندرية.

أشارت حقيقة أن أُمنح دورا رئيسيا بهذه السرعة، وحقيقة أن مقابلتي لزناتي قد انطوت على هذا العدد الكبير من همزات الوصل السرية، إلى شكل المجتمع المصري، وإلى أيّ حد كان اختراق حزب التحرير له محدودا حتى ذلك الحين. كانت ذكرى قضية الأكاديمية العسكرية، وتأثير الجماعة المرعب المتمثل في علاقتهم بهؤلاء الذي قاموا باغتيال السادات، حيّةً في أذهان المخابرات المصرية، وبالتالي فقد تعاملوا مع أيّ ملمح يشي بتواجد حزب التحرير في مصر بوصفه خطا أحمرَ لا يمكن التهاون فيه. كانوا يولون انتباها خاصا -نتيجة لاعتماد الدولة المصرية على المنظومة العسكرية-لأي جماعة تستهدف اختراق الجيش والتسبب في أيّ انشقاق به. وكانت الدولة مستعدة للذهاب إلى أبعد مدى في سبيل إيقاف المنظمة، بشكل يجعلك تتسمر في مكانك، وتقف لتأخذ نفسا عميقا. إنّ البلاد تحت حكم حالة الطوارئ منذ مقتل السادات في 1981، وهي محكومة بقبضة حديدية من خليفته مبارك.

بقيت قوانين الطوارئ قيد التنفيذ حتى تم خلع الرئيس مبارك خلال انتفاضات العرب في 2011، حيث كانت هذه القوانين تمنح السلطات حقوقا كاسحة تسمح لهم بإيقاف وحجز أيّ مدنيين لمدد غير محددة. ورافق ذلك انتهاك فاضح لحقوق الإنسان تحمّلته الولايات المتحدة وحلفاؤها مقابل وعد من الحكام باستقرار المنطقة. كان حزب التحرير غير محظور بشكل رسمي في مصر، ولكنّ ذلك راجع فقط لمجرد أن قانون الطوارئ يعمل بشكل عكسي، فطبقا لهذا القانون فإنّ التجمع بشكل طبيعي أو تلقائي غير مسموح به، بل تحتاج أيّ جماعة كانت إلى إذن الدولة للقيام بذلك، وفي حين كانت بعض الأحزاب السياسية حاصلة على الترخيص اللازم، فلم يحصل حزب التحرير على أي شيء شبيه بذلك.

لم يكن هناك سوى عضوين آخرين من حزب التحرير في الإسكندرية، وكانا كذلك موفدين من المملكة المتحدة إلى مصر. كنت قد عرفت رضا بانكهيرست لعدد من السنوات في ذلك الوقت، حيث كنت أنا من قام بتجنيده في جامعة كامبريدج، وأنا من شجعته على السفر إلى باكستان كي ينشر الرسالة. كان رضا في القاهرة مع أيان نسبت (Ian Nisbet) الذي انضم لحزب التحرير عندما كان طالبا في جامعة ويستمنستر. كنا رفقة جيدة متفاهمة، وكنت أنا ورابعة نسافر معهما للقاهرة في مقابلات عائلية بشكل منتظم.

في هذه الأثناء، وفي تكرارٍ لما قام به سليم رحال في الإسكندرية منذ كل تلك السنوات وقبل أن أولد، بدأت أنا في عملية التجنيد. كان كل ذلك يجري خلسة نتيجة للخوف من أمن الدولة المصري وهو الجهاز المثير للرعب في مصر. لم أكن اتحدث أبدا عن حزب التحرير تحسبا لكون هاتفي مراقبا، وعند الاتصال بالناس عن طريق البريد الإلكتروني، كنت أكتب رسائل عادية للغاية، مثل: "إنني قادم على الغداء". كنت أقابل الناس في أماكن متفق عليها سلفا، وكنت في بادئ الأمر حريصا للغاية عندما يأتي ذكر اسم حزب التحرير في المحادثة. كان الأمر يدور أساسا حول تكوين صداقات، والتعرف على الناس، بحيث يكون لدينا فكرة عامة عن اتجاههم الفكري.

كان أحد هؤلاء الأشخاص هو أحمد عيد طالب الطب الألمعي في جامعة الإسكندرية الذي امتلك ما يكاد يكون ذاكرة فوتوغرافية، وكان أحمد سلفيا شديد الالتزام قبل أن ألقاه. تجاهلت كل تكتيكاتنا المجربة، والتي اختبرناها كثيرا حول تجنيد ذوي الخلفية العلمانية، إذ كانت خبراتي في الباكستان قد أقنعتني أنه يمكن بالفعل تجنيد السلفيين. ما فاتني هو أن مصر لم تكن باكستان، ففي حين كانت الباكستان لم تزل بعد في غمار عملية التوصّل إلى صيغة للتعامل مع الإسلاموية، فقد كانت مصر قد فقدت قبل ذلك رئيسا سقط ضحية لعقيدتنا بالفعل.

بدأت الأمور تأخذ منحى خطرا في ديسمبر 2001 تقريبا. كان هناك طالب بريطاني باكستاني آخر في صفي يسمى حسان ريزفي وقد صادقته أيضا. كان حسان صبي شوارعٍ محنكا، وقد وفد من جامعة إكستر (University of Exeter)، ومثل معظم البريطانيين المسلمين الشباب في تلك الأيام، كان متماهيا مع الإسلاموية، حتى لو لم يكن قد انضم لأي جماعات منها، فحدث بيننا انسجام فوري. كنا في هذا اليوم تحديدا، نتجول في الإسكندرية في محاولة للامتزاج مع المصريين بشكل منتظم لكي يساعدنا ذلك علي تحسين لغتنا العربية، ذهب حسان إلى المسجد للصلاة، وعندما قابلته خارج المسجد، أدركت أن شيئا ما يشغله على الفور.

سألته: "حسان أخي، ما المشكلة؟".

"لقد حدث لي شيء غريب للغاية يا رجل، أبلغني أحدهم رسالة لكي أوصّلها لك،" قال وهو يبدو حائرا، "كنت في المسجد بعد انتهاء صلواتي عندما ظهر بجانبي شخص، وسألني إن كنت أنا الأخ ماجد. قال إنه صديق لأحمد عيد وإنه يجب أن يتحدث مع ماجد بصورة عاجلة، لقد قال إنك في خطر يا أخي."

بدأت الآن أشعر بالقلق كذلك، وكنت أنظر حولي كي أرى إن كان هناك من يراقبنا.

قال حسان: "أرادني أن اصطحبه إليك"

بالرغم أن حساناً ليس من القائمين بالتجنيد مثلي أنا، فقد كان محنكا في الشوارع، بحيث كان مطلعا على لب المسألة.

وأضاف: "قلت له مستحيل يا رجل، أعني أنني رفضت، وما يدريني؟ فقد يكون من أمن الدولة. قلت له إنني أحتاج إلى التحدث معك أولا. إن كنتَ تريد التحدث معه فقد حددت معه توقيتا ومكانا تستطيع ملاقاته فيه بالغد. ولكني سوف آتي معك يا أخي، كي تعرف أنني معك لا غير."

ومضت فكرة ما في ذهني أثناء سرد حسان لما حدث، قد يكون ذلك مجرد مصادفة، ولكني لم أكن قد رأيت أحمد منذ عدة أيام. قد يكون هناك عدة أسباب لذلك، ولكني لم أستطع أن أتذكر أنني رأيته في أي مكان. هل ألقي القبض عليه؟ إنه الشخص الوحيد في الإسكندرية الذي حدثته عن حزب التحرير، ولكنّ محادثتنا اقتصرت عليّ أنا وهو فقط. فكرت في الأمر، وقررت أنه من غير المرجح أن يكون المخبرون هم من كانوا يحدثون حساناً: لو كانوا يريدون إيجادي، لكان ذلك سهلا عليهم.

ذهبت في اليوم التالي إلى الموعد والمكان المحددين مع حسان. لم يكن مطالبا بأن يأتي، ولكني كنت سعيدا بدعمه. وقفنا هناك ننتظر، ووقفت بجانبنا سيارة، وقيل لنا أن نستقلها. دارت بنا السيارة حول الإسكندرية لفترة بدت وكأنها زمن طويل، ومن ثم اصطفت خلف سيارة أخرى، وقيل لنا أن نترك الأولى ونستقل الثانية بدلا منها. تجولت بنا السيارة حول الإسكندرية مرة أخرى، ثم استبدلنا السيارات مرة ثانية. أخيرا ركبنا في ميكروباص، وانطلق بنا إلى خارج المدينة.

بعد برهة من الزمن، اصطف الميكروباص وخرجنا منه، كان صديق أحمد ينتظرنا، واعتذر عن كل تلك الجولات.

قال لنا: "يجب أن نكون حريصين، ويجب أن نتيقن أننا لسنا متبوعين."

كانت الأفكار تتسارع في عقلي عند تلك النقطة، وسألت بلغتي العربية المكتسبة حديثا: "ما الأمر؟ أين أحمد؟ هل هو بخير؟"

"إنه بخير الآن،" قال الصديق، "لقد تم القبض عليه وتعذيبه، وقد خرج لتوه وأرادني أن أحذرك"

"سبحان الله، ماذا؟ ... كيف؟"، سألت وقد بدأت دقات قلبي تتسارع في صدري، وبدأ العرق البارد يتفصد من جبيني. "لماذا تم القبض عليه؟" كنت أتوقع الإجابة.

رفع صديق أحمد عينيه ونظر نحوي بجدية، لابد أنه رأى ما فعله أمن الدولة في صديقه، ويعرف كما أعرف أنا أن ارتباطه بي هو ما تسبب في ذلك.

"أرادني أحمد أن أخبرك أن أمن الدولة تعرف كل شيء عنك، إنهم يعرفون أنك عضو في حزب التحرير، ويعرفون تاريخ حياتك كله. إنهم يعرفون أنك كنت القائم على التجنيد في باكستان، ويعرفون أنك ترغب في تأسيس الخلافة هنا في مصر. يجب أن تعرف أن حزب التحرير يعد بالنسبة لهم أكثر المنظمات التي أتت إلى مصر خطورة على الإطلاق، إنهم يكرهونكم أكثر مما يكرهون الجهاديين.

كانت كلمة "باكستان" هي ما صدمني حقا. نعم، كنت قد ناقشت حزب التحرير مع أحمد، ولكني لم أتطرق مطلقا إلى الوقت الذي قضيته في الباكستان. لم يكن من الممكن أن ترد تلك المعلومات سوى عن طريق أمن الدولة، كيف -بحق الله- عرفوا ذلك على أية حال؟

"أراد مني أحمد أن أخبرك أنهم يقومون بإعداد قضية كبيرة ضدك، وسوف يقومون بالقبض عليك، وتقديمك للمحاكمة. هذا هو السبب في تعذيبه، من أجل جمع معلومات لدعم القضية التي ينوون تحريكها ضدك. لقد حاول حمايتك بقدر ما في وسعه يا أخي"، استمر صديق أحمد وهو يبرز نقطة المحاكمة مرة أخرى قائلا: "إنهم لا يتحدثون عن ترحيلك بل عن سجنك. أخي ماجد، أنت من المملكة المتحدة وسجونكم لا تشبه سجوننا، هل تفهم معنى ما أقول؟ بحقّ الله يا ماجد، هل تفهم ما سوف يحدث إذا وجدوك مذنبا؟"

أومأت برأسي. وبدأ ذهني في تلك اللحظة يشرد في بحار من الغموض كما يحدث له حين يستشعر خطرا ماثلا.

سمعت نفسي أغمغم: "أين نحن على أية حال؟"

"نحن في أبوقير على مشارف الإسكندرية، إنها قرية عتيقة مشهورة بأسماكها. ولكن عودة للنقطة التي نتحدث فيها، أرادني أحمد أن أخبرك بوصفك صديقا له أنك يجب أن تغادر مصر فورا. يجب أن تخرج والفرصة لم تزل سانحة لذلك. كان الله معك".

كانت مخاطرة أحمد في سبيل إيصال هذه الرسالة لي، هي ما نسميه في مصر بالـ"جدعنة"، وهي من الأشياء النبيلة التي يمكن للإنسان أن يقوم بها. مسّ ذلك قلبي بشكل عميق، ولا زلت أحمل هذا الجميل في قلبي إعزازا للشجاعة التي لابد أنه قد تحلى بها كي يقوم بتحذيري مما يراد بي. لدينا هنا رجل تم تعذيبه للحصول على معلومات عني، ولكنه رغم ذلك قام بالمخاطرة الأكبر على الإطلاق، وخاطر بسلامته وسلامة أصدقائه وعائلته كي يحذرني مقدما. إن كنت تعرف أمن الدولة في مصر كما أعرفه الآن، فذلك يعني أنك لا تقرأ هذه السطور بأيّ استخفاف. إنّ ما قام به أحمد كان يمثل خطرا كبيرا على سلامة أيّ فرد من عائلته، أمه أو أخته أو أخيه، لقد كان يعرضهم للتعذيب والاغتصاب أو حتى الموت كعقاب انتقامي. من الصعب الحصول على مثل ذلك الإخلاص وتلك الأخوّة. إنّ مثل تلك اللحظات هي التي تبدو فيها الإسلاموية وكأنها الرابط الوحيد الذي قد يلهم مثل ذلك النبل في قلوب البشر. كان الخيار الأسهل بالنسبة له هو الحصول على حريته من خلال الإيقاع بي، أو في حال استطاع تجنب الوشاية بي، فقد كان يستطيع ألا يورط نفسه معي أكثر من ذلك. كنت شاكرا لأصدقائه كذلك لأنهم وضعوا أنفسهم في موضع الخطر المحتمل عندما جاؤوا للتحدث معي.

قمت بإعادة ما أخبرني به أصدقاء أحمد في رأسي مرات ومرات، والدماء تتدفق في عارضي بسرعة لم أكن أتصوّر أنها ممكنة. كان هذا وضعا خطرا. الوقت قد جاء أخيرا، بعد كل سنوات الإعداد السابقة، رومانسية الصراع، جاء الوقت الذي ينبغي أن أصارع فيه أنا؟ إنني أعرف كذلك أنّه لا يمكنني إمساك الهاتف ومكالمة نسيم في لندن لأسأله النصيحة، أو أن أحاول التواصل مع أيّ من أعضاء حزب التحرير الآخرين في مصر. ثمّة احتمال كبير للغاية أن يكون هاتفي تحت المراقبة بالفعل، كانت هناك أصواتُ تكّات في الهاتف منذ حططت رحالي هناك في مصر. وهناك احتمالية كبرى أن أكون قيد المراقبة والمتابعة، وأن أقود أمن الدولة إلى أماكن وجود نشطاء آخرين. أيّاً كان ما سوف أقرر القيام به، فلم يكن لدي سوى الله لاستعين به.. الله المستعان.

فكرت كثيرا وطويلا في مغادرة البلاد، ولكن إذا كنتُ قيد المراقبة كما يعتقد أحمد، فكيف كنت سأمر من أمن المطار؟ سيوقفوني على الحدود بالتأكيد. شاء الحظ السعيد أن يكون كل من رابعة وعمار خارج البلاد بالفعل، حيث عادوا للمملكة المتحدة لزيارة العائلة. قررت أنه من الخطورة أن يعودوا إلى مصر، وأوصلت لهما رسالة، بدون أن آتي على ذكر أيّ شيء، بأنهما يجب أن يبقيا في المملكة المتحدة حتى إشعار آخر. أدركت رابعة على الفور أنها شيفرة، فقد تدربنا على تلك اللحظة مرة بعد مرة فيما بيننا، وكانت قد قضت أسابيع كاملة في صلاة متواصلة خوفا على سلامتي. قررت أنّ أفضل طريقة للمضي قدما هي الهدوء، فأوقفت كل أنشطة حزب التحرير فورا وبدون سابق انذار. بقيت بعيدا عن شقتي، وتنقلت من مكان لآخر عوضا عن المبيت فيها، وقمت بالمبيت عند أصدقاء متفرقين حتى تهدأ الأمور.

كنت أعيش على أعصابي في غضون الأسابيع التالية، ومما زاد الطين بلة حقيقة أنني أنام على أرائك أناس مختلفين، كانت لياليَّ مليئة بقلة النوم المقرونة باليقظة عند كل حركة وصوت صادر عن الأرضيات. ولكن، وفيما الأيام تتحول إلى أسابيع، بدأت في تنفس الصعداء. إننا في وقت إجازات عيد الميلاد، ولم يكن لدي أيّ دروس يتعين على حضورها، وكانت رابعة وعمار بعيدين عني، ولا يوجد أيّ أعمال تخص حزب التحرير لأباشرها. ربما كان ما حدث سيناريو غريبا أحصل بموجبه على فترة من الراحة، ولكن، ولأول مرة منذ فترة طويلة للغاية، كان ذلك بالضبط ما حدث. قضيت وقتي مع حسان ومع طالب ياباني في صفنا اسمه هيروشي إيتو كان قد تحول للإسلام باسم "عبد العظيم". لم يكن هيروشي يتحدث الإنجليزية، ولذا فقد كنا نتحدث معه بالعربية الفصحى، وشعرت أخيرا أنني كنت أقوم بالتعرف على أصدقاء جدد مرة أخرى، بدلا من التقرب من الناس لمجرد تجنيدهم وحسب.

شعرت حين اقتربت نهاية العطلة، بعد حوالي شهر من مقابلتي مع أصدقاء أحمد، بالثقة الكافية لجس النبض، فقررت أن أحاول مغادرة البلاد كي أرى ما سوف يحدث. وهكذا، استقلينا أنا وحسان وهيروشي

حافلة من الإسكندرية إلى القاهرة، وذهبنا لاستقلال عبارة، فربما تكون الحالة الأمنية هنا أقل صرامة عما هي في المطار، وبالفعل، ومما أثار ارتياحي الشديد، فقد عبرنا من أمن الحدود بلا مشكلة. استقلينا عبارة عبر البحر الأحمر إلى العقبة، ومنها ركبنا عربة أجرة فوق جسر اللنبي إلى القدس، حيث قضينا يوما في المدينة العتيقة، لقد ذهبنا في مغامرة.

كان التواجد في أورشليم أو القدس، يماثل أخذ جولة خلال كتاب تاريخ عتيق، لازلت مفتونا بجلال المكان الخالص. أتذكر قيامي بتتبع خطوات المسيح عليه السلام خلال طرقات المدينة العتيقة، وعيناي تتغرغران بدموع الورع. أتذكر الشعور بالتواضع المذهل تجاه حقيقة أنني أسير في مواضع أقدام الرسل. رأيت مسجد عمر، صاحب الرسول، والخليفة الثاني في الإسلام، والذي تم بناؤه على درج الكنيسة، لأنّ عمرَ رفض الدخول للكنيسة كي يصلي فيها خوفاً من قيام خلفائه بتحويلها لاحقا إلى مسجد، لذا قاموا ببناء المسجد على درج الكنيسة.

عندما دخلنا إلى مجمع الأقصى، في ثالث المواقع الإسلامية من حيث القداسة كي نصلي الجمعة، غمرتني مشاعري، أذهلتني الأهمية المطلقة للمكان الذي كنت فيه، ونقاء المكان، وحقيقة أن كل طوبة وبلاطة كانت تعاني حاليا نتيجة للصراع القائم. كنا نستطيع رؤية ثقوب الرصاص في الحوائط المقدسة. قمنا بالصلاة بصلاة الجمعة هناك في ذات المكان، تحت القبة الخضراء للمسجد الأقصى، في ذات المكان الذي أمّ فيه خاتم المرسلين محمد عليه السلام كل الأنبياء الآخرين في الصلاة، في تلك الليلة المعروفة بليلة الإسراء. حدث بعد الإسراء معراج محمد عليه السلام إلى الجنة، من فوق ذات الصخرة التي تقع تحت القبة الذهبية لقبة الصخرة. هنا، في هذا المكان انهرتُ ساجدا، وقبّلت الأرض، متوسّلاً إلى الله ليغفر لي خطاياي في حقه وحقّ زوجتي وابني في حال لم يتسنَ لي رؤيتهما مرة أخرى. تم تأسيس جماعتي –حزب التحرير– في هذا المسجد نفسه عام 1953. ومن ذلك اليوم، ممتلئا حدّ الثمالة بشعور كاسح بالجلال، وهبت قلبي لأراضي فلسطين.

إنه شعور رائع أن أكون خارج مصر. بدا الأمر، خلال هذين اليومين، كما لو كانت كافة شكوك وضغوط وضعي تحت المراقبة قد انزاحت عن كاهليّ. من الصعب أن توصف لك تجربة الحياة في دولة بوليسية إن لم تكن قد عشت في واحدة منها من قبل، ولكنّ ثمة شعوراً وحساً دائم بالتوتر يتشكلان وأنت تمارس حياتك الطبيعية نتيجة للإحساس الدائم بأنك قد تكون تحت مراقبة شخص ما، أو أنّ أحدهم يتجسس على حديثك، حيث إنك لا تستطيع أبدا الجزم بغير ذلك. إنك لا تشعر بمقدار توترك هذا إلا حين تترك البلد، وتشعر بهذا التوتر وهو يختفي. إنه وضع خبيث، حيث يتسلل إليك خفية، ويصبح من الصعب عليك أن تتوقف عن مراجعة وتمحيص أفعالك، أو عن الشعور بالبارانويا والاضطهاد حتى عندما لا تقوم بفعل أي

شيء خاطئ. وفي مفارقة عجيبة، فقد شعرت براحة أكبر في القدس التي تحكمها إسرائيل، من الراحة التي كنت أشعر بها في مصر.

قمت باستغلال فرصة وجودي في القدس لإعادة التواصل مع حزب التحرير، ومقابلة الأعضاء بعد صلاة الجمعة في المسجد الأقصى. قدمت نفسي لعصام أميري، وهو من كبار الأعضاء، وأخبرته عن خلفيتي ودراستي في مصر، وعن أنشطة حزب التحرير التي قمت بها في المملكة المتحدة والباكستان والدنمارك. اقترح عصام أن أعود إلى القدس بعد انتهاء سنتي الدراسية في الإسكندرية كي أدرس معه لفترة. ومثّل ذلك بالنسبة لي شرفا كبيرا، فوافقت على الفور. ناقشنا الأوضاع في مصر، ولكنّنا لم ندخل في أيّ تفاصيل، لم يكن في يده الكثير ليساعدني به فيما يخص أمن الدولة. كان بمقدوري أثناء هذين اليومين الذهبيين، رؤية مستقبلي في حزب التحرير يمتد أمامي على مد البصر: الدراسة في أورشليم، والعودة إلى باكستان للقيام بالتجنيد، وتدعيم وترسيخ مكاني في التاريخ الإسلامي من خلال المساعدة التي أسهم بها في تحقيق حلم الخلافة.

عدت إلى مصر بنفس الطريقة التي أتيت بها. وهذه المرة أيضا، لم تكن هناك أيّ مشاكل على الحدود. بأثر رجعي، وفي ضوء ما حدث بعد ذلك، يبدو لي أنه من الغريب كيف أنني استطعت الخروج والدخول بمثل تلك السهولة. ربما كان ذلك يرجع إلى أنهم استنتجوا، جراء تذكرة الرجوع وعدم وجود أيّ متعلقات معي، أنني كنت أخطط للعودة إلى دراستي. ومن ناحية أخرى، فربما كان خطئا من قبلهم. لم تكن حقيقة أنهم بلا رحمة في أفعالهم تعني على الإطلاق أنّ أمن الدولة على كفاءة في كل ما يقوم به، فقد كانت طريقتهم في مراقبة الناس أقرب للعشوائية.

قد يعود الأمر كذلك إلى زيادة مستوى الحرص الأمني بعد رجوعي، فواقع الحال أننا في الفترة التي تلت أحداث 11/9 مباشرة، وكان الوضع فيما يخص السياسات غير محدد الملامح بعد، وحتّى ذلك الوقت لم يكن أي مواطنين بريطانيين قد تعرضوا للتعذيب في بلد أجنبي في إطار الحرب على الإرهاب أبدا. كنت عضواً في جماعة قانونية تماما في المملكة المتحدة، وبدا لي احتمال عدم دعمي والوقوف بجانبي في حال ألقي القبض عليّ شيئا غير مطروح للنقاش أصلا.

على الرغم من كل ما سبق ذكره، فقد بدأ كل شيء يتغير. من الصعب الجزم بمقدار وعمق تبادل المعلومات الاستخباراتية بين الدول بعد 11/9، ولكنّ حقيقة أنّ أمن الدولة كان يعرف كل شيء عني تبقى مؤشرا على ما كان يحدث. إنّ الخط الزمني ذو أهمية هنا، فمع حلول أوائل سنة 2002 هُزمت طالبان، وكان التركيز على العمليات العسكرية يتضاءل، في مقابل تصاعد عمليات استجواب السجناء الذين أسروا. ولأول مرة، لم تكن جنسيتك تمثّل فرقاً، ولا كانت بنود معاهدة جنيف ذات أهمية. لم يكن أي من هذا رسمياً بالطبع،

والكثير منه مجرد استنتاجات فحسب، ولكنّ ما حدث في تلك الأسابيع بعد عودتي من القدس، هو أنني أصبحت كيانا مستباحاً بالنسبة للسلطات، ربما حصلوا على ضوء أخضر من الحكومة البريطانية يفيد بأنهم لن يتدخلوا في الأمر. إن الطريقة الوحيدة لمعرفة ما حدث هي الحصول على ملفات أمن الدولة، فعندما خُلع مبارك في 2011، اقتحمت مقرّات أمن الدولة وسرقت المستندات الخاصّة بها، وأيا كانت هوية من حصل على تلك الملفات، فهو يحمل الإجابة، وربما سأكتشف الحقيقة في يومٍ ما.

أيا كانت حقيقة ما حدث، فقد عدت إلى مصر أقلّ قلقا عما كنتُ عليه حين غادرتها قبل شهر أو ما يقرب من ذلك. كنت اشعر براحة حيال الوضع الآن إلى حد أنني أرسلت رسالة أطمئن فيها رابعة وعماراً أن كل شيء على ما يرام، طالباً منهم أن يعودوا للبلاد. كنت لم أزل حريصا على الحفاظ على المسافة بيني وبين أعضاء حزب التحرير الآخرين، فمثلا لم أذهب لأقابل رضا، ولا عدت لعمليات التجنيد. بدا الأمر كما لو أنّ الوضع قد عاد طبيعيا، ولم تكن لدي أدنى فكرة أن هذا ليس إلا الهدوء الذي يسبق العاصفة.

الفصل السابع عشر

مرحباً بك في مصر، هنا نفعل ما يحلو لنا

جاء الطرقُ العنيف على بابي في الساعة الثالثة من صباح أول أبريل، وقد كنت مستيقظا، كما كانوا يعرفون بالطبع. وعندما فكرت في الأمر لاحقاً، رجّحت أنهم كانوا على يلاحقونني طوال تلك الأمسية. لقد قضيتُ آخر ليالي الحرية مع حسان مستمتعاً بأجواء ثقافة ارتياد مقاهي الإسكندرية. إنّها مدينةٌ جميلة، وهي أجمل من القاهرة كثيرا نتيجة لموقعها الساحلي، وهناك، ثمّة شيء لا يمكن أن تخطئه يميّز ليالي الإسكندرية: إنّها الروائح المنبعثة من القهوة وأدخنة الشيشة الممتزجة مع برودة هواء البحر العليل، كنت محظوظا نوعا ما إذ أتيح لي التجول في الشوارع وتحت النجوم في تلك الليلة، ومثّل ذلك لمحةً من الحضارة التي سوف أتذكّرها في الشهور والسنوات القادمة.

لابد أنهم كانوا في المكان سلفا حين ألقيت تحية المساء على حسان، ثم اتجهت إلى شقتي. لابد أنني قد سرت أمامهم فيما هم يشيرون لبعضهم البعض ويرسلون الإشارات اللاسلكية بأنني عدت. هل شعروا بي وأنا أخطو على أطراف أصابع قدميّ في الظلام مخترقا الشقة المظلمة، وأنا حريص على ألا أوقظ ابني وزوجتي، أو صديقتها زهرة التي كانت تقضي الليل عندنا؟ هل رأوني وأنا أخطو خارجا إلى الشرفة حيث أتشرب بنظرة أخيرة إلى الأفق اللامع قبل النوم؟ هل سمعوا ابني ذا السنة الواحدة يتقلب قبل أن أسمعه أنا، فيما تتحول تقلباته وغمغماته إلى صراخ يجأر بالشكوى؟ تقدمت على أطراف أصابع أقدامي نحو فراش عمار، ورفعته على كتفي وهدهدته بلطف. كان في تلك الأيام يلفّ يده الصغيرة حول سبابتي، فيما أنا أقوم بتهدئته عن طريق قراءة آية الكرسي، وهي صلاة إسلامية مقدسة: الله لا إلهَ إلا هو الحيُّ القيوم......

كتب أحد الشعراء المشهورين في يوم من الأيام أنّ نهاية العالم لن تكون على شكل فرقعة، بل على شكل نشيج. انتهى عالمي بالاثنين: نشيج ابني والقرع على الباب. ذلك هو نوع الضوضاء الذي يرنُّ في روحك بصوت أعلى مما يفعل في آذانك، وفيما قرع الجزء الأسفل من حذاء شرطي ذي مقاس 12 الباب مرة بعد مرة، فقد أبدى القفل المزدوج -الذي اعتدت استخدامه- بعض المقاومة فلم ينكسر. كنت أعرف ما حدث بشكل غريزي حتى قبل أن أرى الجنود. عرفت ما يحدث قبل أن يبدأ عمار الصغير في البكاء والتمسك بذراعي بسبب الخوف، خطرت لي فكرة: الباب، يجب أن أنقذ الباب. سرت بهدوء تجاه الباب في شرودٍ تام، وفتحته قبل أن يتحطم تحت أرجلهم. لم يكن هناك، على أية حال، مكان يمكن الفرار إليه في هذه الشقة

المرتفعة. لم يبقَ ثمة مكان للاختباء. وفيما اقتحم الجنود الشقة مندفعين بدروعهم الكاملة، وصدرياتهم الواقية، حاملين قنابل الغاز والرشاشات الآلية، ركضت إلى الوراء لأحمي عماراً من المنظر البشع. قاموا أولا بتأمين المنطقة، باحثين عن أي شيء يشي بالمقاومة، ثم وجهوا تركيزهم نحوي مرة أخرى، كانت كل المسدسات موجهة نحو الآب والابن، فيما كانوا يصرخون مطلقين أوامر باللغة العربية وباللهجة المصرية لهذا الأب البالغ من العمر أربعة وعشرين ربيعا، والذي يحاول حماية ابنه الصغير الصارخ من فوهات الرشاشات نصف الآلية. كنت أقف هادئا بلا حراك، أصلّي وأدعو لكي أداوي فزع عمار، مترنما باسم الله في نبرات منتظمة بهدوء في أذنه، الله الله الله الله. استطعت في الخلفية سماعهم وهم يقتربون من غرف النوم، قلت في نفسي: سوف يقتحمون الغرفة على زوجتي النائمة. لا تهمني العواقب، لم أكن سأتركهم يوقظون رابعة بمسدساتهم، فخطوت بأقدام مثقلة كما لو كانت تجر أغلالا حديدة، وبدأت أتحرك.

سأل أحدُ الأصوات بالإنجليزية وبلكنةٍ ظهر فيها حرف "ج" ملفوظاً على الطريقة المصرية، "ماجد نواز، أين أنت ذاهب؟". افترق صف الرشاشات الآلية المصطف أمامي، ليكشف عن رجل يرتدي بدلة أنيقة. إنه شابٌّ في أوائل الثلاثينيات، حليقُ الذقن، وشعره مصفف للوراء. عرفت على الفور أن هذا هو ما يجب أن أخاف منه، إنه الضابط– ضابط أمن الدولة – ولم يكن بحاجة لرشاش كي يفرض سلطته.

سألني: "هل أنت ماجد نواز؟". أجبته: "إنني هو."

أومأ الضابط برأسه، فقد كان يعرف ذلك بالفعل.

"يجب أن تأتي معنا." جعلتني الطريقة التي قال بها: "يجب" أنتفض.

"انظر، لقد فتحت الباب وتركتكم تدخلون، لا يوجد لدي شيء لأخفيه، هل يمكنني فقط من فضلك أن أوقظ زوجتي؟ يمكنك أن تتبعني لو أحببت"، قلت أثناء محاولتي تهدئة عمار.

"حسنا دعنا نذهب".

تبعني خلال باب غرفة النوم، فيما أنا أسير إلى الداخل، حيث أيقظت رابعة بصوت خفيض مرتعش.

"رابعة استيقظي إنه أنا". لم يستغرق الأمر طويلا، فقد استيقظت فورا وهي تتساءل: لمَ يبكي عمار؟ "يجب عليك أن تستيقظي، إنهم هنا. "أدركت رابعة على الفور ما كنت أشير إليه." انتفضت واقفة وارتدت جلبابها الطويل على جسدها بسرعة، وبسرعة قامت بتغطية ما استطاعت من جسدها بالحجاب.

"ماذا؟ هل هم هنا فعلا؟"

"نعم، خارج الباب مباشرة، يحسن بك أن توقظي الأخت زهرة، كوني قوية بحق الله. أخشى أنني قد اضطر لتركك حالا."

كان بوسعي أن أسمع أصوات ضرب الأدراج والدواليب، وحاولت جاهدا أن أحتفظ بهدوئي. كانوا يمشطون المنزل، فيما أسرعت رابعة لإيقاظ صديقتها زهرة النائمة في غرفة الضيوف. طلبتُ من الضابط جميلا أخيرا، وكان عمار لايزال متشبثا بي في فزع. سألت بهدوء: "هل يمكنني اصطحاب هذا القرآن الصغير معي؟".

" بالتأكيد"، أجاب بهدوء تام.

لم يكن ما أخافه حالا هو ما يمكن أن يجدوه -لم يكن لدي أي أسلحة من أيّ نوع-ولكن ما قد "يجدونه" بمعنى: يزرعونه من أدلة.

قال الضابط: "انتظر هنا" وتركني بلا حراسة.

إنني أرى من خلال الباب أنهم يلقون بكتبي في أكياس قمامة يحملونها معهم. وقد كان كثيرٌ من منشورات حزب التحرير موجودة لديّ بالمنزل، وهو ما يكفي ويزيد ليجعل عضويتي شيئا مسلما به. إنّ ما يفعله هؤلاء الجنود، رغم أن الحال هكذا، هو مجرد التقاط كتب متفرقة من على الأرفف، وهي كتب في أكثرها عادية يتم توزيعها بشكل طبيعي، وتدور حول الإسلام ومواضيع أخرى، وهي متاحة في كل مكان. منحني ذلك، لبرهة من الزمن، ومضة من الأمل في أن هؤلاء الجنود لا يعرفون ما هو الذي يبحثون عنه، وربما فاتتهم الكتب التي تدينني بشكل أكبر.

خرجوا يحملون كيسا تلو الآخر من أكياس القمامة، ثمّ قال الضابط بحدّة: "يجب عليك أن تأتي معنا الآن يا ماجد نواز."

مثّل سفري إلى مصر، بصفتي عضواً في حزب التحرير، والمشاركة النشطة في تجنيد المؤيدين، نشاطا خطرا منذ بداية الأمر، فقد كان الوضع هنا يختلف عما صادفته في المملكة المتحدة أو الدنمارك، وحتى في باكستان، حيث لم يتم حظر الجماعة حتى 2003 بعد عملية التطهير التي قام بها مشرف وحدثت لأصدقائي العسكريين. كنت قد أعددت نفسي من الناحية الذهنية لما قد يحدث قبل أن آتي إلى الإسكندرية، وناقشت مع القيادة في المملكة المتحدة احتمالية أن يتم القبض علي، ومن ثم تعذيبي، وما هي المسؤوليات المنوطة بي.

إنّ سياسة حزب التحرير واضحة في هذا الصدد، كان يجب أن أقول لهم اسمي، وأنني عضو في حزب التحرير. كان من المهم أن أذكر ذلك لكي يروا أنني أملك الشجاعة والمبدأ: إن إنكار عضويتك حتى لإنقاذ نفسك إهانة لإيمانك، وجبن في مواجهة الطغيان. كان هذا –على الرغم من المنطق الذي يدعيه– المعلومة الوحيدة التي لك أن تفصح عنها للقائمين باستجوابك: أيا ما كان ما يفعلونه بك، فليس لك أن تمنحهم أيّ تفاصيل حول أنشطة الجماعة. لازالت هذه، بقدر علمي، سياسة الجماعة، على الرغم من أنها سياسة غير

واقعية بالمرة. أن تمنح المحققين هذه الجزرة –أن تقف أمامهم وتقول لهم أنا عضو في حزب التحرير نعم، ولكني لن أخبرك أي شيء يخصها– هو مجرد استدعاء للمشاكل.عندما يتعلق الأمر بالتعذيب، فلكل إنسان طاقة احتمال لا يتعداها، وكان خط حزب التحرير، بكل بساطة، شيئا يستحيل الالتزام به. كان من الأفضل كثيرا ألا نعترف بالعضوية من الأساس، ونرجو ألا يتعدى الاستجواب ذلك الحد.

من الجدير بالذكر كذلك أن سياسة حزب التحرير كانت حمقاء بشكل خاص عند النظر إلى طريقة الجماعة في تعاطيها مع حوادث القبض على أحد أعضائها. ففي حين تم توجيه تعليمات إلى الأعضاء بوجوب الوقوف شامخين، فقد كان للجماعة سياسة نشطة تنص على عدم دعم من يعتبرونهم جنودا سقطوا في ساحة المعركة. وفي حين يتم استجواب عضو حزب التحرير المقبوض عليه وتعذيبه، فقد كانت الجماعة بالخارج تواصل أنشطتها كما لو أنّ الشخص المعني ليس من مسؤوليتها الآن. كانت الجماعة تملأ الدنيا صراخا حول أعضائها المقبوض عليهم بالطبع، ولكن لم يكن هناك أي دعم رسمي لعائلاتهم. وهكذا، في حين كان أعضاء حزب التحرير ملزمين بالأوامر التي تفرض عليهم ألا يتنصلوا هم من الجماعة، فقد كانت الجماعة، في واقع الأمر، تتنصل وتتبرأ من ذلك العضو.

كان سبب قبولي لوضع نفسي في موضع خطر مثل هذا، هو عناصر معينة في تعليمات حزب التحرير، إذ يتم، في عدد لا يمكن حصره من الحلقات التي حضرتها كثيراً منها عبر السنوات، نقش أهمية التضحية بأرواحنا في عقولنا. وكانت القصص تروى وتعاد حول الرسل والصحابة والشهداء الذين ضحوا بكل شيء لكي يؤسسوا الإسلام. كان ما تعلمناه هو أن نؤمن أن صراعنا مطلقٌ للدرجة التي يتعذر فيها التفكير في الانتصار بدون إراقة الدماء. لو كان من المقدر لي أن تكون تلك التضحية من نصيبي، فقد كنت أعرف أن الله سوف يعوضني في الآخرة. كنت قد درست احتمالية الشهادة، ووصلت لقبولها برضى تام. لم أكن أبدا ممن يقبل بأنصاف الحلول، فإن كانت الشهادة هي ما ينتظرني، فلن يقتصر الأمر على أنها إرادة الله وحدها، بل سوف تكون شرفا لي كذلك.

تضمّن الجزء الأخير من مراحل إعدادي لما هو آتٍ أن أتناقش مع رابعة عما سوف يحدث في حال ألقي القبض علي، وبما أنها عضو في حزب التحرير فقد أدركت رابعة تماما لماذا أفعلُ ما كنت أفعله. كنا نتناقش في كافة عواقب حدوث هذا الذي حدث الآن، بسبب إن أمن الدولة، عندما يصل الأمر إلى الحاجة إلى انتزاع المعلومات، فإنه لا يدع حجرا إلا وينبشه، وثمّة قصص تروى عن زوجات وأطفال يتم إحضارهم أمام الأزواج المسجونين ليعذبوا أمامهم.

وفي مفارقة ساخرة بالنسبة لشخص إسلامويّ مثلي، فإنّ الميزة الوحيدة لرابعة وعمّار في مثل هذا الوضع، هي أنهما يملكان جوازات سفر بريطانية. وصلنا إلى خطة تحدد ما يجب فعله إذا ألقي القبض عليّ: كان على

رابعة أن تصل بلا تباطؤ إلى السفارة البريطانية، وأن تحاول أن تضمن مغادرة البلاد في أول فرصة متاحة. إنّ القبض عليّ يعني مستقبلا غامضا بالنسبة لرابعة وعمار، فكما قلت، لم تكن رابعة ستحصل على أي دعم كان من حزب التحرير أثناء فترة سجني. كانت تضحيتي أنا هي تضحية منها كذلك، وفي إطار وشكل بعينه، لست على يقين أبدا من هو الذي عانى أكثر من الآخر.

الآن وأنا على وشك الرحيل، وأنا مقبوض علي، تحدثت مع رابعة مرة واحدة أخيرة، وبهدوء وبسرعة، وفيما هم يبدؤون بشد ذراعي، قلت لها وأنا أحدق يائسا مباشرة في عينيها: "افعلي ما اتفقنا عليه، هل تفهمين؟"

نظرت لي رابعة مرة أخيرة، وهي محطمةٌ من الحزن، وأومأت برأسها. كنت أعرف أنها تفهم. كانت تعرف أنها يجب أن تذهب للقنصلية في الإسكندرية، وترحل هي وعمار عن البلاد في أسرع وقت ممكن.

"أين تأخذونه؟"، سألت رابعةُ الضابط فجأة. "متى ستقومون بإعادته؟"

نظر لها الضابط متفاجئا قليلا بسؤالها، ولكنّه أجاب بطلاقة. "في غضون ثلاثة أيام"، قال بهدوء.

سألَته: "وكيف لي أن اتصل بك؟ من أنت على أية حال؟"

نظر لها الضابط باستخفاف، وقالت نظرته الصامتة: تتحدثين كما لو كنتُ أحمل شارة. كتب رقم هاتف وسلمه لها.

فقالت له: "شكرا لك.

كان انتصارها الصغير قصير العمر، إذ إنّ الرقم -الذي حاولتْ مكالمته فيما بعد– كان رقما غير صحيح. مالم تعلمه رابعة حينها هو أن قابس الهاتف الخاص بنا تم نزعه من الجدار. كان رقما لا يعمل، وعليها أن تطلبه من هاتف لا يمكن استخدامه. عرفت لاحقا أنها اضطرت للخروج في الطرقات في الرابعة صباحا، وهي لا تعرف أيّ كلمة باللغة العربية، لكي تتوسل للناس أن يدعوها تستخدم هاتفهم كي تتصل بالقنصل.

على أيّ حال، فقد أيقظ تساؤل رابعة شيئا ما بداخلي. "هذا سخيف" قلت لهم، "ليس بوسعك مجرد الدخول إليّ في منتصف الليل مثلما فعلت. لم تخبرني عن سبب القبض عليّ، ولا قرأت عليّ حقوقي ولم أرَ أيّ إثبات شخصية، هل لديك حتى إذن بتفتيش شقتي"

استمع الضابط إلى مقالتي بنظرة فيها بعض الاستمتاع، وعندما انتهيت، ضحك وهز رأسه كما لو كنت غير مدرك ما يجري.

"مرحبا بك في مصر، ماجد، هنا نفعل ما يحلو لنا"، قال بضحكة ساخرة.

كان هدوء مظهره الخارجي قد تشقق إلى حد ما. لم يتوقف عمار عن البكاء ولا ثانية واحدة، وكان ذلك القشة الأخيرة. أسرع نحوي، ونزع عماراً من ذراعي، كانت لحظة فقد فيها أعصابه، وكانت أكثر وحشيةً لأن الذي تحمّل تبعاتها طفل صغير. كان انتزاع يد عمار الصغيرة مني بهذا الشكل، في تلك اللحظات الأخيرة، أشد ما عانيته من ألم. نظر مباشرة في عينيّ وهو يصرخ ويداه تمتدان نحوي، فيما الضابط يدفعه تجاه رابعة. لاتزال تلك الصورة محفورة في ذهني، كانت تلك ذكرى رحيلي عنهم، وآخر مرة أراه فيها هو أو أمه لمدة طويلة، وطويلة جدا.

جذب الضابط بعد ذلك ذراعي، ممسكا بها بعنف شديد، وأتذكر أنها كانت المرة الأولى منذ عصف الشرطة بالمكان التي لمسني فيها أحدهم.

ثم قال: "حسنا، هيا نغادر"

لم يكن هناك فرصة للوداع، ولا أتيحت لي حتى نظرة واحدة للوراء، وهو يدفعني عبر الباب الأمامي، ويرغمني على النزول على الدرج إلى عربة الشرطة القابعة بالأسفل. لم تكن رابعة تعرف ذلك بعد، ولكنها كانت في تلك الليلة على طريق فقدان زوجها للأبد.

الفصل الثامن عشر

ليس لـ"الغمامة" قواعد

صفعني هواء الليل البارد كأنما هو لكمة في الوجه. كان بوسعي أن أرى أن المنطقة بالكامل كانت محاصرة ومغلقة، حيث هناك المزيد من الشرطة المسلحين يقفون أمام المبنى الذي كنت أسكنه، وعربات وحافلات كثيرة تغلق الطريق. أطلق الضابط أمراً بنبرة حادة باللغة العربية للشاويش -مجند الشرطة-وقال له: "كلبشه" أي ضع القيود في معصميه، وتم تبعا لذلك شد يديّ خلف ظهري، وشعرت بحدة المعدن تسلخ جلدي وهم يدفعونني داخل العربة. قامت يد ثقيلة بدفعي للأمام عن طريق دفع رأسي من الخلف، وقد كان ذلك يستلزم القيام بحركة أكروباتية تتضمن حفظ التوازن كي لا أسقط على وجهي فوق السلالم الصاعدة للعربة. كان هناك مقاعد خشبية على شكل حدوة الحصان. "اقعد" قال أحدهم بحدة. جلست في الوسط، فيما المقاعد تمتلئ بالشاويشية، والعربة تتأرجح كلما قفز فيها واحد منهم.

صرخ الضابط بأمر آخر فيما كانت الأبواب الخلفية للعربة تنصفق مغلقة: "احنا ماشيين، غمموه". لم أفهم هذه الجملة، ولكن سرعان ما فهمت. قام الشاويش الجالس بجواري بجذب قطعة قماش سوداء قذرة، وأشار لي أن انحني للأمام. كانت عصابةً للعينين، والآن، ولأول مرة، عندما نزعت مني نعمة البصر، بدأت أشعر بالذعر، وهو ذلك الخوف الذي ينتمي إلى النوع الذي لايمكن وصفه، بل يمكن فقط الشعور به. كانت الغمامة مربوطة حول وجهي بإحكام، ومعقودة بشكل عشوائي في الخلف، وكنت أستطيع الشعور بضغط القماش على محجري عينيّ والرائحة السيئة المنبعثة منها، وهي تتصارع مع بقايا رائحة بودرة التلك الخاصة بعمار.

عند قيام السائق بتشغيل الموتور والبدء في التحرك، احتل السواد المطلق نصيب الأسد من حواسي. وخطر على ذهني الآن فقط، أنني بلا حول ولا قوة في مؤخرة هذه العربة، مقيد اليدين بين الشاويشية المدججين بالأسلحة، وأنني لا أستطيع استخدام يديّ لمنعهم إذا هاجموني، ولم أكن حتى سأرى ذلك إن حدث بالفعل. كان هذا هو العجز.

بدأت حواسي الباقية في بذل جهد إضافي لكشف أي حركة مفاجئة، وبدت الآن لمحة الأمل التي خالجتني في الشقة جزءا من عالم مختلف، كنت تحت رحمتهم بشكل مطلق، وكنت أعلم ذلك على وجه اليقين.

كانت الغمامة أو عصابة العيون تجيب على السؤال الذي تجاهله الضابط، إنني أعرف الآن أنني في قبضة أمن الدولة. لو كان الأمر يقتصر على الشرطة الاعتيادية فقط، لكنت الآن في طريقي في المسار القضائي المدني حيث سأمر في الاجراءات ويتم ترحيلي، وكانت حقوقي كمواطن بريطاني ستضمن لي بعض الاحترام. كانت مصر -على عكس كل ذلك-بلدا ذا نظامين متوازيين للعدل، وكان الثاني هو مسار قانون الطوارئ، ولا تحده أي قواعد من أي نوع. أخبرتني الغمامة بكل هذا. إنك لا تقوم بتعصيب عيون شخص ما إلا أن كنت في سبيلك لأخذه إلى مكان بعيد عن الأنظار وخارج دائرة الرؤية.

بدأ عقلي في التساؤل حول تفاصيل الحياة الأكثر دقة، الغمامة. إنها قطعة قماش قديمة مهلهلة قذرة، ليست حتى غمامة أصلا. هذه إهانة لي، أنا أساوي أكثر من قطعة قماش. ثم بدأت أتساءل أين كانت قبل أن ينتهي بها الحال على وجهي، أتساءل كم من الأرواح المعذبة المذعورة تشاركت هذه المساحة من القماش؟ سوف يكون لعرقهم وعرقي الآن ذات العدو المشترك. أما ما تلى ذلك فهو أنّ واقع كونها بالفعل مجرّد قطعة قماش قد أخافني، إنّ قطع القماش هي أشياء غير رسمية، وليست محل محاسبة. الغمامات الحقيقية يجب أن تكون مشتراة، ومرت بإجراءات، ولها فواتير، وكلها في وضح النهار، أما قطع القماش فلا قواعد لها. بدأ جسدي الآن بالارتعاد بشكل خارج عن إرادتي، كما لو كانت رائحة الغمامة قد تغلبت على آخر ما قام به عمار دفاعا عني، وهي رائحة بودرة التلك الخاصة بالأطفال على رقبتي. هاجمت الرائحة عقلي وجهازي العصبي، إننا في موقف عصيب ومشكلة عويصة. سبحان الله! أنا في مشكلة عويصة. لم يرد قلبي الاستسلام لقطعة القماش، شرعت بالتنفس العميق محاولا تهدئة نفسي، بينما دقت ضرباتُ قلبي طبولَ الحرب، فيما قام جسدي بالاستعداد للدفاع عن نفسه ضد أيّ شيء قد يحدث له.

فكرت في حياتي، ما أغرب ما كانت عليه الأربعة وعشرون عاما من عمري الذي مر، إيسكس ونيوكاسل ولندن ولاهور ورحيم يار خان وكوبنهاجن والقاهرة والإسكندرية وعمّان والقدس، مرت جميعها في ومضة. فكرت في تاي آمي وقصصها، وباتريك والمسار غير المقصود الذي أشعل شرارته بتصرفه العنصري التافه مع ذلك الصبي الوحيد الخائف. فكرت في سارة، أولى صديقاتي، وهي تبكي في ذاك اليوم الأول في سيسل جونز بعدما أخبرتها أنه يوجد بنات أكثر من اللازم لأختار من بينهن. فكرت في نيجاز ويذ أتيتيود و"سحقا للشرطة"، وشعرت بالغثيان عندما صفعتني حقيقة أنه يتسنى فقط لهؤلاء المنعّمين برفاهية حرية التعبير امتلاك القدرة على التحدي والجرأة، بل ويجنون الأموال من ذلك. فكرت في أصدقائي ذوي البشرة البيضاء الذين هجرتهم، ورفقتي مع ساف ومارك، ودان الذي طُعن فداءً لنا؛ فكرت في رفاقي، شيل وريكي وآيد وبول، والأوقات المجنونة التي عشناها عندما كانت كل الفتيات من كل حدب وصوب تردن مشاركة المشهد معنا. هل كنت في يوم ما فعلا ذاك الصبي المراهق والـ"بي بوي" الذي يهتز ويتقافز على

تلك الإيقاعات في نوادي ساوث إند؟ ثم رأيت آبي وهي تقرع على بطنها وتتوسل لي ألا أذهب، ألا أذهب، وبدأت أشعر بالحنين لابتسامة آبي تلك. تذكرت عثمانَ وياسراً، ومقدار فخرهم بكوني ناشطا. فكرت في إد حسين في نيوهام، وعم قيوم في رحيم يار خان، وآش في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية، كيف حالكم جميعا؟ والآن كنت أتساءل إن كانت رابعة قد استطاعت أن تتصل بذاك الرقم، وكنت أعرف غريزيا أنني لم أكن عائدا بعد ثلاثة أيام. هكذا، صليت ودعوت، وشعرت بقربي من الله وأنا في وحدتي، وأنا أدعوه متوسلا أن يحميني من هؤلاء الطغاة: اللهم إني أجعلك في نحورهم...

توقفنا، وافترضت أننا لا زلنا في الإسكندرية، ولكنني لم أكن أعلم ذلك على وجه الدقة. كان الوقت منتصف الليل، وكل شيء هادىء بشكل غريب، وافترضت مرة أخرى أنني في مبنى أمن الدولة. من ناحية أخرى، فقد كان يمكن أن نكون قد توقفنا في أيّ مكان آخر: مصنع خارج الخدمة او مخزن مهجور. كان عقلي الآن، وهو مهزوم أمام رائحة غمامتي، مستعدا تماما لخيالات يائسة حول كل ما قد يخطر على البال من سيناريوهات كابوسية.

بعد برهة من الزمن تم اصطحابي خارج العربة وقيادتي إلى مبنى ما، صعدنا متخبطين على بعض السلالم التي صار من المستحيل التعامل معها دون القدرة على الإبصار. فُتح أحد الأبواب أمامي، وصفعني هواء الليل البارد مرة أخرى. بعد ثانية أو اثنتين، وصلت لاستنتاج أنني على سطح مبنى ما. لماذا؟ لمَ أحضرونا هنا؟ تم دفعي للأمام، وقاموا بقيادتي أخيرا إلى ما شعرت أنه هاوية، حيث كانت الرياح تندفع مقابل جسدي من الأمام، وشعرتْ قدماي تحتهما بحافة ما لم أجرؤ على اختبار كنهها. تم بعد ذلك قيادتي بطريقة فيها عناية أكثر مما كان قد حدث حتى لحظتها إلى نقطة قيل لي أن أقف ثابتا تماما فيها. يا الله، دهمتني الفكرة بنفس سرعة الرياح المندفعة خلال شعري: سوف يقومون بدفعي من على حافة المبنى.

إنّ الشاويشية يضحكون عليّ الآن، كانوا قد قاموا بهذا من قبل، ويعرفون بالضبط فيم أفكر. كانوا على الأرجح يرون ركبتيّ وهما تصطكان، فيما كنت أكافح لأظل ثابتا تماما.

"لا تتحرك"، قال أحد الشاويشية بسخرية، "إنك بالفعل لا يجب أن تتحرك."

ومع تلك الكلمات، كنت أستطيع أن أسمعه وهو يبتعد، وصوت خطواته يخفت وهو يخطو ورائي على الحصى. لم أجسر على تحريك عضلة واحدة، لم أكن أجسر على الشعور بأي شيء، ولا بالتفكير حتى، بل انصبّ كل تركيزي على البقاء ثابتا وحسب. لا وجود لأي شيء آخر، ركزت كل إرادتي في أن يمر الوقت أسرع بالنسبة لي، كنت أريد لهذه اللحظة أن تنتهي بغض النظر عما سوف يحدث لاحقا. تمدد الوقت وتثاءب كما لو كان يقصد أن يقول: "من أنت لتطالبني بأي شيء". بدا لي الأمر كما لو كنت وقفت هناك لخمس عشرة أو عشرين دقيقة، ولكنها قد تكون في الواقع، وبمنتهى البساطة دقيقتين أو خمس دقائق فقط.

أخيرا، سمعت الحصى تخشخش ورائي مرة أخرى، فتوتر جسدي كله ذعرا وأنا أتخيل أنني كنت على وشك أن أُدفع من الحافة، ولكن بدلا من ذلك، أمسك بي الشاويش، وجذبني للخلف. حاولت ألا ينهار جسدي أثناء ذلك، إذ تسببت دفقة الارتياح التي أحسست بها في انحلال مفاصلي، لكّن ذلك الارتياح لم يدم طويلا. عند غياب الإجراءات، لا يعرف المرء ما قد يحدث له تاليا. مرّ بذهني، أثناء قيامهم بسحبي للخلف عبر السطح، وأنا بالكاد قادر على السير جراء الرجفة في ساقيّ، أنهم يقومون بكسر مقاومتي. هذا هو الهدف من كل هذا: أن تصبح أكثر عرضة للضعف وأكثر قابلية لما قد يحدث، أن يتم إضعافي. هيا يا ماجد! أنت لست ضعيفا، لست ضعيفا أبدا! يا الله، امنحني القوة!

اصطحبوني للصعود على سلالم إضافية، وللداخل مرة أخرى. لمحت من خلال ظلمة غمامتي وميض مصباح، وتم توقيفي أمام ما افترضت كونه مكتبا، وبدأ أحد الضباط في توجيه الكلام لي، فافترضت أنه ذات الضابط الذي قاد الغارة على منزلي، ولكنه كان يتحدث العربية الآن. على أية حال، كان هناك الكثير مما لم أعد أؤمن به، لدرجة جعلت الأمر يكاد يكون بلا أهمية تذكر. كان كل شيء مشوبا بالشك: أين أنا؟ ومن الذي كنت أحادثه؟ وما الذي سوف يحدث بعد ذلك. كانت ثنيات وملامح الواقع قد بدأت تهترئ.

قال المحقق: "ماجد نواز"

رددت عليه بالإنجليزية: "نعم، ذاك اسمي". تساءلت في نفسي، إن كان يستطيع أن يدرك حقيقة محاولاتي الحثيثة لكي أبدو قويا وواثقا من نفسي.

لم تكن لغتي العربية سيئة، فقد أحطت بالأساسيات نظرا لوجودي في مصر لمدة سبعة أشهر، ولكن ها أنا الآن أكافح لكي أفهم كل كلمة مما كان المحقق يقوله لي.

"إننا نعرف كل شيء عنك يا ماجد، نعرف أنك مع حزب التحرير، ونعرف أنك تحاول أن تعيد إحياء هذه الجماعة المحظورة في مصر. نحن نعلم أنك حاولت تجنيد أناس من هنا، وأن هدفك هنا هو قلب نظام الحكم".

قام بسرد كل جملة كأنما ينثر قاذورات من على سترته. "إننا نعرف كل شيء يتعلق بعملك في باكستان يا ماجد. يبدو أنك تعتقد أنك رجل مهم." قال كلمة "مهم" بشكل فيه الكثير من الازدراء. "هل تعرف ما الذي أفكر به يا ماجد؟ أعتقد أن عليك أن تخبرني بكل ما تعرفه، سوف يجعل ذلك كل هذا أسهل عليك قليلا."

كان هناك فاصل هنا ليسمح لما قاله بالاستقرار في ذهني. لولا تحذير أحمد لي قبل بضعة أشهر، لكنت الآن أشعر بالصدمة والذعر عند ذكره للباكستان. كان هذا ما كان يريدني أن أشعر به، ذلك الشعور باضطراب في الأمعاء عند اكتشاف أنه قد تم جمع معلومات حولي: أمن الدولة، ISI, MI6، كان سيتركني

لأملأ أنا الفراغات. ولكنني، مع كل الشكر لأحمد، كنت أعرف بالفعل أنّ لديهم المعلومات، وبالتالي فلم تفاجئني الآن. فكّرت في نفسي: "شكرا لك يا أحمد لكونك خاطرت بكل شيء كي تحذرني، أنت أخ حقيقي، انظر بنفسك، إن ذلك يساعدني الآن بالفعل". منحتني معرفتي المسبقة تلك الميزة النسبية، وهي ما يكفي من القوة كي أسند طولي وأستجيب للموقف.

"اسمي ماجد نواز"، قلت ذلك بالإنجليزية وأنا ملتزم بسيناريو تدريبي في حزب التحرير، وأضفت: "أنا عضو في حزب التحرير في بريطانيا. أنا في مصر للدراسة."

تسببت تلك الإجابة في ارتطام قبضة ما بالطاولة، بدا الارتطام قريبا."لا تتجاسر على تلك الألاعيب معنا ماجد!"، رد بحدة باللغة العربية. "أنا أعرف أنك تستطيع التحدث بالعربية."

اشعرتني لمحة فقدان الأعصاب تلك بالجرأة. شعرت أنني قد أثّرت في الضابط بشكل ما، وإن كان تأثيراً محدودا. إن اخترت أن أكون جريئا متحديا، فيعني ذلك أنه لابد أن أستعدّ لتحمل العواقب. يارب، كن في عوني الآن، فأنا خادمك الذليل.

"اسمي ماجد نواز"، قلت بالإنجليزية. "أنا عضو في حزب التحرير في بريطانيا، أنا في مصر للدراسة. لا يوجد لدي ما أضيفه لذلك."

استخدمت اللغة الإنجليزية على نحو مقصود، كان عليّ أن أبرز أين يقع مسقط رأسي، أردت تذكير المحقق في كل فرصة متاحة أنني مواطن بريطاني. كان هذا أقوى أسلحتي، وهو مجرد تذكيره أنه، ببساطة، لا يسعه معاملتي كما يعامل المصريين الآخرين، أو كان هذا ما أملت فيه على الأقل.

"أخبرني عن الباكستان" صرخ في بالعربية، "أخبرني عن أنشطتك هناك."

"لقد ذهبت للباكستان بالفعل،" وافقت بالإنجليزية، "لدي عائلة هناك، ومن الطبيعي للغاية للمواطنين البريطانيين الباكستانيين زيارة البلاد لرؤية أقربائهم."

"عائلة" قال كما لو كان يبصق "أيّ عائلة؟"

"خالات، أعمام، أولاد عمومة..."، كنت حريصا على ألا أذكر عائلة زوجتي، لم أكن أريد منحه أيّ سبب محتمل للقبض عليها كذلك.

"نعم نعم نعم،"، قام المحقق بتنحية إجابتي جانبا. "ليس أفراد عائلتك من يهمونني، بل أعضاء حزب التحرير"

عندما أفكر بأثر رجعي في الأمر، يتضّح لي أنه كان مهتما بشكل غريب بالباكستان، وبالنظر إلى أنه شيء لا علاقة له بمصر، فقد جعلني ذلك أتساءل لاحقا، حين أتيحت لي الفرصة للتفكير بتمعن في الأمر، عن هوية من كان يلقي تلك الاسئلة بالضبط، ومن أجل من كان يلقيها. كان هو يزأر ويصرخ في وجهي، بينما

التزمت أنا بخط إجابتي، واستمررت في الإجابة بالإنجليزية مكررا بأدب وحسم تركيزي على كوني مواطنا بريطانيا.

قام المحقق بتغيير اتجاه أسئلته: "أخبرني عن حزب التحرير في مصر".

"انا في مصر للدراسة، أنا هنا في الإسكندرية في إطار جزء من درجتي العلمية لدراسة العربية في الجامعة."

هنا قام المحقق بإصدار صوت شخير؛ وهو شيء شديد القبح ويخلو من الأدب هنا، حيث يعني ذلك في مصر أنك تتخلى عن أي مظهر من مظاهر الالتزام بالأدب الاجتماعي أو الأصول. "من هم الذين قمت بتجنيدهم؟" سألني. "من الذين تتواصل معهم؟ من غيرك متورط في الأمر؟"

"أنا عضو في حزب التحرير في بريطانيا"، رددت مجيبا، "لا شأن لي بالمنظمة في مصر."

"سوف نرى كيف ذلك يا ماجد"، قال متنهدا، "إن كانت هذه هي الطريقة التي تود أن تلعب بها." سمعت صليلا خلفي، حيث لابد أن شاويشا آخر كان يجلس. "لقد أخبرتك أنك تملك فرصة لتسهل الامور على نفسك" شعرت بيد الشاويش وهي تجذب ذراعي. " لكنّ الأمر قد خرج من يدي الآن" قال الضابط، فيما اقتادني الشاويش بعيدا.

تم اصطحابي لنزول عدة أدوار من السلالم الخارجية، وهو درج حديدي على جانب المبنى. بدأت في التساؤل إن كانوا سيقتادوني بالعربة لمكان آخر. ولكن بدلا من ذلك، دخلنا إلى المبنى مرة أخرى، نزولا على بعض السلالم الأخرى، إلى داخل ما أعتقد أنه الطابق السفلي. سمعت طقة مفتاح من ورائي، حيث كانوا يفكون قيودي. تبع ذلك صوت الصرير الأقوى لباب يتم فتحه، وتم دفعي إلى الأمام وانصفق الباب خلفي. قمت ببطء وحرص وأنا لازلت مغطى العينين، باستخدام أطراف أصابعي للتعرف على محيطي الجديد. شعرت بقضبان باردة تحيط بي من كل الجوانب، وأدركت أني في زنزانة. بدأت بعد ما جلست أخيرا وساقاي تصرخان ألما وطلبا للراحة، في تدليك رسغي الذي كانت عليه القيود لتوها.

تم حجزي في تلك الزنزانة لعدة ساعات. وهنا مرة أخرى، لا أستطيع أن اكون متيقنا تماما من التوقيتات؛ ففي تلك الظروف، تتبخر مقدرتك على إدراك الوقت. سمعت صرخة تكاد تكون توسلا، كان شخصا ما يطلب بلغة عربية ركيكة أن يصطحبوه للحمام، أدركت، وأنا أشعر بوخز الضمير أنه حسان. لاحقا، صرخة أخرى: هذه المرة من هيروشي، ثم سمعت صوت يوسف القاضي، وهو صديق مصري لنا، ومن نشطاء الإخوان المسلمين. أرعبني سماع أصواتهم على نحو لم تنجح فيه أسئلة المحقق. لقد ألقوا القبض على أصدقائي، ألقوا القبض على أصدقائي بسببي. لم يكن لأي منهم علاقة بكل هذا. لم أكن حتى قد أثرت

موضوع حزب التحرير مع أيّ منهم، جلست هناك، وأنا لا أجسر على النداء عليهم من فرط الخوف، وتساءلت كيف سيفكرون فيَّ إن عرفوا الحقيقة.

في نهاية المطاف تم تزويدنا بشيء نأكله: شريحة واحدة من الخبز، ولطخة مستديرة صغيرة من جبن أبيض شديد الملوحة. تم تمرير زجاجة من المياه على كل الزنازين، وشرب كل منا شربة واحدة منها. بعد مرور ما لابد أنه كان بقية الليل، دب النشاط في الحراس فجأة: تم فتح الأبواب بصرير واحدا تلو الآخر، وكان بوسعي سماع جر أقدام الناس الذين يتم اقتيادهم للخارج. جاء دوري فزجرني الحارس قائلا لي أن أرفع يديّ أمامي، وهكذا عادت الأصفاد إلى معصمي، وجرني أحدهم خارجاً إلى ضوء النهار.

كانت برودة هواء الليل الآن مجرد ذكرى باهتة، وغمرتني حرارة الشمس. أدخلوني في الخلف في عربة، ولكنها لم تكن تحتوي على مقاعد هذه المرة، لا شيء سوى أرضية معدنية تم دفعي فوقها أنا وحسان وهيروشي ويوسف. كانت عربة معدنية مغلقة على كل جوانبها عدا نافذتين مربعتين صغيرتين وكل منهما مغطاة بشبكة معدنية. انصفق الباب وتحركت العربة.

كان بوسعنا أخيرا، لأنه لم يكن هناك أيّ شاويش في مؤخرة العربة، أن نتحدث سويا. كنا قد أزلنا غماماتنا بحرص، وأبقيناها حول رقابنا.

"سبحان الله، هل أنت بخير؟"

"ماذا فعلوا بك؟"

"ماذا قالوا؟"

كان يوسف هو من يعتذر، فهو المصري ونحن الأجانب، وكان يشعر بهذا بشكل مكثف وحاد. "لا أستطيع أن أصدق أنهم يعاملونكم على هذا النحو"، قال يوسف، فيما نحن نسرع قاطعين طريقا غير معروف، وإلى وجهة غير معروفة.

"أنا في غاية الأسف"، قال يوسف بشكل طبيعي تماما، مفترضا أن الملوم في موقفنا هذا هو عضويته في الإخوان المسلمين. لم أقل أنا أي شيء. كان إصراره على أن الخطأ خطأه لا يزيدني إلا شعورا أكبر بالذنب. كنت أعرف من الأسئلة أنها قضية حزب التحرير، وأنهم كانوا هناك بسببي أنا. ولكن، على الرغم من ذلك، فقد كان أيّ شيء أخبرهم به الآن سيستخدم ضدهم بعدما يتم استخراجه منهم عن طريق التعذيب. لو كان أصدقائي قد ذكروا أنهم يعرفون أنني مع حزب التحرير، لكان ذلك قد زاد الطين بللا لا أكثر بالنسبة لهم. كانت ستستمر الأسئلة في الانهمار عليهم: إذن، فقد حدّثك حول الأمر؟ هل انضممت لحزب التحرير كذلك؟ لقد ضمك ماجد إلى جماعته، أليس كذلك؟ كانت الفرصة الأفضل لهم أن يبقوا في جهلهم

المبارك فيما يختص بمعتقداتي. سرعان ما سيدرك المحققون -حسبما أملت-أنهم لا يعرفون شيئا ويطلقون سراحهم. وهكذا، كتمت شعوري بالذنب، ورغبتي العارمة في الاعتذار لهم، لكي أبقيهم في أمان.

بدأ أزيز حركة المرور في الإسكندرية بالاختفاء، وأصبح من الواضح أننا متجهون إلى خارج المدينة، نحو الصحراء. لقد كانوا يضربون الناس بالرصاص هنا حسبما أعرف. يصطحبونهم لمنتصف اللا مكان، ولا يعودون بهم. كانت العربة في تلك الأثناء تزداد حرارة أكثر وأكثر، وشمس الصحراء تضرب بحرارتها الكاوية محولة مؤخرة العربة إلى فرن. تبللت ملابسنا بالكامل بسبب العرق، وكنت أستطيع الشعور بملابسي وهي تلتصق بي بكل البلل فيها. حرارة وعرق، وحرارة وعرق. بدأت ملوحة الجبن الذي تناولناه، مع حقيقة أننا نتعرق بهذا الشكل، في دفعنا للشعور برغبة عارمة في التبول. كان الألم الرهيب في مثاناتنا يتصاعد إلى مستويات خطرة، ولكن أين يمكننا أن نتبول؟ وكيف؟ سرعان ما شعرنا بالعربة تقف على جانب الطريق. ولكن كان هذا كي يتبول الحارس لا نحن.

بدأت العربة في الحركة مرة أخرى. قرع يوسف على الفاصل بيننا وبين السائق.

"نحتاج للتبول" قال يوسف، "نحتاج لاستخدام الحمام"

"تبول في الخلف"، قال الشاويش، "لن نقف من أجلكم."

استمرت العربة في الحركة. كنا بداخل تلك العربة لما يقرب من الأربع أو خمس ساعات، ولم يكن هناك طريقة تستطيع احتمال ذلك بها. كان هناك إطار احتياطي في الجانب المقابل للابواب، وقررنا أن نتبول هناك واحدا تلو الآخر، وليكن ما يكون. تسرب البول إلى كل ركن في كل نقطة على الأرض المعدنية حيث كنا نجلس ونقف، تصاعدت رائحة البول والعرق والحرارة وحولت العربة إلى مستنقع نتن الرائحة. كنا مهانين ومذلولين، ولم يكن بيدنا شيء لنفعله.

استمرت الرحلة، ووصلنا إلى استنتاج مفاده أننا في الطريق إلى القاهرة، بدا ذلك –طبقا للمسافة التي قطعناها– أكثر الوجهات احتمالا. استمر يوسف في تقديم الاعتذارات، مما زاد الأمر كله سوءا. حاولت في الحرارة الخانقة لتلك العربة، ومع ثقل الشعور بالذنب، مع توالي اعتذار يوسف، أن أبقى هادئا وأن أصلي.

يا الله، يا رب العرش العظيم، امنحني القوة للنجاح في هذا الاختبار الذي كتبته عليّ. تذكرت دروسي في لندن، وكيف أنه لا يمكننا الانتصار في صراعنا وكفاحنا بدون إراقة الدماء. كانت التضحية شرفا لا يحصل عليه الكثيرون. يجب أن أحمد الله على هذه الفرصة التي حصلت عليها لكي أصبر على البلاء،

وأصبح واحدا من عبيده المخلصين، من أجل فرصة إثبات عمق إيماني. لن يخذلني الله أبدا، ولذا يجب ألا أخذله بدوري.

تناهت إلينا الآن أصوات المدينة، كانت العربة تتوقف وتسير وسط صخب وضجيج الشوارع المزدحمة. فكرت في نفسي: "أيتها القاهرة، ها نحن هنا." أوقف السائق العربة إلى جانب الطريق، وفيما كنت أبتلع ريقي بصعوبة سمعت باب العربة يفتح.

سأل يوسف: "أين نحن؟"

أجاب الشاويش ضاحكا: وهو يقودنا للخارج: "ألا تعرف؟ إننا في الجهاز"

الجهاز، ارتجف جسدي كله، مقر أمن الدولة في القاهرة-"الجهاز."

"إخوتي، ارفعوا دعواتكم لله أن يمدنا بالعون"، صارع يوسف نفسه ليتحدث فيما لون وجهه يمتقع فيصير أقرب للصفرة، ثم قال: "هذا المكان هو مركز التعذيب."

غمغمة، تأوه، يتم شد ذراعي بعنف من قبل حارس ما، ثم يتم إزالة الأصفاد عني بخشونة، تُربط غمامة بإحكام فوق عينيّ مرة أخرى، ثم وبلا مقدمات تُشدّ يديّ خلف ظهري، وتربطان معا بقطعة من القماش، قطعة قماش أخرى، مكان آخر بلا قانون. جفلت إذ شعرت بالخرقة وهي تحرق معصمي. كانت الإجراءات الرسمية، مثل الأصفاد، مهملة عند هذه الأبواب. تم اقتيادي – معصوب العينين عن طريق الدفع والشد – بعيدا عن نور الشمس وإلى الأسفل، حيث الظلام، إلى زنازين الجهاز الموجودة تحت الأرض كي انتظر فيها مصيري.

الفصل التاسع عشر

الرقم اثنان وأربعون

لن أنسى الجهاز أبدا، إنه نوعية المكان الذي يبقى محفورا في ذاكرتك للأبد. إنه نوعية المكان الذي لا أزال، بعد مرور عشر سنوات أو عقد من الزمان، أتذكره بوضوح مزعج وهو يوقظني في ظلام الليل، ويتسلل بخبث ومكر إلى أحلامي. أكوام الأجساد، والحرارة والبرد والصرخات المتوسلة من غرفة التعذيب الكائنة في نهاية الممر، الانتظار.

إنه نوعية المكان الذي لا تكاد تصدق أنه موجود حالما تدخلة أول مرة، شي مستقى من فيلم، ولكنه حقيقي بالفعل، أتمنى فقط لو كان بوسعي أن أقتنع بغير ذلك.

اثنان وأربعون، هذا هو من، أو ما، أصبحت عليه. تم نزع آخر شذرة من هويتي وكرامتي مني، وهم يقومون بجر جسدي إلى الأسفل على تلك السلالم. قمت بالإنصات في ذعر متصاعد، فيما يتم مناداة واصطحاب زملائي المساجين في الممر. استمعت إلى صوت الكهرباء المطقطقة. صوت المساجين حين يتم جرهم في طريق العودة، وصوت "شلمب" الصادر عن إلقاء أجسادهم التي تكاد تخلو من الحياة في مكانها في الصف، وخفوت نشيجهم وغمغماتهم فيما يستلقون في أماكنهم. كنت لا أزيد عن رقم. كان ذلك ملمح النظام الوحيد في حفرة الجحيم المقذعة تلك، هذا والطريقة التي كانت تتصاعد بها الأرقام سراعا متجهة نحو رقمي. كانت كل جلسة تعذيب تختلف عن غيرها، ولكن لابد أنها كانت تتراوح بين نصف الساعة والساعة في مدتها. كان انتظار دورك يستغرق يوما وليله حافلين بالدوار وانعدام النوم. كنت، على أقل تقدير، متأكدا من ذلك، لأنني كنت قادرا على سماع الأذان يتهادى من خارج المبنى: كان أذان الفجر أكثر طولا حيث يحتوي على سطر زائد (الصلاة خير من النوم). حين سمعت ذلك، حمدت الله على نعمة الحياة لليلة أخرى، وعلى وجوده معي، وعلى منحي القوة كي لا أفقد عقلي. كنت قد سمعت ذلك الأذان مرتين منذ وصلت، وهكذا كنت أعرف أنني في ثالث أيام سجني. كان إيماني – حتى في تلك الأعماق السحيقة في هاوية ذلك المبنى – يمنحني الأجوبة، ويعينني على البقاء قويا. كانت قعقعة الكهرباء مستمرة ليلا ونهارا، وكان أي سجين جديد لا يجيب النداء، أو ينسى رقمه يتلقى فورا الضرب وهو في مكانه. لو لم يقفوا بثبات، أو لو خانتهم أقدامهم وسقطوا، فقد كانوا يتلقون العقاب مرة أخرى. كانت أيدي بعض السجناء، وهي مقيدة خلف ظهورهم، تشدّ، ويعلّقون من الخلف في حافة أحد الأبواب من معاصمهم ،حتى تخور إرادتهم، أو ينهار

جسدهم، وتنخلع أكتافهم من محاجرها.
سمعت في زنزانة خلفي، تقع في نطاق سمعي، حارسا يقتحم الزنزانة ويأمر السجين أن يقف. كان هناك أخذ ورد.

"إن أخبرتك أن تفعل ذلك، تفعل ذلك"، قال الحارس بصوت مقيت كله تشفٍّ.

"أرجوك،" توسل له السجين، "أرجوك، إلا هذا".

"هل أخبرتك أن بوسعك الكلام؟" رد الحارس بعنف. كان السجين ينشج الآن. وبصوت شخير صرخ الحارس فيه: "ضعه في فمك...."

"رقم أربعين!" كانت ساعتي تقترب، وكنت أجاهد لأتذكر صلواتي. قطع الأخ المجاور لي والذي كنت مستندا عليه محاولاتي للتركيز، كان عند تلك النقطة قد بدأ البكاء بهدوء. "أخي"، همس لي، "أخي، إنني التالي، ولا أعرف ماذا أفعل."

"شش" قلت له بهدوء، محاولا أن استمع كي اكتشف إذا ما كان الحارس بجوارنا أم لا. لو سمعنا أحدهم نحاول الكلام فسوف يتم ضربنا نحن الاثنان.

"ساعدني يا أخي"، قال السجين وهو يبكي. "سوف يعذبونني، أعلم أنهم سوف يقومون بذلك، ورقمي هو التالي. ساعدني لخاطر الله."

لكن ماذا يمكنني أن أقول لأخي هذا لتخفيف ألمه، في حين لم يكن بوسعي إيجاد طريقة لتهدئة روحي ذاتها؟ هذا الرجل المسكين، إنه التالي مباشرة، أما أنا فلدي على الأقل بضع دقائق أخرى خالصة لنفسي، فلأحاول مساعدته إذن.

"هدئ نفسك يا أخي"، همست له بلطف. "يجب عليك أن تكون قويا الآن. تذكر أنك هنا في سبيل الله. سوف تلقى مكافأتك العادلة مقابل التضحية التي أنت على وشك القيام بها."

واصل السجين رقم واحد وأربعين حديثه: "ولكني لا أعرف إن كنت قادرا على هذا، لا أعرف إن كنت أستطيع التحمل."

كان شيئا مؤلما يكسر النفس أن تستمع لرجل له كرامة محطما بهذا الشكل. كان نحيبه صوتَ شخص نجح الجهاز بسحره الخبيث في التأثير عليه. كان حطاما، وكل ما كنت أستطيع التفكير في أن اقوم به من أجله هو قراءة القرآن عليه آملا أن يمنحه ذلك الشجاعة التي يحتاجها بشدة. بدأت ببطء وبهدوء شديد للغاية، بحيث لم أكن مسموعا سوي لكلينا فحسب، في إرغام صوتى على النطق بآيات الله. كانت مخاطرة، كنت أعرف ذلك، لا سيّما أن دورنا كان التالي. لو كانوا قد ضبطونا نتحدث، لاتهمونا بالتواطؤ، ولكانت أي عقوبة سنتلقاها أسوأ كثيرا عما كانت قبل ذلك.

ما قرأته عليه، في يوم التعذيب ذاك، وقبل أن يتم النداء عليه للتضحية بنفسه في سبيل الله، هو سورة تسمى البروج: وهي قصة قديمة حول صبي وملك، قصة ذات معنى وثيق الصلة بكل من يجد إيمانه محل اختبار. يطلب الملك من أهل القرية جميعا أن يؤمنوا بأنه الرب، ولكنّ صبياً كان قد تحول للإيمان بالله الواحد الأحد يرفض الاستجابة لذلك الأمر، ويقف أمام الملك نصرةً لإيمانه، فيضطهده الملك تبعا لذلك. يتم إلقاء الصبي، وكل من وقفوا في صفه دفاعا عن الإيمان الحق، في حفرة من النار حيث يتم حرقهم أحياء. بذلت جهدي كله كي يخرج صوتي:

"والسماء ذات البروج،

واليوم الموعود، وشاهد ومشهود،

قتل أصحاب الأخدود،

النار ذات الوقود،

إذ هم عليها قعود،

وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود،

وما نقموا منهم ألا يؤمنوا بالله العزيز الحميد، الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد......."

قرأت عليه السورة كلها باللغة العربية، بالنبرات الخفيضة المنغمة للتلاوة. كنت ابتلع ريقي بعد كل سطر كي ألتقط أنفاسي، ولكي أتحكم في نبضي المتسارع وأهدئ من روعي: كنت أتمنى، أو آمل بشدة، أن تستدعي كلماتي بطريقة ما ملائكة الرب التي تنزل بأمره على المجرمين بالغضب الإلهي، لكي تحمينا من هذه الحيوانات. بدأ الرجل، مثل الأطفال الصغار، في التوقف عن نشيجه الذي تباعد عن بعضه شيئا فشيئا، وهو يستمع بتركيز إلى صوتي وهو يتلو آيات الله. كان جمال كل آية وكل سورة يبدو لي أكثر بريقا عما كان من قبل في أي وقت سابق في وسط الصعوبات والمعاناة والبشاعة والقذارة الموجودة في هذه الزنازين.

"جزاك الله خيرا، يا أخي"، قال السجين، عندما انتهيت. "أنا لا أعرف من أنت ولكنك رجل طيب. والله أنت رجل طيب."

"رقم واحد وأربعين!"، صرخ الحارس.

"وأنت كذلك"، همست له. وفيما استلقيت هناك، وغمامتي مبللة بالدموع التي سببت الحكة لعيني، تم جر الأخ للوضع واقفا، واصطحابه كي يتم تعذيبه.

كنت وحيدا الآن. عندما كانت الأرقام أقل عددا، كنت أتساءل فيما إذا كانت سوف تصل مكالمة هاتفية قبل أن يصلوا للرقم. ربما أملت بعد أن فات وقت الأمل في أن تكون القنصلية البريطانية قد اكتشفت مكاني. سوف يتم إخبار الحراس أن يأتوا برقم اثنين وأربعين، ويخرجوا به من هنا قبل حدوث أي شيء، ولكن ومع تصاعد الارقام، تيقنت أنه ليس ثمّة أمل في الهرب.

ولكن، وعلى الرغم من كل ذلك، فقد كنت لازلت أمتلك إيماني. كانت مساعدتي لرقم واحد وأربعين، حيث أنني لم أعرف اسمه أبدا، ولم أره حتى مرة أخرى، قد أثارت شيئا ما في نفسي. وضّح لي ما حدث أنه بالرغم من كل خوفي، فلا زالت لدي قوتي الداخلية، لم أكن رجلا محطما بعد، لم أكن أبكي وأتوسل إلى رقم ثلاثة وأربعين كي يمنحني المساعدة. كما كانت لدي خطة، إذ لم تكن يداي عاطلتين عن العمل فيما كنت مستلقياً هنالك، بل كنت، شيئا فشيئا، قد فككت العقدة التي تربط الخرقة وراء ظهري، فأصبحت محلولة الآن. كنت أمسك بالعقدة وأثبتها في مكانها بيديّ، ولولا ذلك فقد كانت يداي لتكونان حرتين الآن.

كنت قد مررت بأوضاع وظروف تنطوي على طعنات وهجمات وتعدٍّ على مر كل سنوات حياتي، ولكنني لم أكن في أيّ منها الشخص الذي يتلقى الضربات. لم أكن أبدا قد تعرضت أو تم إجباري على وضع مهين بحيث لا يكون لي خيار سوى أن أتلقى الضرب. حدث ذلك أمامي، نعم، ولكنه لم يحدث لي أنا أبدا، وقررت أنني لن أسمح لذلك أن يحدث لي الآن. كنت أستطيع أن أسمع صوت الصرخات المعذبة لرقم.. الأخ واحد وأربعين صادرة من مكان ما حولي. فكرت في نفسي: إذا حاولوا مثل ذلك معي فسوف يحتاجون لقتلى من فرط الغضب الذي كنت أنوي إطلاقه عليهم. ربما كانوا يمتلكون المسدسات وأدوات التعذيب، ولكنني كنت من جانبي أحمل لهم مفاجأة، فقد كانت يداي حرتين. أعددت نفسي، وقررت أنه عندما تأتي لحظة التعذيب، فسوف أقفز على معذبي، سوف أقفز عليه، وبمنتهى البساطة، سأقضم عنقه، سوف أستمر في قضمه حتى يضطروا لضربي بالرصاص لكي أتوقف. سوف أموت وأنا أقاتل بلا ألم وبدون معاناة، سوف أموت متسربلا برداء من المجد.

يبدو ذلك شيئا خياليا الآن، ولكنّ الجهاز أيضا مكان خيالي ولا يمت للواقع بصلة. إنّ الاستماع لصوت رجال راشدين وهم يصرخون لما يزيد على ثمانٍ وأربعين ساعة ليتوقف من يعذبهم عن فعله، قادرٌ على صنع أشياء خيالية في ذهنك. بدا الأمر كما لو كان العالم الخارجي، والقواعد الطبيعية، قد توقفت عن السريان. تقوم طبيعة النظام غير الآدمية بتحويل اتجاه حتى أكثر الاذهان منطقية وعقلانية نحو غرائزهم الحيوانية. كنت أنا، مثلما يحدث في حالة نمرٍ تم حصاره في ركن لا فرار منه، مستعدا بكل جدية للقتال بشراسة وبعنف وبلا رحمة كي أضحي بحياتي في سبيل ألا أعاني من الإذلال الذي مر به بقية السجناء.

توقف الصراخ فجأة. سمعت الحراس وهم يسحبون الجسد المرتخي لرقم واحد وأربعين كما لو كان كيسا من البطاطس حتى ألقوا به بجانبي. سكون. كانت ساعتي قد حانت، كنت الرقم التالي. جهزت نفسي تحسبا لنداء رقمي، كان القلق الذي شعرت به وقتها شيئا لا أتمنى أن يقع حتى لألد أعدائي. تحولت الثواني إلى دقائق، والدقائق إلى شيء لا قيمة له، فيما الوقت يتسرب طافيا خارج النافذة، وعقلي يتيه راكضا في اللاشيء من هول انعدام آدمية وضعي ذاك. بدأت طبول الحرب الصادرة من قلبي تتواتر، وجهزت نفسي لآخر لحظات حياتي، كن قويا يا ماجد. الله معك، كن قويا وتقبل شهادتك. اثنان وأربعون!

ها نحن ذا، رقم اثنين وأربعين، ارتجف جسدي بالكامل حرفيا، وجاء دوري. رقم اثنين وأربعين. شيء غريب، فكرت وعقلي يشرد إلى ذلك المكان المعتاد، حيث تكمن العشوائية واللا شيء. إنّ الرقم اثنين وأربعين هو الأربعة وعشرون عاماً التي يمثّلها عمري، ولكن عكسيا. غريب جدا. أتساءل إن كنت سأبلغ الثانية والأربعين يوما. استجمعت قوتي كي أنطق، جاء صوتي أضعف مما كنت أرغب فيه.

"نعم"

قمت واقفا.

الفصل العشرون

السلام عليكم، لقد خرجت لتوك من الجحيم

أن يكون متوقعا منك أن تسير بكامل إرادتك تجاه مكان تعذيبك هو أقسى وأكثر التوقعات شرا قاطبة. لمَ لا يحملوني وحسب؟ كل خطوة تمثل خيانة للنفس، يتشنج جسدي بالكامل مشمئزا ومعترضا على أوامري له، تصرخ كل حواسي وهي تطالبني بالسير في الاتجاه المعاكس، ولكن، من المتوقع مني أن أستمر. حاول أن تقف في منتصف الطريق السريع، مراقبا حافلة أو عربة كبيرة مقبلة بدون أن تحرك جفنا، من الصعب القيام بذلك. الآن، حاول أن تقوم بكامل إرادتك بالسير تجاه تلك الحافلة بدلا من أن تخطو بعيدا عن طريقها: مستحيل. تتهاوى أقدامي تحتي في كل خطوة، ولكنني أرغمها على الانقياد وأستمر في المسير. أيها الحارس، أنت الذي تقودني يده المرشدة في المسيرة العمياء إلى موقع تعذيبي نفسه، كم تبدو يداك رحيمتين، فكيف كان لي أن اتفادي وضع قدمي على أجساد إخوتي الذين ألقوا في الممر لولاك؟ واأسفاه، لا يسعني بلا نعمة البصر إلا أن أشعر أنني عديم القوّة، ومعتمد بالكامل عليك أنت. يصبح التنفس صعبا الآن، تصارع أنفاسي لكي تبقى مختبأة بعيدا داخلي، حتى أنفاسي تخاف أن تخرج لتواجه التعذيب. يحاول قلبي بكل ما في وسعه أن يهرب من القفص الذي هو صدري، ويبدأ عقلي في التوقف عن العمل. إنني أعاني من الصدمة. يا رب، أنا في حاجة اليك الآن. لو كان هناك أي ذرة رحمة منحتها أنا يوما لواحد من عبيدك تساوي قلامة ظفر في حكمك، فأرسل لي ملائكتك لتحميني من هؤلاء الوحوش. إنني أحاول أن أكون شجاعا في سبيلك يا مولاي، ولكنّ الحقيقة هي أنني خائف. ساعدني يا مولاي، فأنا في غاية الذعر.

غرفة التحقيق. بوسعي أن اسمع المحقق أمامي، وجهاز الصعق الخاص به يقعقع في انتظار ضحيته. قضيت كل عمري كراشد في انتظار لحظة العذاب المضني هذه، في تدريب روحي على تقبل ما لا يستطيع جسدي قبوله. الآن أنا متوتر ومشدود لدرجة أن فكي قد بدأ في يؤلمني. ما الذي سوف يحدث بعد ذلك؟ هل سيضربني بقسوة كي يهيئني؟ أم سيهاجمني بلا إنذار في إشارة إلى جنونه؟ لو كنت مكانه، لو كنت قد بعت روحي للشيطان كما فعل، إن كنت سوف أقوم بفعل الأشياء المحرمة التي يصعب حتى الكلام عنها، في الضحايا الذين لا حول لهم ولا قوة، فإن هذا ما كنت سأقوم به. بشكل ما، بشكل رهيب وغير متوقع ومنحرف، لماذا قد تبيع روحك ولا تتمتع بالكفاءة في الشر والخبث؟ يتسارع عقلي مشتتا، فالاحتمالات كثيرة

جدا، هيا بنا، فلتقم بها بشكل صحيح يا رجل! لا أستطيع أن أتحمل الانتظار أكثر من ذلك، فلتنتهِ من هذا، ولكنني انتظرت، وانتظرت، ولم يحدث شيء.

بدلا من ذلك سمعت صوت أقدام وباب يغلق.

كنت قد افترضت أنهم سوف يهاجمونني بالكهرباء مباشرة بلا إبطاء، ما تعلمته بعد ذلك من السجناء الآخرين، هو أن هناك إجراءً مختلفا تماما فيما يختص بالصعق بالكهرباء. كانوا يقومون بتعرية الأخ تماما، ويسحبونه إلى الأرض ويضعون فوقه مقعدا، وفي حين يجلس أحدهم على المقعد كي يثبته في مكانه، يقومون يصعقه من خلال أسنانه أو أعضائه التناسلية أو الاثنين معا. كنت أجهل ذلك حينها طبعا، ولم أكن أعرف أياً من هذا. لو كنت أعرف، لكنت أدركت أنني لست على وشك أن يتم صعقي، ولكنني لم أكن أعرف، فلم أزد عن الوقوف هناك منتظراً الصدمة، ويداي مستعدتان للتحرر ومتحفزتان للقفز على عنق من يستجوبني وقضمه حتى يأتيني الموت.

سمعت صرير المقعد، فيما يجلس أحدهم عليه.

"ماجد نواز؟"، كان هذا شخصا مختلفا عن الذي سبقه، والذي تولى استجوابي في الإسكندرية.

"نعم" أجبته. كان الجهد الذي بذلته، لأجعل صوتي مسموعا، صراعا في حد ذاته. في تلك اللحظة، شعرت بالشجاعة لمجرد أني قادر على التحدث بدون أن أنهار.

"إذن أخبرني يا ماجد. أخبرني عن حزب التحرير في مصر؟"

ابتلعت ريقي بصعوبة، كانت الجرأة والتحدي في الإسكندرية بدون أن أكون قد تعرضت لثمانٍ وأربعين ساعة من الاستماع إلى إخوة لي وهم يتعذبون شيئا قائما بذاته، ولكنني رأيت، وسمعت، وكنت أعرف الآن ما هم قادرون على ارتكابه. سوف تقف بين الصحابة يا ماجد، لا تستسلم الآن، الشهيد حيٌّ يرزق ولا يموت. مثل طائر أخضر يطير تحت عرش الرحمن، سوف تعيش في ظله، وسوف تكون ذلك الصبي الصغير السعيد مرة أخرى، لا تستسلم.

"اسمي ماجد نواز" أجبت باللغة الإنجليزية، بالصوت الذي استطعت إخراجه من فمي، والذي كان غالبا غير مرتفع على الإطلاق. كنت مازلت أتذكر تدريبي، ولكن بالكاد.

"إنني عضو في حزب التحرير في بريطانيا، إنني ...."، توقفت فيما التقطت أنفاسي، "في مصر للدراسة."

كنت أستطيع أن أسمع نبرة صوتي، بالرغم من أن الكلمات التي كنت أنطقها كانت متحدية في معناها، فقد كانت الطريقة التي أنطقها بها تنطوي على توسل. عاتبت نفسي: "كن رجلا، ماذا بك؟ هل هذا ما كان ياسر وسمية اللذان سميت ابنك على اسم ابنهما سوف يفعلانه؟ قف وكن قويا يا رجل!"

لم يقل المحقق شيئا، ترك الصمت يوترني، ثم قال باللغة العربية: "حسنا ماجد، أعتقد أنك يجب أن تستمع إلى هذا". وقف القائم بالاستجواب معي وفتح الباب. تدفقت إلى الداخل عندما فتح الباب أصوات صرخات آتية من غرفة قريبة. داهمني إدراك مرعب، وأنا استمع إلى الصرخات والتوسلات، وأحاول ألا أسمع شيئا، كان الذي يتم تعذيبه يتحدث باللغة الإنجليزية.

"إتكلم عربي!"، صرخ المحقق فيه، "تحدث بالعربية!"،"أنا أحاول،" ردت الروح المعذبة، وهو يحاول بين الصرخات، بشكل يكسر الفؤاد، أن يستخدم جملا مشتتة الكلمات ومفهومة بالكاد.

يا ربي، فكرت في نفسي، يبدو ذلك كما لو كان رضا، إنهم يعذبون رضا بانكهيرست.

سبحان الله! ورقتي الرابحة الأخيرة، جنسيتي الإنجليزية، بالفعل لا تعني شيئا لهؤلاء القذرين. إن كانوا يقومون بتعذيب رضا، فلا يوجد سبب يمنعهم من تعذيبي. رضا المسكين، كيف على وجه البسيطة يمكن لرجل أن يجيب بأي لغة، دعك من لغة أجنبية عنه، خلال عذاب الصعق بالكهرباء!

انصفق باب غرفة التحقيق مرة أخرى، شعر المحقق من خلال رد فعلي أنني أعرف هذا الذي يتم تعذيبه، والآن، اقترب مني وهو يخفض صوته بشكل مليء بالتهديد.

"هل تسمع ذلك يا ماجد؟ هل تسمع ماذا نفعل بأخيك؟ يجب ألا تظن أننا لن نفعل بك ذلك. يجب عليك، من أجلك أنت، أن تتوقف عن هذه الألاعيب، وتبدأ في الحديث معي باللغة العربية". كان يصرخ في وجهي الآن."ابدأ في الحديث معي عن حزب التحرير ...." بصق الاسم باشمئزاز. "كل شيء! أريد أن أعرف كل شيء حول مجموعتك في مصر!"

كان ما تلى ذلك هو أنني شعرت بقبضته في بطني، لكمة قوية وعميقة وكبيرة الأثر، وقد استلزم مني كل ما في جسدي من قوة كي لا أسقط جرّاءها. اصطبغ عقلي باللون الأسود، وكافحت كي ألتقط أنفاسي فيما كان الهواء كله قد ترك رئتيّ. في مكان قصي من ذاكرتي، في مكان ما خلال أيام كانت أكثر براءة، تذكرت أني قادم من مكان ما فعل بي شخص اسمه باتريك مثل هذا الفعل فيه. ولكني عشت بعدها، عشت لأقصّ القصة وأرى باتريك وهو يجفل أمامي ذعرا بعدها بسنوات كثيرة. أعادتني تلك الذكرى قويا وصلبا، وجددت إيماني. كان الله معي، أرى ذلك الآن. هذه هي علامته! لم يتخلَّ ربّي عني، كان معي طوال الوقت، وكنت الآن أعرف ما الذي يجب أن أقوله بعد ذلك لعدوي.

"لا يوجد لدي المزيد لأخبرك به، افعل ما تشاء.". أرخيت يديّ استعدادا للهجوم علي، وإلى يومنا هذا، أجد صعوبة في تصديق أنني وقفت هناك بالفعل، وقلت له ذلك. هناك الكثير من اللحظات في حياتي، وفي هذه القصة كذلك، يخجلني أن أقصها، ولكنّ معرفة أنني قد نطقت بتلك الجملة الوحيدة الواهنة في ذلك اليوم هي شيء يملؤني بالفخر. سوف يكون عمار كبيرا بما يكفي يوما ما لقراءة هذه الكلمات، وهنا في هذا

الموقع تحديدا، سوف يعرف أن أباه حاول بكل طاقته وعزمه أن يكون رجلا شريفا نبيلا، لأنه كان يسمى أبا عمار، وهو اسم مأخوذ من أسماء شهداء. بقية القصة أتركها للعالم كي يحكم عليها كما يشاء.

توقف عدوي لبرهة، كنت أستطيع أن أسمعه يخطو غاديا ورائحا. بعد ذلك، فاجئني، في حدث كان تقريبا على العكس تماما لما كنت قد قبلته للتو بوصفه القدر المحتوم، وقال بنبرة منزعجة: "سوف أرسلك إلى مكانك، لديك اثنتا عشرة ساعة لتفكر بما قلته لي للتو. إن كان الحال بعد تلك الاثنتي عشرة ساعة كما هو، وظللت مصرا على ألا تخبرني بالحقيقة، فلا تشك للحظة واحدة في أنني سوف أعذبك عذابا لم يمر على مخيلتك أبدا، هل هذا واضح؟"

لم أجب، اقترب مني المحقق مرة أخرى، اقترب بحيث أنني شعرت بأنفاسه على وجهي، كنت أستطيع أن أسمع الباب من خلفي وهو يفتح، وخطوات أكثر تدخل إلى الغرفة.

"هل تعرف، لديك وجه جميل يا ماجد،" قال الضابط في صوتٍ فحيح، "سيكون من المخجل أن نحطّمه"

وبتلك الكلمات، تم دفعي واقتيادي إلى الممر، وكان الحارس يضحك.

"وجه جميل حقا،" كرر على مسامعي ذلك. "إنه معجب بك. أنت تعرف ما الذي نفعله بهؤلاء الذين نعجب بهم، أليس كذلك؟".

كانت الدلالة واضحة وهو يلقيني على الأرض، وتركني هناك مع تلك الفكرة، كي تختمر وتتعفن في أكثر الأركان ظلمة في خيالي.

استمرت حفلات الضرب، واستمرت الأرقام تتوالى، تتصاعد وتتصاعد إلى المئات. قمت في عقلي بإعادة التعليقات التي كان المحقق قد قالها لي مرارا وتكرارا. وجه جميل حقا. تذكرت توسلات السجين الذي كان يتم الاعتداء عليه في الزنزانة خلفي، ما الذي كان يجري؟ لماذا لم يعذبني وينتهي من الأمر؟ لماذا تم العفو عني بهذا الشكل؟ بدأت أشعر بالذنب، كما لو كنت قد هربت بشكل يخلو من العدل بينما كان الآخرون، حتى إخوتي من المملكة المتحدة، يعاملون بنفس الطريقة الوحشية.

لقد مررت بحالات حدث أن فررت منها بشق الأنفس من قبل، عندما طعن بلطجية سي 18 مات في ساوث إند، وكنت أنا المقصود فيها. الإدانة بتهمة القتل في نيوهام، كانت تقريبا سوف تحدث لي. بشكل ما، كنت دوما تستطيع الإفلات من أي شيء. هل كان الله يدخرني لشيء آخر؟ علي اية حال، استمر الليل في توغله، يتخلله صرخات حادة، وصوت الكهرباء تنتهك أرواح الرجال، كان ذلك أملا صرت أرى التمسك به استحالة تتزايد كلما مر الوقت.

كنت في غمرة إرهاقي الذهني والجسدي معا قد دخلت في حالة إعياء جراء الحرمان من النوم، وبدوت كما لو أنني مُعرّض لفقدان عقلي. تسبب النداء المستمر للأرقام بمنعنا من النوم، ولابد أنه عند تلك النقطة، كان قد مر ثلاثة أيام ونصف منذ أن تم القبض عليّ في الإسكندرية.

إسكندرية، ورابعة وعمار، كم يبدو كل ذلك الآن كما لو كان من زمن بعيد. ما أكثر ما تغير في تلك الأيام القليلة؟

كنت أعرف بالفعل أنني لن أكون نفس الشخص بعد ذلك أبدا، وأن رابعة كانت قد فقدت ماجداً الذي يوقظها من نومها لكي يرحمها من معاناة أن تصحو على المسدسات. ثم جاء الصوت، رنين الهاتف. كان الأمر كما لو كانت الحضارة تنادي كي تلحق بالمقيمين في نوع ما من أشكال الحياة السفلية. كنت كأنني في حلم أسمع صوت الرنين في مكان ما من الممر، غير محدد الملامح وخارج البؤرة في البداية، ولكنني قمت فورا بالتركيز على الكلام عندما بدأ الحارس في الحديث.

"أيوه يافندم" قال بشكل رسمي تماما. "نعم لدينا خمسة منهم هنا... أيوه، سوف أفعل ذلك يا سيدي على الفور."

خمسة منهم. عاد وعيي إليّ تماما، كان ذهني متوقدا بالاحتمالات، خمسة منهم، لابد أنه يتحدث عن الأجانب. كنت أعرف أنه يوجد أنا ورضا وحسان وهيروشي هنا. استنتجت أنه إن كان رضا هنا، فمن المحتمل أن أيان نسبت هنا كذلك. إنه الخامس! قفز قلبي في صدري حين فكرت أننا خمسة، لابد أن رابعة وصلت للقنصل.

"اثنان وأربعون"

نوديَ على رقمي مجددا، واصطحبت إلى غرفة التحقيق مرة أخرى، ووضعت في الوضعية التي كنت فيها المرة السابقة، وصل المحقق، ولكنه هذه المرة لم يبدُ عدائيا مثل المرة السابقة، ربما كان يشعر بخيبة أمل.

"ماجد، حسنا حسنا، إن حظك سعيد"

كان هذا كل ما قاله. ثمّ دُفعت إلى خارج الغرفة مرة أخرى، وقد أسعدني وملأني حماسا أن تم اصطحابي في الطريق المعاكس من الممر. كنت أستطيع أن أسمع الصرخات الآتية من غرف التعذيب وهي تخفت خلفي وتتباعد وتضعف. فُتح أحد الأبواب أمامي، شكرا لك أيها الباب، إنك بابي أنا على الحياة، على الحضارة. سوف أكون مدينا لك بالكثير جدا أيها الباب. أعتذر لأنني خطوت عبرك بمثل هذه الطريقة، كان يجب عليّ بدلا من ذلك أن احتفل بك بوصفك بطلي. ثم بعد ذلك، جاءتني تلك الرائحة اللطيفة، مذاق هواء الليل الرائق. العالم الحقيقي، الحياة، الحضارة.

رجوعا إلى عربة الشرطة، كان حارسي الجديد مجرد شاويش عادي مرة أخرى، عوضا عن ضابط أمن الدولة، تحدث معي بلطف:

"السلام عليكم، لقد خرجت لتوك من الجحيم"، وهو يساعدني في تسلق درجات العربة. لم يكن هناك شر أو تربص فيما يقوله، استغرقت برهة من الزمن كي أدرك النبرة التي استخدمها، ثم أدركت ما هي؟ كان ودودا لا أكثر.

الفصل الحادي والعشرون

رفاهية الجماهير

كان المساجين الأجانب، كما خمنت بالضبط، هم من يتم ترحيلهم: حسان وهيروشي وأيان ورضا وأنا. وحالما انطلقت العربة قطعتُ الصمت وبدأت اسأل عن أحوال الآخرين. كان ارتياحنا بسبب هروبنا لتونا من الجحيم نفسه يغمرنا تماما، بدأ كل منا يشكر الله، ويحمد فضله على استمراره في الحياة، ويهنئ الآخرين على الخروج.

تبين لي سريعا أنه لم يصعق أحد بالكهرباء إلا رضا الذي كان في مكان مختلف عنا، وسوف يبقى هناك في باقي الأيام التي سوف نتبادل فيها الحوار معا. في نهاية المطاف، وبعدما تم إزالة الغمامات وقطع القماش التي تربط الأيدي، توقفت العربة عند مكتب المدعي العام. كانت استعادة القدرة على الرؤية بعد هذا العدد الكبير من الأيام تجربة تُحرر الروح. وجدت نفسي أنظر إلى أيّ شيء وكل شيء، كم يكون العالم فجأة جميلا حين يتم انتزاع القدرة على رؤيته منك. منحونا طعاما، شيئا نأكله، وليس مكونا من كتلة صلبة من الجبن المملح. كان معنا خبز بيتا محشو بالفول، وهو بقوليات مهروسة مشبعة وتعد الأكلة الشعبية الأولى للمصريين، وقد أكلناها بنهم شديد، وكنا شاكرين من أجل مثل تلك النعم البسيطة.

تم تعيين مدع عام مختلف لكل منا، كان المدعي الذي كنت معه شخصا مختلفا تماما عما كان عليه المحققون السابقون. هناك أسطورة يحكيها آيسوب* حول الشمس والرياح، يتنافس فيها الاثنان من الجو من أجل اكتشاف ايّ منهما سوف يقدر على دفع رجل لخلع معطفه الثقيل. تستخدم الرياح القوة الشديدة محاولةً جعل المعطف يطير ليتخلى الرجل عنه، ولكنها تفشل. في حين تجعل الشمس الرجل يشعر بالدفء والارتياح، فيخلع المعطف من تلقاء نفسه. كنت كلما زاد المحققون من الصراخ في وجهي، استجمعت عزمي وقوتي وأعددت نفسي للقتال، كان هذا هو ما تربيت عليه في إيسكس، وكان هذا هو المنهج الذي بقينا به أحياء في تلك الأيام. شعرت، على الجانب الآخر، ومن خلال الارتياح والدفء الموجود في ذلك المكتب، أنني أستطيع التحدث مع المدعي العام. كان اسمه وليد المنشاوي، وهو رجل متعلم، يرتدي بذلة رسمية ويميل للبدانة. تحدث معي المنشاوي عن زيارته للندن في العديد من المناسبات، وكيف أن أخته تعيش هناك، وقام بدور "الشرطي الطيب" المنوط به على أكمل وجه.

*آيسوب هو مؤلف إغريقي اشتهر بتأليف حكايات خرافية تتضمّن كلّ منها حكمة خاصة، وقد ترجمت حكاياته لمعظم لغات العالم -المحرر

"هل تعرف ما ارتكبوه معنا لتوهم؟ إنهم يعذبون الناس هناك!"، قلت متعجبا.

" إن ذلك عار" قال المنشاوي، ثم أضاف: "ولكن إن لم تتعاون معي سوف يتعيّن علينا أن نرسلك هناك مرة اخرى. يعود ذلك إليك، إن رفضت التعاون، فلن يكون لدي الخيار."

"إنني أريد محامياً"

"اوه، لا لزوم لذلك."

"ماذا عن القنصل البريطاني؟" سألته. "متى يتسنى لي رؤيته؟"

"إنهم على علم بمكانك،" قال لي.

كان من المفروض أن يُسمح للقنصل بالتواصل مع مواطنيه خلال ثمانٍ وأربعين ساعة. كان المصريون، في أحسن الأحوال، عديمي الكفاءة، وفي أسوأ الأحوال، كذابين من حيث التعامل مع هذا الطلب، ولكن في دفء ذلك المكتب، والتحضر النسبي عند مقارنته بالتعذيب الذي تتسم به طريقة تعامل المنشاوي، بدأت في التحدث. أجبت أسئلته باللغة العربية وبالتفصيل. شرحت له سبب وجودي في مصر، وناقشت معه دراستي في الإسكندرية، وأبرزت له بشكل مطول وشددت على أنني بكل بساطة لم أكن هنا لتوصيل رسالة حزب التحرير. استمع المنشاوي بكل انتباه إلى إجاباتي، ثم نظر إلى الكاتب وأخبره بالنقاط التي يريد كتابتها.

"ولكن ليس ذلك ما قلته"، كنت اعترض.

"لا بأس، نحن نكتب ما تقوله، لا تقلق."

وجدت نفسي أصحح باستمرار كيف يتم تسجيل إجاباتي، مخبراً الكاتب بما يجب عليه كتابته، ولكنّ المنشاوي كان يضحك بطريقته المبهجة وسحنته المكورة وحسب، ويستمر في فعله. بعد ساعات من الاستجواب، فيما أفترض أنه الفجر، قام كل المدعين المحققين معنا بإنهاء الأمور. تم إطلاق سراح هيروشي، زميل القدس، دون أن نحظى حتى بالفرصة لتوديعه، في شوارع القاهرة ذلك الصباح عينه. لابد أن المدعين وجدوا أن سوء حظه هو فقط ما جعله يصادقني، لم أره أبدا مرة أخرى.

كان الأمر مختلفا بالنسبة لي أنا ورضا وأيان وحسان، وضعت الأصفاد المعدنية، وليس قطع القماش، في معاصمنا. كم هو مستغرب كيف تمثل مثل تلك التفاصيل الصغيرة سببا للارتياح، وتم نقلنا في عربة شرطة إلى ما اكتشفنا لاحقا أنه سجن مزرعة طرة. حيث وضعنا هناك في الحبس الانفرادي، بعيدا عن زنازين السجن الأساسية.

كان ارتياحي غامرا بسبب حصولي على مساحة صغيرة خاصة بي وحدي مرة أخرى، وبعد العودة من الجحيم ذات نفسه، ذلك المكان الذي تتراكم فيه الأجساد فوق مزيد من الأجساد المحطمة. كانت الزنازين خاوية. لم يكن بها لا فراش ولا غطاء ولا ضوء ولا قاعدة لقضاء الحاجة ولا صرف، ولكنها كانت مساحة

خاصة بي وحدي، حيث لا يستجوبني أحد بعد ذلك، إنها مكان بلا صراخ وصعق بالكهرباء، مكان أستطيع إراحة رأسي المرهق تماما فيه بلا خوف من أن يتم ضربي عقابا على النوم أثناء النداء. هكذا، وفي تلك اللحظة، كان ذلك المكان هو المنزل. لقد بقيت متيقظا لمعظم الوقت منذ أربعة أو خمسة أيام، وقد تم تعريضي لأقسي درجات الضغوط النفسية. لا أزال بنفس الملابس التي كنت أرتديها أثناء خروجي من الإسكندرية، وكنت مستهلكا تماما. خلعت زوج الأحذية الذي أرتديه، واستخدمتهما كوسادة، ومن ثم استسلمت للنوم على تلك الأرض الخرسانية.

أصبحت، أثناء مرور الأسبوع ببطء شديد، وأنا أغدو وأروح من مكتب المدعي العام، واعيا بشكل أكبر للوضع الذي كنت فيه. كانت حقيقة عدم وجود دورة مياه تعني اضطراري لاستخدام ركن في الزنزانة لذلك الغرض. أصبحت واعيا للصراصير التي تغطي الأرض، وصرت أشعر بمدى صلابة وخشونة الأرض الخرسانية العارية. إضافة لما سبق ذكره، وبعد أن وجدت حصى وحشرات أكثر من مرة تحت أسناني وأنا آكل، شعرت بمدى خلو الحساء الطيني الذي كانوا يدفعونه نحوي خلال باب الزنزانة يوميا من كل طعم. بدأت أشعر بكم الوحدة الذي يعنيه أن تكون محبوسا في حبس انفرادي. قام المدعي العام في نهاية تلك الأيام السبعة بتسليمي بيانا كي أقوم بالتوقيع عليه. لم يكن عندي أدنى فكرة عن مطابقة البيان لما قلته من عدمه، كان مكتوبا بخط لا يمكن فهمه باللغة العربية، ولم أكن قادرا على فهم أي شيء منه. حرفيا، لم يكن لدي أيّ فكرة عما كنت أضع توقيعي عليه. ولكنّ فكرة أن يتم إرسالي للجهاز مرة أخرى كانت تفوق قدرتي على مجرد التفكير في رفض التوقيع على البيان. كان لوليد المنشاوي ما أراد، إذ قمت بالتوقيع على البيان.

لم يتم السماح لنا برؤية القنصل إلا بعد انتهاء الاستجواب. كان جوردون براون موظفا مدنيا في أواخر الأربعينات من عمره، وقد ترقى في سلكه الوظيفي بشكل طبيعي. كان طيب السريرة ومتعاطفا معنا، ولكن كان من الصعب عليه أن يقوم بإثارة ضغينة مضيفيه دون التسبب في عواقب دبلوماسية. كنا أول مساجين سياسيين دوليين يتم احتجازهم في مصر، أو على الأقل، أول مساجين بريطانيين، ولم يكن أحد يعلم علي وجه التحديد ما هي قواعد الاشتباك. كان الوضع فيما بعد 11/9 بشكل خاص ينطوي على بلبلة وعدم تيقن مما كان مسموحا به من عدمه. بدا واضحا منذ تلك المقابلة المبدئية أن حالتنا مختلفة في أبعادها عن القضايا الأخرى التي كانت قد مرت عليه قبل ذلك.

اعتذر براون أنه استغرق كل هذا الوقت كي يرانا. قال لي: "ببساطة شديدة، لم يكن لدينا أيّ فكرة عن مكان احتجازكم". لم يكن ذلك، كما تبين لاحقا، هى المعلومات الوحيدة التي لم يتم اخبار القنصل بها: لم يكن لدى براون أيّ فكرة عن سبب احتجازنا، أو ما هي الاتهامات الموجهة إلينا. كان تائها ولا يعرف أين نحن على وجه التحديد، وكان ذلك بشكل كبير شيئا مخيبا للآمال.

سألته: "ماذا عن عائلاتنا؟". كانت هذه،على أقل تقدير، شذرة من الأخبار الجيدة. أخبرني براون أن رابعة وعماراً في أمان، في المملكة المتحدة. ولكنّ تلك كانت هي الإجابة المؤكدة الوحيدة التي حصلت عليها منه. كان من الواضح أنّ ثمّة تعاونا مستمرا بين سلطات المخابرات البريطانية والأمريكية والمصرية إثر 11/9، إذ كان المنشاوي في العديد من المرات، أثناء التحقيق معي، قد أفصح عن تفاصيل مثل "وصل إلينا من البريطانيين أنه............"، أو "اخبرتنا مصادر أمريكية ....". وبناءً عليه، فحتى لو كان القنصل البريطاني راغبا في أن يساعدنا على المستوى الشخصي، فغالبا ما كانت الرسالة الواردة من مستشاري وايت هول تنطوي على ضرورة عدم القيام بإزعاج حليف مهم في الحرب على الإرهاب.

تم اصطحابنا في اليوم التالي لزيارة جوردون خارج الزنازين، وتم وضع الغمامات على أعيننا وتقييدنا مرة أخرى. وكما لو كان الهدف تذكيرنا بالموقف الذي نحن فيه، فقد تم اقتيادنا في خطوة عسكرية إلى مكاتب السجن، وإعادة التحقيق معنا علي يد أمن الدولة. عرفت على الفور أنه المحقق نفسه الذي استجوبني في الإسكندرية.

قال الضابط: "نريد فقط أن نتأكد أنك تخبرنا بالحقيقة". سألته: "كم من الوقت سوف نبقى بالسجن."

أجابني: "أسبوع أو اثنان"

قلت وأنا مفزوع: "كل تلك المدة؟"

انفجر الضابط وزميله في الضحك. لابد أنهم كانوا يعلمون تمام العلم أن أسبوعا واحدا هو لا شيء في مزرعة طره. كان هناك بعض المساجين الذين مرت عليهم أعوام، وحتى عقود كاملة هنا، بموجب قانون الطوارئ المطبق في مصر، بدون توجيه حتى مجرد اتهام لهم. كان اسمهم "معتقلين". في الوقت الذي تم احتجازي فيه، كان في مصر خمسة وعشرون ألف معتقل في نظام السجون المصري، وكانوا كلهم مساجين سياسيين.

أدركت في وقت متأخر عن ذلك كثيرا، وبعدما صادقت بعض هؤلاء المعتقلين في مزرعة طرة فقط، كم كنت بلا شك أبدو ساذجا وبلا خبرة ولا معرفة في عين الضابط، وأنا أبدي قلقي حول قضاء أسبوع بالسجن.

تم اعتقالنا في الحبس الانفرادي، في تلك الظروف القذرة المنحطة والزنازين الخاوية لفترة تزيد عن ثلاثة أشهر، قبل أن يتم توجيه أيّ اتهام لنا. كان من الصعب ألا يغلبك العجز التام الذي كان ينطوي عليه وضعي في ظلّ حرارة الصيف الخانقة. كان أمن الدولة هو العالم الأسوأ في كل من هذين العالمين، إذ كانوا متوحشين تماما، ولكنهم كذلك عديمي الكفاءة بشكل مذهل. أصبحت مستهلكا في هذه الدائرة الجهنمية المكونة من الخوف والملل، والتي دارت ودارت داخلي حتى تحولت إلى غضب وحنق نقي جامح.

لو كانت لحظة ركوبي للسيارة نحو منزل الطلاب الأفارقة في ليلة مقتل أيوتوندي هي أكثر لحظاتي انحطاطا، فقد كانت هذه اللحظة هي أكثرها ظلاما. بدأ عقلي -في غياب أيّ شخص آخر أتحدث إليه أو أتواصل معه، أو بوجود شيء يمكن القيام به- في الشرود. لم يكن هناك ضوء في زنزانتي، وهكذا فحالما يحلّ الليل، كان الظلام يسود. وجدت نفسي، أثناء محاولتي النوم ليلا علي الأرض الخرسانية، انتفض وأجفل وانثني في حال وجود صراصير. كنت أفتقد رابعة، وافتقد عماراً، وبدأت أفتقد ساوث إند. بدت حياة البي بوي الذي يرتدي بذلة الكليك الآن حلما بعيد المنال، قد أكون لم أتعدَّ الرابعة والعشرين من العمر، ولكن، من الآن وصاعدا، سوف أشعر أنني في الثانية والأربعين إلى الأبد.

بدأ عقلي يصرخ طالبا أيّ نوع من النشاط، ويتوسل لي كي أنتبه إليه مثلما كان يفعل عمار. كاد الملل يتغلب على، فكنت أنظر حولي، باحثا عن أيّ شيء أشغل به نفسي، ولكن كل ما كان بحوزتي هو الحصى الصغيرة الملقاة على الأرض. تاي آمي! ما الذي كانت تصنعه تاي آمي عندما كان النوم يستعصي عليّ في تلك الأيام التي تبدو أبعد ما يكون الآن؟ هذا هو الحل، فقد كانت تؤلف القصص، تلك القصص الشفهية التي كانت ترسل عقلي في مغامرات تقع في أراض ساحرة، تحتوي على أميرات جميلات وأبطال نبلاء. أهلا بك، أيها الحجر، كيف حالك يا رجل؟ لقد أسميتك فريدي فريد، وأنت، يا حجر، أسميتك جوني جون، أنت تعرف كيف يكون ذلك، بالطريقة القديمة، مثل فلافور فلاف أحد أعضاء بابليك إنيمي. ييييييه، ياااااااااااااا رجل! فريدي فريد، هل يمكنك هزيمة جوني جون في سباق؟ فلنر ذلك. مستعد؟ خذ مكانك.... انطلللللق! وكنت بحركة من إصبعي أقذف بالحجرين مرة، بعد مرة، بعد مرة، عبر أرضية الزنزانة، لكي أرى من يفوز بالعدد الأكبر من السباقات.

كان هناك العديد من المرات -في تلك الزنزانة القذرة، وخلال الساعات الأكثر ظلمة، وحين تقتصر الأصوات الصادرة عن صمت الليل المطبق على صراصير الحقل وهي تطلق صريرها بعيدا من وسط الغاب - التي شرد فيها عقلي تجاه الانتقام. كنت أريد أن أنال من أمن الدولة انتقاما مطلقا صافيا لا تشوبه شائبة. "اسمي ماجد نواز، أنا عضو في حزب التحرير!" هراء! هل منع هذا القول صعقَ علاء من خلال أسنانه وخصيتيه لفترة تبلغ أسابيع وشهوراً، حتى إنني كنت أستطيع سماعه يتوسل ويرجو كما لو كان طفلا صغيرا؟ هل منع ذلك أن يتم تعليق هشام، وهو من كفر الشيخ، من ذراعيه حتى انهارت مفاصله، وتوسل أن يرحموه فيما معذبوه يطلقون الشخرات تجاهه مثل الحيوانات، مثل الخنازير؟ هل منع ذلك اغتصاب وصعق زوجات المساجين أمام أعينهم مباشرة. هل ساعد ذلك كله رضا فيما كان يتم تعذيبه لعدم قدرته على الاستجابة باللغة العربية. ولماذا لم يتم تعذيبي أنا؟ لماذا أعفيت من الألم؟ هل يلعبون بعقلي؟ هل تلعب سي 18 بعقلي؟ أين مات الآن؟ لقد أخذت طعنة بدلا مني لحمايتي، ما الذي قدمته لك في عمري كله؟

لا عنف! اللاعنف شيء يقتصر على هؤلاء الذين يملكون مشاهدين! أترى؟ المشاهدون شيء مذهل. إن خاف الناس مما قد تفعله، إن خافوا من الجماهير التي قد تحرضها عليهم، فإنهم يستمعون لك قبل أن تقوم بذلك. ما يحترمونه فعلا، هو قدرتك على إيذائهم، كلما كنت قادرا على إيذائهم، احترموك. ولكن إن كان الناس يضحكون من ألمك، ويسخرون من معاناتك، ويستفزونك ويقومون بغزوك، وهم يعلمون أنك بلا حول ولا قوة، وليس في وسعك إلا أن تتقبل كل ذلك صاغرا وتقول: "اسمي ماجد نواز، ماجد، ماجد، ماجد نواز. أنا عضو في حزب التحرير....ماجد، ماجد!"، فماذا إذن لديك؟ إن حكومتنا نفسها لا تبالي بالمرة. اللعنة عليكم!

إنك تدعو للا عنف في حين انك تقوم بتمويل مبارك، وتبيعه الأسلحة. إنك تقوم بتدريب رجاله، ومصافحته بيديك الملطختين بالدماء؟ حسنا، إنني الآن أرفض اللعب طبقا لأي قواعد، فليعمل نسيم في سبيل الخلافة، إنه لا يحتاجني. ولكن يا وليد المنشاوي، إن الانتقام منك يجتاحني، وحالا الآن في هذه اللحظة، فإن فكرة الانتقام منك ومن عشيرتك، هي الفكرة التي تغذيني. كم تبلغ عدد السنوات التي تعتقد أنك قادر على الاحتفاظ بي هنا خلالها؟ إنني صغير السن، ولا زلت متحمسا وتملؤني الحماسة حتى الثمالة، سوف تكون في حاجة إلى الكثير من السنوات لكي تنال مني. إنك تسئ تقدير الشعلة التي تزأر بداخلي حتى وأنت تقبض علي، قد تنتصر عليّ في نهاية المطاف، لكنني سأقتل منكم أكبر عدد ممكن قبل أن تقضوا على. سوف تعرف كيف أصبحت رجلا مجنونا، نتيجة للسم الذي تجرعته على يديك.

كان كل ذلك يبدو معقولا تماما في الضيق المحدود لتلك الزنزانة الانفرادية.

الفصل الثاني والعشرون

قذف البطريق بالشباشب

حين تم توجيه الاتهامات إلينا في نهاية المطاف، عرفنا بذلك من طرف آخر. كان بعض المساجين الآخرين يستمعون إلى الراديو، بي بي سي العربية، وقد سمعوا البيان، وقاموا على الفور بنقل الأخبار عبر السور بصوت مرتفع، وقال لنا الشاويش الذي يحرس زنزانتنا ما حدث. بعد بضعة أيام، استقبلنا زيارة أخرى من جوردون براون، وأخبرنا عن الاتهامات بالتفصيل. لم يتم توجيه أيّ اتهام لحسان، حسبما حدث، وتم إخلاء سبيله بعدها بقليل وترحيله إلى لندن. تم توجيه تهمتين اثنتين لي أنا ورضا وأيان، أولا: ترويج لفظي وكتابي لأفكار منظمة محظورة تدعى حزب التحرير، ثانيا: حيازة كتب تخص المنظمة المذكورة. وبالإضافة لما سبق، فقد كان رضا متهما بتهمة ثالثة، وهي حيازة طابعة كمبيوتر. على أقل تقدير، فقد كان بوسع حسان، زميل رحلة القدس الثاني، والذي لم يكن متورطا في أيّ شيء بالمرة، أن يعود أخيرا إلى الوطن.

لو لم يكن وضعنا بهذه الخطورة، لكانت تلك التهم شيئا يثير الضحك والسخرية. كان رضا معرضا لحكم بالسجن نتيجة لحيازته طابعة. لم يتم اتهام أيّ منا بأيّ تهمة منطقية، بل بالعضوية في منظمة محظورة، وهو شيء سلِمْنا به بشكل واضح في التحقيق. بدلا من ذلك، فقد كانت التهم نوعا ما أكثر مكرا وخبثا، كانت تتعلق بمناقشة الأفكار وقراءة الكتب: الحق في حرية التعبير. لم يكن هذا الأمر يدور حول حزب التحرير أو الإسلاموية، بل حول شيء أساسي بشكل أكبر من ذلك. كان الأمر كله يدور حول الحرية، ومن المفترض أنها إحدى العقائد الأساسية في المجتمع المتحضر. احكموا علينا من خلال إسلامكم، وسوف نحكم عليكم من خلال حرياتكم.

كشفت التهم عن وجه مصر الحقيقي، مع قانون الطوارئ التابع لمبارك، بوصفها الدولة البوليسية التي كانتها بالفعل. كانت جمهورية موز. عرفنا عند ذلك أن فرصنا في الإفلات من هذا تساوي صفراً، فقد كانوا قادرين على إدانتنا بأيّ شيء يريدونه، وكانت تنتظرنا سنوات كثيرة في السجن. تسببت اتهاماتهم لنا بتلك الطريقة في نزع أيّ ملمح من السلطة الأخلاقية عنهم، وجعلنا سجناء رأي. كان ذلك يعني أن منظمة العفو الدولية يمكنها تولي قضيتنا، وكان ذلك يمثل بالنسبة للقادة الغربيين أسئلة محرجة حول كل استراتيجيتهم في الشرق الأوسط، إذ إنهم يدعمون نظاما يعذب ويحتجز رعايا بريطانيين بتهم على شاكلة "الكلام والكتابة".

كان جوردون براون -لكي أكون منصفا معه- يبدو محرجا فيما هو يناقش الاتهامات معي. كان بوسعي أن أرى حقيقته بكل وضوح، مجرد موظف مدني عادي في موقف مستحيل، والرجل المتورط في سلسلة وايت هول الذي يرى بأم عينيه التكلفة الإنسانية لما يُدعى "الثمن الذي يستحق دفعه". ثمّة حرب جارية، وهي الحرب على الإرهاب، وكانت أولى ضحاياها، كما تقول الأمثال، هي الحقيقة. نظرت مباشرة في عينيه، ورأيت أنه يعرف ما نعرفه نحن: لم تكن مصر مبارك لا صديقا ولا حليفا جيدا، كانت دولة قائمة على النقيض من كل ما كان يمثّل أكثر الأشياء قيمة على الإطلاق لدى الغرب.

استغرقت المحاكمة، إن كان من الممكن للمرء أن يضفي على مثل تلك الاحداث أيّ شذرة من الشرعية، ما يقرب من العامين. كانت تستمر لمدة أسبوع أو أسبوعين في وقت ما، ثم توضع قيد الانتظار لمدة شهرين قبل أن تعقد مرة اخرى. كان هناك ستة وعشرون متهما تتم محاكمتهم في نفس الوقت. وكنا نوضع -في المحكمة ونحن نرتدي الأبيض لأنه لم يتم الحكم علينا بعد- في قفص في ركن من الغرفة مثل الحيوانات، وكان القفص من الضيق بحيث كان علينا أن نتبادل الجلوس على المقاعد المحدودة المتاحة، في حين يقف الباقون منسحقين حول الجوانب.

كان يتم اصطحاب مجموعتنا إلى المحكمة كل يوم في قافلة من عربات الشرطة الزرقاء، أما بقية السجناء، وكلهم مصريون، فاحتجزوا في عدد مختلف من السجون الأخرى. كان كل منا مقيدا إلى حارس أثناء الرحلة، ولكن، وعوضا عن الذهاب في صمت، أردنا أن نوضح لمبارك وملئه أنه لم يهزمنا. لن سنستسلم في هدوء، أردنا أن يرانا العالم، وكان العالم يشاهدنا بالفعل. كنا في كل مرة ندخل ونخرج فيها من تلك المحكمة نقوم بإحداث ضوضاء عارمة من الأناشيد والشعارات وأساليب الحشد، وقد أحبّت الكاميرات كل ما يحدث في المشهد الذي كنا نصنعه، البي بي سي والجزيرة وغيرها.

"اسقط اسقط يا مبارك!"

"لا نخاف لومة لائم، الخلافة فرض دائم!"

كنا نشدو بتلك الشعارات بالعربية، في كل شوارع القاهرة، فيما كنا قيد الانتقال في عربات الشرطة المعدنية تلك، في حرارة الشمس المحرقة في الصيف، ونحن غارقون في العرق. كان الإنشاد ضد مبارك بذلك الشكل، ونحن قيد الاحتجاز شيئا صادما للمصريين في ذلك الوقت، إذ يقف معظمهم مشدوها، ويحدق فينا ونحن نعبر أمامه، وكان بعضهم يرفع يديه في تحية لنا، فيما ينهار الكثيرون باكين تعاطفا معنا في منتصف الطريق وهم في أماكنهم. سوف يتذكر أيّ شخص لمح قافلة سياراتنا في ذلك الوقت في 2002، الصخب العارم الذي تسببنا فيه، لم يكن أحد يجرؤ، بعد هزيمة الجهاديين التامة في 1999، على شجب مبارك علنا مثلما فعلنا نحن. كنا، قبل سنوات عديدة من تحلي المصريين بالثقة الكافية للوقوف معا في ميدان

التحرير، نأمل في إلهامهم بالشجاعة والثقة اللازمتين ليقوموا بذلك بالضبط. أردنا الناس في الشوارع أن تفكر، في أنه إن كان هؤلاء يستطيعون القيام بذلك من عربات السجن نفسها، فإنّ بإمكاننا نحن القيام بذلك في الشوارع.

إن كنت تتذكر القرآن الصغير الذي اصطحبته من شقتي، وهو آخر ما أخذته قبل مغادرتي، وقبل أن أترك عمار ورابعة خلفي، حسنا، كان هذا بصورة أو أخرى، قد بقي معي خلال الأوقات التي قضيتها في زنازين التعذيب. كنت أرفعه وألوّح به حيث يكون مرئيا بوضوح وأنا أهتف بشعاراتي. وقد منحني ذلك القوة وعزّز من إيماني. لم نكن مجرمين، كنا مسجونين سياسيين فخورين بأنفسنا، نواجه في سبيل الله ورسوله، ونمثل العدل مقابل الطغيان، وكنا في نعمةِ أن اختارنا الله كسفراء للإيمان. وقد كان، وصلت أنشطتنا إلى الإعلام العالمي، التلفزيون والراديو والكلمة المطبوعة والإعلام الوليد المتصاعد النفوذ: الإنترنت. كان العالم بأجمعه يتحدث عن المساجين السياسيين البريطانيين الذين يدعون أنه قد تم تعذيبهم في سجون مبارك.

كانت المحكمة مزدحمة تماما، فهذه هي المرة الأولى التي يتم فيها محاكمة مواطنين أجانب في قضية تنطوي على تعذيب.

خلق هذا ما يشبه السعار الإعلامي، وهنا، في قاعة المحكمة تلك، كان المكان الذي اكتشفت فيه مدى السوء الذي تمت به معاملة بعض الآخرين. قام بعض الإخوة، مثل أحمد، بوصف كيف قاموا بتعرية زوجته، وتعذيبها أمام عينيه لإجباره على الاعتراف. كانت قصته -للأسف الشديد- أبعد ما تكون عن التفرد. سرعان ما استخدمنا تلك اللحظات الممنوحة لنا في القفص، لكي نعلن على الملأ كيف تمت معاملتنا. أصبح الصحفيون مفتونين بقضيتنا، بدأ الجميع -ليبراليين وإسلاميين واشتراكيين- بالتعاطف مع ما حدث لنا، وذاعت أخبار مصيبتنا في كل مكان.

قال الجميع في ذلك القفص بأنهم بريئون من التهم الموجّهة إليهم، ولكن على عكس إخوتنا المصريين، فقد اعترفنا نحن الثلاثة البريطانيون بعضويتنا في حزب التحرير في المملكة المتحدة، حيث كان الحزب شرعيا هناك، وشعرنا أنه لا يوجد ما نخفيه. تم تسليم خطاب من جلال الدين باتل (Jalaluddin Patel) -وهو قائد حزب التحرير الشاب حديث السن الذي حاول تهميشي بعد عودتي من الباكستان- خلال إحدى جلسات المحاكمة، وبدا لي في حينها أنّ الخطاب نقد ناعم لكيفية تعاملنا جميعا مع الموقف. فطبقا لما يراه، كان علينا أن نعترف بالتهم، ونقوم بإظهار تحدٍّ وجرأة أكبر مما فعلنا، وكان على الأعضاء المصريين عدم إنكار علاقتهم بالحزب علي وجه الإطلاق. ما شعرنا به هو الاشمئزاز، كان جلال الدين وهو جالس في لندن، يملك من الوقاحة ما يسمح له بتوجيه هؤلاء الرجال سلوكيا؟ كتبنا ردا فوريا: لم تعد جزءاً من سلسلة قيادتنا: نحن نقع تحت قيادة حزب التحرير في مصر، وقائده معنا في ذات القفص، وقد تم تعذيبه لمدة ثلاثة

أشهر ونصف متواصلة. لقد تم إرغام هؤلاء الإخوة على مشاهدة زوجاتهم وهنّ يُعذّبن أمامهم. لا يوجد لديك أيّ أحقية أو ادعاء أخلاقي يسمحان لك بأن تقول لنا ما يجب علينا فعله، وإنك إذ تقوم بذلك، فأنت تخرق قنوات التواصل الخاصة بنا، لا تكتب إلينا مرة اخرى. الحمد لله، أننا نسمع منه مرة اخرى.

تستطيع على الفور أن تشعر إلى أي حد كان النظام قد أعد قضيته ضدنا، كان القاضي، المسمى العشماوي، يجلس على رأس المقعد، يجاوره مباشرة المدعي العام وليد منشاوي. كانت القضية تنظر بموجب قانون الطوارئ، وبالتالي، فإنّ كلا من القاضي والمدعي كانا من تعيين أمن الدولة، فيما تم إجلاس محاميي الدفاع على الناحية الأخرى من القاعة مع المتهمين.

اخترنا نحن الثلاثة، رجلا شجاعا يسمى أحمد سيف لتمثيلنا كمحام. كانت آراء سيف السياسية أبعد ما يكون عن آرائنا، فقد كان اشتراكيا، وهو ما يعني في الأحوال العادية أنه على الطرف النقيض مع إسلامويتنا، ولكنه كان يحظى باحترامنا. كان سيف قد احتجز بالسجن في العديد من المرات في حكم مبارك، وعلى الرغم من ذلك، استمر في الاعتراض بلا خوف. ربما كانت آراؤنا السياسية على النقيض تماما، ولكنّه كان ضد النظام مثلنا بالضبط. مضى سيف بعدها بعامين أو نحو ذلك، ليكون من الأعضاء المؤسسين لحركة كفاية، وهي تجمّع من الأفراد الليبراليين الذين قرروا أن يحطموا بشكل علني تابو تحدي نظام مبارك. كما ذكرت سابقا، فقد كان ذلك في هذا الوقت -ويصعب تخيّل ذلك الآن- خطا أحمرَ لا نقاش فيه. لاحقا، وأنا أقضي مدة عقوبتي، كنت أقرأ مرة بعد مرة عن مظاهرات كفاية المعارضة لمبارك التي تتجمع بشكل مفتوح في الشوارع، وتجذب حوالي عشرة أو عشرين روحا شجاعة، يحيط بها مئات من شرطة مكافحة الشغب، وكان معظم الناس يضحكون على أوهام التغيير التي يتحدثون عنها. ولكنّ كفاية أصبحت التجمع الذي تصاعد زخمه ككرة الثلج حتى حدثت انتفاضة مصر التي قادها الشباب الليبراليون في 2011. كان التاريخ -كما أثبتت الأيام- إلى جانب أحمد سيف.

حدث بعد القبض علينا بحوالي عامين، في اليوم السابق للحكم علينا، أنّ وزير خارجية مصر، أحمد ماهر، كان في زيارة رسمية إلى أورشليم. كان ماهر رجلا قصيرا بدينا له رأس صلعاء كبيرة الحجم وأنف مدبب. كان يبدو مثل الشخصية الشريرة "البطريق" في أفلام بات مان، وقد وجدنا تلك الصورة المتخيلة له شيئا يخفف من وضعنا. ذهب الوزير -في إطار زيارته للقدس- للصلاة في مجمع المسجد الأقصى، وهو ذات المسجد الذي ذهبت إليه منذ أعوام قليلة مع حسان وهيروشي، وحيث قابلت إخوة حزب التحرير، وحيث اتفقت مع عصام عميرة على العودة يوما ما، وحيث تركت قلبي كذلك. لقد تأسس حزب التحرير في القدس، وكان لنا في كافة أرجاء فلسطين إخوة يمثلون قوة كبيرة. قوبل ماهر عند دخوله إلى المسجد بمجموعة كبيرة

من متظاهري حزب التحرير الذين استقبلوه بسيل من الأحذية والشباشب التي تم قذفها عليه يمينا ويسارا، من كل حدب وصوب. وقد أثار ما حدث فزعه الشديد وأبهج كاميرات التلفاز.

"اخرج يا خائن"، صرخوا فيه فيما الشباشب تنهال على رأسه.

"ظالم! عميل أمريكي! تعذب إخواننا في مصر، وتتوقع أنه يمكنك المجيء إلى مسجدنا والصلاة فيه؟ لا أهلا ولا سهلا، اخرج!"

هنا في سجننا، وأثناء إذاعة الراديو لما حدث من إهانة أحمد ماهر المنيع والعصيّ على اللمس، قام جميع الإخوة، كبارا وصغارا وإسلامويين وجهاديين وليبراليين بالتهليل والاحتفال في فرحة تلقائية. الله أكبر! تذوق جزءا لا يذكر مما تفعلونه بنا، وانظر إن كان يعجبك! كانت الجرائد في اليوم التالي في مصر، مزدحمة بصور البطريق وهو يتلقي الشباشب في وجهه. كان يومَ انتصار حقيقي لنا. لم تكن الدولة المصرية لتدع هذا يمر مرور الكرام، وبالفعل انتقموا حق الانتقام. تم بعد هذا الهجوم، تأخير الحكم علينا لمدة ثلاثة أشهر أخرى. عندما تم اصطحابنا أخيرا إلى المحكمة، أعلن القاضي عن إسقاط كافة التهم السابقة عنا، وقصر الاتهام على تهمة واحدة جديدة: "الانتماء إلى منظمة محظورة". بعد مرور عامين من المحاكمة شديدة البطء، لم يكن هناك هذه المرة أية حوارات أو دفاع جديد، تم اتهامنا من جديد، وإدانتنا، والحكم علينا في نفس وذات المكان والتاريخ، في نفس ذات الجلسة.

كان "الانتماء" تهمة أكثر خطورة بكثير. تم الحكم علينا أنا ورضا وأيان بخمس سنوات في السجن، في حين تم الحكم علي المساجين الآخرين بمزيج يتراوح بين خمس وعشر سنوات عقوبة على عضويتهم في حزب التحرير. بدأت العائلات -عند قراءة تلك الأحكام- في البكاء، وبدأ الصحفيون في الشجار، في حين وقفنا ونحن نبدي التحدي، مثل الأسود التي تزأر في فخر، كانت قاعة المحكمة مشتعلة بأناشيدنا وشعاراتنا.

"الله أكبر الله أكبر! لن نستسلم أبدا!"

بدأنا في تهنئة واحتضان بعضنا البعض في القفص، وفي الإنشاد والصلاة والسجود شكرا لله لهذه الفرصة كي نقدم تضحياتنا في سبيله. أسرع العشماوي -القاضي- خارجا من المحكمة بعد إنهائه للمهمة خائفا، في حين نظر لنا وليد منشاوي بحيرة كاملة. كيف لهم أن يحتفلوا؟ لو كنت مكانهم لكنت أبكي، وكنا بالفعل نبكي، ولكن كنا نبكي دموعَ إخلاص لله، ودموع حب وتقوي، ودموع رومانسية الصراع، وكنا نعرف أن التاريخ سيذكرنا، وسوف نلهم الناس ونصير قدوة لهم.

بعد عامين، وحالما تم الحكم علينا، وبين الرسائل المتواترة، بدأت تأتينا الزيارات. كيف لي أن أنسى ذلك اليوم، عمار، عندما جئت لأول مرة تسير كالبطة، وأنت الآن في الثالثة من عمرك، ولا تعرف أباك

سوى عن طريق رؤيته مقيدا على شاشات التلفاز. مر عامان ونصف يا بني، عامان ونصف منذ انتزعك هؤلاء الظلمة من بين ذراعيّ وأنت تبكي. جئت مرتديا بنطالا وقميصا وربطة عنق، ومددت يدك لكي تقول لي محييا: "السلام عليكم أبو"، وأنت غير متأكد من مدى الشكل الرسمي الذي أتوقعه منك. حملتك بين ذراعيّ وأنا حريص على ألا ترى الدموع وهي تتصاعد في عينيّ، واحتضنتك بقوة محاولا تعويض كل تلك السنوات التي كنت عاجزا فيها عن حملك، تعويضا عن كل تلك الأيام التي قضيتها في الزنازين حين ظننت أنى قد لا أراك مرة أخرى أبدا. كنت فخورا غاية الفخر بأمك التي أبقت ذكراي حية داخلك.

اقتربت أمك مني في ذلك اليوم، بوجهها المشع بالفرحة والفخر، وهي تتبسم في وجه رجلها الذي أثبت إخلاصه في سبيل الله. وعلى الفور، وحالما احتضنتها لأول مرة منذ أن تم القبض علي، تبخر كل الألم كأنما لم يكن، ولم يعد شيء يهم بعد ذلك. كانت الغمامة المظلمة قد أزيلت عني، وكل ما كنت استطيع رؤيته كان وجهك المشرق. كم كنت سعيدا في ذلك اليوم.

لذا وعندما جاء آش، تلميذي الموثوق به من أيام كلية الدراسات الشرقية والأفريقية، لزيارتي في مزرعة طره، كان من الطبيعي أن أكون سعيدا.

سألته: "آش، ما المشكلة؟"

قال "لا أعرف كيف أخبرك بهذا، ولكني تركت الجماعة، تركت حزب التحرير."

سألته وأنا أشعر بخيبة الأمل: "لماذا؟ ماذا حدث؟"

أجاب: "لم أعد مؤمنا بهم،" ثم أضاف بطريقته الجريئة المعتادة: "إنه كله هراء، يا أخي، كل شيء برمته الملعونة، إنهم ثلة من الدمى، بُلَهاء وأغبياء ولا يعرفون شيئا عن أيّ شيء، إنهم عار على الإسلام والمسلمين."

استمر آش واصفا حملة بوسترات وطنية كارثية أمر بها قائد حزب التحرير في المملكة المتحدة، جلال الدين باتل، ضد الحرب العراقية. ولكنّه، بدلا من وضع جملة تعارض الحرب بشكل فعلي على هذه البوسترات، فقد اعتقد جلال الدين أنه من الذكاء أن يستخدم جملة بالبنط العريض تقول: "لا توقفوا الحرب" ومن ثم ببنط أصغر تحت ذلك: "باستثناء حربكم مع السياسة الإسلامية.". كانت تلك محاولته الافتراضية الفظة، لإقناع المسلمين في المملكة المتحدة بعدم التحالف مع الكفار في تحالف إيقاف الحرب، وطبعا غني عن الذكر أن الحملة كانت فاشلة تماما.

شرح لي آش كيف فقد قناعته بأعضاء حزب التحرير، ثم الجماعة نفسها، وفي نهاية المطاف الأيديولوجية كذلك. بدلا من كل ذلك، صار مهتما بالروحانية الصوفية.

قال لي: "إنك شخص ذكي يا ماجد، أعرف أنك سوف تفكر في كل هذا حقا، وسوف تصل لنفس الاستنتاجات التي وصلت لها أنا".

وكان رد فعلي أن ضحكت ملء فمي على ذلك.

فيما بدا آش -رغم ذلك- مصرا، "في الصوفية لديك شيخ أو مرشد روحاني"، استمر قائلا: "قال لي شيخي قبل أن آتي إلى هنا أنه أتته رؤية تدور حولك، قال لي إنك لن تترك حزب التحرير وحسب، بل وسوف تصبح قائدا عظيما للمسلمين."

قلت ضاحكا: "سبحان الله، هل أنت قادر على الاستماع لنفسك يا أخي؟"

"هذا حقيقي،" قال آش وهو يهز رأسه. "هذا هو السبب الذي أتى بي إلى هنا، حتى أخبرك بهذا، وهذا سبب مجيئي."

تجاهلت إطراء آش بوصفه صادرا عن صديق غلبته المشاعر عند رؤية معلمه السابق في حزب التحرير في السجن، ولكن، ومع التسليم بذلك، كان هناك شيء في ثقته فيما قاله مس شيئا في نفسي.

إن الحياة لا تتوقف مكانها لمجرد أنك في السجن. تحطمت علاقة أبي وأمي أخيرا خلال تلك السنوات، وحدث الطلاق. كانت آبي -بحلول الوقت الذي أتت فيه لتراني- قد وجدت صديقا كان يرافقها إلى مصر في زيارات السجن. كان رجلا إنجليزيا، غير مسلم، ولم يكونا متزوجين. لأول مرة منذ أن قُبض علي، بدت تربيتي الليبرالية مكشوفة للملأ أمام الكتلة الصلبة للمشهد الجهادي المصري، وكنت ممزقا. إنهما غير متزوجين، وهو كافر وهذا حرام. كان الرجل -رغم ما سبق- قد جاء كل هذه المسافة لكي يرعي آبي، وكان ينتظر خارج السجن في حرارة الصحراء اللاهبة خوفا من أن يزعجني. هذا رجل نبيل، مثل دايف جومير، ومثل السيد موث، وهكذا وجدت حلا للموقف.

سألت آبي: "هل يمكنني إجراء طقس إسلامي -حفل نكاح- لكي يضفي الشرعية على علاقتكما أمام الله؟ إنها مجرد بعض صلوات أمام شاهدين."

"إن كان ذلك سوف يسعدك؟"

"ولكن يجب عليه الدخول في الإسلام أولا، وينطق بالشهادتين، يمكنني أن أعلمه ماذا يجب عليه قوله"، قلت لها.

"أريدك فقط أن تكون سعيدا."

بتلك الطريقة، هناك في ساحة الزيارة في سجن مزرعة طرة، قمت بالإشراف على تحوّله للإسلام وحفلة النكاح الإسلامي لآبي وشريكها. طلبت منه أن يكرر ورائي: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله."، فيما كان الشاهدان هما صديقان لي من السجن، عمر، وهو داغستاني، وهشام، وهو جهادي مصري هولندي،

مشهور بالانفجار في نوبات هياج مروعة ضد سلطات السجن. لا أعتقد أن آبي أو شريكها كانا مدركين تماما السبب الذي كان وراء وجود شهود نكاحهم في السجن. وبالمثل تماما، لا أعتقد أن عمرَ أو هشاما كانا مدركين آراء آبي وشريكها. كان كل ما يفهمه أصدقائي الجهاديون، هو أنني قمت لتوي بإدخال أحدهم بنجاح في غمار القضية الإسلاموية، فكانا في منتهي السعادة، وشاركا بعض الحلويات مع الآخرين في ساحة الزيارة.

"لقد دخلت أم ماجد وشريكها في الإسلام لتوهما"، قاموا بإعلان ذلك مع ابتسامات دافئة عبر الغرفة. كانت دلالة ذلك، بالطبع، أنه من خلال الدخول في تلك العلاقة، فإنّ آبي لم تكن مسلمة بالفعل قبل ذلك. قام هشام، الجهادي المصري الهولندي، باحتضان شريك آبي في حضن طويل وقوي. شرح له هشام بعد ذلك، وهو ينظر مباشرة في عينيه، بجدية شديدة كيفية عدم القبول بأنصاف الحلول فيما يختص بدينه الجديد أبدا، وأن يستمر قويا، وأن يتذكر أن يحارب أعداء الله أينما يجدهم. أومأ الرجل الانجليزي في موافقة مخلصة، وقام هشام باحتضانه مرة أخرى، فيما يبدو نتيجة لإيمانه وكأنه قد شهد لتوه مولد شهيد آخر في سبيل الإسلام.

الفصل الثالث والعشرون

حكم الفرد

لم يكن سجن مزرعة طرة الذيسكون المكان الذي سوف نقضي فيه بقية عقوبتنا، سجنا عاديا. كان الإنجليز هم من قاموا ببنائه في الأصل في أيام الحماية البريطانية، لكي يضعوا فيه السجناء السياسيين، وقد بقي على حاله حتى وقتنا هذا محققا الهدف الذي تم بناؤه من أجله. ضم سجن مزرعة طرة بين جدرانه، على مر الزمان، بعض الأيديولوجيين الأكثر شهرة في مجال الإسلاموية. كان هذا هو السجن الذي قضى فيه سيد قطب، الأب الروحي للأيديولوجية الجهادية المعاصرة، فترة سجنه، وهو المكان الذي كتب فيه قطب عمله الرائد"معالم في الطريق" الذي كان السبب في إعدامه عام 1966، مما جعل منه على الفور شعلة سوف تضيء السماوات من أجل آلاف الإسلاميين المستقبليين.

كان قد تم تهريب مسودة "معالم في الطريق" إلى خارج السجن بواسطة تلميذ مخلص من تلاميذ قطب في ذلك الوقت، وكان عضوا في أكبر جماعات مصر الإسلامية، الإخوان المسلمين، واسمه محمد البديع. كان الدكتور بديع، في الوقت الذي وصلت فيه أنا إلى مزرعة طرة، مسجونا مرة أخرى مع الكثيرين من قيادات الإخوان المسلمين في القضية المعروفة إعلاميا باسم "قضية الأساتذة". حيث كان في ذلك الوقت عضوا في قيادة الإخوان المسلمين ويشغل منصبا في مكتب الإرشاد. حدث أن تقاربت علاقتنا في تلك الأيام، ودارت بيننا الحكايات حول صداقته مع قطب.

أتذكر كيف كان الدكتور بديع يستمتع بتفسير المعاني الروحانية الداخلية للأحلام التي يسمونها "رؤية". كان أحد الأحلام قد التصق بذهني بصفة خاصة، أخبرته أنني رأيت نفسي واقفا مع صحابة الرسول، ونرتدي كلنا اللون الأبيض، ونجلس في تجمع في الجنة. كانوا كلهم ذوي لحى كثيفة سوداء، ويضحكون مستمتعين بصحبة بعضهم البعض. دخل الرسول عليه السلام، ووقفنا كلنا فورا احتراما له.حان وقت الصلاة، وهكذا قمنا وسوينا صفوفنا وانتظرنا الرسول ليصلي بنا. نظر الرسول نحوي وأشار لي أن أؤم الناس. دوى قرع قلبي. اعترضت بفزع كبير، "كيف لي أن أؤم رسول الله في الصلاة؟ يا رسول الله؟ لا يمكنني أبدا أن اقوم بمثل هذا الشيء." استدار الرسول عليه السلام نحوي بكل بساطة وابتسم. "لا تخف وافعل ما قلته لك." فعلت كما أمرني، ولكن وفيما أنا أخطو للأمام، مرتبكا تمام الارتباك، لأبدأ صلاتي، استيقظت قبل أن ابدأ. كان الدكتور بديع يظن أنها بشرى عظيمة.

"لم يرشح الرسول عليه السلام أحدا ليكون إماما في الصلاة في حضرته أبدا سوى أبي بكر وهو أول خليفة للمسلمين. أبشر يا ماجد! معنى رؤياك أنك في يوم ما ستصبح قائدا عظيما للمسلمين. كما ترى، وكما أخبرك الرسول في ذات الرؤيا، لم يكن عليك أن تخاف من قيادة رسولك في الصلاة. لقد استيقظت قبل أن تؤمه فعلا."

مضى بديع بعد ذلك ليصبح مرشد الإخوان المسلمين، أي قائدهم الأعلى، وبعد إزاحة مبارك في 2011 تولت جماعته قيادة مصر فعليا.

كان من ضمن مساجين الإخوان المسلمين الآخرين الدكتور عصام العريان، وهو متحدثهم الرسمي في ذلك الوقت، وعبد المنعم أبو الفتوح، وهو مرشح رئاسي إسلاموي منتظر. لم يكن الإخوان إسلامويين ثوريين أو عسكريين، وبالتالي فعادة ما يحصل أعضاؤهم على فترات سجن أقل تتراوح عادة بين سنتين أو ثلاث.

كان هناك كذلك أعضاء كثيرون من الجماعة الإسلامية، والتي كانت حتى وقف إطلاق النار في 1999، أكبر منظمة إرهابية في مصر. كانت هذه أكبر كتلة تنشق عن تنظيم الجهاد الخاص بسليم الرحال بعد اغتيال الرئيس السادات. قام الكثير من أعضاء الجماعة -بعد وقف إطلاق النار- بالانضمام لما يسمى "المراجعات"، والتي تتبرئ في صميم الأمر من تمردها العسكري السابق. كانوا، على الرغم من ذلك، متمسكين بافتراضاتهم السلفية، وهي الأيديولوجية غير المؤمنة بالعنف. وكان من ضمن هؤلاء، أحد مؤسسي الجماعة، وهو الشيخ صلاح هاشم الذي قضى معنا شهر رمضان كاملاً.

كان سجن مزرعة طرة لا يزال يضمّ مساجين من هؤلاء المتورطين في اغتيال السادات في 1981، فبينما أُعدم القتلة الأساسيون، فإنّ المشاركين في التخطيط كانوا لا يزالون قيد الاحتجاز، وكان من ضمنهم، ضابط المخابرات العسكرية السابق الملازم عبود الزمر، وابن عمه طارق الزمر، واللذين كانا محتجزين في مجمع السجون الأوسع الخاص بنا، أما في عنبرنا فقد كان هناك الدكتوران طارق وصلاح بيومي.

تم الحكم على بعض ممن تم إعدامهم في 1982 على يد مدّعٍ عام يدعى ماهر الجندي، والذي أصبح لاحقاً محافظ الجيزة، وفي أحد الأيام حدث صخب وضجيج في السجن، فسألت: "ما الأمر؟ ماذا يحدث؟"

قيل لي إنّ ماهراً الجندي أُدين بتهمة الرشوة والفساد، وأنه سوف ينضم إلينا هنا في مزرعة طرة لكي يعيش مع هؤلاء الباقين على قيد الحياة من المدانين في قضية السادات، بعدما أرسل زملاءهم للمشانق. كان المشهد الذي دار في مزرعة طرة ذلك الأسبوع عجيبا حقا، حينما جلس بعض من قتلة السادات يتبادلون الحديث مع المدعي العام الذي قاد القضية مطالبا بإدانتهم منذ بضعة وعشرين عاما.

"كان ذلك الرجل كلبا عقورا، يشرف على التحقيقات تحت تعذيب وحشي، قال لي صلاح بيومي في ذلك اليوم : لم تتوقف دعواتي عليه أبدا بأن يقع تحت سيف العدالة يوما ما، كما حدث لنا." "لا يرفع الله أحدا إلا خسف به الأرض بعدها، وسوف ترى يا ماجد، في أحد الأيام سيدخل مبارك هنا أيضا بإذن الله."

كان هناك جهاديون آخرون أيضا، مثل هؤلاء المتهمين بدعم جماعة أيمن الظواهري، وهي الجهاد الإسلامي. فهناك مثلا، أكرم، وهو بريطاني مصري صادقناه وساعدناه لكي يتواصل مع القنصل، بعدما قص علينا روايات التعذيب الوحشي الذي تعرض له. بدأ بعد ذلك بقليل توافد عدد من الجنسيات الأجنبية الجديدة الذين أدينوا في القضية المعروفة باسم قضية الوعد. كانت هذه المجموعة الجديدة من الأجانب تمثل هجينا جديدا من الجهاديين العالميين الذين ترعرعوا تحت جناح القاعدة التابعة لأسامة بن لادن. كانوا دوليين، ومتطرفين في آرائهم، ومدربين بشكل كامل، وخطرين، وكانوا يبدون كالأشباح المخيفة. كان هناك اثنان من داغستان، بُنْيتهم كالدببة الروسية، وكان أحدهم عمر هايجيي شاهدا على نكاح آبي، والآخر يسمى أحمد. كان عمر صانع قنابل محترفا، وقد تعلم حرفته في الشيشان وأفغانستان، وكان في طريقه لغزة في إطار جهود رامية إلى نقل مهاراته في القتل إلى حماس. وقد حُكم عليه بسبع عشرة سنة في السجن، ولكنه فرّ خلال الهروب الجماعي من السجون أثناء انتفاضة مصر، وعادة ما أتساءل عما حدث له.

أخيرا، وعلى الطرف المقابل من الطيف السياسي، كان هناك سجناء من قادة الليبرالية السياسيين، وحتى هؤلاء المتهمين بالمثلية في قضية مصر المشهورة "قارب الملكة". كان الأبرز ضمن مساجين تلك القضية مصري موسرٌ أزرقُ العينين يسمى "شريف". تخيل إن شئت واستطعت، احتجازهم في نفس العنبر، والتفاعل بين الجهاديين ومساجين قارب الملكة. كان هناك اثنان من أبرز معارضي مبارك الليبراليين المشهورين معنا، وهما رئيس حزب الغد، والمرشح الرئاسي أيمن نور، ومحاضر وبروفيسور علم الاجتماع، سعد الدين إبراهيم. كان نور قد وقف ضد مبارك في انتخابات الرئاسة في 2005، ووصل للمركز الثاني: بمعنى آخر، كان هو الفائز. و كمكافأة له، تم اتهامه بالتزوير في عملية الحصول على التوقيعات اللازمة لتسجيل حزبه، المئة توقيع كلها، والحكم عليه بسبع سنوات في السجن. كانت إدانته جنائيا تعني عدم قدرته على الترشح لمنصب الرئاسة من جديد.

أما الدكتور إبراهيم فقد كتب مقالا يعارض فيه ويشجب خطط مبارك لإعداد ابنه لخلافته. كان إبراهيم في ذلك المقال يحتج بأن مصر لا يجب أن تصبح "جملكية"، وهي كلمة تمزج الجمهورية والملكية، ويعني ذلك حكم الفرد. وكان ذلك المقال فارقا ورائدا، وقام بنقل المزاج الليبرالي في مصر إلى معارضة تامة لتسليم جمال مبارك مقاليد السلطة بعد أبيه، وقد أغضب ذلك حسني مبارك. صدمت إدانة إبراهيم بتهمة "الإساءة لسمعة مصر بالخارج" العالم ككل، خاصة الأمريكيين، وكانت عاملا مؤثرا في انتقال السياسة

الأمريكية تجاه دفع مصر بشكل أسرع نحو مزيد من الإصلاحات. كان انعدام العدالة الماثل في حالتي إبراهيم وأيمن نور معا، هو ما مضى لاحقا ليغذي عدم الرضا الليبرالي، الذي أدى في نهاية المطاف إلى انتفاضة مصر، وأصبح سعد الدين إبراهيم معروفا بأنه أحد الآباء الروحيين لفكرة الثورة. بعد ذلك بسنوات عديدة، وأنا في مؤتمر جورج بوش الرئاسي في دالاس، كان من المخطط أن ألتقي سعد الدين مرة أخرى، في اجتماع فيديو، وتحدثنا لأول مرة، أثناء انعقاد المؤتمر،حول أيامنا معا في سجن مزرعة طرة.

كانت كل هذه الشخصيات العامة مسجونين مثلي في جانب واحد من مزرعة طرة. وكما كانت مصر منقسمة إلى نظامين قضائيين مختلفين، وهما ذلك الرسمي، وذاك التابع لأمن الدولة، فقد كان السجن مقسوما من منتصفه، حيث يقع السجن الجنائي على الجانب الآخر منا، ويفصله عنا الحراس. كانت الشخصية المزدوجة للسجن تظهر بوضوح من خلال قيادة السجن المزدوجة. كان هناك، إضافة إلى حاكم السجن، ضابط أمن الدولة المسؤول عن الجانب الخاص بنا. كان الاسم الذي يستخدمه، وهو في الغالب اسم مستعار، هو محمد عشواوي.

كان أمن الدولة من وقت لآخر يعمد إلى حملات تفتيش ضد الإخوان المسلمين، وحيث إنه يوجد الكثير جدا منهم، فمن الضروري أن يتم إخلاء عنابر الجنائيين الواقعة على الجانب الآخر. ومن ثم يتم تكديسنا في زنازين ذلك الجانب في مجموعات من ثلاثين أو أكثر في الزنزانة الواحدة، لكي يخلو مكاننا لهم. وذلك يعني وجود صفوف متتالية من الفرشات التي لا يفصل بينها إلا عدة سنتيمترات قليلة. كانت تلك الحملات تستغرق شهورا، وخلال تلك الشهور كانت كل المزايا التي كنا قد حصلنا عليها بشق الأنفس تختفي.

كلما زاد عدد الناس الذين يحشرونهم حشرا في تلك الزنازين تصاعد التوتر. توفي حديثا قبلنا سجينان أو ثلاثة بالفعل في الحجز، كان أحدهم "هشام" جاري بالزنزانة لفترة من الزمن. كنا كلما حدث ذلك، نقوم نحن المساجين بالدق على أبواب الزنازين حزنا على المتوفى طيلة الليل. كان مشهدا مجفلا، ومخيفا في غرابته: يدوي صدى الرقع المعدني عالي الصوت في أنحاء السجن، ويخترقه أحيانا صرخات الحزن، التي يتخللها في بعض الأوقات الأصوات التي تهمس بصلوات يائسة. قام أمن الدولة -الآن- فيما الأجواء مثقلة بالغضب المكتوم، والزنازين ممتلئة حد التخمة بالفعل، بالإعلان عن وصول المزيد من المساجين بعد. ثارت الدماء في العروق، وتدفقنا ونحن مكدسون ومحبطون، مثل أسراب الجراد خارجين من الزنازين في هياج تام، وتحدّ سافر لأمن الدولة، ورفضنا العودة للداخل. أرسل السجن شرطة الشغب إلى الداخل، ولكنّ الإخوة المحنكين في ثورات السجن كانوا ماهرين في التسبب في الفوضى والصخب، وكانوا قد أوصلوا الجميع إلى حد الجنون. كنت هناك بالتحديد، واقفا في الوسط، معباً للثمالة، وعازما على ألا أتقبل المزيد من هذا بعد الآن. كان مشهد شرطة الشغب حين وصلت مشهدا مهيبا، يرتدون الدروع الكاملة، و يصدرون أصواتا مثل

قرع الطبل ذات إيقاع منذر بالويل، ويضربون دروعهم بواسطة عصيهم، وهم يتحركون تجاهنا في صفوف مرصوصة.

وجّهت تركيزي كله على العصي والدروع المقتربة، وكنت عازما على الصمود مكاني، وأنا أكثر غضبا وحنقا من أن أستدير حولي لأرى ما كان يحدث خلفي.

"هذا يكفي، لقد احتملنا ما يكفي! لسنا حيوانات، لا يمكنكم حشر المزيد من الناس في هذه الزنازين". صرخت بأعلى الصوت.

ولكنّني حينما استدرت، تفاجأت بمشهد المساجين المصريين، وهم متراجعون في الزنازين! كان حماسهم لا يزيد عن هباء تذروه الرياح، أو ربما كان ما يسمونه "خبرة". كانوا قد رأوا هذا من قبل ولم يريدوا أن يكرروه مرة أخرى. وقمت الآن، وأنا وحدي بالخارج، وفي غاية الغضب واليأس والإرهاق، بكل بساطة بتوجيه غضبي بعيدا عن العصي المقتربة والدروع القارعة، وبدأت بدلا من ذلك في الصراخ في وجه المساجين:

"خونة جبناء! إلى أين سوف تفرون؟ تعالوا قاتلوا أيها الجبناء!"

نظر إليّ الإخوة بإشفاق، فبدلا من كوني قوة مكونة من رجل واحد تهابه شرطة الشغب، كانوا يرونني، كما أنا حقّاً، شاباً يائساً ومتعباً، لا يريد سوى أن يعود إلى منزله. خرج بعض أصدقائي حينئذ، وأمسكوا بي بلطف لكي اهدأ، وقادوني للخلف إلى زنزانتي قبل أن أُضربَ بشدة.

"أخي ماجد، لا فائدة من ذلك، هذا لن يحقق أيّ شيء، يجب علينا فقط أن نصبر. لا يمكنك هزيمة أمن الدولة بهذه الطريقة."

لم نستفد كثيرا من تدخل الحكومة البريطانية في ذلك السجن إلا عندما أرغمناهم على ذلك التدخل. بدا في الواقع أن تحرير العراق كان هو الشيء الأكثر أولوية بالنسبة للسياسيين البريطانيين، عما كانت عليه عملية تحرير المساجين البريطانيين المعذبين في مصر. حافظ أعضاء البرلمان المحليون دافيد أميس (David Amess) وستيفن تيمس (Stephen Timms) هناك في وطني في المملكة المتحدة، على تواجد المسألة قيد البحث في البرلمان، وقام المحامي الخاص بنا صادق خان (Sadiq Khan)، عضو البرلمان، بكل ما أمكنه القيام به، ويتضمن ذلك زيارتنا ذات مرة في مزرعة طرة. ولكن في حقيقة الأمر، فإن الإدانات، والشجب المؤدب، والاحتجاجات الشديدة تفقد تأثيرها عبر المحيطات. تلك السنوات تمثل ذروة حرب بوش على الإرهاب، وكانت حرب العراق تجري أثناء احتجازي، والغرب في حاجة إلى دعم مبارك له. وبالفعل، فقد كان توني بلير قد قبل الدعوة التي قدمها له مبارك للحضور في سلسلة من الزيارات المجانية في منتجع

شرم الشيخ الحصري، فيما كان يتم تعذيبنا، نحن الرعايا البريطانيون، في سجونه.(قال بلير لاحقا أنه قدم تبرعات خيرية مساوية لتلك التكلفة).

كنا، على الرغم من ذلك، قادرين بين الحين والآخر على التأثير في الأحداث عن طريق أنشطة نابعة من اليأس المحض. قام أيان في إحدى المناسبات بالدخول في خلاف مع حارس في السجن، وقام الحارس بتقديم شكوى إلى مدير السجن، ومن ثم تم إلقاء أيان في الحبس الانفرادي. كنت الوسيط الأساسي بين الحاكم وثلاثتنا، وبالتالي ذهبت لأراه لكي أحاول التوسط نيابة عن أيان.

"إذا قلت أنا أنه سيكون في الحبس الانفرادي، فهو في الحبس الانفرادي"، قال مدير السجن بحدة، "وأقترح أن تعود أدراجك فورا، يا ماجد. لو لم تفعل فسوف يتم ترحيلك إلى سجن آخر، وبوسعي أن أرتب أمر من يقوم بقتلك، ولن يعرف أحد ما حدث أبدا، الأمر بتلك السهولة."

أنت تهددني بالقتل؟ تهددني أن تفعل بي ما لم تستطعه كومبات سي أبدا، وما لم يتح لأمن الدولة القيام به؟ أنت، مدير سجن في مزرعة طرة، تهددني أنا بالقتل؟ من الواضح أنك لا تعرف مولاي، خالق الكون، سيد السماوات والأرض، الذي قام بحمايتي في أعنف المعارك وضد أسوأ الاحتمالات، ولأكونن غير حامد ولا شاكر له إن جبنت أمام تهديدك الآن. هكذا إذن، سوف أقاومك كما قاومت كل الذين حاولوا هزيمتي قبلك، وسوف أنتصر. سوف نقف سويا متحدين أمامكم جميعا بإذن الله، وسوف نحاربكم بكل ما في وسعنا من قوة، وبكل ما في أجسادنا من قوة، وسوف يراكم ربنا وأنتم تسقطون. سيدي المدير، لقد انتهى زمنك.

قمنا بعد ذلك على الفور، أنا ورضا وأيان، بالدخول في إضراب عن الطعام. لم نأكل لمدة أحد عشر يوما وليلة، وأصررنا على نزول المدير للتحقيق، واتهامه بتهديدي بالقتل. وفيما تراكم حجم الاهتمام الإعلامي بنا، غرق السجن بالتوتر. عند اليوم السابع، صار ضغطي منخفضاً جداً، وأصبحت قعيد الفراش، ولم أعد أستطيع الوقوف. ولكن، هذه المرة، وعلى خلاف الشغب الذي لم يتم -حيث اقتصر الأمر الآن على ثلاثتنا فقط- كنا عاقدين العزم على ألا نستسلم. عادة ما يثير استغرابي كيفية قيام أصحاب السلطة في كثير من الأحيان بإساءة تقدير حجم قوة إرادة اليائسين. هناك حديث قديم يرجع للنبي محمد عليه السلام فيما معناه أن "دعوة المظلوم لاترد"، وسواء كان ما حدث حينها نتيجة للتدخل الإلهي أو الإصرار الخالص، فطبقا لما تعلمته، في نهاية المطاف، يستطيع المقموعون المظلومون دائما أن يقوموا بتغيير موازين القوى. انهارت السلطات في اليوم الحادي عشر، وجاء السفير البريطاني في مصر بنفسه إلى السجن، وأوضح لي أن مطالبنا قد تحققت (تم التحقيق مع الحاكم، وإقالته في نهاية المطاف). كان انتصارا نادرا وطيب المذاق في تلك السنوات التي كانت الأكثر قسوة على الإطلاق. كانت دعواتنا الأكثر شيوعا في تلك السنوات -رغم ذلك-

والتي شاركناها مع عشرات الآلاف من المسجونين الآخرين، هي أن نرى حسني مبارك وهو يواجه العدالة في أثناء حياتنا. إنّ الله لا يخيب ظني.

الجزء الثالث

أصولي

ابدأ مشروعا ضخما وأحمق، مثل نوح ... لا يمثّل ما يظنه الناس فيك أدنى فارق بالمرة.

جلال الدين الرومي

الفصل الرابع والعشرون
حيثما يقود القلب، يستطيع العقل أن يتبعه

كانت أكثر القصص المثيرة للاهتمام، في جوانب معينة منها، عن أيامي في مزرعة طرة، هي القصة التي تتالت أحداثها في رأسي نفسه.

يقوم الكثير من السجناء السياسيين والجنائيين على حد سواء، بالتأكيد على معتقداتهم ومهاراتهم أثناء فترة سجنهم، ويخرجون منها أكثر التزاما بهما من أيّ وقت مضى. كانت مزرعة طرة، بالنسبة لي، ومع المزيج الثري من السجناء الموجودين فيها، بدءا من قتلة السادات، ومرورا بالليبراليين، وحتى المثليين، مصدرا تعليميا متميزا على المستويين السياسي والاجتماعي معا. وبدا أنّ الدراسات والمحاورات والخبرات التي اكتسبتها في مزرعة طرة، عبر الشهور والسنوات، مهمة للغاية، بل وحرجة في أهميتها في التغلب على ولائي الدوجمائي العقائدي للأيديولوجية الإسلاموية. ما حدث هو أنني دخلت السجن وأنا شاب في الرابعة والعشرين من عمره، مثالي إلى حدّ الإفراط، ومليء بالغضب تجاه المجتمع. وفي أثناء فترة الأربع سنوات تلك، ولأول مرة في حياتي، وإذ لم يكن لدي شيء آخر أفعله سوى أن أدرس، قمت بإعادة تقييمٍ لكل شيء يمثلني وأسانده.

من المهم إدراك أن تغيّر وجهات نظري لم يقع بين ليلة وضحاها، فليست تلك الطريقة التي تتحول بها العقيدة الأيديولوجية الصلدة، إنها ليست صنبورا بوسعك أن تغلقه وحسب. كانت قضية حزب التحرير متجذرة في كينونتي إلى الحد الذي سوف يستلزم مني سنوات كي أجد طريقي للخروج منها، على المستوى العاطفي أولاً، ثم على المستويين الذهني والسياسي، وأخيرا على المستوى الاجتماعي، حتى أصل شيئا فشيئا، وقطعة قطعة، إلى إعادة هيكلة وبناء شخصيتي بالكامل من الداخل إلى الخارج. ليس هذا شيئا هينا يسهل القيام به، وبالرغم من أنني كنت قد بدأت هذه العملية حين تركت السجن، فسوف أعود للمملكة المتحدة وانا محتفظ بعضويتي في حزب التحرير. سوف يستغرق الأمر عاما آخر قبل أن أعلن عن مغادرتي لمنصب قيادة مجموعتي، بل وحتى وقت أكبر من ذلك لكي أتخلص من بواقي أثقال ومتعلقات الإسلاموية العالقة بي. استغرق الأمر ما يقرب من خمس سنوات لكي أنقلب على الثوابت الفكرية، والقناعات الأيديولوجية المطلقة التي كانت تمثل تعريفا لهويتي لفترة تزيد عن عقد من الزمان.كان هذا هو المنظور، وهو الإطار الذهني الذي كنت أرى من خلاله العالم أجمع. كان القيام بخلخلة ذلك، بترتيب تنازلي، وصولا حتى نقطة التساؤل حول

قناعاتي الأساسية دينيا واجتماعيا وسياسيا، شيئا لا يقل عن تغيير النموذج الثابت للحياة برمتها، ولم يكن لدي من يرشدني في تلك الأيام.

حدثت نقطة البدء في رحلة مغادرتي، على الأرجح، في باكستان. فقد سبّبت الطريقة التي عوملت بها هناك دافعاً لي للتفكير حول حزب التحرير، ليس من حيث الفكرة نفسها، ولكن من حيث الأفراد المسؤولين عن المنظمة. حدثت لحظة مماثلة في المحاكمة عندما وصل إلينا "الأمر العلوي" من جلال الدين والذي ينص على وجوب أن نكون "أكثر جرأة وتحديا". كان لدي الكثير من الوقت، وأنا مستلق في زنزانتي، لكي أفكر في تلك الأحداث. كنت أنا في كل مرة هو من يخطو للأمام، مخاطرا بكل شيء في سبيل القضية. خاطرت في باكستان بدرجتي العلمية ومستقبلي العلمي، وخاطرت في مصر بجسدي نفسه، ولكن، وعلى الرغم من ذلك، فقد كان يوجد في كل مرة صقور عاطلة تتعقبني وتطاردني نتيجة لانعدام ثقتهم، إضافة إلى ضعفهم الشخصي. لم يمثل كل ذلك تحديا لإيماني بالإسلام أو -من حيث المبدأ- اقتناعي بالايديولوجية الإسلاموية، ولكنه دفعني للتساؤل حول كفاءة وقدرة وتكتيكات واستراتيجية هؤلاء الشخوص. إن هذا -فيما أعتقد- هو نقطة البدء في عملية التخلي عن حركة أيديولوجية، وذلك بالنسبة لمن هم قادرون وشجعان بما يكفي، لكي يتتبعوا خيط أفكارهم حتى النهاية، ومن ثم الوصول للمحصلة المنطقية. يجب عليك أن تستمر في نزع طبقة تلو الأخرى -مثلما يحدث في حالة تقشير البصل- و الكشف عما يلي كلا منها، مهما كانت الدرجة التي تكون بها تلك العملية مؤلمة للنفس. إن فقدان ثقتي في قادة حزب التحرير، وإحباطي من تكتيكاتهم، كان يعني أنني كنت -بحلول الوقت الذي صدر فيه الحكم بحقي- مستعدا للتفكير بشكل أكثر جدية فيما يختص بأيديولجيتي.

لم يكن سلوك أعضاء حزب التحرير -رغما عن كل ما سبق ذكره- هو العامل الوحيد الذي دفعني في هذا الطريق. أعتقد أنه حيثما يقودك القلب، فبوسع العقل أن يتبعه هناك. قامت منظمة العفو الدولية، بعد أن تمت إدانتنا، بتبني قضيتنا، بوصفنا "معتقلي رأي"، وبدأت في القيام بحملات مفتوحة وشرسة تطالب بإطلاق سراحنا. نتج هذا عن الجهد الدؤوب الذي بذله جون كوموال (John Cornwall)، وهو عضو في فرع باكنجهام من المنظمة المذكورة. كان جون هو الذي ألح في أروقة المنظمة على أن قضيتنا تستحق دعمها. كنا نستحق أن يتم تبني قضيتنا بشكل رسمي بوصفنا "سجناء رأي"، نتيجة لما حدث من اعتقالنا وسجننا بناءً على أفكارنا -وإن كانت غير مقبولة- ولا شيء سواها. كان جون -وهو رجل مسيحي ضعيف البنية في الثمانينات من عمره، ولم أكن أعرفه- يقوم بحملات من أجلنا بحماس لم أره في معظم الشباب في العشرينيات من عمرهم، وأصبحت قصتنا معا في نهاية الأمر، موضوعا لفيديو قامت منظمة العفو الدولية بعرضه في حلقة متلفزة.

لم يكن كل الناس في العفو الدولية موافقين على القيام بحملات دفاعا عنا. عرفت لاحقا، أن موضوع دعمنا من عدمه كان قد أصبح مسألة شائكة داخليا، وقد كانت الحجة المقابلة، هي أنه وبالرغم من أننا لم نرتكب جرائم بأنفسنا، فقد كانت الأيديولوجية التي نمثلها تدعو لانتهاكات عريضة لحقوق الإنسان: فما أن تتحقق نسخة الخلافة الخاصة بنا، فقد كنا ندعو إلى ونمثل سياسة عدوانية تنطوي على الغزو الأجنبي والتوسع، وعقوبة الموت للمرتدين والثوار والمثليين، بالإضافة إلى رداء رسمي إجباري يتم فرضه على النساء. كما سيتم قطع يد اللصوص، ورجم الزانيات حتى الموت. لماذا يجب على العفو الدولية أن تقوم بحملات للدفاع عن حقوق الإنسان الخاصة بنا، إن كنا نحن حين تتاح لنا الفرصة، سوف نحرم الآخرين من حقوقهم؟

لا توجد إجابة سهلة لهذا السؤال. ماذا لو حدث، قبل الوصول للسلطة، أن تم اعتقال هتلر من أجل آرائه -التي لم تكن عنيفة بعد- حول الاشتراكية الوطنية؟ أو ماذا لو، في حدث أقرب لقصتي، تم تعذيب مبارك كما تم تعذيب القذافي؟ كان الامتداد المنطقي في حالة دعم قضيتنا، هو أنه يجب على العفو الدولية، نظريا، أن تكون على استعداد للقيام بحملات من أجل هتلر لو تم اعتقاله لمجرد كتابة "كفاحي". قامت المنظمة بحل هذه المعضلة بطريقة فولتير، والتي يمكن إيجازها على أفضل وجه، باستخدام كلمات إيفلين بياتريس هول (Evelyn Beatrice Hall): "أنا لا أوافق على ما تقوله ألبتة، ولكنني -على الرغم من ذلك- سوف أدافع عن حقك في أن تقوله حتى الموت"

مع وضع جميع الانحيازات جانبا، في رأيي أنا، فتلك هي الإجابة الوحيدة التي يمكن الوصول إليها. سوف يجعل أي موقف آخر من حقوق الإنسان، بوصفها شأنا عالميا جامعا، نكتة ومثار سخرية. ولم أزل حتى الآن، وأنا أقضي حياتي وأفنيها في حملات ضد التطرف، على موقفي الراغب في أن تقوم منظمة العفو الدولية بالدفاع عن حقوق الإنسان في حريته في قراءة "كفاحي"، أو "معالم في الطريق" الذي كتبه قطب، حتى وأنا في خضم حرب ضروس مع كل من معسكرات الفاشية، من أقصى اليمين وحتى الإسلاميين، على حد سواء. يكمن الشيطان -رغم ما سبق- في التفاصيل، حيث إنني أعارض -ليس فقط- منظمة العفو الدولية وحسب، بل والكثير من جماعات حقوق الإنسان، في قصورهم في جوانب إبراز وتوضيح الفارق الجلي والواضح للعيان، بين ضحية انتهاكات حقوق الإنسان، وبين أبطال قضايا حقوق الإنسان.

لكل سجين تم اعتقاله فقط جزاء التعبير غير العنيف والسلمي عن معتقداته لا غير، بغض النظر عن كم الانغلاق وانعدام الليبرالية فيها، حق آلي وغير مشروط في دعمنا بوصفه زميل انسانية، ولكن، ليس كل سجين سابق، بعد الإفراج عنه، يستحق أن ينال بشكل آلي لقب بطل في مجال حقوق الإنسان، وأن يتم تنصيبه على المنصات ذات المكانة المتميزة في مجال حقوق الإنسان بوصفه متحدثا له حق الحديث باسم قضايا

حقوق الإنسان. إن قمنا بالاستمرار في الاستعانة بالتماثل مع قصة هتلر، فسوف أقوم بحملات ضد أي شخص يرغب في تعذيب مبارك، حيث إنه لايزال إنسانا، ولكني لن أمنح أياً من رجالات نظام مبارك أبدا أي منصة لحقوق الإنسان كي يخطب منها في حشد صغير السن، أو من الطلاب المتطوعين الذي يسهل التأثير فيهم، كما لو كان الآن بطلا مكللا بالغار في مجال حقوق الإنسان، لا لشيء سوى أنه (نظريا) قد تم انتهاكه أو الإساءة له بعد الثورة. يجب أن تحظى منصة حقوق الإنسان -من خلال تعريفها ذاته- بمستوى تحمل وقبول أكثر صرامة في تصنيفها للمتحدثين.

تقوم كثير من جماعات حقوق الإنسان، وقامت -للأسف- بتمييع هذا الفارق حين يتعلق الأمر بتقديم متحدثين إسلامويين جهاديين على منصتهم. الحياة أكثر تعقيدا من ذلك. الإسلام والإسلاموية والجهاديين أكثر تعقيدا من ذلك. وكما أن العالم ككل، ليس ثنائية مكونة من المسلمين ضد كل من سواهم، فليست كذلك، ثنائية بين الأمريكيين ضد كل من عداهم. إن مصداقية قضايا حقوق الإنسان على المدى الطويل ترتكز على إدراك مبدأ بعينه، وهو إدراك يتم تشويهه إن تم اختزال القضايا الجماهيرية في شكل حملات تروج لثنائيات بعينها، سواء كانت خلال الحرب على الإرهاب، أو لاحقا أثناء الانتفاضات العربية. أتفق -بكل حساسية- مع جيتا ساهجال (Gita Sahgal) في موقفها المبدئي -الناقد من داخل سكرتارية منظمة العفو الدولية- وهي تدفع بما سبق ذكره، و تم بسببه تعليق عضويتها في المنظمة.

بوصفي سجين رأي سابقا تولت قضيته منظمة العفو الدولية، وبوصفي شخصا مدينا للأبد للمنظمة، فنصيحتي -بكل حساسية- تأتي من شخص اكتشف مبادئ المنظمة على أرض الواقع. كان دعم العفو الدولية جزءا أساسيا من رحلتي السياسية. وأنا -بشكل جزئي- ما أنا عليه الآن نتيجة للقرار الذي أتخذوه بالقيام بحملات من أجلي بوصفي سجين رأي. إن قدر وقيمة وقوفهم بجانبي هي بالتحديد سبب عدم رغبتي في أن أرى أي شيء يمس من قريب أو بعيد رسالتهم تلك أو يقلل من أثرها. إن ما يقومون به في مجال حقوق الإنسان أهم كثيرا من أن يتعرض لمثل ذلك.

كان دعم منظمة العفو الدولية لمصيبتي شيئا فاجئني جدا. كانت الطبيعة غير المشروطة لما قدموه هي ما جعلني أشعر بالضآلة: أنت إنسان. ولذا تستحق دعمنا. كان هناك شيء شديد القوة وشديد النقاء في ذلك الموقف. تستقي الإسلاموية، مثل الكثير من الأيديولوجيات، جزء من نفوذها من نزع أنسنة "الآخر" عنه. من الأيسر أن تتجاهل الأمر، وترتكب جرائم في حق "الآخر"، إذا اعتبرته بلا قيمة. تم خلال مراهقتي وشبابي الأول نزع إنسانيتي، ثم حساسيتي تجاه العنف. بدأت بدوري -أثناء عملية اجتذابي وانغماسي حتى الثمالة في الأيديولوجية الإسلاموية- في نزع الإنسانية عن الآخرين.

مثل دعم العفو الدولية لي تحديا سافرا لكل ذلك، فبدلا من نزع الإنسانية عن الناس، أعاد لهم إنسانيتهم. فكرت الآن في ساف مارك، ومات ودان اللذين تم طعنهما نتيجة لارتباطهما بي، فكرت في دايف جومير والسيد موث، وفي شريك أمي. كانت تلك روابط صيغت مع أشخاص غير مسلمين، وكانوا بالفعل يهتمون بمصلحتي. وبدلا من الافتتان بالحياة الأخروية والموت، ولأول مرة بعد سنوات عديدة، بدأت أعيد صلاتي بالحياة والإنسانية. ليس هذا شيئا تستطيع تعليمه لأحد، إنه شيء يتعين عليك أن تعيشه وتشعر به. حيثما يقود القلب، فبوسع العقل اللحاق به.

بدأت أرى التفاعلات الإنسانية المحيطة بي في إطار مختلف كذلك. في 8.50 من صباح 7 يوليه سنة 2005، انفجرت ثلاث قنابل في قطارات الأنفاق في لندن، في سياق هجمات إرهابية منسقة. بعد ذلك بما يقل عن ساعة واحدة تم تفجير قنبلة رابعة في مؤخرة حافلة من طابقين في ميدان تافستوك، بجوار جامعتي، كلية الدراسات الشرقية والأفريقية، مباشرة. كانت الحصيلة الكلية 52 قتيلا، ومئات من المصابين. كان سعيد نور قد تحول إلى الكثير من السعيد نورات، وكانت الجهادية قد ضربت أخيرا في قلب لندن. شعرت -على البعد وأنا في مزرعة طرة- بالاشمئزاز عندما سمعت هذه الأخبار. على عكس رد فعلي في 11/9، وقد قطعت بالفعل شوطا طويلا في طريقي لإعادة أنسنة العالم، والفضل لجون كورنوال (John Cornwall) وآخرين معه، فقد فكرت على الفور في الثمن البشري المرتبط بالأمر. ذهبت إلى غير رجعة كل الألاعيب الأيديولوجية الأكروباتية والتبريرات المكيافيلية. رأيت هذه المرة، بكل وضوح وبساطة، مجرد قتلى أبرياء لا غير.

لم تكن هذه رؤية الجميع في السجن. كان الكثيرون، ومنهم عمر هايجيي، صديقي صانع القنابل الداغستاني، والشاهد على نكاح آبي، فخورين مبدئيا بما قام به الإرهابيون. كان عمر لازال في حرب، و لندن تعتبر هدفا شرعيا. كانت بريطانيا قد شاركت في غزو واحتلال العراق، وقد قاموا هناك بقصف وقتل آلاف من المدنيين "التابعين لنا"، واحتلال "أرضنا". كانت الحكومة التي قامت بهذا منتخبة بالأغلبية، وكان عمر مقتنعا سياسيا ودينيا، أن العين بالعين والسن بالسن هي الرادع الصحيح والمناسب لهؤلاء الكفار. كانت وظيفته، على كل حال،هي تدريب الجهاديين الصغار على الفن الرفيع للقيام بمثل ذلك الفعل تحديدا. كان عمر راضيا عن حقيقة أننا نحن المسلمون كنا أخيرا مستعدين وقادرين على القتال ورد الصاع صاعين. كان ما لدينا هنا هو رجل قادر تماما، وبشكل تشغيلي وعملي تماما، على إعداد مثل تلك الهجمات بنفسه.

وفي حين كنت سابقا، سوف أشجب معاناة الكفار بوصفها لا تخصني، أو أقوم باستخدم حجة حزب التحرير الميكيافيلية التي تنص عن أن تلك الأنشطة كانت لا تمثل أكثر من انحراف يشغلنا عن هدفنا الحقيقي، فقد كنت هذه المرة، أشعر بالتكلفة الإنسانية التي انطوى عليها الأمر. كان التعاطف هو ما يحركني الآن، بدلا

عما كان من قبل، إذ كان لا يحركني إلا الغضب وحده لا غير. استدرت، إذن، إلى عمر وسألته: هل تعرف أين حدثت أكبر مظاهرات ضد حرب العراق؟ جعلته يشاهد، عن طريق مقتطفات حديثة وقصاصات جرائد قديمة، صورا للمسيرة المليونية التي جرت في مارس 2003 في لندن. كانت حقيقة أن أكبر المظاهرات ضد حرب العراق، لم تكن في مصر، أو المملكة السعودية أو باكستان، ولكن في المملكة المتحدة، قد مست قلبي. كان هؤلاء الذين يعيشون في لندن، بشرا يقومون بحملات من أجل بشر آخرين في العراق. إعادة الأنسنة. حيثما يقود القلب، فيمكن للعقل اللحاق به.

شرحت لعمر إنه بمجرد أن تعلن الحكومة الحرب، فلا يعني ذلك أن الجميع يدعم هذا التصرف. ليست الديموقراطية مماثلة لاستفتاء، ولم يكن هناك استفتاء على الحرب في العراق. وحتى لو كان هناك استفتاء، فلم يكن ذلك ليدعم مقتل المدنيين العراقيين. إذا سلمنا بحجتك، فعليك إذن أن تنسف تركيا قبل أن تقوم بتفجير قنبلة في لندن. إن تركيا هي عضو في الناتو التي دعمت الحرب كذلك. تركيا دولة ديموقراطية أيضا، ولم تقارب المظاهرات هناك بأي شكل تلك التي حدثت في لندن، ويعني ذلك بالتأكيد، من خلال منطقك، أنه لابد أن يكون الأتراك أكثر دعما للحرب من البريطانيين. هز عمر رأسه، ولكن الشعب التركي مسلم، لا يمكننا قتل قومنا.

لم أتوقف عن دفع حجتي قدما. إذن، فالقتل الذي تمارسه يتعلق بشكل أقل بالمبدأ، وبشكل أكبر بالمصلحة والفائدة؟ هل تتمثل قيمة حياة البشر عندك في إحراز النقاط السياسية؟ إذن كيف يكون ما تحارب من أجله أفضل بأي شكل عما تحارب ضده؟ كيف يمكنك أن تصطنع الاشمئزاز من ألاعيب بوش الحربية، حينما لا يتعدى الأمر كونه لعبة لديك أيضا؟ ألا ترى ذلك؟ إذا كان الشعب التركي هدفا غير شرعي للهجوم، فكذلك يكون الشعب البريطاني. انظر -أشرت إلى اللوحات المرفوعة في المسيرة-تلك هي مجموعات مسيحية، مجموعات مسلمة، مجموعات سياسية وطلاب ومتقاعدين، إنهم مجرد بشر. اتقِّ الله يا اخي.

استمر بنا الحال هكذا، لمدة يوم كامل، ونحن نناقش علم الأديان، والسياسة والحرب، حتى بدأ عمر في نهاية المطاف، يمرر أصابعه خلال شعره ويبدو غاية في الانزعاج. عند تلك النقطة، توقفت عن دفعه أكثر من ذلك. ظننت لبرهة من الزمن، أنه سوف ينقلب ضدي، وكنت قد رأيته يتصارع في فناء السجن مع الصديق الداغستاني الآخر أحمد، ولو أراد، لاستطاع إنهاء هذا الأمر في ثانية واحدة. ولكنّ عمر لم يكن رجلا أحمق، وبالتأكيد لم يكن عديم الذكاء، وكان قد صار يكن لي الكثير من الإعزاز مع مرور الوقت. بعد ذلك بيومين، كان هناك من يقرع باب الزنزانة الخاصة بي، وكان عمر قد عاد، قال إنه قرر أنني على حق. وأنه يتفق معي، ليس المدنيون البريطانيون هدفا شرعيا.

شعرت في ذلك اليوم أنني قد أنقذت الكثير من الأرواح المستقبلية من أيدي صانع القنابل صديقي هذا (والذي، بعد انتفاضة مصر، أعتقد أنه يجول في الشوارع في مكان ما). كنت فخورا، فخورا بنفسي لأنني حققت شيئا صغيرا ولكنه ذو قيمة، وفخورا به هو لأنه كان يملك التواضع الكافي لكي يقوم بتغيير موقفه ورأيه، وفخورا بالشعب البريطاني الذي بالرغم من عدم نجاحه في "إيقاف الحرب"، فإنه لم يفشل، إذ ربما كانت حملاتهم وطاقاتهم ومجاميع الضغط التي كونوها لم تجد آذانا صاغية، ولكن ليس هنا، ليس في مزرعة طرة، وليس مع عمر؛ كان الثمن هنا ذا قيمة.

تقدمت عملية إعادة الأنسنة التي أشعلت شرارتها العفو الدولية على يد أشخاص آخرين في السجن كذلك. كان أيمن نور على الأرجح هو أكثر مساجين مزرعة طرة اختلافا في آرائه عني في ذلك الوقت، ولكنه كان شخصا مثيرا للاهتمام بشكل كبير جدا عند قضاء وقت معه في السجن. كان طموحه وجرأته هي أكثر ملامح شخصيته بروزا. كان نور مستعدا ليرفع رأسه فوق المجموع، ويتحدى مبارك على الرئاسة فعليا، عندما كان القيام بذلك مايزال ذنبا لا يغتفر. كان ذلك وحده يستحق الاحترام، بغض النظر عن أي اختلافات سياسية أخرى.

كنا، أنا ونور، نقضي الوقت معا في السير حول فناء السجن، وكنت أستجوبه حول أفكاره، ودوافعه وأحلامه. كنت أريد أن أفهم ما الذي يحفز الناس لكي يضحوا من أجل أي قضية سوى قضية الإسلاموية. كان ذلك يثير اهتمامي للغاية، فالإسلاموية بالنسبة لي هي ما يسمح لنا أن نواجه ميكي أخيرا،وسمح لنا بأن نتحدى طلبة نيوهام الأفارقة، ويتيح لي أن أواجه معذبيّ بقناعة تامة. على الجانب الآخر، فقد كان نور وسعد الدين مستعدين لتحمل معاناة السجن في سبيل الليبرالية، التي تعد قضية شيطانية ملحده وخرابا للدين.

كان الأمر الذي جمع بيننا هو أن نور قد اكتشف في نفسه شيئا كان لدي كذلك، لم يكن نور -كما ظهر لاحقا- مؤمنا بمثل تلك الآراء الليبرالية منذ البداية. شرح لي نور، بشكل صدمني وأبهجه، كيف كان هو أيضا في أيام شبابه من داعمي حزب التحرير. كانت حيواتنا قد تقاطعت كذلك في لندن، حين قام بحضور مؤتمر الخلافة المقام في ملعب ويمبلي، وهو نفس المؤتمر الذي هز البلاد بالزئير الذي دوى كالرعد "الله أكبر!".

سألت وأنا مهتم حقا: "سبحان الله! إذن لماذا هجرت القضية؟"

وفيما نحن نسير عبر رمال الصحراء في فناء سجن مزرعة طرة، نظر إليّ نور وقال ببساطة:"كبرت". فاجئتني تماما الطريقة التي نطق بها كلمة: "كبرت".

جعلتني الجملة أتوقف عندها، كنت أتوقع تبريرا شبه ديني ومطول حول سبب مغادرته، ولكنّه لم يحاول ذلك أبدا، وكان يعرف أنه لو حاول لكان قد خسر، لأنه كان يعلم أن تدريبي سوف ينسف حججه نسفا.

كان أذكى من أن يتخذ ذلك الطريق، وبدلا عن ذلك، فقد ترك تلك الجملة معلقة، وتركني أفكر فيها. وفكرت فيها.

قررت في تلك الأثناء التي كان قلبي يقود فيها الطريق، من خلال علاقات مع بشر مثل جون كورنوال من منظمة العفو، و أيمن نور وسعد الدين إبراهيم، أن أقوم بتغذية عقلي كذلك. وهكذا استغللت وقتي في السجن في دراسة كل ما استطعت أن أضع يدي عليه حول الإسلام، وهو الإيمان الذي آمنت أنه يشكل أسس أيديولوجيتي الإسلاموية. وقررت -في ايماءة إلى تشجيع آبي لي أثناء طفولتي- أن اقرأ أكبر عدد من كتب الأدب الانجليزي التي أستطيع الحصول عليها.

نمت صداقة جيدة بيني وبين أخ يدعى محمود، وكان محكوما عليه بخمسة عشر عاما لكونه ضمن قيادات الجماعة الإسلامية في القاهرة، رغم أنه كان قد تبرأ من معتقداته تلك منذ ذلك الحين. كان محمود خريج لغة عربية من دار العلوم، وهي أرقى كليات اللغة العربية في مصر.

كانت أمن الدولة -في خطوة تكتيكية وحرب نفسية علاوة على تعذيبه الوحشي- قد قامت بتهديد زوجة محمود حتى حصلت على الطلاق منه. قضيت أياما كثيرة، في زنزانة محمود وأنا أعمل على تحسين لغتي العربية من حيث النحو والتشكيل والكلمات، وبالمقابل، كنت أحاول مساعدته في تعلم بعض الإنجليزية. لا تحتوي اللغة العربية على الحرف "p"، ويعد ذلك أحد الصعوبات الجمة التي يواجهها العرب في الحديث باللغة الانجليزية،ولسبب ما فإنهم دائما ما يقومون بتقصير صوت الحروف المتحركة المزدوج "ee" إلى "i" واحدة فقط. ينجم عما سبق، أن يتم نطق كلمة مثل "please" على سبيل المثال، عادة في شكل "bliss".

كنت ذات يوم أحاول أن أقوم بتعليم محمود الفارق في النطق بين كلمات "مشمش، وشاطئ، وملعب أو نبرة،'peach', 'beach' 'pitch'. قلت له الكلمات ببطء شديد، وضغطت على مخارج الحروف بشكل كبير. استمع لي محمود بحرص شديد،ومن ثم بكل الإخلاص الذي يستطيعه جهادي ملتحٍ سابق، ردد الكلمات لي بأعلى صوت لديه: "bitch, bitch, bitch". نظر لي متحيرا فيما انفجرت أنا في نوبات من الضحك المتواصل.

وجدت معلمين آخرين من أجل دراستي، قمت أيضا بمصادقة عضو تائب من الجهاد الإسلامي، اسمه منعم. وعبد الحميد الذي كان مسجونا احتياطيا لمدة خمس سنوات، وهو خريج أكثر جامعات الإسلام السني رقيا.وكذلك عالم أديان ألمعي بشكل خاص، وواسع الإدراك يسمى الشيخ نضال، وكان مسجونا احتياطيا كذلك لمدة ثلاث سنوات تقريبا. قام هؤلاء الثلاثة بتدريسي بشكل ممتاز في مجالات الأحكام الإسلامية القديمة. قد يبدو ذلك شيئا غريبا، في ضوء مدى التزامي بالايديولوجية الإسلاموية، ولكني لم أكن قد درست الإسلام أو القرآن بشكل صحيح من قبل. كانت الإسلاموية حركة سياسة قبل أن تكون دينية، وكان

الكثير من متبعيها من خلفيات غير دينية أبدا. كان هذا شيئا استخدمه السلفيون دوما ضدنا عبر السنوات. صحيح أنني كنت على مر السنين، وحيثما كان النص يدعم حججنا، قد قرأت مقتبسات، وناقشت آيات بعينها في حلقات حزب التحرير، ولكني لم أحاول أبدا أن ادرس القرآن بشكل صحيح بنفسي.

وهكذا كان أنه في مزرعة طرة، حفظت نصف القرآن عن ظهر قلب، على يد عضو تائب آخر من الجهاد الإسلامي وهو علي فقيه المحكوم عليه باثني عشر عاما، والحائز على إجازة في التلاوة على يد معلم كبير. يحتاج المرء لكي يستطيع تقدير النص القرآني العتيق إلى تأويل، ويحتاج فهم المصطلحات الدينية الثقيلة الوطء إلى مجهود جبار في حد ذاته. هذا ما كان يساعدني فيه المعلمون الذين اخترتهم. بدأت أصل إلى فهم أكثر عمقا وشمولا للإسلام عما عرفت قبل ذلك، وبدت الآن تلك الفترة المظلمة خلال الحبس الانفرادي، حين أقسمت أن أصبح مفجر قنابل انتحاريا، كما لو كانت من بنات أفكار رجل مجنون لا علاقة لي به.

كانت الجماعة الإسلامية -وهي سابقا أكبر جماعات مصر الإرهابية، أثناء فترة سجني، مشغولة هي أيضا بنشر مراجعاتها للفكر الجهادي. قامت تلك المراجعات بتفكيك وتحليل الأيديولوجية العنيفة التي تعتنقها الجهادية باستخدام علم اللاهوت التقليدي. إن ما كان ذا أهمية قصوى هنا، هو أنه تم كتابتها ونشرها على يد قيادة الجماعة أنفسهم. كان لدينا هنا، لأول مرة، منظمة جهادية كاملة، تعترف أنها أخطأت تماما. قمت بالتهام كتاب تلو الكتاب من تلك المراجعات، وبالرغم من أنني لم أكن أبدا جهاديا، فلم يكن من الصعب عليّ أن أرى كيف كانت الحجج الأساسية المستخدمة هنا، قابلة للامتداد على طول الخط، حتى الوصول إلى لب مفهوم أيديولوجية الإسلاموية ذات نفسها. بدأ ذهني يقوم بتوصيل النقاط التي لم تجرؤ حتى الجماعة على ربطها ببعضها.

كانت قراءة الأدب الإنجليزي الكلاسيكي قد منحتني ما لم تستطع دراسات اللاهوت الإسلامي أن تمنحه. لقد أرغمت ذهني على الاشتباك مع المتاهات الأخلاقية. كان القنصل البريطاني، عندما نطلب منه ذلك، يرسل لنا الكتب من مكتبة السفارة. قمت بالتهام الكلاسيكيات، ولكن، بالإضافة لذلك، وجهت تركيزي إلى ثلاثية "سيد الخواتم" (Lord of the Rings trilogy)، للكاتب تولكين(Tolkien)، وقرأتها مرتين. لم أستطع أن أنزع نفسي من التناقض الأخلاقي الذي مثله جولوم-سميجول (Gollum-Sméagol). كان جولوم كائنا شريرا مستعدا للقيام بأي شيء في سبيل الحصول على خاتمه الأوحد واستعادته. ولكن، وعلى الرغم من ذلك، ومع ذروة أحداث القصة، لم يكن البطل فرودو هو من دمر الخاتم. كان، كما فعل جولوم "الشرير" قبله، قد استسلم في نهاية الأمر إلى سحر الخاتم، وقام بمحاولة أخيرة يائسة للاحتفاظ به. كان جولوم في الواقع هو من انقضّ على الخاتم، وقضمه من إصبع فرودو، قبل أن يلقى، بشكل عرضي، مصرعه في الحمم اللاهبة

في جبل دووم، ويدمر الخاتم معه. وبالتالي، فقد قامت شخصية شريرة، بلا قصد منها، بتحقيق الخير الذي فشل فيه بطل القصة، وأنقذت العالم. بدأت هذه التعقيدات الأخلاقية تخلب لبي.

قرأت كذلك، وأعدت قراءة مزرعة الحيوانات (Animal Farm) للكاتب أورويل (Orwell)، وسيد الذباب (Lord of the Flies) للكاتب جولدنج (Golding). جعلتني مزرعة الحيوانات أمعن التفكير في الحياة تحت سيطرة الخلافة، حيث يحكم أمثال امتياز وعرفان وعبد الوجيد وجلال الدين ومن شابههم. كانت قصة سيد الذباب للكاتب جولدنج إنذارا شديد اللهجة ضد الطغيان الذي قد ينبع من أكثر الأرواح براءة، ومع أفضل النوايا. لم تكن حتى براءة الأطفال كافية كضامن ضد الظلم وانعدام العدالة، ولكن ورغم ذلك، فها نحن نعمل على قدم وساق لإقامة نظام يقوم بتنصيب حاكم مدى الحياة، ويتحكم به ويديره أفراد مماثلون لعبد الوجيد أو جلال الدين، ويدّعي أنه يحكم باسم الرب.

كان مجموع إعادة الأنسنة هذه، مع دراسة الإسلام من مصادره، والاشتباك مع التعقيد الأخلاقي من خلال الأدب، قد تركت تأثيرها في نفسي بصورة وأشكال عميقة وأساسية. بدأت عبر السنين في إعادة النظر والتمحيص في كل شيء كنت أعرفه، وكنت مستعدا للموت من أجله في يوم ما. ولم يسعني سوى أن ألحظ، أنه بالرغم من أننا وضعنا عمليات تأسيس "الدولة الإسلامية"، و"تطبيق" قوانين الشريعة فوق حتى أكثر الطقوس تدينا، فلم يرد ذكر كلمات "القانون"، أو "الدولة"، أو"الدستور"، ولو مرة واحدة في القرآن. وقد بدا ذلك، حين أمعنت التفكّر فيه، معقولا جدا من الناحية التاريخية، فقد كان القرآن نصا تاريخيا، في حين كانت الأفكار السياسية مثل "النظام القانوني الموحد"، و"القانون المقنن"، و"حالة الدولة"، و"الدستور"، كلها مفاهيم سياسية حديثة: أي لم تكن متواجدة عند كتابة القرآن.

رجعت أدراجي للنظر إلى ما يعده الإسلامويون المثل الحقيقي الأخير على الحكومة الشرعية: وهي الخلافة التركية أو الإمبراطورية العثمانية. كان التاريخ يخبرني -مرة أخرى- قصة مختلفة للغاية عما يسرده حزب التحرير. لم تكن هذه الخلافة قد امتلكت أبدا النظام القانوني المقنن الموحد الذي كان حزب التحرير يقترح "تطبيقه" مع الشريعة بوصفهما قانونا. بدلا عن ذلك، فقد كان العدل يتم عن طريق نظام "الملة"، وهو نظام هيكل قانوني متعدد، حيث يتم ترك تفسير الشريعة لمحاكم المجتمع المحلي. كانت تلك تستمع للأدلة، وتقوم بتفسير الشريعة كما يتراءي لها. لم يكن هناك حتى أي قانون يلزم الناس بالذهاب لتلك المحاكم، كان ذلك قرارا اختياريا. قدم العثمانيون خطوطا عامة حول الأمور الإدارية، ولكن كان هذا مختلفا عن أي نوع من النظام القانوني.

كانت فكرة النظام القانوني المقنن الموحد، وامتلاك قضاة يخدمون ذلك النظام القانوني، ودستور يؤطر لذلك النظام القانوني، ودولة تحمي الدستور من خلال احتكار استخدام القوة، قد ولدت مع مولد دولة

الوطن الأوروبية. كانت تلك هياكل غربية معاصرة. وقد حاولت الخلافة العثمانية، وهي تصارع لكي تتأقلم، أن تبادر بعملية إصلاح معروفة بإسم التنظيمات، في جهد لدراسة كيف يمكن دمج تلك الأفكار الأوروبية بأفضل طريقة في إمبراطوريتها.

لم يتم أبدا خلال معظم التاريخ الإسلامي تبني أي تفسير وحيد للشريعة وفرضها على المجتمع بوصفها نظاما قانونيا مقننا. في الواقع، وعلى عكس تأويلها الإنجليزي، فحيث نستخدم نحن "الشريعة" بوصفها صفة تصف الاسم "القانون"، ففي اللغة العربية الأصلية "الشريعة" هي مجرد اسم فقط. إن عملية "تبني وتطبيق" أي تفسير بعينه للشريعة بوصفه قانونا ليس شيئا مفروضا دينيا، ولم يحدث في التاريخ أن كان ذلك. كانت النظم القانونية الموحدة هي فكرة أوروبية، بل الأسوأ من ذلك، كانت رغبة دمج القانون مع التعاليم الدينية فكرة سابقة عن عملية الإصلاح الكنسي الكاثوليكي تحديدا. كان إدراك هذا الشيء ذا دلالات عميقة الأثر في معتقداتي. ما حدث هنا أنه بدلا من أن يكون العدل -في سياق التناسق القانوني-مستقى من الإسلاموية، فقد كانت الإسلاموية تعتمد في انطلاقها على المفاهيم الغربية للعدل. دفنت رأسي بين يديّ فيما أدركت ببطء شديد ... إننا نحن الإسلاميون كنا الأبناء غير الشرعيين للاستعمارية.

فكرت الآن في هؤلاء الذي يشبهون محامي المحاكمة الذي مثلني، أحمد سيف. لم يكن إسلامويا، بل شيوعيا. ولكن، وعلى الرغم من ذلك، فهاهو يقوم بحملات جسورة بلا خوف بوصفه عضوا مؤسسا في "كفاية"، وهي أول منصة مفتوحة حديثة في مصر تعارض مبارك، وهي منظمة ذات خطوط غير إسلاموية. كان أيمن نور وسعد الدين إبراهيم ليبراليين، من الطرف الآخر من الطيف، ولكنهما كانا متحمسين تماما لفكرة رحيل مبارك أيضا. فكرت، كذلك، في منظمة العفو الدولية، وحملاتها من أجل سجناء الرأي المماثلين لي. كانوا في كل من تلك الحالات، مدفوعين بنفس المبدأ الذي كان يدفعني عندما انضممت إلى حزب التحرير، الدفاع عن العدل. على خلاف الأمر معي، فقد كانت قضاياهم ومعتقداتهم جميعا لا تمت بصلة للإسلاموية.

تم تلقيني منذ البدء -وقد صدقت ذلك مخلصا-أن وجود الإسلاموية يعني تحقيق العدل، وأن غيابها يخلق الظلم، ولكنني كنت قد بدأت أرى الأشياء بشكل مختلف الآن. كان ما يقوم أحمد سيف وأيمن نور بحملات من أجله من زوايا رؤيتهم المختلفة عادلا بلا شك، ويستحق أن يتم احتجازهم لمثل تلك الفترات الطويلة طبقا لمزاج الرئيس، فلم يعد لدي أدنى شك في ذلك. كانت الحريات التي تدعو لها وتمجدها منظمة العفو الدولية شيئا أستطيع أن أقول، عن تجربة شخصية، أنه عادل تماما. على الرغم مما سبق ذكره، فلم يكن أي منهم إسلامويا.

قابلت أثناء دراساتي حديثا للرسول عليه السلام يخص النجاشي، وهو ملك حبشي مسيحي قام بحماية صحابة الرسول ووفر لهم الأمان حينما كانوا يفرون من المشركين من قريش. حيث قال فيه الرسول: "ملك عادل لا يظلم عنده أحد". عدل على يد ملك مسيحي بشهادة الرسول بنفسه.

وفيما بدأت في فصل العدل عن الإسلاموية في ذهني، كان ذلك إيذانا ببداية نهاية إيماني بالإسلاموية. لو تم الفصل بين العدل والإسلاموية، فلم يكن ذلك يعني فقط إمكانية تحقيق أحدهما بدون الآخر، بل كان يعني أيضا وجود حالات حيث قد يتعارض الاثنان معا. كان السبب الوحيد في انضمامي إلى حزب التحرير هو النار التي أشعلها الظلم في صدري. كان وعيا وإدراكا غير مريح بالمرة، ولم أهضمه على الفور. جفلت ووضعت نفسي على مسافة من دلالاته لفترة طويلة بعد، منسحبا القهقرى إلى الراحة والألفة المعتادة في إيماني الإسلاموي. ما حدث هو أنني لم أستطع أبدا إزاحة الأفكار الملحة التي راودتني وشغلت عقلي، رغم الجهد الجهيد الذي بذلته في دفنها. وحيثما يقود القلب، فالعقل يستطيع أن يتبعه.

الفصل الخامس والعشرون

ليس من حقّك التزام الصمت

كان لدى أمن الدولة -مثل العقرب الصحراوي-لدغة أخيرة وحيدة تصيبنا بها قبل السماح لنا بمغادرة مصر. من المفترض أن نظام السجون المصري يطلق سراح المساجين عند انقضاء ثلاثة أرباع المدة، وكان تاريخ إطلاق سراحنا، وهو بعد ثلاث سنوات وتسعة أشهر، قد جاء ومضى، وقيل لنا أن المسألة مجرد تخليص أوراق. كانت البيروقراطية في مصر شيء لا يمكن أبدا التيقن منه، إذ من المستحيل أن تتيقن بشكل قاطع إن كان الأمر مجرد انعدام كفاءة، أو إن كان شيئا أكثر خبثا هو ما يحرك الأمور. كل ما يحتاجه المرء هو الاطلاع على عشرات الآلاف من المعتقلين احتياطيا والمرتدين الأبيض، لكي يشهد بنفسه مدى مطاطية النظام القضائي والعدل المصري.

ثم، في أحد الأيام، وبلا سابق إنذار، جاء شاويش راكضا إلى زنزانتي، وقال :

"ماجد، لقد وصلوا! ابدأ في حزم أشيائك، أنت مروّح!"

ولكن هل يترك أحد سجون مصر أبدا في الواقع؟ ماذا عن صديقي أشرف النهري الذي أكمل مدة الحكم عليه والتي بلغت عشر سنوات، فقط لكي يتم اصطحابه في رحلة إلى الجهاز، واحتجازه مرة أخرى؟ لازلت أتذكر نظرة الحزن الغامر الشامل التي كانت على وجهه. هل سبق لك أن رأيت الحزن الشامل؟ ترك اللباس الأزرق الخاص بالمحكوم عليهم، فقط لكي يتم إعادة الإجراءات، وإعادته بالرداء الأبيض الخاص بالمعتقلين احتياطيا مرة أخرى، بلا أيّ راحة بين الفترتين. ذهبت إليه حينئذ لكي أصنع له كوبا من الشاي، وأقوم بتعزيته، وربما ألعب معه دورا من الشطرنج، حيث كان النهري خبير شطرنج، وكان دائما طيبا معي.

ضع جانبا القسوة، ضع جانبا العنف، وحتى قم بوضع القتل جانبا لبرهة من الزمن، وفكر في العدل. العدل، إن كان يعني شيئا على الإطلاق، فيجب أن يعني الالتزام بمبادئك التي تعترف بها. إن ادّعيت أنك تقف في صف حكم القانون والديموقراطية، فعليك الالتزام بما تدعيه، وأن يتم الحكم عليك من خلاله. إن كنت تدعي وقوفك في صف الموت والثورة العنيفة والصراع المسلح، قم إذن بالالتزام بما تدعيه، واقبل الحكم عليك من خلاله. دافع هؤلاء الرجال عن أيدلوجيتهم، وقاتلوا، وفي بعض الأحيان، قتلوا آخرين في سبيلها، وتم الحكم عليهم من خلالها. حدث أن تم قتلهم أو تعذيبهم أو سجنهم. لقد تابوا الآن، لم يكن ما حدث أنهم قضوا مدتهم في السجن وحسب، بل قاموا بالتبرؤ من ماضيهم، لأنهم وثقوا في حكم القانون الخاص بك. فهل سيتم الحكم عليك الآن من خلال مبادئك؟ أم سيكون الوضع أنه لن يبقى شيء آخر سوى النكوص إلى انعدام القانون والانتقام العرفي؟ وهكذا، لم أجرؤ أن أضع أملاً في عودتي للوطن؛ فقد كانت هذه مصر "على كل حال،" حيث: "نفعل ما نشاء".

انتشر في ربوع السجن نبأ رحيلنا، وجاءت أفواج من الناس لتوديعنا، وأدركت بالتحديد كم عدد الأصدقاء الذين حصلت عليهم خلال فترة وجودي بالسجن. أهداني صلاح بيومي المدان في عملية اغتيال الرئيس السادات، والمسجون منذ كنت أنا في الرابعة من عمري، هدية وداع، وهي نسخة من القرآن ممهورة بإهداء منه في المقدمة. بدأ يبكي حين احتضنني وودعني، تحمل عيناه أثقال روح معذبة، مرتبكا حول ماضيه ويحمل شكوكا حول مستقبله. حاولت بقدر الإمكان أن أحتفظ بمشاعري لنفسي، احتراما للعدد الكبير من الناس الذين كانوا قد أنهوا مدتهم فقط لكي يتم إعادتهم للسجن بوصفهم معتقلين.

كان لدي احترام أقل لسلطات السجن. تم اصطحابنا لمقابلة مدير السجن، وهو ذات الشخص الذي هدد بقتلي. لم يكن قد نُقل بعد، ولكنه كان قلقا بشكل ملحوظ حول ما سوف يحدث له. طلب منا نحن الثلاثة أن نقوم بالتوقيع على بيان رسمي حول مدة إقامتنا بالسجن. قرأت الوثيقة، يا له من هراء وتعدٍّ سافر على الحقيقة. كانت الوثيقة تقدم وصفا تفصيليا عن المعاملة الممتازة التي تلقيناها في السجن أثناء احتجازنا، رفض كلٌّ منا

التوقيع على ذلك. أعدت للمدير قلمه قائلا: إن أردت أن تعرف رأيي في مزرعة طرة، فعليك أن تشاهده على قناة الجزيرة مع الآخرين كلّهم.

جاءت عربات الشرطة الزرقاء المعدنية لكي تقلنا، كنا نتوقع أمر ترحيل بلا شك، وأن يتم اصطحابنا مباشرة إلى المطار، ووضعنا في طائرة، ومن ثم تسليمنا حين تحط الطائرة في هيثرو. لم أكن سأدع نفسي تصدق أننا ذاهبون للوطن فعلا، حتى أضع قدميّ على أرض بريطانية.

ما حدث على أرض الواقع، أنّ أمن الدولة لم تكن راغبة في إطلاق سراحنا بدون وداع من نوع خاص قبلها. عندما فتحت أبواب عربة الشرطة، رأيت الحارس يحمل عدوي اللدود، الغمامة، قماشة تُعصب بها عيناي، تحققت أسوأ كوابيسي على أرض الواقع.

اصطُحبنا هذه المرة إلى لاظوغلي، وهو مبنى أمن الدولة الوحيد الذي يماثل الجهاز في سوء السمعة. حاولنا أن نعترض، وشرحنا للحارس أن أوراقنا معنا، وطالبنا بمقابلة الممثل البريطاني، ولكنه ضحك وحسب:

"لا بريطاني هنا، مصري فقط. الآن، صمتا!!!!"

عُصبت أعيننا مرة أخرى، واحتُجزنا في مركز تعذيب آخر، تحول النهار إلى ليل، وأحلامي إلى ظلمة، فيما استمرت الخلفية المرعبة التي تصدر عن الأرواح المعذبة بلا توقف. بدأت صرخة تلو الأخرى تدوي في أروقة المبنى، مرت أربع سنوات منذ تجربتنا المليئة بالعذاب في الجهاز، ولكنّ أمن الدولة لم يكن قد تغير بتاتا. كانوا لا يزالون يستعملون التعذيب بشكل منهجي بوصفه جهاز التحقيق الطبيعي لديهم، أما هذه المرة –وعلى نحو استثنائي-فقد استخدموا حبكة عجيبة ومثيرة للغثيان فيما يختص بعملية التعذيب، فقد كانت أصوات الحراس وهم يستمعون للتلاوة المسجلة للقرآن فيما هم يعذبون الناس، تخترق صرخات التعذيب المجمدة للدم في العروق. قد يكون مثل هذا الاستعراض الفاضح في تدنيسه للمقدس، خدعة نفسية مريضة كذلك، لكي يخبر المحتجزين الإسلاميون أن إيمانكم لن يمثل عونا لكم هنا. أو ربما كان هؤلاء يعتقدون، بشكل مريض نفسيا ومعوج، أنهم يعملون في سبيل الله.

لن أعرف الحقيقة أبدا على الأرجح، ولكنّ التفسير الأخير ليس خياليا كما قد يبدو. كان مبارك حريصا للغاية على ضمان امتلاكه لسيطرة دينية بجانب السيطرة السياسية على بلاده. كانت جامعة الأزهر منذ قديم الأزل أكبر وأعظم مركز ديني ولاهوتي للمسلمين السنيين. تحت حكمه، قرر مبارك أن شيخ الأزهر لن يتم انتخابه على يد زملائه مرة أخرى، بل سيكون منصبه سياسيا، وقد اختير الشيخ طنطاوي، اللاهوتي المرن، في هذا المنصب. كان طنطاوي -بالمقابل-يصدر فتاوي دينية محكمة تبرر لحكم مبارك، وبلا شك كانت تبريرات مدروسة وقابلة للمحاججة تماما. كان أيّ معارض لحكم مبارك، طبقا لفتاوى طنطاوي،

مصنفا بوصفه خارجيا، وهو تعبير يعني في مجمله "أوائل الخارجين عن القانون الكافرين، الذين خرجوا ثائرين على الخليفة الرابع في الإسلام وهم الخوارج". وحسب مثل ذلك التفسير، فقد كان قتل واحتجاز مثل هؤلاء الثوار شرعيا طبقا لفتوى طنطاوي.

عانت الجامعة -منذ إخضاع الأزهر لحكم مبارك-لكي تحتفظ بالاحترام والحظوة والمكانة التي كانت تحتلها ذات مرة في العالم السني. كنت قد عرفت من خلال دراساتي للشريعة في السجن، أن بعض الشيوخ التابعين للمذهب المالكي، قد اعتمدوا على قاعدة شرعية قديمة، تبرر استخدام العنف خلال الاستجواب وسمحوا به. وما حدث لي أنني هناك في ذلك المكان بعينه، وعلى خلفية كلمات الله التي يتم تعذيب الرجال أثناء الاستماع إليها، وبالرغم من اشمئزازي التام، فقد شرد ذهني في إحدى رحلاته المعتادة إلى مسارات جانبية. ألم يقم "فريقنا" بتمجيد الموت ومقتل الأبرياء، من خلال إساءة استخدام كلمات الله؟ ألم يستخدم "فريقنا" كذلك تسجيلات صوتية تمجد الله، كخلفية لفيديوهات تعرض عمليات قطع رؤوس وفوضى؟ لو كان هؤلاء الحراس يعتقدون مخلصين أن الثورة على حاكمهم تعني أننا خوارج كفرة، وأنهم في قتالهم لنا يقومون بذلك في سبيل الله، فلمَ إذن لا يسعون لرضا الله عنهم أثناء قيامهم بذلك؟ تلك بالتحديد مخاطر استغلال الدين بهدف تبرير موقف سياسي، حتى إن كان ذلك على الجانب العلماني من الجدال. أتذكر أنني فكرت: "لمَ لا يسعنا أن نقوم بالحوار والجدال حول فكرتنا وحسب؟ إن كنت على حق، أحصل على كامل التقدير، وإن كنت على خطأ، أحصل على كل اللوم. فلنرحم الإسلام من سوء استخدام السلطة من جانب رجال متعطشين للقوة والحكم والسلطة وهم يسعون لإيجاد ذريعة لطموحاتهم السياسية".

طلبت بعد بضع ساعات أن أذهب للحمام، فأوقفني حارس على قدميّ واصطحبني عبر المبنى.

كان عقلي يخادعني، اسمي ماجد نواز، وأنا عضو في حزب التحرير. لا بأس، قلت لنفسي، وأنا أحاول جاهدا إبعاد كوابيس الجهاز عني، إن الله معك. سوف تخرج من هنا.

فيما كنت خارجا من الحمام، سمعت صوت نشيج هادئ في المنطقة المحيطة به، واستدرت لكي أتحدث إلى شاب صغير يعالج جروحه.

سألت وأنا غير قادر على رؤيته من خلال الغمامة. "ما بك أخي؟"

"لا أستطيع أن أقف"، قال الرجل باكيا، "الألم، إن قدميّ كأنهما تشتعلان ناراً."

"ماذا فعلوا بك؟"

"الكهرباء"، كانت إجابته الكسيرة.

"لقد تم اختيارك لكي يبتليك الله في إيمانك به. كن فخورا بنفسك، لا تبكِ يا أخي، إنك رجل الآن. سوف تنضم لصفوف الأبطال والشهداء السابقين."

عاد الحارس في تلك اللحظة، وقال صارخاً: "الكلام ممنوع! إنني أحذرك، يمكن أن نفعل بك ذلك أنت أيضا!"

"أنا آسف، أنا آسف، كنت فقط اسأل هذا الأخ أين ذهبت أنت."

سمعت أذان الفجر أخيرا، كان قد مرّ علينا الليلُ كاملاً، ستة عشر ساعة، في لاظوغلي قبل أن تتم الإجراءات. هذه المرة، لم تقف العربة الزرقاء في أيّ مكان خارج خط سيرها. كان المسؤولون البريطانيون في انتظارنا في مطار القاهرة الدولي، وجوازات السفر ووثائق المغادرة جاهزة. كان هناك ضابط أمن دولة مكلف باصطحابنا حتى هيثرو على متن الخطوط الجوية البريطانية.

قال الضابط: "أي مشاكل، وسوف أضع الأصفاد في أيديكم على الفور."

مثّل هذا آخر تهديد توجهه السلطات المصرية إليّ، وكان تهديدا أجوفَ بلا معنى. كنت في غاية الإرهاق بعد تلك الليلة البشعة والخالية من النوم في لاظوغلي، بحيث إنني، وبعد إقلاع الطائرة مباشرة، غرقت في نوم عميق معظم وقت الرحلة.

مصر، وهكذا كان في هذا اليوم، الأول من مارس 2006، بعد خمس سنوات في رعايتك، وأربع منهما على حسابك، أودعك. رغم كل ما حدث، ورغم كل الألم الذي تشاركناه، فلا يمكنني نسيانك. كيف يتسنى لي ذلك؟ لا يمكن إزالة الدم والعرق والدموع بتلك السهولة من الأرواح الشفافة. جئت إليك وأنا صبي، منذ كل تلك السنوات، مليئا بالأحلام والحماس والغضب، والأفكار المثالية، وروحي مطمئنة مع الله، وأفكاري في حالة قتال مع البشر، وأتركك الآن، وشعري أبيض، مليئا بالحيرة، والأسئلة والظنون، وروحي في حالة صراع مع الله، وأفكاري تجد السلام مع البشر.

لا تبكي يا حبيبتي، فعلى الرغم من أننا قد هُجّرنا في أرضٍ جرداء وفي معاناة تامة، وعلى الرغم من أننا قمنا معا بإبعاد الجنون عنا من خلال احتضان الألم، فسوف يعيننا الله على عبور كل هذا، كما فعل دائما. سوف ينحت الربيع الذي زرعتيه في صدري مساره وطريقه، ويتردد خلال شوارعك قريبا، ومثل نهر يكتسح ضفافه، سوف يفيض على شبابك بالأمل. إذن يا مصر، استعدّي لتثوري مرة أخرى، لأنك مصر، أرض الشجعان، أرض الكنانة.

اختفى ضابط أمن الدولة حالما هبطنا في هيثرو كأنّه لم يكن، واستقبلنا على الطائرة مسؤولون من فرقة (SO15) البريطانية الخاصة.

سألتُ ضَجِرا: "هل ستقرأ عليّ حقوقي؟"، فيما جلسنا في غرفة استجواب معدة خصيصا لذلك في المطار. كنت لتوي خارجا من دولة بوليسية، وكنت أريد أن أطمئن أنني لم استقلّ طائرة لكي أحط رحالي في دولةٍ بوليسية أخرى.

"أتعرف؟ حقي في التزام الصمت وما إليه؟"

ابتسم الضابط لي ابتسامة صفراء. "ليس هنا، سيد نواز"، ثمّ أضاف قائلا: "إن رفضت إجابة أيّ من أسئلتي، فتلك جريمة جنائية."

"ماذا؟ أستميحك عذرا، كيف يكون ذلك ممكنا؟ لا تقل لي أنكم نزعتم حق الصمت؟"

"سيد نواز، لم يعد القانون البريطاني يمنحك حق الصمت في أيّ مدخل أو مخرج من المملكة المتحدة. أخشى أنني سوف أحتاج إلى عيّنة من حمضك النووي، ويجب أن تجيب على أسئلتي، وفي حال امتناعك، فسوف تتهمك بالقيام بجناية."

"إذن أطالب بمحامٍ، أم هل ذلك يعدّ جريمة الآن أيضا؟"

لحسن الحظ كان هناك محامٍ ينتظرنا على الجانب الآخر من البوابة. كان ستيفن جاكوبي (Stephen Jackobi) واحدا من مجموعة المحاكمات العادلة في الخارج، وكان ضمن الحملات النشطة التي تدعو إلى إطلاق سراحنا. كان جاكوبي ودودا ولكنّه واضح فيما يخص القانون.

"الضابط على حق، فيما أخشى" قال لي. "منذ الحادي عشر من سبتمبر، تغيرت القواعد كلها: في أيّ مخرج أو مدخل في المملكة المتحدة، لا يتاح حق الصمت. هذا هو سبب رغبتهم في التحقيق معك الآن، بدلا من الجانب الآخر من الحاجز."

"إذن ماذا يجب علي أن أفعل."

"انصحك أن تتعاون حاليا"، قال جاكوبي، "سوف يتعين عليك أن تجيب أسئلتهم."

"وإن رفضت؟"

تنهد جاكوبي، "سوف يلقون القبض عليك. أخشى أنه لا يوجد ما أستطيع القيام به حيال ذلك"

وهكذا بدأت التحقيقات، وأجبت أسئلتهم بشكل مختصر وموجز، حيث إنني كنت ملزما بذلك بقوة القانون، وكنت أرغب بجنون أن أذهب إلى منزلي فحسب.

"إن سمعت أيّ شيء، أو نمى إلى علمك أيّ معلومات قد تكون ذات أهمية، فهل تمانع في أن تبقينا على علم بذلك؟"، قال الضابط منهيا الحوار.

"لا" أجبته، "لا يوجد لدي أيّ نية في أن أقوم بأي شيء من هذا القبيل."

بعد أربع ساعات من الاستجواب، تم أخيرا إطلاق سراحي. كان ستيفن جاكوبي قد بقي هناك، لكي يساعدنا وينصحنا. ولم يقتصر ذلك على الجانب القانوني من الأمور، فقد سبق أن تعامل مع مساجين بالخارج قبل ذلك، وكان في تلك الفترة القصيرة من الزمن المتاحة له، يريد أن يوجز لنا الوضع القائم بقدر الإمكان.

"يجب عليّ أن أحذركم"، قال، "سوف يكون الوضع صعبا عليكم. لا تعتقدوا لثانية واحدة أنه حالما تخرجون من تلك البوابة، فسوف ينتهي كل هذا. سوف يكون التعوّد على الحياة الطبيعية بعد الذي مررتم به شيئا في غاية الصعوبة فعلا. يجب أن تدركوا أن هذا سوف يبتلي ويختبر متانة علاقاتكم حتى نقطة الكسر. لقد حدث أن رأيت الكثيرين يعودون، فقط لكي تتهاوى زيجاتهم حال عودتهم. توضح الإحصائيات أن معظم الذين كانوا في وضعكم انتهى بهم الحال بالطلاق، أو إساءة معاملة زوجاتهم. لا أريد أن يحدث هذا لأي منكم، ولكن يجب عليكم أن تدركوا أنكم يجب أن تعملوا بجد على معالجة علاقاتكم، وإلا سوف ينتهي بكم الحال مثل ما ذكرت لكم.

وقفنا عند بوابة ذلك المطار، في منتهى السعادة و مليئين بالحياة واليقظة، ونحن على وشك لم الشمل مع عائلاتنا. استدرت نحو ستيفن جاكوبي، ووجهي تغطيه ابتسامة واسعة ودافئة، شاعرا بإخلاص كنت أعلم أنه حقيقي تماما: "لا تقلق بشأني يا ستيفن. إنني متزوج من امرأة مخلصة سوف احتضنها بكل قلبي، إنها أم طفلي، وقد أبقتني على قيد الحياة وأنا هناك."

وبخطى تكاد تكون على الهواء، سرت خارجا من تلك البوابة غافلا عن القوى التي كانت على وشك نزع قلبي من صدري.

الفصل السادس والعشرون

كم سنةً فشلت؟

إني أراكِ يا لندن. يا هيثرو، أيها العصيُّ على التغيير خلال فترات الغياب الطويلة، الغافل عن مسافات المحبين، يبدو أنك ترحب بي عند عودتي بدفء لا يقل عن دفئك حين رحلت. إنني أراك يا لندن، كم احتقرتك وأحببتك في الوقت نفسه!

كم كرهت كل ما تمثلينه، وبالرغم من ذلك، عندما تم حرماني من ألفتك وانفتاحك، كم افتقدتك على نحو كبير وببؤس تام.

إنك في نفس اللحظة، رأس الأفعى الاستعمارية التي سممت شعبي، وأوقعت بأرضي، ولكن، وعلى الرغم من ذلك، فأنت كذلك حصن العدل وحكم القانون واللعب النظيف. وحتى الآن، وأنا أهرع لأحتضنك مرة أخرى، تدهس أحذيتك على قومي في العراق وأفغانستان، في حين أعلم تمام العلم، أن حذائي ليس آمنا في أيّ مكان أكثر مما هو فوق متنزهاتك الخضراء. لماذا تحيريني بهذا الشكل؟ لماذا تصفعيني بيد في حين تجففين دمعي بالأخرى؟ كم حاولت لمدة ثلاثة عشر عاما أن أنتزعك من روحي، أن أنكرك، أن أدفنك، ولكن كم كنت أتوق لك لكي تأتي وتنتشليني من الجحيم الذي عدت لتوي منه. يا لندن، إنني أراك.

كان اهتمام الإعلام بعودتنا ضخما جدا، استقبلتنا ومضات الفلاشات وصرخات الصحفيين من كل الزوايا. نظرت حولي، وكان كل ما أراه صورا مهزوزة لبشر محتشدين، أين يجب أن أتجه؟ أين عائلتي؟ ثم سمعت صوت أبي المألوف يعلو فوق الضوضاء وهو يصرخ: "ماجد!!". سافر عقلي من فوره إلى الماضي حين كنت طفلا، وكنت أصنع لأبي هدايا حمقاء صغيرة من المواد الخردة الموجودة في المرأب الخاص به، وأنا أنتظر عودته من ليبيا كل شهر. كم كان الشهر يبدو طويلا في تلك الأيام. كان أبي يدخل المنزل، بالقبعة الستيسون على رأسه، والجينز والحزام والحذاء المتماشي معها، ويصرخ مناديا اسمي: "ماجد!". ثم كان يحمل جسمي الصغير الضئيل ويحتضنني في حضن غامر شامل مثل أحضان الدببة. غريزيا، وبلا أيّ تفكير منطقي، تحرك جسمي نحو الصوت الذي كنت أستطيع سماعه، حتى وجدت نفسي أحتضن أبي بابتهاج تام.

هناك بجواره مباشرة، وبجانبه، وقفت رابعة. كانت تبكي.

وهنالك رأيت آبي، الرحم الذي حملني، والتي آذيتها كثيرا عبر سنوات. أردت أن أخبرها كل شيء، عن العاصفة التي كانت تموج في قلبي، عن رغبتي في التغيّر لأجعلها تفخر بي مرة أخرى، ولكن لم يكن

هناك وقت لذلك. كان هناك أيضا أفضل أصدقاء طفولتي، درعي وسيفي، أخي عثمان. لقد شرفتك، دافعت عما نؤمن به، لم أستسلم لهم، وقاومتهم لآخر مدى، بالضبط كما علّمتني. و ثريا!! يا إلهي، لقد كبرت كثيرا، وصارت راشدة، من تسعة إلى أربعة عشر عاماً، يا له من فارق! أختي، إنني آسف لأنك اضطررت للنمو في مناخ يتكون من التعذيب والسجون الغضب. لا يستحق أيّ طفل ذلك. سوف أحاول أن أريكِ طريقا أفضل من ذلك الآن، وأن يتعافى قلبانا معا. وهنا كان أيضا، جون كورنوال، صديقي، صديقي الإنسان. وفيما كنت أراه لأول مرة، فقد شعرت بالرغم من ذلك، أنني أعرفه جيدا.

لم يقتصر الأمر على أصدقائنا وأقربائنا على البوابة فقط، فقد كان أعضاء كثيرون من حزب التحرير يتدافعون ويتزاحمون للحصول على موقع قدم كذلك. لم نعد بعد الآن جنودا سقطوا ولم "يكونوا بالجسارة الكافية" بل صرنا في لمحة بصر أبطالا عائدين، وأرادت القيادة أن تنعم بأضواء الاهتمام الإعلامي الذي غرقنا فيه. كان جلال الدين هنا، الرجل الذي عنّفني من أريكته الآمنة، يرحب بي وكأنه كان صديقي الحميم. "أنتم أبطالنا، يا إخوتي!"، قال معلنا فيما صافحني باليد، وعرض عليّ أيّ مساعدة قد أحتاجها في إعادة الاندماج في الجماعة.

أردت بكل جوارحي أن أرى عمارا، الذي كان في انتظاري في بيت أهل رابعة. وهكذا، قمت بأقصى سرعة أستطيعها بتحية عائلتي وأصدقائي وزملائي، واستقليت سيارة مع رابعة بجانبي. أتذكر إمساكي بيدها في تلك السيارة، كما كنت قد فعلت في رحلتنا بالسيارة إلى بيتنا يوم زفافنا، تبسّمت لي الآن كما تبسمت لي حينها، واتجهنا بالسيارة لنرى ابننا.

كان عمار في السادسة من عمره الآن، وكان يركض ويلهو قبل أن أصل. حالما فتحت الباب ورآني توقف في مكانه، وتجمدت ملامحه تماما، كانت صدمة كبيرة له أن يراني هنا. كنت أشعر بالقلق، لبرهة من الزمن، كما حدث عندما رأيته لأول مرة في السجن، حول رد فعله. لم يكن ذلك ضروريا. قفز قفزة صغيرة، وركض ليحتضنني. احتضنته بشدة، ورفعته في الهواء عاليا بحب عميق ونقي للغاية. تناولنا وجبة احتفالية، ومن ثم عدنا إلى شقة رابعة، شقتنا، والتي كانت قد رتبتها وزينتها بحرص استعدادا لعودتي. تلك الليلة، بعد أن وضعنا عمارا في فراشه، نمت بشكل سيء، وأنا محتار، ومرتبك، ولا أعرف كيف أعبر لرابعة عن المشاعر التي تعصف في صدري.

قالت لي: "ششششش... نم الآن، لدينا وقت كثير لنتحدث لاحقا."

لم يستغرق حزب التحرير طويلا لكي يبدأ في السعي لإشراكي في قيادة الحزب في المملكة المتحدة. كان الإخوة قد قاموا بتنظيم مؤتمر صحفي لليوم التالي. كان عقلي محتلا ومؤرقا نتيجة التفكير في كل الإخوة الذين تركناهم خلفنا، أكرم، وكثير جدا من المصريين الذين كانوا يعانون في السجون منذ سنوات تتعدى

فترات الحكم عليهم بكثير. كنت مدينا لهم، كنت مدينا للعالم، بأن أتحدث وأُفضي بمكنون نفسي الذي يثقلها حول التجاوزات البربرية التي كان نظام مبارك يرتكبها تحت راية الاستقرار. تحدثنا في قناة الجزيرة و العربية والبي بي سي في ذلك اليوم. وكما وعدنا مدير السجن، أخبرنا العالم بأسره عن سجن مزرعة طرة، والتجاوزات والانتهاكات الوحشية التي يقوم بها أمن الدولة. لاحقا في ذلك الأسبوع نفسه، كنت حتى ضيفا على برنامج هارد توك (HARDtalk) مع سارة مونتاجيو (Sarah Montague) في البي بي سي، وأنا أقوم بترويج خط الحزب، وألعب دوري كمتحدث عن حزب التحرير بشكل مثالي، في محاولة يائسة للتمسك بأيّ شيء مألوف من الماضي، لكي أقوم بتذكير نفسي بمن أكون أنا. حاضرت كثيرا في تلك الفترة متحدثا في أحداث ينظمها حزب التحرير، وفي راليات تضم الآلاف، حتى أني قمت بمشاركة المنصة مرتين مع عضو من فريق "الخارجين عن القانون(Out Laws)"، وهم فريق مغني الراب الراحل توباك (Tupac). كان اسم هذا الرجل "نابليون"، وكان بعد موت توباك قد صار سلفيا متشددا، يعلن حاليا (بلا أدنى احترام على الملأ) أن توباك يحترق الآن في نيران الجحيم. كانت رابعة في أثناء كل تلك الفترة، تراقب بذات النظرة المجروحة في عينيها، في حين وجّهتُ أنا كل تركيزي إلى الشيء الوحيد الذي أعرفه أفضل من أي شيء، وهو اجتذاب الجماهير وحشدها.

قمت في الأسابيع والأشهر التالية لذلك بتقييم وضعي، وبدأ تقديري لنفسي يضعف. كنت الآن في الثامنة والعشرين من عمري، ولا زلت طالبا، بلا أي شيء يضمن لي إعادة قبولي في الجامعة، وكان لدي ابن في السادسة من عمره يجب عليّ أن أكفله. كنت لا أملك عملا أقتات منه، فضلا عن كوني سجينا سابقا لمدة أربع سنوات بوصفي معتقلا سياسيا إسلامويا في عالم ما بعد 11/9. بدأت لأول مرة في حياتي أشعر أنني عجوز، ليس عجوزا بالمفهوم التقليدي، فقد كنت لم أتعدَّ الثامنة والعشرين بعد، ولكن عجوز في قلبي وأعماق عيني. كان ثقل وعبء ما أعرفه، وما كان ضميري يقوله لي عن الإسلاموية ثقيلا على عقلي. استمرت شكوكي في التزايد، ولكن كلما صرخت لكي أعيرها انتباها، سعيت أكثر لدفنها بعيدا في الإنكار. هذا هو كل ما أعرفه في حياتي كراشد، "اسمي ماجد نواز، وأنا عضو في حزب التحرير" ماذا كنت إن لم يكن هذا؟ وهكذا، حددت لنفسي بعض الأهداف، بما أنني أستطيع أن أمنح نفسي شيئا أتطلع إليه وأستهدفه، فقد يساعدني ذلك على الخروج من هذه الحفرة.

كانت نقطة البدء لدي هي شهادتي الدراسية، فعدت إلى كلية الدراسات الشرقية والأفريقية لكي أرى إن كانوا سيسمحون لي باستكمال شهادتي في القانون واللغة العربية. كان بإمكانهم بسهولة تامة أن يخبروني أين أذهب. كنت قد أكملت عامي الأول وأخذت عامي راحة، ودرست عامي الثاني، ومن ثم ذهبت للسجن لفترة تبلغ أربع سنوات في منتصف بعثتي بالخارج. ولكن كانت آبي -بارك الله فيها- قد ثابرت في إقناع

الجامعة بالاحتفاظ بمكاني مفتوحا. كان مما أثار ارتياحي أن اثنين من محاضري اللغة العربية السابقين لدي، معز صالح ومحمد سعيد، لا يزالان في الجامعة، وكانا قد أبقيا الأبواب مفتوحة من أجلي. سمحت لي الجامعة بالعودة إليها. لقد تم القبض عليّ قبل بضعة أشهر من الموعد المحدد لي لأحضر إختبارات اللغة العربية للعام الثالث، ولذلك قال رئيس كليتي إنني يجب أن أنجح في تلك الاختبارات لكي يتم السماح لي بالعودة. كانت قدراتي في اللغة العربية خارج المناقشة لأنني قضيت عدة سنوات هناك بجانب سنة البعثة التي كانت محددة لي. حضرت الامتحان وحصلت على 97%.

لو كنت فقط قد التزمت بالتركيز على شهادتي والبقاء خارج الأضواء لكان كل شيء قد سار بطريقة حسنة، ولكنّ حزب التحرير طلب مني أن أنضم لقيادته. كانت هناك في ذلك الوقت لجنتان للقيادة. بعد الهجمات الإرهابية التي وقعت في السابع من يوليو، كان رئيس الوزراء توني بلير قد هدد بحظر الجماعة. وفي استجابة لذلك، قام حزب التحرير بتكوين قيادة تعمل كواجهة فقط، وكذلك لجنة قيادة سرية، ولكن كان النفوذ الحقيقي يقع خلف الستار، في لجنة "الولاية". كانت لجنة الولاية هذه تحت قيادة نسيم كذلك الذي عاد لتوه من تأسيس حزب التحرير في بنجلاديش، وطلب منه الأمير الدولي أن يحل بديلا عن جلال الدين نتيجة للمستوى بالغ السوء الذي أبداه في حكمه على الأمور. فكرت أنه لم يكن من المستغرب أن جلال الدين كان قد حياني بهذه الحرارة الكبيرة في المطار، فقد كان من الواضح أنه كان قد تم الحط من قدره وفقد الحظوة ونزلت مكانته درجة أو اثنتين. مُنحت، نتيجة لصورتي الإعلامية، مكانا في لجنة القيادة، وحيث أنّ نسيما كان يعرفني جيدا، ويثق بي ثقة عمياء، فقد وضعني فى لجنة القيادة السرية "الولاية" كذلك.

في البداية، كنت أريد أن أجد موضع قدم لآرائي المتغيرة داخل حزب التحرير. شعرت أن الطريق المناسب لذلك هو صقل وتقوية حججي، وإقناع الأعضاء بالتحوّل إلى تبني موقفي بعد إعادة النظر فيها. كانت سارة مونتاجيو، في تلك المقابلة في برنامج هارد توك، قد سألتني ماذا كان الشيء الذي أدافع عنه، وأجبت أن حزب التحرير كان ينادي "بالخلافة التمثيلية". أدى ذلك إلى كم هائل من النقاش المحتد داخل الجماعة. ماذا كنت أقصد بالخلافة التمثيلية؟ الخلافة هي "الخلافة". لم يكن من المفترض أن يكون الأمر مطروحا للنقاش، كان هذا هو ما يعنيه فرض الإسلام على المجتمع.

ولكني كنت قد رأيت كيف يمكن للناس أن يتغيروا في السجن. كنت قد رأيت كيف يكون اليقين الذي يصل لحد الموت لشخص ما، قابلا للتغيير ليصبح ندما وأسفا على حيوات ضاعت. كنت قد رأيت كيف كانت كل أوجه أيديولوجيتنا تقريبا معتمدة على الفلسفة السياسية الأوروبية، وأن أيّ شرعية إسلامية تملكها تلك الأيديولوجية، كانت في أحسن الأحوال مجرد وجه واحد من تلك الأوجه. كنت قد رأيت كيف يمكن أن يتم إساءة استخدام الإسلام لتبرير أيّ موقف سياسي تقريبا، بما في ذلك التعذيب. تذكرت العيوب الشخصية لكل

الإسلامويين الذين تعرفت عليهم، سواء داخل أو خارج حزب التحرير. شعرت أنه كان خيالا جامحا أن نعتقد، أنه فقط ولمجرد أن شخصا ما إسلامويا ملتزما، فسوف يقوم بالأشياء على الوجه الصحيح. كان كل ذلك يعود لعملية الفصل التي حدثت في ذهني بين مفهومي الإسلاموية والعدل. كان من المحتم أن تتواجد طريقة للمساءلة والحساب، ليس فقط كجزء من النظام، بل في تكوين الأيديولوجية نفسها، والتي كانت في نهاية المطاف، مجرد هيكل بشري الصناعة.

بدأ نسيم بالفعل في كيل المديح لي، شجعني على أفكاري الجديدة، وعلى قدرتي على التفكير خارج الصندوق. كان هذا، كما أخبر الآخرين، هو كيف سيتسنى لنا التقدم بالمنظمة إلى الأمام. ولكن، ومع تقدم الوقت، واستمرار المناقشات، ومع الاستجابة البطيئة التي كنت أحصل عليها، فقدت إيماني شيئا فشيئا. نخرت أسئلتي في العمق، حتى وصلت للتساؤل حول شرعية فرض أيّ تفسير للشريعة بوصفه قانونا في حد ذاته. بدأت بعد أن تعلمت ودرست كيف أنّ ذلك لم يطبّق أبدا من قبل، ولم يكن هناك أمر يوجبه، أرى مثل ذلك الهدف بوصفه شيئا غير إسلامي. كيف يمكنني البقاء داخل منظمة أرى الآن وأؤمن تماما أنها تسعى لتحقيق هدف يعارض روح الإسلام ذاتها؟

بدأت بشكل متزايد، فيما تزايدت شكوكي، أعتبر إخوتي في حزب التحرير جهلة فيما يخص الإسلام، والسياسة، والتاريخ. شعرت وكأن عقلي سينفجر للداخل، كان النطق بأيّ كلمة خاطئة، قد يتسبب بلا مقدمات في تعليق عضويتي في الجماعة بوصفي خارجا عن السياق، وفي هذه الحالة، ستكون أيّ شرعية أملكها، وتسمح لي بتقديم حجج إصلاحية بلا فائدة. كنت في حاجة ماسة للحديث مع شخص ما. لجأت إلى رابعة التي كنت أستطيع الثقة فيها لتحفظ أسراري بشكل لا ريب فيه. ولكن، وبالرغم من أن رابعة كانت من أكثر من تحدثت معه اعتدالاً، فقد كانت عضوا في حزب التحرير في نهاية المطاف. صفعتني حقيقة ما كان يجري مثل ضربة في الرأس، إن زوجتي ذاتها سوف تكون غريبة بالنسبة للشخص الذي أصبحت أنا عليه الآن.

على من كنت أحتال؟ لقد قضيت معظم سنوات حياتي في تجنيد عائلتها، لقد كنت مسؤولا عن تجنيد عمها عبد الرؤوف أخي الدكتور قيوم الأصغر الذي تم تعذيبه في سجون باكستان. تم كذلك القبض على ابن عم رابعة الذي انضم لحزب التحرير بعد جهودي في تجنيده، وماتت والدته وهو مازال مسجونا. كنت قد اتخذت خطا صارما ومتشددا في حديثي مع عائلتها وأقنعتهم، ولم أجلب لهم سوى المشاكل. وها أنا الآن، بعدما انتظرتني لمدة خمس سنوات فداءً لهذه القضية، أحاول إقناعها أن أفكاري الجديدة هي الصحيحة، بدلا من كل ذلك. كما ورد في حديث الرسول عليه السلام: "إن من البيان لسحرا". كانت على حق، لماذا يجب عليها أن تصدقني الآن؟

"لقد كنت على حق حينها، وأنت على حق الآن"، نهرتني قائلة، "لا يمكن لأحد أن يحاججك يا ماجد، أنت دائما على حق. فما هي إذن فائدة هذا النقاش؟"

للأسف الشديد، كانت غير مستعدة حتى للدخول في نقاش. وهكذا، بائساً ووحيداً، بدأت أبحث عن عزاء مع وجوه جديدة في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية، وكنت حريصا جدا على اكتساب أصدقاء، وبالغت في الثقة فيما أنا أبحث محموماً عن أيّ شيء ذي معنى "طبيعي" وكيف كان ذلك يبدو. لورين وسيرجيو ومريم وجيريمي وأميرة، بحثت بشكل محموم عن أشخاص يمكنهم تذكيري كيف لي أن أعيش حياتي من جديد، بلا أهداف تجنيد، ببساطة مجرد امتلاك أصدقاء أستطيع أن اسميهم أصدقائي. ثم حدث، أن قابلتها، في غرفة تجمع الطلبة الجدد في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية.

كانت فاطمة موليك على النقيض من كل ما أمثّله. أو هل كانت كل شيء تمثله آبي؟ باكستانية فخورة، أنثى فخورة، كانت استجابتها للنقاب هي ارتداء جمالها بشكل صفيق، واستجابتها لرجم الزناة، هي اقتباس مقولة الرومي: "دعوا المحبين وشأنهم"، واستجابتها لقطب كانت الخيام، الحكيم الروحاني الفارسي. كانت تحتضن الحياة بكل جمالها، في حين كنت أنا قد وصلت إلى احتضان الحياة الأخروية بكل تقشفها، وكانت تحتقر كل جنون الرجال الذين يهتمون بمدى صحة وضعهم في الصلاة، أكثر مما يهتمون بسكب دماء الأبرياء.

كانت طالبة دراسات عليا في العلوم السياسية، وقد جاءت لي ذات يوم سائلة: "هل أنت طالب دكتوراه، إذن؟" لابد أنها رأت شعري الذي تخلله الشيب، أو ربما رأت العمر في عينيّ.

"لا، أنا طالب لم أتخرج بعد."

"حقا، ما هي عدد السنوات التي رسبت فيها؟" قالت باندفاع وهي تضحك.

جُرح كبريائي. "لم أرسب أيّ سنة، لقد سُجنتُ في مصر بعد 11/9. قضيت أربع سنوات هناك، وقد عدت لتوي."

تغيرت ملامحها: "أنا آسفة، لم أقصد أن.... من أيّ منطقة في باكستان أنت؟"

"جوجارات،" أجبتها وأنا مبتسم جراء تبجحها.

"أوه، هل تعني جوجارات في الهند؟ "سألتْ وهي غير قادرة على التفكير السليم نتيجة لانشغالها بما إذا كانت قد أساءت لي أم لا.

"لا، هناك جوجارات أخرى في باكستان" قررت، بعدما تسببتُ لها بالمزيد من الإحراج، وقد استمتعت جدا بذلك، أن أصادق طالبة الدراسات العليا الباكستانية صاحبة الأسئلة الكثيرة جدا.

أترى؟ لقد حاولت أن أقوم بتجنيد فاطمة. مثل تشنجات الموت التي يمر بها الجسد المحتضر، حاولت أن أقوم بإسقاط كافة مشاعري المتزعزعة الخاصة بكارثتي الوجودية عليها. جعلتها تشاهد مقابلة هارد توك التي قمت بها في البي بي سي، وأخبرتها مدى أهمية أن نعرف، نحن المسلمين، ما هي هويتنا بالشكل الصحيح.

لم تزد فاطمة عن أن نظرت إليّ مباشرة فيما قالت: "قد لا أكون قادرة على الجدال معك، أو الرد على النقاط الذي تذكرها، ولكنني أعرف أن ما تقوله هراء. هل تعرف شيئا يا ماجد؟ هل تعرف شيئا!!!"

وكانت تلك هي نهاية كل شيء. فغرت فاهي مع تلك الكلمات، وتجمّد فمي فيما صارعت لكي أتحدث. لم يكن عند فاطمة أيّ فكرة عن أنها صارت لتوها الفراشة -المعروفة في ظاهرة "تأثير الفراشة"- التي تسببت بتغييرات جمة. لقد وجدت لتوي صديقي المفضل الجديد، والصخرة التي تدعمني في خضم كل الارتباك الذي صار هو حياتي بعد مغادرتي حزب التحرير.

في النهاية، تم فرض توقيت مغادرتي عليّ. كان نسيم في بنجلاديش أثناء وجودي في السجن، يعمل على تأسيس حزب التحرير هناك، وكان عليه الآن أن يعود إلى هناك ليستكمل هذا العمل، مما كان يعني، بعد أفول نجم جلال الدين الحتمي، أن حزب التحرير في المملكة المتحدة في حاجة إلى قائد جديد. إنني أمتلك الملف الإعلامي، والخبرات الدولية، ولغتي العربية ودراستي الإسلامية، وكنت قد شحذت قدراتي، وحصلت على خبراتي بالطريقة الصعبة، وأمتلك القدرات الفكرية اللازمة، وهكذا فإنني أمثّ المرشح المثالي لتولّي هذا المنصب في نظر نسيم.

انتهت اللعبة، لم يعد بوسعي الاستمرار أكثر من ذلك. كان الدفاع عن آرائي داخل المنظمة شيئا مختلفا تماما عن قيادة جماعة يزداد باضطراد عدم ارتياحي حيال أيديولوجيتها. وكان التوقيت من أسوأ ما يمكن، في غمار المراجعة من أجل اختباراتي النهائية في الجامعة. ولكن كان عليّ أن أتّخذ موقفا قبل أن يتم تحديد أيّ شيء بشكل رسمي، فهاتفت نسيماً، بمكالمةٍ من صديق إلى آخر، من التلميذ إلى المعلّم، وطلبت أن أراه وحده في مقهى في شارع بريك في لندن (Brick Lane).

كانت تلك واحدة من الحوارات الأكثر صعوبة التي أجريتها في حياتي، لقد كنت عضوا في حزب التحرير لفترة تزيد عن عقد من الزمان. وأعرف نسيماً منذ كنت في الخامسة عشرة من عمري، وأثناء تلك الفترة، كان صديقا ومعلما لي في السراء الضراء، لكنني أدين له بأن أخبره بقراري، وجها لوجه.

قلت له مندفعا بلا تروٍ: "أعرف أنك تُعِدّني لكي أتولى قيادة الجماعة، ولكنّه عرض سوف أضطر لرفضه. في الواقع، أنا.. أنا لم أعد أؤمن بحزب التحرير، ويجب أن أغادر الحزب فورا، أرجوك اعتبر هذا بمثابة استقالتي."

ذُهل نسيم تماما.

"يمكننا أن نصل لحل في هذا الأمر" جادلني نسيم: "إنّ لديك الكثير جدا لتعطيه، تعال إلى بنجلاديش معي، لدينا فرصة حقيقية للسيطرة هناك" قال لي: "يمكننا أن نحكم البلد معا، أنا وأنت."

جلسنا في المقهى نتبادل الحجج، لم يحتدّ الأمر ابدأ، بل كان مشوبا بالحزن، والندم، والقبول بالأمر الواقع. كان نسيم يعلم أنني لم أكن لأصل لهذا القرار باستخفاف، ويعرف أنني فكّرت في العواقب، وأنه من غير المرجح أن نتقابل مرة أخرى. في النهاية، كنوع من العِرفان له، وافقت على ألا أعلن استقالتي لمدة أسبوعين. ربما كان ذلك لكي أمنحه الفرصة ليخبر بقية الجماعة بنفسه، أو لأنه كان في حاجة إلى الوقت ليحاول إقناعي مرّة أخرى، لكنني لم أمنحه الفرصة، إذ قمت بإغلاق هاتفي خلال الأسبوعين.

عندما مرّ الأسبوعان، أرسلت بريداً إلكترونيا إلى الإعلام، مفضلا ذلك عن أن تقوم الجماعة بإعلان وتحريف أسباب مغادرتي. "بسم الله الرحمن الرحيم" بدأت الرسالة "السلام عليكم" حاولت أن أجعل استقالتي موجزة ووقورة قدر الإمكان:

"لقد رأيت أنّ من الضروري، بعد أن خدمت حزب التحرير لمدة 12 عاماً منذ أن كنت في السابعة عشرة، إعلانَ قراري بمغادرة الجماعة وإنهاء عضويتي فيها، ويسري ذلك على الفور. أطالبكم بكل تواضع ألا تناقشوا أسباب قراري هذا في الوقت الحالي، وأسألكم أن تتركوني وشأني لكي أستكمل اختباراتي النهائية التي تأخرتْ بشكل كبير جدا، آملاً مسامحتي عن أيّ إساءة اقترفتها."

كانت اللحظة التي ضغطت فيها زر "أرسل" هي اللحظة التي انتهت فيها اثنتا عشرة سنة من عمري. هاتفت عثمان أثناء هذه الفترة لم يكن يعرف ذلك، ولكنه كان أول إنسان أخبره بالأمر. شعرت، نوعا ما، أنني في حاجة إلى دعمه ومساندته. كنا قد بدأنا هذه الرحلة سويا قبل اثني عشر عاما، وترك هو حزب التحرير قبل مغادرتي له بفترة طويلة، وشعرت أنه يستحق أن يعرف قراري. أجاب: "شيء جيد، لا تقلق، الإسلام أكثر أهمية من حزب التحرير." لم يكن يعلم بعد، أنّ ذلك التفسير المسيّس للإسلام بالتحديد، هو ما كان يمثل مشكلة لديّ، ولم يهن عليّ أن أخبره.

قمت بعد ذلك على الفور بالاتصال بأبي. قلت لها أخباري، فانهارت بالبكاءِ فرحاً حين سمعت الخبر، وأجابت: "أخيرا، أخيرا يا بني، كنت أعرف أنك سوف تصل للقرار الصحيح. كنت أشعر في داخلي أن هذا كان يجري معك، إنني في غاية الفخر بك، الحمدلله، الحمدلله!". استمرت في البكاء وهي تقول: "كل هذه السنوات التي انتظرتها لكي أسمع هذه الأخبار صادرة من شفتيك، كنت أعرف أنك سوف ترى الحقيقة في نهاية المطاف، كيف لا تفعل ذلك؟ إنك ابني، وكان رحمي الذي حملك، أنا فخورة بك للغاية!".

ولكنّ وضعي مع رابعة كان يتدهور يوما بعد آخر، فأنا في حاجة ماسة إلى مساحة أصل فيها لمعرفة كُنْهَ نفسي، لإعادةِ بنائها من جديد، قطعةً بعد قطعة. وبدأتُ أشعر بالضيق في كل مرة تطلب مني فيها أن أبقى بالمنزل لوقت أطول، لأنني كنت أحاول جاهدا أن أبتعد عن أيّ شيء يذكّرني بحزب التحرير والأيديولوجية الخاصة به. كان وضعاً سيئا، والإحساس بالذنب يغلي في أحشائي، وشعرت أنني في نفس قسوة أمن الدولة، إن لم أكن أكثر قسوة، ولكنني أحتاج إلى تعريف نفسي من جديد، قبل أن أسمح لأيّ شخص بالدخول إلى حياتي.

وبقدر ما حاولتْ رابعةُ أن تجد "ماجداً" الذي تم انتزاعه منها بذلك الشكل المفاجئ في شقة الإسكندرية تلك، فلم يكن هناك ثمة رجعة بالنسبة لي. كنت قد رأيت أشياء أكثر من اللازم، وتعلمت أكثر مما يسمح لي بالعودة من جديد، لأكون نفس ماجد الذي تزوَجَتْه. أعتقد أنني كنت شخصا ألطف حينذاك، ومثل الكثير من الأشخاص اللطيفين، فقد أردتُ إرغام الجميع على أن يكونوا لطفاء، وهذا يسمى الشمولية. بدأت أشعر الآن أنني شخص بشع، ويملؤني الشعور بالذنب لما أراه يحدث في زواجي، ولكن، وعلى الرغم من ذلك، فلم أعد أريد من العالم أن يكون لطيفاً، كل ما أريده هو أن أُترك وشأني، وبدأت أتواجد في المنزل فترة أقل فأقل.

إنني أرغب، حدّ الموت، في الهرب من رهاب سجن الإسلاموية، سجني الجديد، ولكن لم يكن ثمّة مكان لأفرّ إليه، ولا مكانٌ لأنام فيه، ولذا فقد اعتدت على النوم ملفوفاً بغطاء في المقعد الخلفي من سيارتي الرينو كليو المستهلكة من أيام الدراسة، والمصطفة خارج جامعتي في ميدان رسل (Russel square)، في حين كانت اختباراتي النهائية تقترب سريعا.

لو كانت تلك الأيام الأخيرة لي في نيوهام هي أحط أيام حياتي، وتلك التي قضيتها في الحبس الانفرادي هي أكثر أيامي ظلاماً، فإنّ هذه الأيام، إذن، هي أكثرها وحدة. لازلت أحتفظ بذلك الغطاء في المقعد الخلفي لسيارتي، من باب الاحتياط لا أكثر. كنت حزيناً ووحيداً ومحتاراً وفي طريقي للانهيار، وأحتاج إلى المساعدة لكي أجد نفسي مرة أخرى، ولكن لم يكن بوسعي الاعتماد على أيّ شخص ليقدّم تلك المساعدة، لأن الأشخاص الوحيدين الذين مروا خلال نفس النار التي سرتُ فيها، يرونني الآن خائنا. إنني أحتاج إلى آبي، وأحتاج إلى منزلي. أصبحت، أثناء نومي في تلك السيارة، متيقنا أنني لن أستطيع أن أطهّر نفسي من الإسلاموية أثناء إقامتي مع رابعة.

لم يطاوعني قلبي على إخبارها أنني سوف أتركها، وجها لوجه، كما فعلت مع نسيم، كنت أعرف أن ذلك لن يسفر سوى عن المزيد من الجدال العقيم. وبدلا من ذلك، تركت لها خطابا متضمناً قراري، وغادرت وحسب. ظهرت رابعة وعائلتها، بعد إحدى اختباراتي النهائية في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية، وكانت

معها أختاها، وأزواجهنّ، وكانوا يبحثون عني، محاولين بكل طاقتهم الإصلاح بيننا. ولكني لم أوافق على الحديث معهم. لم أكن أعرف من أكون بعد الآن، كيف يمكنني أن أتحدث معهم؟ استلزم الأمر كل قوة الإرادة التي امتلكتها يوما لكي أبتعد وأفرّ منها ذلك اليوم، ولكنني فعلت. تركت سيارتي عند المنزل من أجلها، وقمت بالركوب في سيارة أحد أصدقائي لكي أغادر، وفيما أنا أنطلق بالسيارة، كان بوسعي أن أرى رابعة وهي تركض خلفي في منتصف الطريق، مناديةً باسمي، وتتوسلني لكي أتوقف. فيما كنا منطلقين بسرعة في طريقنا، لمحت نظرة الأسى على وجهها، وكرهت نفسي لما كان يجب عليّ القيام به في ذلك اليوم.

الفصل السابع والعشرون

الترهيب المدني الديموقراطي

قضيت ثلاثة عشر عاما من عمري وأنا عضو في حزب التحرير. ثلاثة عشر عاما وأنا إنسان أيديولوجي إسلاموي، ملتزم للنخاع ومستعد بشكل كامل للتضحية بكل شيء في سبيل قضيتي. لم تكن رحلتي من السجن، ومغادرتي للجماعة، شيئا يسهل القيام به، ففي نهاية المطاف، يوجد الكثير من الأسباب التي تمنعني من المغادرة، والقليل جدا مما يدفعني لفعل ذلك. أعترف أنني مازلت لا أفهم بشكل كامل كيف قمت بعبور تلك الفترة رغم الكثير مما كان يكبح جماحي. كان الغضب الشديد عاملا قويا في تشويش قدرتي في الحكم على الأمور، وكان انتزاع نفسي بعيدا عن الغضب مما تم فعله بنا في السجن شيئا مرهقا ذهنيا. إننا مساجين رأي قامت منظمة العفو الدولية بتبني قضيتهم، كيف أمكن لتوني بلير أن يقضي عطلةً في مصر، مدفوعة الثمن من طرف الدولة المصرية، في حين كان مواطنون بريطانيون يعذبون هناك؟ كيف يمكن للعالم أن يعترض على فظائع وانتهاكات الإرهابيين في حين تنتهج الحكوماتُ نهج الإرهابيين نفسه؟ انتزعت ملابس زوجات بعض المعتقلين عنهن تماما، وتعرّضن للتعذيب أمام أعين أزواجهن، فضلا عن صعق الأطفال بالكهرباء. كان الناس في سجننا يسقطون صرعى تحت وطأة الجروح الناجمة عن التعذيب، فيما تم اعتقال آلاف الرجال لفترات تزيد عن خمسة عشر عاماً دون توجيه الاتهام لهم، فأغرق بعضهم أنفسهم بالكيروسين بهدف إشعال النار في أجسادهم، وقد شهدتُ على ذلك كلّه. ولكن، مع كلّ هذا، كانت مصر هي ثاني أكبر الحاصلين على المعونة الأمريكية، لقد كانت كانت حليفاً.

وهكذا، فإنّ السردية الإسلاموية الخاصة بصدام الحضارات، الكفار ضد المسلمين، ترددت بشكل أكبر وأكبر في ذهني، وبدا كما لو أنّ الأمرَ حرب بلا قواعد. كان المحافظون الجدد قد أوصلوا رسالتهم بوضوح وجلاء، وبدا أنّ الصوت الوحيد المسموع هو صوت القوة، ومثّل ذلك سببا أكبر ليدفع الإسلامويين إلى السيطرة على مقاليد مثل تلك القوة.

التخلي عن الإسلاموية؟؟ للانضمام إلى ماذا؟ ماذا كانت السردية المقابلة؟ كنت بوصفي إسلامويا أحظى بدعم آلاف من الرجال الأشداء، والكثير ممن ماتوا في سبيل قضيتي. أين كان الشهداء المسلمون لقضية التعددية؟ لماذا يُسخَرُ من القلة التي تعبّر عن رأيها أو يتم تجاهلهم؟

لقد تزوجتُ الإسلاموية، وكان كل أصدقائي والكثير من أعضاء العائلة إسلامويين، إنني على وشك ترك حركة عالمية، حركة كنت بطلها، لأصير منبوذا. ماذا سوف أقول لرابعة؟ ماذا سوف أقول لعمها عبد الرؤوف الذي خُلع عموده الفقري من مكانه في سجون باكستان، بعدما قمت أنا بتجنيده؟ كيف سأواجه ابن عمها الذي توفيت أمه من الصدمة لأنّ سراحه لم يطلق من السجن رغم قضاء مدته؟ سيتوجّب عليّ أن أواجه هؤلاء الناس، وأحدق في أعينهم، وأقول لهم: كان كل ذلك خطأ كبيرا، لقد كنت مخطئا إلى أقصى حد.

ولكن، ماذا بعد هذا؟ لماذا يجب أن أكون أنا الوحيد الذي يعترف بأخطائه؟ أليس الانتصار في هذه المعركة أكثر أهمية من الحقيقة؟ كانت هذه المقولة التراثية، كما أعرف، مما يؤمن به بعض المنتمين إلى اليسار، اليسار الرجعي، فبالنسبة لهم، كان الانتصار على الرأسمالية أكثر أهميّة من طبيعة الحلفاء الذين يقومون باختيارهم. وهكذا كان، أنني شاهدت أيديولوجيتنا وهي تكتسب القبول، ويتم منحنا وقتا على الهواء بوصفنا معلقين مسلمين. شاهدت ما يحدث فيما كان يتم تدليلنا بجهل من طرف ليبراليين طيبي النية، ويساريين مدفوعين بالأيديولوجية؛ كيف كنا، نحن الإسلامويين، نضحك على سذاجتهم. كان الفيلم برسبوليس (Persepolis)، الذي أشاد به النقاد، يشير ويبرز بالفعل هذا القصور الذي صدر من اليسار في إيران ما قبل الثورة. كان اليسار هناك، قد انضم إلى داعمي الخميني، مصدقين وعوده حول المستقبل الأكثر إشراقا، فقط لكي يتم التخلص منهم بشكل منهجي بعد الثورة. كان الإسلامويون مصممين على إعادة استنساخ مثل ذلك التحالف التكتيكي مع العالم السني. لماذا يجب أن أتبرأ من الإسلاموية، إن كان القيام بذلك يعني أن يتم وصمي، من طرف النقاد غير المسلمين "المحايدين"، الذين يمنحون الشرعية للجعجعة والخطابة الفارغة المدعومة من الإسلاموية حول موضوع صدام الحضارات، بأنني من المحافظين الجدد.

ولكن، على الرغم من كل ذلك، فإنّ السبب الوحيد الذي لم يسعني تجاهله، والسبب الوحيد الذي كان يتنامى ويكبر داخلي حتى استنزفني تماما من فرط الشعور بالذنب، هو إدراكُ حقيقةِ أنني كنت أسيء إلى إيماني في سبيل مشروع سياسي لا أكثر. لم أعد -بعدما تعلمت في السجن أن الإسلاموية ليست دين الإسلام، بل إنها أقرب إلى أيديولوجية سياسية تتخفى في شكل الإسلام-أشعر بالذنب لمجرد قيامي بنقد نظام سياسي مستوحى من هياكل أوروبية معاصرة، في حين يلجأ في تبريراته إلى الأوضاع الطبيعية في القرن السابع الميلادي. وبالرغم من كل ما سبق ذكره، والذي كان يكبح جماحي ويوقفني، فقد دفعتني رغبتي في العدل إلى الاستمرار. منذ أن كنت صبيا صغيرا كنت أجد الظلم، وغياب العدل، والقهر، أشياء غير محتملة. والآن، وأنا ألقي بنظري للوراء إلى السنوات التي مرت، فإنني أرى بشكل أكثر وضوحا مما رأيته من قبل، أننا استخدمنا تلك المظالم وسيلةً للقيام بمظالمنا الخاصة، ليس ضد غير المسلمين وحسب، بل والأهم من ذلك، ضد المسلمين الآخرين أيضا.

كم وكيف استخدمنا، وحتى أسأنا استخدام، مظالم الناس لكي تتلاءم مع خططنا الأيديولوجية. ماذا كان دخل الغزو واحتلال الأراضي في فرض شكل لباس معين على المسلمين؟ لماذا يجب أن يكون الحل للتخلص من الدكتاتوريين العرب هو دكتاتوريون عرب إسلامويون؟ لماذا كان التدخل الأجنبي يعني أننا نحتاج إلى إخراس التفكير النقدي والجدال والحوار والمناظرة المفتوحة، من خلال تسميتها هرطقة وكفرا؟ كنا، في رد فعل لشعورنا بعُقَدِ النقص حول هويتنا وموقعنا في العالم، نحن، وليس أيّ أحد آخر، بل نحن، قد أصبحنا العائق الحقيقي الذي يقف في وجه تقدم شعوبنا ذاتها.

ولكن ما هي المشكلة في الإسلاموية طالما ظلت غير عنيفة؟ ألم يكن من حق المسلمين أن يقوموا بتبني أي أيديولوجية يختارونها؟ بالطبع، كان من حق المسلمين أن يؤمنوا أنه يجب فرض نسخة واحدة وحيدة من الإسلام في شكل قانون على مجتمعاتهم، كما كان من حق العنصريين أن يؤمنوا أنه يجب ترحيل جميع الملونين من أوروبا. ولكن لن يؤدي انتشار أيّ من هاتين الفكرتين إلى أي شيء سوى تقسيم وبلقنة المجتمعات. لو أن المسألة هي أن مخاطر العنصرية واضحة وجلية، حتى في شكل غير عنيف، فكذلك الحال مع الإسلاموية أيضا. إن سياسات الهوية الشمولية، والإقصاء الذاتي والتفكير الجمعي، هي أشياء أكثر ضررا على المجتمعات على المدى الطويل من قنبلة ضالة تنفجر هنا وهناك، لأنّ تلك الأوساط هي بالضبط ما يؤدي إلى استيلاد صانعي القنابل. من الغريب أن حزب التحرير باللغة العربية يعني حزب التحرير، لقد قمنا باختطاف المفاهيم في أذهان الجموع المسلمة، وكانت تلك الأذهان في حاجة إلى التحرر.

وهكذا، ببطء ووحيدا تماما، بدأت في تفكيك وتحليل آخر ثلاثة عشر عاما من التلقين العقائدي، مفهوما بعد آخر، حيث بدأت الأفكار التي كنت أعتبرها مقدسة فيما قبل، تفقد تماسكها في ذهني، وتتحول إلى احتيالات وخدع سياسية فجّة. كان يجب على شخصيتي أن تتغير بالكامل، وكان من الواجب إعادة تقييم كل إطار أخلاقي مرجعي قمت ببنائه في ذهني. لم أكن أقوم بمجرد التشكيك في الإرهاب الجهادي فحسب، كما فعلت الجماعة في مراجعاتها وتوبتها، كان ذلك شيئا سهلا. لا يستحق أحد الشكر حقا، لمجرد أن يقدم وعدا بألا يقتلك بشكل عشوائي. كلا، كنت أحتاج إلى الذهاب لأبعد من ذلك، أي إلى التشكيك في القواعد المؤسسة للأيديولوجية ذاتها. بدت فكرة أن هناك نسخة من الإسلام يجب فرضها في شكل قانون للدولة فكرة غير إسلامية في نظري، وفكرة غير منتجة، ومضادة تماما لكل ما يمثل أسس العدل.

كانت أيديولوجية الضحية الشمولية الخانقة تلك هي ما نزع مسؤولية الإصلاح من يد شعوبنا عن طريق الحصول على الرضا من خلال إلقاء اللوم على الآخرين كلّهم بوصفهم السبب في كافة مصائبنا. بقيت مظالمي السياسة كما هي، ولكنني كنت أرى الآن أننا لم نعد في حاجة إلى الإسلاموية لكي نقوم بحملات ضد تلك المظالم، بل إنّ الإسلاموية قد أصبحت، في الواقع، واحدة من المظالم التي يجب مواجهتها. وفيما بدأتُ

في تشكيل تلك الفكرة في ذهني، صدمني الحجم الضخم لما يتعين علينا القيام به. كانت الحكومات الغربية في هذا الوقت، والحكومات ذات الأغلبية المسلمة، والإعلام و مئات الآلاف من الشباب المسلم حول العالم، قد وصلوا لمحصلة مفادها أن الإسلاموية هي الإسلام. إنّ هجر الإسلاموية موضوع في حد ذاته، ولكنّ مواجهتها وتحديها علنا كان شيئا آخر تماما. ولكن، من سيكون أكثر قدرةً على القيام بتلك المهمة من شخص يعرف الأيديولوجية عن ظهر قلب؟

شعرت بثقل في رأسي وأنا أتمعّن في مدى ضخامة المهمة الماثلة أمامي. ليس غالبية المسلمين إسلامويين، ولكنّ الأقلية المنظمة هي التي تسيطر على المسار. لقد كانت الإسلاموية تتسلل متسربة إلى المسلمين لمدة تزيد عن الثمانين عاما دون أن يتم القيام بشيء يذكر لمجابهتها. نعم، كانت منظمات مسلمة محددة قد أكدت وتؤكد على تطبيق إسلام متسامح، ولكنّ ذلك لم يكن كافيا. سوف يقوم الإسلاموي ببساطة بدمج تلك الرسالة في أيديولوجيته السياسية، كما فعلنا نحن. لقد تسامحنا مع مختلف أطياف اللاهوت الإسلامي، وكنا منضبطين عند التعامل مع غير المسلمين. وقد هدفنا من فعلنا هذا أن ندرج الجميع في نطاق هدفنا السياسي، بغض النظر عن الاعتبارات الطائفية الضيقة.

لو لم تقف جميع المجتمعات، خاصة المجتمعات المسلمة، معا يدا واحدة لاستعادة الدين فلن يكون لدينا أدنى فرصة في مجابهة هذه الأيديولوجية التي ترعرعت بيننا. كان هذا يعني أيضا أنه يجب على يساريين بعينهم، والليبراليين طيبي النية، أن يتوقفوا عن الانقياد إلى مشروع سياسي-لاهوتي شمولي عالمي. كما كان يعني، وهذا هو الأهم، أنّ من الواجب على المسلمين العاديين أن يتخذوا موقفا من خلال إغلاق أبوابهم في وجوه الإسلاموية.

و الأهم من كل ما سبق، هو أنه يجب على القادة المسلمين وعلماء الدين أن يكونوا في غاية الحزم في وجه هذا التعدي الأيديولوجي على ديننا. وفي حين أن اللاهوتيين أو علماء الدين، مسؤولون بصفة خاصة عن قيادة المقاومة الإسلامية ضد الإسلاموية، فلا يمكن للمسلمين القيام بهذا، إذا لم يتم أيضا مجابهة توأم الإسلاموية، وهو الإسلاموفوبيا. بالرغم من أنّ كل انتقاد يوجّه إلى الإسلام لا يعد مصنفا بوصفه إسلاموفوبيا، فإنّ هؤلاء الذين يكنون خوفا غير منطقي من الإسلام يتواجدون في الدنيا. يتشارك كل من هؤلاء، الذين يعانون من رهاب الإسلام، مع الإسلامويين، في أن كلتا المجموعتين تصران على أن الإسلام هو أيديولوجية سياسية شمولية مناقضة للديموقراطية الليبرالية، وهكذا يصر الطرفان على أنهما سوف يتصادمان في نهاية المطاف. يطالب جانب متطرف من ناحية بحظر القرآن، في حين ينادي الجانب المتطرف الآخر بحظر كل شيء عدا القرآن. ويشكلان سويا، الطرف الإيجابي والسلبي من فتيل القنبلة. لم يكن هناك أي فرصة لخلق هذه السردية المضادة، لو لم يوضع كل ما سبق محل التطبيق والممارسة.

كان يجب أن يتم مصالحة وتوفيق تلك المثاليات، وهذه السردية المضادة: توفيق احترام حقوق الإنسان الأساسية، والتعددية، والحريات الفردية، والإيمان والديموقراطية مع الإسلام، ليس في الأبراج العاجية الخاصة بـالأكاديميين، بل في الخارج، هناك في قلوب الجموع. ولكي يتم القيام بذلك، فقد كنا بحاجة إلى الدخول في كل عناصر المجتمع، حاملين هذه السردية المضادة: السياسة والسياسات، والإعلام، والفنون، والوسائط الاجتماعية، والعالم الأكاديمي، والرأي العام. كنا في حاجة إلى دعم ومساندة الدول والأحزاب والائتلافات والحركات. كنا في حاجة إلى الأفكار والسرديات والقادة والرموز، كلهم مجتمعين معا، تماماً مثلما كانت الإسلاموية تفعل منذ العشرينيات.

وفي حين أنّ الكوادر الإسلاموية كانت منهمكة لمدة عقود كاملة في صنع علامة تجارية، بروبوجاندا لأيديولجيتهم عند القواعد الشعبية لمجتمعاتهم المستهدفة، فإنّ الليبراليين المسلمين كانوا إما يعزلون أنفسهم في منازلهم، أو يغمسون أنفسهم في سياسات فاسدة مع أنظمتهم الحاكمة. أما نحن –الإسلامويين- فكنا نرى هؤلاء الليبراليين المسلمين مغيبين ومنفصلين عن مشاعر شعوبهم.

هل كان شيئا مستغربا إذن، أن الإسلاموية قد صارت الظاهرة الاجتماعية الأكثر فعالية لدى المسلمين عالميا في كل من نظم الحكم الدكتاتورية والديموقراطية على حد سواء؟ كان الدكتاتوريون يحاولون إما دمجها والاستحواذ عليها، أو قمعها بوحشية. وكان كلا التكتيكين يؤديان حتما إلى دفعها قُدُما، والمساعدة على نموها.

إنّ السياسات الانتخابية في الدول الديموقراطية غير قادرة على التفاعل إلا مع الأصوات، وفي حال كانت الكتلة الأكثر تنظيما هي الكتلة الإسلاموية، فإنهم سيفوزون، ويهددون حكومة بعد الأخرى عن طريق استغلالهم الانتهازي للإسلام في التأثير على السياسات. لماذا كانت الحكومات في كل مكان خائفة من إزعاج العملاق الإسلاموي النائم؟ لماذا كانت قد استسلمت بالتدريج لأسلمة مجتمعاتها؟ لماذا لم تخشَ الحكومات أيّ جماعات ضغط ديموقراطية داخلية أخرى؟ أين كان الترهيب الديموقراطي؟ إنّ ما أراه بوضوح الآن، هو الحاجة الماسة إلى حركة اجتماعية أصولية جديدة، تكون نظيرا للإخوان المسلمين، وترتكز على أهداف حزبية سياسية قصيرة الأمد، تدعو لثقافة ديموقراطية بين جموع القواعد الشعبية المسلمة، يعني ذلك ترهيبا ديموقراطيا مدنيا يدفع في اتجاه إرساء الديموقراطية. أدركت وأنا جالس في عزلتي في منزل آبي في ساوث إند، أن رحلتي للبحث عن العدل التي بدأت هنا لن تنتهي قريبا. إنني أعرف الآن ما يجب القيام به، وكنت أعرف الثمن الذي سيكلّفه ذلك.

الفصل الثامن والعشرون

الاعتذار الذي تأخّر عقداً من الزمان

ظهرت منظمتنا الخاصة بمكافحة التطرف "كويليام" (Quilliam) إلى حيّز الوجود بمفارقة جديرة بالذكر في الموقع نفسه الذي حدثت فيه هجمات 7/7. بدت لندن بعد مرور عامين على الانفجارات ماضية في طريقها، فباستثناء اللوحة التذكارية في ميدان تافستوك (Tavistock) فإنّ كلّ شيء تقريبا قد عاد لطبيعته. كانت الحافلة اللندنية التي تدمّر سقفها قد أزيلت منذ وقت طويل، وصورتها الآن ذكرى تاريخية، وكانت حافلة أخرى تحمل رقم 30 مستمرة في الرحلة التي كان من المفروض أن تستكملها تلك الحافلة، وهي تمر الآن على سيارة رينو كليو زرقاء مستهلكة، يقبع بداخلها طالب مرهق يحاول النوم وهو مكوم تحت الغطاء في المقعد الخلفي.

لقد تركت سيارتي لرابعة بعد ان كتبتُ رسالة الوداع تلك منتقلاً للعيش مع آبي، ولكن في الفترة السابقة لتلك الفترة، في الأسابيع التي تلت مغادرتي لحزب التحرير، وأثناء فترة اغترابي عنها، فإنّ سيارتي صارت منزلي. كان عليّ أن أحضر اختباراتي النهائية، وأن أكون في لندن، لا مع آبي في ساوث إند. وعندما غادرت حزب التحرير، تركت أصدقائي أيضا، فقد كانت حياتي مرتبطة تماما بالمنظمة إلى حد خسارة دوائري الاجتماعية بالكامل معها. لم يكن لدي عمل أو أيّ مال، وهكذا صارت السيارة هي المكان الذي أذهب إليه في نهاية اليوم، حيث أتجول بها حتى أجد مساحة للاصطفاف في أحد الشوارع المجاورة لـكلية الدراسات الشرقية والأفريقية، والذي يكون عادة في ميدان تافستوك أو ميدان راسل، وكان ذلك المكان الذي أقضي به الليل.

ولكنّ الأمر لم يكن كله بهذا السوء، فقد بدا مشهد احتفالية التخرج، بعد عشرة أعوام من تسجيلي المبدئي، مشهدا لا يُنسى. كانت الجامعة قد سمحت بتسجيل الطلاب على نحو يزيد بشكل دراماتيكي عن طاقتها الاستيعابية، وبالتالي، لم يكن هناك مقاعد كافية في الصالة العمومية. قررت الإدارة بشكل تعسفي أن بعضنا، بالترتيب الهجائي، سوف يتسلمون شهاداتهم، ثم يمضون إلى غرفة احتياطية حيث نشاهد احتفالية تخرجنا، نحن أنفسنا، بواسطة رابط فيديو. لقد انتظرت هذه اللحظة عشر سنوات، وعائلتي تنتظر بكل فخر في الصالة العمومية وهي تتوقع ظهوري، ولم يكن لديهم أدنى فكرة أنه سيتم حرماني من الجلوس في مقاعد بجوارهم. كانت كلية الدراسات الشرقية والأفريقية قد طردت لتوها الرجل الخطأ من احتفالية تخرّجه. قمت

بسرعة شديدة، بحشد وتنظيم الطلاب الذين كانوا في غاية الانزعاج. كنا في قمة الغضب، وأعلنت أنني سوف أرفض استلام شهادتي إن لم يقوموا بتوفير مكان لنا جميعا في الصالة العمومية. قام أغلبية الطلبة بالانضمام إليّ. رأى هؤلاء الذين كانوا يريدون أن يستكملوا يومهم فحسب أن الاعتراض على منطقي محرج للغاية: إن كان السجن لم يستطع منعي من التخرج، فسحقا لي إن كان هذا سوف يفعل. بدأنا جميعا نعلن بعناد رفضنا للتعاون، وقمنا بالإعلان عن اعتصام، ولم تملك الإدارة خيارا إلا الاستسلام. وفي نهاية الأمر تمّ اقتراح حل وسط، حيث قيل لنا أنّ بوسعنا الجلوس على مقاعد في الصالة العمومية، ووافقنا على الفور.

كان من سخرية القدر أنّ أيرين خان (IRENE KHAN)، التي كانت تشغل في ذلك الحين منصب السكرتير العام لمنظمة العفو الدولية، كانت ستتسلّم في ذلك اليوم شهادة دكتوراه فخرية من كلية الدراسات الشرقية والأفريقية أيضا. وكانت أيرين على المنصة، وشهدت ما حدث بعد ذلك.

عندما نودي على اسمي أسرعت إلى المنصة، وفي غمرة فرحتي، احتضنتُ عميدة الجامعة ورفعت ذراعي احتفالا. وقد تفاجأتُ حين بدأ الطلبة يهتفون باسمي، ووقفوا تكريماً لي في حفاوة بالغة. عندما احتضنتها، سألتني عميدة الجامعة: "ماذا فعلت لتستحق هذه الحفاوة؟"

أجبت ضاحكا: "أوه، أنتِ حقا لا تريدين أن تعرفي ذلك." كانت صديقتي العزيزة أميرة حرب تنتظر دورها في الصف بعدي، ولم تتوقف أميرة منذ ذلك اليوم عن تذكيري، وهي تمزح، كيف كان دورها على المنصة يبدو كما لو كان شيئاً محبطاً.

في ذلك العام، وقبل التخرج، عشتُ إحدى تلك اللحظات حين يبدو الكون كله كما لو أنه منتظم بشكل مثالي. ففي ذات اللحظة التي انقلب فيها كل أصدقائي من حزب التحرير ضدي: خائن! بائع! عميل! صادفت شخصا من أيامي الخوالي.

"ماجد! سبحان الله! حبيب، صديقي العزيز، لقد عدتَ من مصر، رأيت أخبارك على التلفاز. كيف حالك؟" واقفا على سلالم كلية الدراسات الشرقية والأفريقية، بالضبط حيثُ تركته آخر مرة، لا يزال مرتديا بذلته المميزة، إنّه هو بشحمه ولحمه، إد حسين، يدرس الآن لنيل الدكتوراه.

يمكنك بعضَ الأحيان أن تكون محظوظا في حياتك بما يكفي لكي تجد صداقة تستمر رغم الفراق المطول، ورغم الأذى الذي وقع في تلك الفترة. كانت قد مرت عشر سنوات، ولكنّ الرابطة بيننا بقيت قوية كما كانت قبل ذلك. نسينا نحن الاثنان فورا، ما حدث على هذه السلالم عندما دخل بيننا توني بلير، وبدأنا بدلا من ذلك، نتحدث عن الأيام الماضية والحالية. كان إد مشغولاً بتأليف كتابه الذي لاقى كل الاستحسان، الإسلاموي (THE ISLAMIST)، والذي نُشرَ في نهاية المطاف في نفس الأسبوع الذي غادرت فيه حزب التحرير. تبين له أن أفكاري قد تغيرت إلى حد كبير، فطلب مني أن ألقي نظرة على الأجزاء الخاصة بنيوهام،

وأقدم له ملحوظاتي عليها، وقد كان ذلك شيئا يذكرني، في حال احتجت إلى تذكير، بمدى المسافة التي قطعتها حتى ذلك الحين. كنت أعرف بحلول هذا الوقت، أنني سوف أترك حزب التحرير، ولكن لم أكن قد أعلنت ذلك الخبر للعالم بعد. في الواقع، تنتهي أول طبعة من كتاب الإسلاموي بتساؤل مفاده: ما هو الاتجاه الذي سوف يتبناه حزب التحرير؟ هل هو اتجاه ماجد نواز، أم الخط المتشدد لجلال الدين باتل؟

كانت الحوارات والمناظرات التي جرت بيني وبين إد في المقعد الخلفي لسيارتي، خلال تلك الأيام الأولى المثيرة للاكتئاب، ذات أهمية حرجة في تشكيل اتجاهنا المشترك لعدة سنوات قادمة. كانت تلك الرينو الكليو الزرقاء المستهلكة قد خدمتنا، نحن والعالم بشكل جيد جدا. لم تكن مغادرة حزب التحرير وحسب، شيئا كافيا بالنسبة لأي منا نحن الاثنين.

"إننا في حاجة إلى إصلاح الطريقة التي ينظر بها المسلمون إلى السياسة، وإعادة إحياء معرفتنا بالفقه والاجتهادات التقليدية من خلال الطريق الصوفي"، اقترح إد.

"لا، أيها الحبيب، ثق بي، إنّ كل شيء، كل شيء بالمطلق، في حاجة ماسة إلى الإصلاح، ويتضمن ذلك الفقه التقليدي... ما أسميه أنا فقه القرون الوسطى. إنه ببساطة لا يتناول مشاكلنا المعاصرة."

قال إد متعجبا:"ولكنّ ذلك.... ذلك يمتدُّ ليشمل إصلاحا دينيا شاملا كاملا"

"بالضبط، إنني أتحدث عن تكريس الحريات المطلقة، وحقوق الإنسان، واحترام الحرية الفردية، وحقوق النساء، وتوافق الحقائق العلمية الحديثة مع التفسير الإسلامي. ولا يقتصر ما أعنيه هنا على الدوائر الأكاديمية المرموقة، أو اللاهوت الديني في عليائه العلمية، لقد تم كل ذلك من قبل، ولكنني أقصد على الأرض في العالم الحقيقي، بالضبط كما فعلنا في سبيل الإسلاموية في الأيام الخوالي."

"نعم، بوسعنا أن نبدأ الدعوة لتلك القيم، بالضبط كما فعلنا في نيوهام لحساب حزب التحرير." بدأ بريق عيني إد يشي بتحمسه للأمر:

"بالطبع! الدعوة من أجل مساحة محايدة دينيا في المجال العام، العلمانية أو ما يطلق عليه (Dhormo niropekhota) ومعناه الحياد الديني باللغة البنغالية. أتعرف شيئا؟ من المؤسف أنه لا توجد كلمة تعبر عن العلمانية في لغة الأوردو في باكستان، إنهم يستخدمون مصطلح la-deeniyat الذي تعني لا دين، طبعا مع مثل تلك الترجمة، فسوف يكون السبق للإسلاموية."

"أنت مدرك بالطبع يا ماجد أن أمامنا مهمة ضخمة للغاية، سوف نُهاجَم من كل الأنحاء"، قال إد ذلك بشكل فيه تشوّق أكثر مما ينبغي. "ولكنّ لديّ فكرة عن كيفية البدء في ذلك. فلنشرع في هذا عن طريق تكوين فريق أفكار وأبحاث لكي يغرس بذور هذا الفكر على مستوى العالم. فلنطلق عليه اسم الرجل البريطاني الذي

افتتح أول مسجد في إنجلترا، لكي نوضح نقطة أن الإسلام لا يحتاج على الدوام إلى التصادم مع المجتمع. كان اسمه ويليام كويليام (William Quilliam!)"

وهكذا كان، في سيارة رينو كليو قديمة، مصفوفة في مكان ما في ميدان راسل في لندن، ظهرت إلى الوجود فكرة أن تصبح كويليام بذرة هذا الاتجاه الفكري الجذري الجديد.

كان ما فعلته الإسلاموية في أوروبا هو تعطيل المجتمعات المسلمة بما يوازي جيلا كاملا، إذ خلقت جدول أعمال إقصائيا أصبح بعد ذلك افتراضا يحقق ذاته. كانت الجهود التي تستهدف الاعتراض على التفرقة لا تحقق سوى المزيد من الفصل والتمييز، وكان المزيد من انعدام الحراك الاجتماعي يؤدي إلى المزيد من التفرقة، أكثر مما يقلل منها. عندما ترك عمر بكري حزب التحرير، قام بتكوين تنظيم "المهاجرون"، الذي قام بمظاهرات في ووتون باست (Wootton Bassett) تعارض عودة جثث الجنود البريطانيين من أفغانستان، وقد أُنشئت رابطة الدفاع الإنجليزية (English defence league) كرد فعل على ذلك. كان معنى ذلك أن الإسلاموية كانت، وهي تكرر دورة العنصرية، تمثل خطرا قد يتسبب في تدهور الموقف، بدلا من تحسينه. تطرف إسلاموي يثير عنصرية، والتي بدورها تثير تطرفا إسلامويا، وهلم جراً. لم يكن غريبا إذن أن ابنة عمر بكري نفسها، ياسمين فستق فقدت إيمانها بحديث أبيها الدعائي، لدرجة أنها في تصرف يفيض بالتحدي والمجابهة، تركت بيت أبيها وأصبحت راقصة تعرٍّ، وأعلنت عن مهنتها الجديدة بفخر مصحوب برضا غامر من جهة صحافة الفضائح.

ما زاد الطين بلة هو غياب الفهم لماهية الإسلاموية. كانت الحكومات تسمح للسردية الإسلاموية بالتحكم في مجرى المناظرة، وتقبل إدعاءاتهم بأنهم يمثلون صوت الأغلبية المسلمة، وهو، ببساطة شديدة، ما لم يكن حقيقياً. كانت الإسلاموية ظاهرة سياسية حديثة، ذات آراء يمكنها أن تكون مماثلة تماما، للعدائية الماثلة في آراء منظمات أقصى اليمين -فيما يختص بمعاداة السامية ورهاب المثليين مثلا-ولكنّ الحكومات والمجتمعات قامت، بشكل غريزي، بمقاومة عمليات مجابهة هذه الآراء، خوفا من الظهور بشكل عنصري.

بدت السياسة الرسمية شكلا من أشكال الاستشراق (Orientalism)، وقد قامت هذه السياسة، بشكل أبوي، بتجميع كل المسلمين معا بوصفهم "مجتمعا واحدا" هو ما يسمى الصوت المسلم الذي يتطلب "زعيما منهم"، ليتحدث نيابة عنهم. فبدلا من أن يتم تمثيلهم من خلال عضو البرلمان مثل كل البريطانيين الآخرين، تم تشجيع المسلمين على السعي لإيجاد تمثيل منفصل لهم، عن طريق مظلة سياسية إسلامية حصرية. كان هناك افتراض متعجرف ومليء بالتعالي بطريقة "أهل البلد الأصلي الفقير"، يفيد بأن الإسلاموية هي التعبير الحقيقي عن أصالتنا، حتى لو حاول من يسمونهم الوسطيين إبعاد أنفسهم عن ذلك المفهوم. وكان هذا شكلا من أشكال العنصرية المعاكسة، حيث كان من المتوقع من القيم الليبرالية أن تكون شيئا ملزما للإنسان الأبيض

المتحضر فقط، ولكنّ الإنسان الملون المسلم لم يكن ملزماً بتلك المعايير ذاتها، بل يجب أن يُحكم عليه من خلال ثقافته "الأصلية". كان هذا "فقر توقعات" ذا أصل استعماريّ، يؤدي حتما إلى الفصل والتفرقة، والآمال المنحطة، والتوقعات المحملة بالاستعلاء، والأسقف الثقافية الزجاجية، التي تقوم كلها عمليا بتعطيل تقدم الحركية والديناميكية الاجتماعية المسلمة عبر أوروبا.

أردت أنا وإد فضح كل هذا، أردنا تقليل حالات فصل وانعزال المجتمعات، وتحقيق مشاركة أكبر من طرف المسلمين في كل جوانب المجتمع. كنا نريد تركيزا أقل على الاختلافات، وأكبر على المتشابهات الثقافية. كان المجتمع العادي، وليس المسلمون فحسب، مسؤولا بدرجة كبيرة جدا عن تحقيق ذلك. من الممكن أن تقدم الدولة بعض المساعدة هنا، ولكن لا يمكنها مطلقا أن تقود العملية: لن يؤدي فرض أفكار مثل الديموقراطية وحقوق الإنسان إلا إلى المقاومة. ولكن، وبدلا من ذلك، كان يجب أن يأتي التغيير من داخل المجتمعات نفسها، ازدهار الأفكار الأكثر ليبرالية من خلال المناظرات والمناقشات المدنية. كان ما يجب أن تمثّله مبادرتنا لكي تنجح هو أن تكون النقيض التام لحركة المحافظين الجدد، في شكل عملية من "الأسفل للأعلى" وليس من "الأعلى للأسفل".

لم يكن تشكيل تلك الأفكار في صورة ما سوف يكون لاحقا: "كويليام"، حدثا يمكن استكماله بين ليلة وضحاها. خضت أنا وإد كثيراً من المناقشات، وحصلت بيننا الخلافات في بعض الأحيان عندما كنا غير متأكدين أين وكيف ستكون البداية. لم نكن أول من حاول تغيير العالم، كان الوصول للأفكار -بصورة ما-هو الجزء السهل من الموضوع، أما الجزء الصعب فهو كيفية الانتقال بهم للأمام، كيف يتم تحويل حديثنا المتحمس إلى فعل على الأرض. ما هي العملية والإجراءات التي ينطوي عليها ذلك بالفعل؟ أين يمكن العثور على التمويل اللازم لذلك؟ أين يمكننا حتى أن نبدأ؟

كان ما يشجعنا منذ البدايات الأولى هو رد الفعل على أفكارنا. كانت رؤيتنا الصادرة من داخل وقلب المنظمات الإسلاموية هي الأكثر وضوحا ومصداقية من ضمن كل ما كان المجتمع العادي قد لمحه منها ومن السجون التي تقبع فيها. تم نشر كتاب إد في خضم الكثير من الاهتمام الإعلامي والمناقشات. تلى ذلك، بعدما أعلنت أخيرا عن استقالتي من حزب التحرير، أن ذهبنا لمقابلة بيتر بارون (Peter Barron) الذي كان في حينها محرر برنامج البي بي سي المميز نيوز نايت(Newsnight)، والذي وافق على القيام بإذاعة مقطع مطول حول مغادرتي لحزب التحرير. كانت مقدمة البرنامج، في أواخر 2007، هي قصتي تلك، واستطاعت المنتجة سارة أفشر (Sara Afshar) أن توفر ما يزيد عن سبع عشرة دقيقة على الهواء للمقطع، وكانوا في غاية الحرص على أن أتحدث، بحيث أنهم سمحوا لي برواية قصتي مباشرة للكاميرا، بدلا من أن تكون عن طريق حوار مع صحافي.

ولكن لم يكن الإعلام فقط هو المهتم بقصتي، كانت الحكومة مهتمة كذلك. دُعيت أنا وإد في اليوم الذي كان محددا لإذاعة المقطع الخاص بي لقسم المجتمعات والحكم المحلي CLG في وزارة الداخلية (Home office)، للحديث معهم حول الإسلاموية. أدركنا ونحن ندخل الغرفة، كم كان مستوى الاجتماع رفيعا، فبالإضافة لهازل بليرز (Hazel Blears) سكرتيرة المجتمعات في ذلك الحين، كان هناك كذلك وزير الخارجية دافيد ميليباند (David Mililband)، ووزيرة الداخلية جاكي سميث (Jacqui Smith)، وشارلز فار (Charles Farr)، المدير العام لمكتب الأمن ومكافحة الإرهاب.

في آخر مرة تم استجوابي رسميا حول آرائي السياسية، تم الحصول على بصماتي، وعيّنة من حمضي النووي، مع الحصول على بيان بحقوقي في غرف الاستجواب في مطار هيثرو. ها نحن الآن، نعرض آراءنا على ثلاثة أفراد من تشكيل الحكومة الوزاري، على أعلى مستوى في المملكة المتحدة. في وقت لاحق من ذلك الأسبوع، وبعد إذاعة المقطع في نيوزنايت، تلقيت مكالمة يشوبها الكثير من الدهشة والحيرة من آبي. "لن تخمن أبدا من جاء ليراني بعد إذاعة قصتك على نيوزنايت؟" قالت بين ضحكاتها. "إنهم شرطة إيسكس. لقد جاؤوا ليعتذروا عن القبض عليك تحت تهديد المسدسات، منذ كل تلك السنوات، عندما كنت في الخامسة عشرة من العمر. لقد شاهدوا قصتك على التلفاز وساءهم ذلك." انفجرت في الضحك. كانت تلك هي لحظة "حقيبة الظهر الخضراء" الخاصة بي مع الشرطة، بدأت رسالتي تصل للناس، ولكنها رسالة ديموقراطية هذه المرة، وقد شجعني ذلك.

مثّل ذلك إذن لحظة مولد كويليام، وكانت فكرتنا هي خلق أول مركز لنشطاء مكافحة التطرف في العالم. سوف نخلق منصة نستطيع منها مجابهة وتحدي الخطاب الإسلاموي بشكل مباشر. سوف نتحدث ونناظر ونحشد ونحاضر ونحرك ونعبئ ونكتب وننشر وننظم بهدف نشر سردية مضادة للإسلاموية، آملين أن نكوّن إلهاما يحقق انتشارا واسعا لقضيتنا، في أي مكان وكل مكان على وجه الأرض.

كانت المشكلة تتمثل في المال، إذ إنّ بدء شيء مثل هذا يكلف الكثير، فهناك تكاليف إدارة مكتب وتشغيل قوة عمل، وتكلفة السفر للمؤتمرات والبلاد لكي ننشر رسالتنا. سوف نطوف حول البلاد في محاولة لخلق قاعدة لمنظمتنا، لكي نقابل الرموز الدينية، والإسلامويين السابقين، وموظفي الحكومة. تواصلت مع الإسلاميين المنتمين إلى المشهد السياسي غير الإسلاموي، أناس مثل داعمي الرجل الشجاع المخلص إقبال وهاب، وأصدقائي نديم وطارق شاه للحصول على النصح والإرشاد. كنا نريد ضم أكبر عدد من الناس لمشروعنا لكي نخلق بهم كتلة حرجة، ولكن، لم يكن لدينا أيّ فكرة بعد حول مصدر التمويل. فلا نزال نحن الاثنان طالبين، إذ إنّ إد لازال يستكمل دراسته للدكتوراه في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية، وكنت أنا بعد حصولي على درجتي في القانون في ذات الجامعة، قد سجلت للحصول على ماجستير في النظرية السياسية

في كلية لندن للاقتصاد. وهكذا، كبداية، قمنا أنا وإد، بمنتهي البساطة، باستخدام بطاقات الائتمان الخاصة بنا والسحب على المكشوف من حساب الطلبة الخاص بنا لسداد ثمن كل شيء، وهي طريقة مضمونة لتراكم آلاف الجنيهات الإسترلينية من الديون. ولكنّ ها هو طفلنا، ونحن في غاية الحرص على نجاحه.

في نهاية المطاف شق كتاب إد الطريق، وقد أُعجب أحد قراء الكتاب بآرائنا وقدم لنا دعوة إلى منظمة كويتية تسمى مؤسسة البابطين (Babtain Foundation). اجتمعنا مع ممثلهم في لندن، وقمنا بشرح رؤيتنا حول كويليام، وكانت سعادتنا بالغة حين وافقوا أخيرا على منحنا التمويل المبدئي لوضع المنظمة على أول الطريق، واستطعنا نتيجة لما سبق ذكره تأسيس مكتب وتعيين اثنين من الإسلامويين السابقين الآخرين، داوود ورشاد اللذين انضما لنا في تكوين أول فريق للمكتب.

في يناير 2008، خلف ميدان راسل في المتحف البريطاني مباشرة، ومع الكثير من الاهتمام الإعلامي والتشوق الجماهيري، قمت أنا وإد بإطلاق كويليام، أول منظمة لمكافحة التطرف في العالم. لازلت أشعر بالاندهاش عندما أفكر بالسرعة التي استطعنا بها إنجاز ذلك، لم يكن إنجازا بسيطا أن ننطلق من حوار في المقعد الخلفي لسيارة رينو كليو وصولاً إلى تأسيس منظمة ممولة وعاملة بالكامل في أقل من عام واحد، وكل ذلك أثناء الدراسة للحصول على شهادة دراسات عليا. كان اللورد بادي آش داون (Lord Paddy Ashdown) و جميما خان (Jemima Khan) من المتحدثين والداعمين لنا في ذلك اليوم مع أشخاص آخرين. لكنّ أكثر ما مسّني كان الخطاب الذي ألقاه أحد الناجين من 7/7، راشل نورث (Rachel North) التي أثارت شجون الجمهور حدّ البكاء وهي تقص محنتها أثناء حصارها في تفجيرات لندن، وما قامت به منذ ذلك الحين في سبيل التوفيق بين نفسها والمجتمعات.

وعلى الجانب الآخر لم يهنّئنا كلّ الموجودين داخل المجتمعات المسلمة على عملنا، فمثلا، وعلى الرغم من أنه كان قد ترك حزب التحرير منذ زمن بعيد، وكان على خلاف معهم حول كثير من الأمور، فإنّ أخي عثمان، صديق طفولتي ودرعي وسيفي، كان معارضا تماما لقراري الخاص بنقل معركتي مع الإسلاموية إلى المجال العام. شاركه ذلك الرأي ابن عمي ياسر الذي ترك حزب التحرير أيضا في ذلك الوقت، حيث تبني وجهة نظر عثمان التي تقول بأن مجابهة الأيديولوجية نفسها كانت خطوة مبالغا فيها، وحتما تأثرت علاقاتنا بما حدث.

لم يتفق مع ما أقوم به سوى عدد قليل جدا من أصدقاء طفولتي المقربين الذين كانوا قبل ذلك يحترمونني بشدة نتيجة التزامي بالإسلاموية. ومن بين كلّ هؤلاء الأصدقاء، بدا لي أن الهجوم الأكثر انتقاماً كان من طرف ناس اليوناني. أتذكر الشعور حينها بأن ناس بدأ ما كان يبدو حملة شخصية ضدي في الفضاء الإلكتروني، وفي المسجد الذي أسسه جدي نانا أبو، وفي المجتمع المحلي. كان الوحيد الذي وقف بجانبي من

المتحولين القدامى إلى دعم قضيتنا، والذي شجعني سرا في تلك الأيام المبكرة، هو صديقنا البريطاني الكيني مو، ضحية هجوم حليقي الرؤوس عليه بالمطرقة في الأيام الخوالي. أما إحدى اللحظات المؤثرة بصفة خاصة فقد حصلت حين قام الأصدقاء غير المسلمين من المدرسة بقيادة ساف، ومشاركة أمثال مارك وجايمي وكاترينا وآخرين، بتنظيم اجتماع خصيصا للترحيب بي في وطني، في ساوث إند. فعلى الرغم من كل ما قمت به خلال سنواتي كإسلاموي، والمسافة التي وضعتها بيننا، كانوا لا يزالون يهتمون لأمري. وبالفعل، كان ساف قد استمر في كتابة الرسائل وإرسالها إليّ في السجن، عارضا عليّ دعمه المعنوي، ومثّل مثل ذلك الإخلاص العميق حافزاً يدفعني قدما، ففي رحاب صداقة مثل تلك، كنت أعلم أنني أقوم بالشيء الصحيح.

تمرغت سيرتي في الوحل عند كل المجتمعات المسلمة في المملكة المتحدة، وتم استهدافي أنا وإد بحملة تشويه شخصية ومنظمة للغاية. وفيما مر علينا وقت كان يستخدم فيه مغنو الرابرز صوتي في أغانيهم، فقد كان مؤيدوهم الآن يعلنون أنني مرتد. كانت مثل تلك الادعاءات مقدمة ضرورية لكي تكون أيّ محاولة لقتل شخص مسلم "شرعية". كانت فرق إسلاموية متخصصة بالشغب والتحريض تجوب المملكة المتحدة، وتنشر حزما معلوماتية تشرح فيها لماذا نعدّ أنا وزملائي زنادقة.

بقيت أنا ورابعة أثناء كل هذا متزوجين رسميا، وإن كنا منفصلين، ولكن، مع تأسيس كويليام، انتهت أيّ فرصة للتصالح بيننا. كنت، فيما يخصّني، قد تركت بيتها وأنا سجين سابق هش المشاعر ومرتبك، يمر بأزمة وجودية بخصوص هويته لثاني مرة في حياته. غادرت بيتها لأنني أردت أن أعيد اكتشاف من أكون، وكنت في حاجة إلى صفاء التفكير الذي تجلبه حالة الانعزال. شعرت الآن، بعدما بدأت في الرحلة المؤلمة اللازمة لإعادة ترتيب نفسي ذهنيا وعاطفيا، إنني ربما صرت مستعدا لأبدأ مع رابعة في إصلاح زواجنا.

كانت رابعة قد تزوجت شخصا إسلامويا متحمسا ناريا ملتزما ومتقد المشاعر، ولكنّ ما لديها الآن هو مسلم ليبرالي، مقولب طبقا لخطوط آبي الحياتية. بل والأسوأ أن هذا الشخص الليبرالي عازم على مجابهة وتحدي كل شيء كان قد أكد لها قدسيته من قبل. وهكذا، وعلى الرغم من جهودنا الحثيثة، والكثير من ألم المشاعر لدى الطرفين، فلم يكن هناك سبيل لإصلاح العلاقة مرة أخرى.

يا رابعة، إن كان فراري من المنزل قد آلمك، فقد كان وليد الألم الذي كان يخترق كياني بالكامل. عندما رفضتك أنت، كنت في الواقع أرفض روحي ذاتها. هجرتك، ولكنني كنت بالفعل قد هجرت نفسي قبل ذلك، ولم أعد أعرف من هو ماجد. لو كانت أفكاري قد حيرتك، فلم يكن ذلك سوى جزء بسيط من الارتباك والحيرة اللذين شتتا ذهني. كنت الآن قد استقررت على شيء أكثر رسوخا، شيء صلب، شيء جيد، وقد عدت لأوضح لك ما الذي حققته، وسوف أحققه في مهمتي الجديدة، ورسالتي الجديدة. عدت إليك وأنا مكتمل مرة أخرى، وأنا أعرف الآن ما كنت أريد أن أكونه. إنني لا شيء إن لم أستطع السعي والكفاح في سبيل شيء

ما. ذلك ببساطة ما أنا عليه، إنها الطريقة التي خلقني الله عليها، ورغما عن كوني مجهزا بهذا الشكل بعينه، فأنا الآن أؤمن أنها لعنتي، فقد سببتْ لي بؤسا غير محتمل. ربما لن يكشف إلا الزمن، إن كان سيكشف شيئا، ما سوف يسفر غروري عنه، ولكن بالمثل كذلك، فقد كان يمكن للزمن أن يخبرنا، عن أيّ شيء، إن وجد أصلا شيء، يمكنه أن يصلح ما بيننا. الآن، وللأبد بعد ذلك، فات الوقت.

بعد الطلاق، وهو التوقيت الذي كنت فيه في أقصى درجات الارتباك والبؤس التي مررت بها في حياتي، تشاجرت كذلك مع صديقتي الحميمة فاطمة حول خططها للعودة إلى باكستان. كانت فاطمة في هذا الوقت قد تخرجت وتعتزم العودة إلى لديار مثلما أرادت طوال عمرها. ولكن، وبعدما فشلت لتوي في علاقة أساسية في حياتي، فلم أكن سأسمح لأفضل أصدقائي بالاختفاء والابتعاد عني إطلاقا. وفيما تشاجرت أنا وفاطمة، وتبادلنا الحوار جيئة وذهابا حول مستقبل صداقتنا، وجدت نفسي وأنا في قمة الاحباط أضرب حائط غرفتي بقبضتي، فصدر صوت كسر مثير للغثيان، مصحوبا بشعور بحرارة ودماء تتدفق بين أصابعي، فعرفت فورا أنني قد حطمت عظام يدي. بدأت فاطمة في تخفيف الألم عن طريق الماء البارد والثلج، وجعلتني أستلقي بلطف حتى خلدت للنوم.

لم يكن رد فعل رابعة على ما أقوم به غريبا أو غير نمطي، لم نكن قد صنعنا لأنفسنا عدوا في صورة حزب التحرير فحسب، بل وكذلك معظم المنظمات الإسلاموية من كافة فروع الإسلاموية برمتها. تم اتهامنا أنا وإد بالردة، والزندقة، بل وما هو أسوأ كثيرا من كل ذلك. من الصعب هذه الأيام بعد تأسيس كويليام بعدة سنوات، تصور مثل رد الفعل ذاك. أصبحتْ مجابهة وتحدي الإسلاموية شيئا معتادا بصفة متزايدة الآن، وذلك مع تزايد مبادرات مكافحة التطرف عالميا، والجدال المدعوم بالمعرفة الأفضل، والرؤية الأوضح للشباب الليبرالي العربي الذي كان الدافع لكثير من الثورات هناك في تلك الأيام. وعلى العكس من ذلك، كانت تهديدات القتل، والتهديد بتفجير القنابل في مكتبنا، شيئا معتادا حتى من مصادر القاعدة بشكل مباشر. كان علينا تركيب دروع ضد الانفجار في المكتب، وبذلنا جهودا جبارة لإخفاء موقعنا. وحتى يومنا هذا، فإننا نبقي عنوان مكتبنا خارج التداول العام على المنشورات ومواقع شبكة الإنترنت، وحتى يومنا هذا، لازلت حريصا فيما بشأن تنقلاتي.

بعد شهر أو ما يقرب من ذلك من انطلاق كويليام، تواجدت أنا وإد في الدنمارك، وقد كنت قبل سنوات عدة، إن كنت تتذكر ذلك، زائرا منتظما لكوبنهاجن، وأعمل بنشاط لبناء فرع حزب التحرير هناك. أما الآن فقد عدت للتحدث في مؤتمر شديد الأهمية في قاعة المدينة، حول المنظمة التي ساعدت في تأسيسها. كان المجندون الخام الذين أقنعتهم بالانضمام إلى الجماعة من فصيل مختلف عن داعمي حزب التحرير العاديين في المملكة المتحدة، حيث كان الكثير منهم قادمين من خلفيات إجرامية، وتجار مخدرات وأفراد عصابات.

وبعد الخطاب الذي ألقيته، والذي استضافه دانماركي من أصول تركيه اسمه فتحي، ذهبت مع إد إلى صلاة الجمعة في مسجد بالجوار، وحينما انتهت الصلاة، اقترب فتحي مني داخل المسجد وهو يبدو في غاية القلق:

"أخي ماجد، هناك رجل شديد الخطورة خارج المسجد يسأل عنك، أرجوك لا تغادر.". بالطبع، وبما أنني أنا، فقد خرجت لأتحدث معه.

"هل أنت ماجد نواز؟"، سألني.

"من أنت؟"

"نعم، إنك ماجد نواز" قال وهو يومئ برأسه وينطلق بدراجته مغادرا.

كان الرجل تاجر مخدرات معروفا على نطاق واسع، وحالما رآني، نشر الخبر. تلى ذلك بلا أي مقدمات ظهور ثلاث سيارات محملة بشباب متعاطفين مع الإسلاموية، مصطفة في آخر الشارع، تنتظر لكي تهاجمنا.

جادلته: "دعني اتحدث معهم يا فتحي"

"لا، يا أخ ماجد، إنني أخشى أنك لا تفهم، هؤلاء الرجال معروفون لديّ، ولديهم مسدسات، يجب أن تغادر على الفور"

توجب علينا أنا وإد أن نلوذ بغرفة خلفية في متجر إسلامي، حيث اختبأنا حتى جاءت سيارة لتقلنا، وتخرجنا من ذلك المكان. كانت تلك كوبنهاجن في 2008، وليست كابول في 2000.

وفي اللحظة التي ظننا فيها أن يومنا لن ليكون اسوأ مما كان، تبين أننا على خطأ، ففي أثناء اختبائنا من المجرمين الدنماركيين، دق هاتف إد، وكان المتصل هو همزة الوصل من مؤسسة البابطين، يخبرنا أنهم قرروا سحب تمويلهم لنا. شعرت أنهم كانوا غير راضين عن بعض البيانات العامة التي نشرناها. وهكذا كان كل دعمنا المادي قد اختفى في ضربة واحدة، ولدينا الآن فاتورة ضخمة يجب سدادها للمتحف البريطاني مقابل استضافة حفل الغداء الخاص بنا، ونحن الآن عاجزون عن ذلك، وعلى افتراض أننا قادرون على الخروج من الدنمارك أحياء، فإنّ كويليام الآن في خطر، ومهددة بالإغلاق حتى قبل أن تبدأ.

الفصل التاسع والعشرون

قرود في حديقة الحيوان

قمت أنا وإد باختراع جملة في مخبأنا في كوبنهاجن: "نحن لا ننجح في الفشل"، وصارت هذه العبارة تعويذتنا وتميمتنا وشعارنا غير الرسمي. لم تكن التهديدات العنيفة ستمنعنا من الحديث أو ترهبنا، ولا -في السياق نفسه-التهديدات المالية كذلك، فمنظمتنا هذه ليست ذلك النوع من المؤسسات التي تقوم بتفصيل رسالتها لكي تلائم الممولين. إن كان ذلك هو نوع التأثير الذي ظن الناس أن أموالهم سوف تشتريه لهم، فإننا أفضل حالا بدون دعمهم.

صادفتنا ذات المشكلة من جديد مع الشخص التالي الذي قام بتمويلنا، وهو رجل أعمال مصري أراد أن يستخدم كويليام لترويج نسخة إسلام متحفظة اجتماعيا. اجتمعنا معه أثناء عودتنا من الدنمارك، وقام بعد الاجتماع مباشرة بتحويل مبلغ تبرع ضخم إلى حسابنا، في بادرة حسنِ نية، وكنا ممتنين جدا لذلك. للأسف، وكما حدث مع مؤسسة البابطين، فقد كان شيئا مشروطا. بدلا من أن نكون منظمة ذات خط لا ديني تتمحور بؤرتها حول الحقوق السياسية، أراد الممول أن نصبح واجهة عامة لشكل متحفظ من الإسلام الصوفي. كان هناك عناصر في رسالتنا يرغب في تعديلها، مثل الحقوق المدنية للأقليات والمثليين. وبناء على ذلك قبلنا التبرع الذي كان بادرة حسن نية، والذي صفى ديوننا، ولكننا لم نمضِ قدما، وتوقف التمويل من جديد.

كان مصدر التمويل الآخر المحتمل يتمثل في الحكومة. وسوف يأتي هذا بطريقته الخاصة، بمثل المشاكل المحتمل وقوعها مع المتبرعين من القطاع الخاص. قد يجعل الناس تتشكك في رسالتك، ويؤدي إلى اتهامات بأنك لا تعدو كونك عميلا حكوميا. كنا على أية حال قد احتفظنا بعلاقات جيدة مع الحكومة البريطانية بعد تلك المقابلة المبدئية في وايت هول، ومنحناهم ملخصا لكل شيء سألونا عنه، واستمروا في دعمنا. إن كانت الجماعات الإسلاموية المختلفة في المملكة المتحدة، والسلفيون عبر العالم، والجهاد الأفغاني، يستطيعون الحصول على تمويل من الحكومات البريطانية والسعودية والباكستانية على التوالي، فقد كنا نتساءل ما الذي يمنع استفادة قضيتنا نحن من مثل تلك الدفعة للأمام؟

لم يبد لي شيئا بعيدا عن المنطق أن أحاول وضع هذه العلاقة في شكل شبه رسمي إلى حد ما، لأرى إن كان هناك إمكانية للحصول على التمويل. عدنا إلى مكتب الأمن ومكافحة الإرهاب وتحدثنا مع رئيسه تشارلز فار حول وضعنا. وافق تشارلز، بكل لطف، على دعمنا من خلال برنامج الحكومة الخاص بمنع

التطرف، وقمنا بمقابلة العديد من الوزراء، ومُنحنا تمويلا حكوميا حتى يحين الوقت الذي نستطيع فيه إيجاد مصادر تمويل بديلة. يستحق تشارلز فار كل تقدير لمساعدته لنا في دعم كويليام حتى تقف على قدميها في تلك الأيام الأولى.

كانت كويليام منذ بداياتها الأولى المترنحة هذه، قد بدأت في الحصول على زخم حقيقي، فقد صار بوسعنا أن نخطب ونناظر ونصدر التقارير ونحشد سياسيين وجماعات تأثير على السياسيين، واستطعنا أن نسافر للمؤتمرات، ونعمل على التأثير في الإعلام، ونقدم النصح والاستشارات حول السياسات. ولكنّنا أدركنا، من وقت مبكر للغاية، أن ما يتعين علينا مواجهته لا يقتصر على الإسلاموية وحسب.

بعيدا عن الدوائر الإسلاموية، فقد كان ما يواجهنا أكثر من سواه هما الاتجاهان المسيطران المتناقضان بشكل تام، والقطبان المتعاكسان، وهما إما تلك "الاستشراقية" الاستعلائية التي ذكرتها آنفا، أو نوعية التحفظ المعادية للإسلام.

كانت هاتان المجموعتان تحاولان كثيرا أن تستخدما كويليام أو تستخدمني فيما يخدم أغراضهما الأيديولوجية. لم تكن المجموعتان -كل بطريقتها الخاصة- راضيتين عن نصف رسالتنا، فحين كنا ننتقد الإسلاموية كان أنصار الاستشراق يستاؤون، وحينما نثير قضايا مظالم المجتمع التي تعمل كوقود يغذي السردية الإسلاموية فإنّ المحافظين كانوا يعترضون. قمت في غضون محاولتي للوصول إلى وصف يليق بهذا المستنقع، إلى تشكيل جملة تقول: "قرود مدربة في حديقة حيوان". كان كلا الطرفين يريدان الاحتفاظ بنا كما لو كنا قرودهم المدربة في حديقة الحيوانات، حيث يأتون إلينا للترفيه، ويستفيدون عندما يلائمهم ذلك، ولكن يحاولون تجاهلنا حينما تتعارض أفكارنا مع اتجاههم الأيديولوجي الراسخ.

كان الناس في أحيان كثيرة بعد خطاباتي، وهم في العادة ليبراليون ذوو بشرة بيضاء، يقفون ويعلنون أنني لا أملك أدنى فكرة عما كان عليه الوضع عندما تعاني بوصفك ضحية للمجتمع. كانوا يؤكدون أنه لا يوجد لدى شخص مثلي، متعلم، ذي إنجليزية ممتازة متماسكة، ويرتدي سترة ورباط عنق، على الإطلاق، فهمٌ وإدراك لما يعانيه هؤلاء الناس الذين يشعرون بيأس إلى حد يجعل التفجيرات الانتحارية خيارهم "الوحيد" المتاح أمامهم. قيل لي بأنه لا يمكن فصل وعزل رد فعل الإرهابيين عن الأسباب الاجتماعية لها، وهكذا كان اللوم كله يقع على المجتمع. كان الأمر كما لو كانت عقولهم تعاني من عطل ما. وكنت في كل مرة، بلا استثناء، أضيّع نصف ساعة ببساطة لكي أخبرهم عن قصتي الكاملة، عن العنصرية العنيفة وتحرش الشرطة في إيسكس، عن التعذيب والحبس الانفرادي في مصر، لكن، وحيث أن محصلتي واستنتاجاتي لم تتوافق مع صورة "القرد" الغاضب الذي كانوا يتوقعون رؤيته، فإنّ الأمر بدا كما لو كانوا لم يسمعوا شيئا.

كنت أقول: "إنني ناتج صافي لتلك المظالم التي لا تنفكون تلحون عليها، والآن، عليكم أن تتعاملوا مع المحصلة التي وصلت لها."

كان الصحفي سيوماس ميلن (Seumas Milne) من الجارديان ينتمي إلى اليسار الرجعي، و"المستشرقين" الذين هاجمونا. أما من جهة اليمين، فقد هاجمني بشكل شخصي، رائد المحافظين الأمريكيين جلين بيك (Glenn Beck)، بشحمه ولحمه لا غير، على فوكس نيوز.

امتعض بيك من حقيقة أنني كنت أعمل مع جاريد كوهين (Jared Cohen) من جوجل، ووزارة الداخلية، في مشروع تحالف الحركات الشبابية (Alliance of Youth movements-AYM)، وقام بإطلاق إحدى حملات هجومه الشخصية المتفجرة النموذجية عليّ أنا وجاريد، ولكنني لم أكن لا أنا ولا هو ممن يخضعون لأحد، وبالضبط، وكما نقلنا المناظرة في مجتمعات بأكملها، تجاه الإسلاموية، فقد كنا عازمين كل العزم على تكرار ذلك فيما يختص بالسردية المعاكسة لها.

كان هدفنا هو انتقاد رهاب الإسلام، والتطرف الإسلامي معا، علنا وعلى الملأ بقدر الإمكان. سوف ندافع عن حق المسلمين في ممارسة إيمانهم، حتى المحافظين منهم، مع الرفض القوي والصارم لفكرة أن تكون أي نسخة من الإسلام -حتى إن كانت نسخة وسطية- إطلاقا وأبدا مفروضة على أي مجتمع كان بوصفها قانونا. كان هذا الموقف يضعني في مركز مثير للاهتمام بالنسبة للعديد من القضايا، فجادلت في مناظرات الدوحة التي استضافها تيم سباستيان (Tim Sebastian) على المنصة قائلا: إن "الإسلام السياسي" وهو الرغبة في فرض نسخة بعينها من الإسلام بوصفها قانونا، كان يمثل خطرا، في حين دافعت عن الإسلام في مناظرة إنتيليجنس سكوارد (Intelligence Squared debate) في نيويورك، بمواجهة أيان حرسي علي (Ayaan Hirsi Ali) التي كانت تنتقد الإسلام، فيما كنت أدافع عنه بوصفه دينا يدعو للسلام في الأساس.

سرعان ما انتشرت أخبار ما أقوم به، وبدأت كويليام تتحول بسرعة، بعد ظهوري في لاري كينج لايف، وحواري مع رزق خان في الجزيرة، لتكون مرجعا معترفا به على المستوى العالمي في مجابهة كل من معسكري العداء للإسلام والتطرف الإسلامي معا.

بدأ عملنا الآن يجتذب كتلة حرجة من الدعم عبر المجتمع ككل، ففي مجال الإعلام، كان برنامج أمريكا الأول ستون دقيقة (Sixty minutes) يقوم بإبراز ما نقوم به ويهتم بقصتي كذلك. وفي مجال الفن كانت جاين روزنثال (Jane Rosenthal) مؤسسة مهرجان تريبكا السينمائي قد ساعدت في تقديم عملنا في المهرجان، وتقديمنا لصديقها روبرت دي نيرو (Robert De Niro) أو بوب كما كانت تناديه. وعلى الجانب التكنولوجي، أثناء قيامي بتعلم كيف أقوم باستخدام الوسائط الاجتماعية بالشكل الأمثل لحشد الدعم،

استفاد عملي على الفيس بوك من النصح المبكر الذي قدّمه أشخاص مثل داستن موسكوفيتز (Dustin Moscovitz) الشريك المؤسس في فيسبوك، وكان استخدامي لتويتر كوسيط لنشر رسالتنا مهمة أسندها إليّ شخصيا مؤسس تويتر جاك دورسي (Jack Dorsey).

على الجانب السياسي كذلك، كانت أروقة النفوذ والسلطة قد بدأت تبدي اهتماما بالغا بنا، فقد تسلمت بعد تأسيس كويليام بفترة قصيرة جدا، دعوة للتحدث حول عملنا في مجلس الشيوخ الأمريكي. جاءت الدعوة من السناتور جو ليبرمان (Joe Lieberman) رئيس لجنة مجلس الشيوخ عن الأمن الداخلي، وكنت سوف أول إسلاموي سابق يقدم شهادته في مجلس الشيوخ الأمريكي.

لم يكن كوني قياديا إسلامويا سابقا، رغم كل ما سبق ذكره، يخلو من المشاكل الخاصة به. كانت وزارة الخارجية قد درست كل ترتيبات السفر الخاصة بي، ولكن وحتى قبل موعد مغادرتي بأسبوع، لم تكن التأشيرة قد وصلت بعد. عند هذه النقطة، تسلمت مهاتفة يشوبها القلق من وزارة الأمن الداخلي، وقيل لي أنّ ثمّة مشاكل في الحصول على التأشيرة الخاصة بي. لسنا متأكدين من أننا نستطيع الحصول لك على واحدة بسبب إدانتك في مصر. أجبتهم أنّ إدانتي في مصر هي بالتحديد سبب رغبة مجلس الشيوخ في دعوتي للحضور والحديث! استمر هذا السجال بين وزارة الأمن الداخلي ووزارة الخارجية، ولا أحد يدري بالضبط أين كان صدور التأشيرة معطلا. في نهاية المطاف، وصل الأمر بالسيناتور ليبرمان إلى التحدّث مع سفارة الولايات المتحدة في لندن صارخا فيهم ألا يحرجوه.

لم تكن التأشيرة قد وصلت حتى اليوم السابق للموعد المحدد لإقلاع طائرتي، وكنت الآن متقبلا لحقيقة أن الأمر لن يتم، ولكن فجأة وصلتني مكالمة:

"السيد نواز، إنني أهاتفك من السفارة الأمريكية، لدي تأشيرتك هنا."

أجبت بارتياح: "ممتاز، يجب عليّ أن أتواجد في هيثرو في الصباح الباكر. هل أستقل سيارة أجرة وأقوم بتسلمها؟".

قال الرجل: "في الواقع، أنا لست في السفارة الأمريكية."

شعرت بالحيرة "ولكني اعتقدت أنك قلت أنك هناك"

"أنا أعمل هناك، ولكنني موجود في مكان آخر."

"حسنا أين مكانك، سوف آتي إليك؟"، سألت في حيرة.

"إليك ما سوف يحدث، سوف أقابلك بنفسي في هيثرو غدا صباحا، سوف أنتظرك عند مكتب الاستعلامات الخاص بالصالة الخاصة بك."

"كيف سأعرف شكلك؟"

"سوف أكون مرتديا معطف مطر أزرق اللون." وهكذا أغلق الخط. ذهبت في اليوم التالي إلى مكتب الاستعلامات حسب الاتفاق، وبالفعل كان هناك رجل يرتدي معطف مطر أزرق اللون.

"صباح الخير، سيد نواز،" قال الرجل، وأعطاني ثلاثة أظرف بنية اللون.

"هل تلك تأشيرتي؟" سألته.

"نوعا ما،" أجاب ذو المعطف الأزرق، "لم يسعنا إحضار تأشيرة عادية لك، فيما أخشى، ولكن كنا في غاية الحرص على أن تأتي وتتحدث. هل تعرف المافيا؟"

"ماذا عنها؟"

"في بعض الأحيان يكون لدينا قضايا للمحكمة، حيث نحتاج إلى إحضار أشخاص ليدلوا بشهادتهم، ولكنّ هؤلاء الأشخاص يكونون مجرمين مدانين وغير مسموح لهم تقنيا بالدخول إلى البلاد، وما نقوم به في هذه الحالة هو تجهيز تأشيرة إطلاق سراح مشروط تسمح لهم بالدخول إلى الولايات المتحدة تحت عيون عميل فدرالي. من وجهة نظر قانونية، يكونون مقبوضا عليهم خلال مدة تواجدهم في البلاد."

قلت وأنا آخذ الأظرف منه: "حسنا، إذن أنا حاصل على تأشيرة مع إطلاق سراح مشروط، مثل أحد قادة المافيا؟ أنا مقبوض علي؟"

كان ذو المعطف الأزرق حريصا على طمأنتي. "أرجوك لا تغضب من ذلك، إننا لا نقصد الإشارة إلى شيء على الإطلاق، إنها ببساطة الطريقة الوحيدة التي بوسعنا إدخالك من خلالها إلى البلاد لكي تتحدث في مجلس الشيوخ."

سألت: "هل هناك أيّ شروط تتعلق بأن أكون مقبوض عليّ فنيا؟"

"نعم" اعترف ذو المعطف الأزرق. "سوف يصحبك فريق فدرالي يتابعك طوال مدة بقائك، ولكن أرجو أن تعتبرهم خدمة سائقين لك، عوضا عن ضباط قابضين عليك!"

مثّلت هذه إحدى تلك اللحظات التي تقاطعت فيهما حياتي السابقة والحالية معا، وبدت جمل مثل "عملاء" و "فرقة" و"مقبوض عليك فنيا"، كافية لتذكرني بحدث أو اثنين مما جرى أثناء وجودي في مصر. كان هيثرو كذلك هو المكان الذي تم فيه استجوابي على يد نظراء السيد ذي المعطف الأزرق، وعلى أية حال، فقد أخذت الأظرف وسلمتها حسب التعليمات. واحد للصعود إلى الطائرة، واحد عند الوصول إلى الولايات المتحدة، وواحد يحكمهم جميعا.... حسنا، في الواقع لي أنا، (لازال معي). سوف أقول شيئا واحدا حول كوني قيد تأشيرة مشروطة: يعني ذلك أنك تحظى بمغادرة الطائرة أولا، تم اصطحابي في الجانب الآخر، والحصول على بصماتي، والحديث معي قبل تسليمي إلى الفريق الفدرالي.

حجز فريق العملاء الفيدراليون من قوة الجمارك والهجرة (mmigration Customs Enforcement) أو ICE غرفة ملاصقة لغرفتي، وتوجّب عليّ إخبارهم بكل تحركاتي في كل الأوقات، وقد كانوا مسلحين، وكنا متبوعين في كل مكان نذهب اليه بسيارتين إضافيتين.

في البدء كان العملاء يشكون فيّ إلى حد بعيد، ولم يتغير موقفهم إلا بعد حديثي في مجلس الشيوخ.

قال العميل الرئيس برايان وهو يمدُّ يده لي: "أعتذر يا سيدي، لقد كان انطباعي أن مهمتنا هي حماية أمريكا منك، أدرك الآن أننا كنا هنا لحمايتك أنت من أمريكا!"

كانت الخطبة نفسها لحظة فارقة، إذ سمحت لنا بالفرصة لتعريف الإسلاموية، وشرح أسبابها وتقديم مبدأ المجابهة المدنية للعالم بأسره، وكان هذا مذاعا على الهواء على قناة سي سبان، (C-SPAN)، وهي شبكة قنوات السياسة الأمريكية، وانتشرت منها إلى العالم بأسره.

كانت تلك الزيارة هي أول مرة أذهب فيها إلى الولايات المتحدة، وكنت عازما على الخروج منها بأقصى ما يمكن من استفادة، بمصاحبة فرقة فيدرالية أو غير ذلك. كان سيد قطب، الأب الروحي للجهادية الأيديولوجية ومؤلف كتاب "معالم" والذي كان قد قضى وقتا مع الدكتور بديع في سجن مزرعة طرة، قد زار الولايات المتحدة في الخمسينيات. كانت زيارة قطب تلك لأمريكا هي ما ألهمه ليكتب كتابا حول خبراته، أمريكا التي رأيتها (The America that I Saw)،انتقد فيه بشدة الانحلال والفجور والفسق الأمريكي. كنت أريد أن أتحدى هذا، وأصنع نسخة مضادة له. قمت بنشر "أمريكا التي رأيتها" في صورة فيديو بلوج على يوتيوب، وجادلت عن الإيجابيات التي كنت قد رأيتها. كانت حجتي أنه لولا الحريات التي انتقدها قطب تلك بعينها، لما كان سُمح للمسلمين مطلقا ببناء مساجد في البلاد. بعد قضاء عدة سنوات في نفس السجن الذي احتجز فيه قطب قبل إعدامه، شعرت أنني نوعا ما مرتبط بشكل ما بأصوليته. كانت الرسالة الجذرية الصادرة للشرق الأوسط في زمنه هي الإسلاموية. ما أغرب أن يكون ما جرى في زمني أنا، هو أن الفكرة الجذرية للشرق الأوسط، الذي تحاصره الدكتاتوريات والتطرف من جانبيه، قد أصبحت الآن هي الأنشطة الديموقراطية.

الفصل الثلاثون

زيارة الرقم 10

لم يستغرق الأمر وقتا طويلا، كما حدث من قبل مع المتبرعين المسلمين المبدئيين، حتى بدأ الخلاف بين سياساتنا والسياسات الخاصة بممولينا. كانت المشكلة تتمثل في تقرير كتبناه حول سياسات سجون حكومة المملكة المتحدة التي تديرها الإدارة الوطنية لخدمة شؤون المجرمين (National Offender Management Service). تناول التقرير بالتفصيل مشكلة التطرف المتصاعدة في السجون، وما كنا نعتقد أنه استجابة مشوشة من طرف الإدارة NOMS. كان تقريرنا ذو الأهمية الحرجة بشكل فعلي غير مقبول على الإطلاق في وزارة الداخلية، وكان رد فعل NOMS بالتحديد سيئا للغاية، وبدأ سؤال يتردد عبر جهات بعينها في الحكومة عن سبب منحهم تمويلا لهذه المنظمة التي تنتقدهم.

لم يمر الكثير من الوقت قبل حدوث نقطة صدام أخرى، كتبنا هذه المرة تقريرا حول استراتيجية الحكومة المسماة "امنع" (PREVENT)، الموجهة ضد مسألة التطرف برمتها، فصّلنا فيها وحللنا الأمر برمته حيثما شعرنا بقصور الاستراتيجية في قسم تلو الآخر. كنا هذه المرة في غاية الحرص فيما يتعلق بكيفية تقديمنا للأمر، بعد ما تعلمناه من تجربتنا مع تقرير السجون، وإدراكنا أن هذه قد تكون رسالة غير مستساغة. لم ننشر التقرير على الملأ، وهو ما كان أسهل شيء يمكن فعله. ولكن بدلا من ذلك، أرسلناه للحكومة في صورة بيان سري ونسخة ورقية فقط، لكي نضمن أن النسخة الإلكترونية غير متاحة أصلا لكي ينتهي بها الحال منشورة على الإنترنت.

وفي نهاية المطاف، ما حدث تماما هو أنّ التقرير قد سُرّب من خلال مسحه ضوئيا، وتحميله على الشبكة من داخل قسم حكومي. كان ذلك القسم هو مكتب فار للأمن ومكافحة الإرهاب، وهو القسم ذاته الذي يمنحنا التمويل. كنا قد انتقدنا بعض السياسات في OSCT، ولكنا مدحنا أقساما أخرى. انتقدنا بشكل خاص الرؤية التي تقول بأن شراكة الحكومة مع الإسلامويين غير العنيفين، بالرغم من كونهم -عدا ذلك- شديدي التطرف، هي الحل الأفضل لمواجهة الجهادية. كان المقصود من هذا التقرير أن يكون نوعا من النقد البنّاء من أصدقاء لنظرائهم. اختلفت الـ OSCT معنا بذلك الصدد. كنا قد حوصرنا في خضم عاصفة سياسية متعلّقة بالانتخابات العامة، وكانت الأحزاب السياسية توجه الضربات لبعضها البعض في مثل تلك القضايا، وبخصوص الانتكاسة الاقتصادية كذلك.

وصلت الأمور للذروة مع موضوع ذاكر نايك (Zakir Naik). كان فار يراسل نايك حول إحضاره للمملكة المتحدة ليلقي خطابا، وكان نايك، وهو ليس إرهابيا، له تسجيلات، ويظهر على اليوتيوب وهو يمدح بن لادن، ويدّعي أن 11/9 كانت مؤامرة داخلية. كان رأي فار أن تلك الآراء رغم تطرفها فإنها تبقى غير عنيفة، وبالتالي فيمكن أن تمثل عازلا عن الجهادية الحقيقية. وبناءً على ما سبق، فإنّ أيّ شخص تراوده فكرة التطرف، سوف يأخذ نايك غالبا بشكل أكثر جدية عن شيخ أو داعية "وسطي". كان هناك منطق داخلي في هذا الرأي، ولكننا لم نتفق معه، وأشرنا بعدم اتباعه.

ورغم أننا كنا معارضين لحظر الجماعات المتطرفة، غير العنيفة، مثل حزب التحرير، فلم نكن بكل تأكيد نظن أن وضعهم القانوني يساوي حقهم الآلي في الرعاية.

كان نايك حرا ليأتي إلى هذا البلد ويتحدث، ولكن ليس بدعم أو رعاية حكومية، وحسبما نرى فلا يجب معاملة المسلمين بوصفهم "قردا جيدا" و "قردا سيئا"، بل يجب أن تنطبق معايير التحضر نفسها على الجميع بالتساوي.

إن كان لا يتم مطلقا الترويج للعنصرية غير العنيفة اسميا، والموجودة في شكل جماعات لها ذات المشروعية والقانونية، مثل الحزب الوطني البريطاني BNP، بوصفها تمثل حلا للعنصرية العنيفة، فلماذا إذن كانت نفس تلك المعايير غير مطبقة على المسلمين؟ لماذا كنا نحن المسلمين موصومين بكوننا أكثر بدائية مما يسمح بالتعامل معهم وفق أسس ليبرالية؟

في النهاية، أنهت وزيرة الداخلية في المملكة المتحدة تيريزا ماي الجدال الدائر عن طريق حرمان نايك من تأشيرة الدخول إلى بريطانيا. رفع نايك قضية على الحكومة البريطانية بتهمة التفرقة، وقدم كدليل في القضية مراسلات البريد الإلكتروني بينه وبين فار، والتي أكد فار فيها لنايك أنه يدعمه. كان فار في وضع محرج للغاية، وتولت الصحافة تضخيم الأمر، ولعلّ مما يثير السخرية أن هذا الحدث عجّل من بداية نهاية النظرة "الاستشراقية" في الأروقة الحكومية.

بعد ذلك بقليل استقبلتُ مكالمة من 10 شارع داوننج (Street Downing 10) تعلمني أنّ رئيس الوزراء يرغب بمقابلتي. كان دافيد كاميرون على موعد ليلقي خطبة مهمة في ميونخ حول الفرق بين الإسلام وكل من الإسلاموية والتطرف، وأراد أن يطلب مشورتي. كان ذلك حقا شيئا غريبا، ها أنا، شخص حارب سابقا بكل ما يملك من عزم ضد كل شيء تمثله هذه البلاد، والآن، رئيس وزرائها يطلبني لأقدّم له مشورة خبير حول قضايا ذات أهمية وطنية حرجة. وافقت على الذهاب.

كان 10 شارع داوننج يبدو منزلا جذابا، إنه منزل مستقل، ذو شرفة، وتقليدي الطابع تماما. منزل جميل للغاية طبعا، ولكنه مجرد منزل رغم ذلك، بدرج يصدر صريرا وكل تلك العيوب المعروفة. كانت

أريكة غرفة الانتظار الجلدية المصنوعة من خشب الماهوجني، هي نفس تلك التي كنا نمتلكها في غرفتنا الأمامية، والتي كان أبي يمنعنا من الجلوس عليها بالجينز تحسبا من خدش الجلد.

لم يكن هناك ذلك الإحساس بالفخامة أو البهاء الذي تنسبه إلى البرلمان، البيت الأبيض، أو مجلس الشيوخ الأمريكي، لكن ثمّة سحر إنجليزي غريب الأطوار لا ينتمي إلا لذاته.

وفضلا عني أنا، تواجد هناك شخص آخر يدعى بول جودمان (Paul Goodman)، وهو عضو برلمان سابق ووزير مجتمعات في وزارة الظل عندما كان المحافظون في المعارضة. دخل علينا رئيس الوزراء الذي بدا أطول في الواقع عما يبدو عليه في التلفاز. كانت جلسة غير رسمية، حيث جلسنا حول المكان على الأرائك بدلا من الإطار الرسمي لمناقشات الطاولة المستديرة. تواجد بجانبي أنا وكاميرون وبول العديد من المساعدين كذلك: أميت جيل (Ameet Gill)، ثم كاتب خطابات رئيس الوزراء، جريمي هايوود (Jeremy Heywood)، وسكرتير مجلس الوزراء وآخرون.

كان كاميرون دافئ الشخصية وممتعا، وظهر أنّ مهارات التعامل مع الناس لديه استثنائية بشكل غير عادي، أعني بذلك، أنك لا تصل للمركز الذي وصل له من النفوذ والسلطة بدون مستوى استثنائي من المهارات الخاصة بالتعامل مع الناس، وهذا استنتاج كوّنته بسبب مقابلتي ما يكفي من القادة السياسيين مثل جورج بوش، توني بلير وجوردون براون، وهو ما يسمح لي بأن أعرف أن هذا الوضع هو الوضع الطبيعي، فقد كانت ستكون مفاجأة أكبر بشكل ما لو لم يكن يملك تلك المزايا. كان ذكيا، بالضبط كما قد تتوقع منه، ومطلعا بشكل جيد، ولم يبدُ لي شخصا يتحدث عفو الخاطر خلال الاجتماع.

كانت السياسة التي تتبعها الحكومة في تقديري تسير على الطريق الصحيح، فهم يتصرفون بشكل صحيح على نقيض سياسة بوش الليبرالية الجديدة، ويعيدون الأرض المفقودة من الحقوق المدنية، مع تصعيد المجابهة المدنية ضد التطرف، والتي طالما طالبنا بها. بعد هذا الاجتماع بوقت قصير اجتمعت لجنة اختيار الشؤون الداخلية في البرلمان لكي تبحث في الكثير من تلك الإصلاحات، ومن ثم طلبوني للشهادة. قمت في هذه الجلسة بتحدٍ علني لعضو الكونجرس كينج (King)، وأعدت تأكيد موقفي القاضي بأنه يجب إلجام وتقليل تعديات حقبة المحافظين الجدد، وبدا أنّ حكومة كاميرون مؤمنة بنفس الفكرة، إذ لم يكونوا مهتمين بمتابعة بطاقات الهوية مثلا، وكانوا قد بدؤوا في الحد من عملية الاحتجاز بدون محاكمة.

سألني كاميرون بعد ذلك عن رأيي بما يجب فعله بشأن حزب التحرير، وكان قد سأل قبل ذلك جوردون براون عندما كان في صفوف المعارضة، لماذا لم يكن قد حظر منظمتي القديمة حسبما وعد توني بلير بعد 7/7. كان رد براون على ذلك هو الاقتباس من حواري الأول في نيوز نايت، عندما قدم حججا مفادها أنه بدلا من حظر حزب التحرير، فيجب، عوضا عن ذلك، أن يتم تقديم مجابهة مدنية للحزب. الآن

وهو على رأس الحكومة، سألني كاميرون مباشرة إن كان حظر الحزب شيئا واجبا، فقمت مرة أخرى بشرح حجتي. لم يكن الحظر غير ليبرالي فحسب، بل لم يكن حلا كذلك، كان من الأفضل كثيرا أن يتم خلق سيناريو يجعل الانضمام للحزب شيئا محرما اجتماعيا، كما كان الحال مع الحزب الوطني البريطاني. لن يؤدي حظر الجماعة إلا إلى منحها انتشارا إعلاميا لا تستحقه.

ظهر أنّ كاميرون مهتم كذلك بفكرة كنت أتبناها حول المقارنة بين التطرف والعنصرية، إذ سبق أن قدّمت حججي حول أن كليهما يجب أن يحصلا على ذات المردود فيما يختص برد الفعل العام. لماذا كانت الآراء المتطرفة التي تنافي الحريات الأساسية تحظى بقبول أكبر من الآراء العنصرية أو الآراء التي تحمل رهابا من المثلية. أخبرت كاميرون أنه لا يجب أن يخاف من نقد المسلمين الذين يقدمون آراء متطرفة باسم الدين. كان هناك فارق بين هؤلاء الذين يؤمنون بمثل تلك الأفكار، وبين الصلاح الديني، ومن المهم أن يفهم ذلك. في نهاية الأمر تحدثنا عن العالم العربي. وأكدت على وجوب وحتمية التخلي عن الازدواجية الغابرة التي تضع الدكتاتوريات في مقابل الإسلاموية، وإلا سوف يكون التطرف هو الناتج الحتمي لذلك.

بدا ديفيد كاميرون معجبا بشكل حقيقي بما كنت أقوله، وعندما ألقى خطبته تلك في ميونخ، فقد تضمنت تقريبا كل اقتراحاتي. تلقيت بعد ذلك مكالمة أخرى من هايوود، سكرتير الوزارة الخاص بكاميرون، تجس نبضي حول قبول وظيفة حكومية كمستشار خاص لرئيس الوزراء ونائب لرئيس الوزراء في شؤون التطرف. عدت هناك في اجتماع آخر، وناقشنا الفكرة مطولا. كانوا، في نمط معتاد بالنسبة للخدمة المدنية، يريدون أن يعرفوا إن كنت مهتما بالوظيفة قبل أن يقدموا لي عرضا رسميا. كان شرطهم هو أن أترك كويليام، ولكنّ ذلك شيء لم أكن لأفعله حتى من أجل رابعة، وبالفعل، حين جاء وقت تجديد تمويلنا، تم سحبه. قمنا بحملات ضغط كبيرة لكي نعيد التمويل، وقام توني بلير شخصيا بالتدخل لتشجيع الناس على مساعدتنا، حصلنا حتى على دعم من طرف أعضاء برلمان متعاطفين معنا في إطار إجبار المجلس على ترتيب مناظرة طارئة في مجلس العموم حول الموضوع. وافقوا على تسديد كل الديون واجبة السداد، ولكن ليس ما هو أكثر من ذلك. كانت الحكومة تصارع من أجل خفض العجز، وهذا توقيت سيء لإثارة المشاكل مع الخدمة المدنية. كان عليّ في الأسبوع السابق لأعياد الميلاد في 2010 أن أقوم بالعديد من عمليات إنهاء عقود العمل في كويليام، فانخفض عددنا، في أسوأ أحوالنا حينئذ، من قوة عمل تبلغ خمسة وعشرين إلى أربعة فقط، وكان على إد الرحيل أيضا. اتفقنا أننا لم نعد قادرين على تحمل وجود اثنين من المديرين في منظمتنا، وعندما سنحت له الفرصة للعمل في مجلس العلاقات الخارجية (Council on Foreign Relations-CFR) في نيويورك، رحل إلى هناك.

استمر كلانا في العمل حتى حصل على الوظيفة، لم يكن وجود اثنين من المديرين في أي منظمة شيئا يسيرا، وكانت آراؤنا تتعارض في كثير من الأوقات، وهو ما جعل موقف كويليام يبدو متعارضا نتيجة لذلك. أما الآن، بوصفي رئيس مجلس إدارة كويليام وشريكا في التأسيس، وبعدما صرت وحدي مع أربعة موظفين، فإنه يتعين عليّ القيام بصحوة، وشرعت في العمل على تشكيل المنظمة طبقا للقالب الخاص بي.

كانت مهمة شديدة الصعوبة، ولكن نحن لا ننجح في الفشل. إن الانكسارات والاندحارات في الحياة هي ما صنعت ما أنا عليه. جاءت خسارة تمويلنا الحكومي بفائدة صغيرة، إذ استطعنا استعادة استقلالنا. كان توفير النفقات شيئا جعلنا منظمة أصغر وأكثر حيوية، نعرف الآن أننا نملك القوة اللازمة للبقاء حتى في ضل أصعب الأوضاع المالية. لقد خرجنا سالمين من الأسوأ، ولأول مرة وجدنا ممولين يُعتمد عليهم، لا يريدون خدمات، ولا يطلبون سحب أو تجميل أيّ ضربات نوجهها.

لم يفتني إدراك خصوصية الوضع، بدا لي وكأن الحكومة سحبت تمويل منظمتي، بشكل أساسي، نتيجة خلافنا مع فار ومكتب الأمن ومكافحة الإرهاب التابع له، في حين بدا أيضا أنهم يريدون توظيفي لكي أمنحهم ما يساوي نفس المشورة إجمالا .

كانت الوظيفة، في مستوى واحد منها، كل ما كنت أتمناه. كان هذا مركزا مؤثرا فعلا، إذ يمكن تطبيق أفكاري حيث تستطيع أن تمثل فارقا حقيقيا. ولكن هل هذه الإيجابيةُ تفوق سلبية فقداني لاستقلالي وقدرتي على التعبير عن نفسي بحرية؟ لو حدث وكان هناك شيء أعترض عليه، كما حدث في موضوعي NOMS، وسياسة السجون، فلن يكون لي حرية إيصال الأمر إلى مسامع الإعلام. في حالة قبولي للوظيفة، ومن ثم استقالتي نتيجة شيء مثل ذلك، فلم أكن على يقين من أنني سوف أجد منظمة لأعود لها. كنت على علم تام، في مفارقة واضحة، بمدى الصعوبات التي تعانيها كويليام، نتيجة لفقدانها تمويل الحكومة ذاتها. في غالب الأمر، وفي حال تركت كويليام، فسوف تغلق المنظمة أبوابها.

لم أكن راغبا في رؤية ذلك يحدث. شعرت أن ما كانت كويليام معدة للقيام به، بالرغم من كل نجاحنا على جبهات الإعلام والسياسة، لم يبدأ إنجازه حقا. كما قال ليندون جونسون (Lyndon Johnson) في تعليق لاذع له: "من الأفضل أن يكون داخل الخيمة يتبول للخارج، على أن يكون خارجها ويتبول للداخل". ولكن في البلاد ذات الأغلبية المسلمة، لم يكن هناك خيمة أساسا، وذاك ما كان ينبغي عليّ المساعدة في بنائه. ما حدث بالفعل، أنه ربما كان هايوود قد توقع المعضلة التي مثلها الوضع لي، إذ لم يتابعوا أمر العرض الرسمي بعد ذلك.

الفصل الحادي والثلاثون

خودي باكستان

لم يكن هناك مجال للشك، لقد قمنا من خلال كويليام بتمهيد الطريق أمام السردية العالمية المضادة. كنا قد أسرنا مخيلة العالم وحصلنا على انتباهه، بدءا من قادة الدول وحتى رواد الفنون والتقنية. وعلى الرغم من ذلك فلم أكن راضيا، كنت أريد أن أقوم بتوضيح مدى إمكانية أن نتناول ما قمنا بنشره على نطاق واسع في صورة أفكار متبلورة، ثم نضع ذلك الفعل الناشط موضع التطبيق على مستويات القواعد الشعبية. كانت رسالتي بحلول ذلك الوقت قد اجتذبت أنظار مؤتمر TED المرموق لقادة الفكر العالمي، وهكذا وجّهت إليّ دعوة لأتحدّث عن موضوع نزع الأصولية، وأروي قصتي الشخصية. قلت لهم: "تلك أخبار العام الماضي، لدي شيء أكثر حداثة وطليعي ورائد للتحدث عنه."

كان اقتراح مواضيع جديدة استراتيجية تحمل الكثير من المخاطرة، ولكني كنت أعرف أنه لا يسعني التحدث وإيصال أفكاري بشكل جيد في أي موضوع آخر. إنني مهووس بهذا الأمر، وأنا بكل بساطة في حاجة للتعبير عنه.

كنت أريد خلق حركة اجتماعية مضادة للتطرف من أجل الشباب المسلم، حركة تحمل إليهم أفكارنا على أرض الواقع، وتجعل أفكارنا علامة مسجلة لديهم، وتنشر تلك الأفكار بينهم، بالضبط كما فعلنا سابقا من أجل حزب التحرير، ولكن في سبيل ثقافة ليبرالية بدلا من ثقافة ذلك الحزب. كانت الأفكار، والسرديات، والرموز والقادة... مجمل الثقافة الديموقراطية لدى القواعد الشعبية، كلها في حاجة إلى ما كانت الإسلاموية تملكه. كنت أريد خلق قوة مدنية جذرية في المجتمع تقوم بترهيب السياسيين ودفعهم لنشر الديموقراطية في المجتمع، بالضبط كما كانت الإسلاموية قد أرهبتهم ودفعتهم لأسلمة المجتمع. وكنت أريد أن أضع بذرة هذا العمل في بلد كان الجميع في عام 2010 قد فقد الأمل به، باكستان.

باكستان، بلادي العريقة ذات الروحانيين الصوفيين الرحالة، حيث كانت كل امرأة سوهني* وكل رجل بطلها، بلادي العريقة ذات الطعام الملون بكافة ألوان الطيف والأدب الجميل، بلادي العريقة ذات الموسيقى الشعبية الأصيلة القوالي* (qawwals) وأكثر الأصوات سحرا، بلادي العريقة ذات الذكاء الحاد

---

*سوني هي الشخصية الرئيسية في إحدى القصص الشعبية الرومانسية البنجابية التي تروي قصة حبّ مأساوية -المحرر
*القوالي نوع من الموسيقى الصوفية الشائعة في أجزاء من شبه القارة الهندية -المحرر

والطموح الصناعي والحماس المتقد. بالرغم عن كافة تجاربك ومحنك فإن شعبك يمضي قدما، رغم الصعاب، بالرغم مما قيل لهم عن أنهم سوف يفشلون، فهم يكافحون ضد المصائب والكوارث والحروب والفساد والفقر، لأنّ بداخلهم تكمن روح مرنة، وشعلة ابتكارية، ورغبة متقدة في الحياة، والبقاء، وفي إثبات أنهم سوف يقفون على أقدامهم، وسوف يضعهم العالم بأسره في الحسبان، سامحوني، سامحوني، لأنني كنت ذات مرة أريد أن أتسبب في زيادة ضعفكم حتى أكثر مما كان، ولكن من خلال كل مرونتكم، فيمكنني الآن أن أساعدكم في التعافي.

وهكذا ذهبت. ذهبت لكي أقوم بما أستطيعه، وهو مكافحة كل فيروس وآفة ساعدتُ في زرعها عميقا في شرايينكم، كانت فاطمة قد أشعلت رغبة نارية في احشائي في اكتشافكم مرة أخرى.

كانت مشاكل باكستان مع التطرف، منذ غزو أفغانستان، قد ساءت أضعافا مضاعفة. فطالبان قد سيطرت على مساحات شاسعة من البلاد في الشمال، والتفجيرات الانتحارية حدث يومي، والأيديولوجية الإسلاموية تكتسح منافسيها بسرعة شديدة في مجال الاستحواذ على انتباه شباب البلد. كان الوضع المزري هناك يتمثل في أوضح صورة في الاغتيال الغادر لحاكم البنجاب سلمان تيسير(Salmaan Taseer) في 2011، وتبع ذلك بوقت قصير قتل وزير الأقليات شهباز بهاتي (Shahbaz Bhatti). خرج آلاف البشر إلى الشوارع احتفالا باغتيال سلمان تيسير، فقط لأنه جرؤ على اقتراح إصلاحات في قوانين عصور الاستعمار فيما يختص بالتكفير. وفي ضربة تعجيزية إضافية ضربت جسدا محطما بالفعل، تم اختطاف ابن سلمان تيسير على يد متطرفين إسلاميين يسعون لاستبداله بقاتل ابيه المدان. أخيرا، كان عمق مشكلة باكستان واضحا للعيان.

كانت جماعتي القديمة، حزب التحرير، مشغولة خلال تلك الفترة بتجنيد أفراد من جيش باكستان. كان الجيش قد مر بثلاث وقائع احتجاز مختلفة متعلقة بحزب التحرير، فقد تم كشف أمر المجندين الذين قابلتهم في عام 2000 في لندن، والقبض عليهم على يد الجنرال مشرف في 2003. ثم حدث القبض على أربعة أشخاص يتضمنون الجنرال شهيد بشير من القاعدة الجوية شمسي، تم القبض على اللواء على خان مع أربعة ضباط آخرين في 2011.

بعد عملية التطهير الأخيرة تلك، بدأت قوات الأمن الباكستانية في مطاردة غاشمة لقادة نشطاء حزب التحرير، وفي أغسطس 2011قامت المخابرات الحربية الباكستانية في رحيم يار بالقبض على عم قيوم الودود ذي اللحية الرمادية الضخمة، وكان قد صار في ذلك الوقت أيديولوجيا ملتزما في حزب التحرير. تم احتجازه لمدة تسعة أشهر، قال إنه ضُرب بشدة أثناءها، ثم قام عم قيوم في ذلك الوقت بنشر بيان قال فيه مثلما فعلت أنا أنه بغض النظر عن العواقب، فقد اعترف بكل وضوح للقائمين على استجوابه بأنه عضو في حزب

التحرير. كان عمار في زيارة لرحيم يار خان مع رابعة حين تم القبض على عم قيوم، ولم يسعني سوى أن ألوم نفسي على تعريض أبني مرة أخرى للجانب الوحشي من "الحرب على الإرهاب". كانت الأمور قد خرجت عن السيطرة، والبلاد في حاجة ماسة إلى سردية مضادة.

كانت فاطمة قد حاولت دوما بشدة أن تريني الجانب الآخر من باكستان، الجانب الذي كنت إما قد حاولت جاهدا أن أدمره أثناء كل هذا الوقت، أو لم أره أبدا نتيجة لاختلاطي المقتصر على دوائر الإسلاموية العميقة. بدأتْ في إعادة تعريفي بالموسيقى الباكستانية، والشعر والأدب والتاريخ الخاص بالشعوب الأصلية. كنت أثناء حديثها أعود بذاكرتي إلى الأيام الخوالي، قبل أن يسود الخطأ، وتتدهور الأمور بهذا الشكل البشع، وتومض في ذهني ذكريات عن تاي آمي وهي تجلس بجوار فراشي، وتقرأ علينا تلك القصص الغامضة. ذكريات عن إخلاص أبي لموسيقى القوالي الأسطورية لنصرت فاتح علي خان (Nusrat Fateh Ali khan)، وذكريات عن آبي، الصبية المنزعجة وهي تجفف دموع طفلها الذي تعرض للتنمر. "إنهم ينادونك باكي، ماذا في هذا؟ أخبرهم أنك فخور بكونك باكي". وبدأ كل شيء، من خلال كلمات فاطمة، يتضح ويصبح مفهوما. كانت آبي ببساطة تخبرني بطريقتها الخاصة أنني يجب عليّ، بكل فخر، أن أستعيد هويتي. كانت منذ كل تلك السنوات تحاول أن ترشدني لفعل ما فعله الرابرز الأمريكيون الأوائل، "نعم، إننا زنوج ذوو موقف (نيجاز ويذ أتيتيود)، وإن كنتم غير معجبين بذلك، فسحقا لكم جميعا!" هل ثقافتي بريطانية أم باكستانية، أم عربية، أم مسلمة؟ إنها كل ذلك، ولا شيء منها كلها. إنني، أيا كان ما أريد أن أكونه، بحق الجحيم، وسوف أستعيد أيّ شيء منها أود استعادته، وإن لم يعجبكم ذلك، "فسحقا لكم جميعا!!". قررنا أنا وفاطمة أن كل الباكستانيين المعاصرين يجب عليهم استعادة باكستان والإسلام بوصفهما ملكيتهم الخاصة. يجب عليهم إعادة تقديم باكستان جديدة وشجاعة للعالم، باكستان ذات الشعب الباقي، ذات المحاربين، وسوف نقوم بما يسعنا لكي نساعد البلاد على تحقيق ذلك. كان صراعنا، في غمار القيام بذلك، يكمن مع هؤلاء الذين اختطفوا كلا من ديننا وبلادنا، رومانسية الصراع.

وهكذا، قمنا بتأسيس "خودي"(Khudi) باكستان: جماعة مناظرة للإخوان المسلمين فيما يختص بالثقافة الديموقراطية. قمت بإطلاق الفكرة من أحد أكثر منصات العالم المتاحة لقادة العالم رقيا: TED العالمية في إدنبره. كانت نقطة البدء بالنسبة لخودي هي عودتي للعمل الذي كنت قد قمت به في الباكستان مع حزب التحرير. كنت قد رأيت بنفسي، ومن خلال جهودي نفسها، كيف يمكن أن تزدهر الأفكار والجماعات، وكيف يمكن تجهيز المعيار الفكري للشباب. كانت الرسالة خاطئة، أعرف ذلك الآن، ولكن ربما كانت التكتيكات صحيحة. ربما كان بإمكاننا استخدام وسائل وطرق الجماعات الإسلاموية في خلق حركة مضادة لتلك الإسلاموية، لكي نقوم بالدعوة للثقافة الديموقراطية.

لم تحظَ الباكستان منذ ميلادها، بحركة اجتماعية، تعمل على مستوى يعلو على السياسة، لكي تكون بطلة للثقافة الديموقراطية. عندما أقول سياسة، فإنني أعني ببساطة الدعوة إلى القيم التي ترتكز عليها الديموقراطية والدفاع عنها عبر كافة الأحزاب السياسية، على أسس غير حزبية.

إن الديموقراطية تتعدى مجرد كونها عملية تصويت، إنها تكمن في الثقافة المصاحبة لها. لا يمكن أن يقوم المرء بتأسيس حزب حسب ما يريد بدون حرية الاعتقاد، ولا يمكن للمرء أن ينضم لمثل هذا الحزب بدون حرية الاجتماع، ولا يمكن للمرء القيام بحملات لحزب مثل هذا بدون حرية التعبير، كما لا يمكن للمرء أن يدير أحزاب معارضة بدون الخوف من السجن في غياب حقوق الإنسان. يجب أن تكون الديموقراطية، حتما، أكثر من مجرد انتخابات. يجب أن تتجذر هذه الأفكار في ثنايا أيّ ديموقراطية يرجى لها أن تعمل بشكل صحيح: الثقافة الديموقراطية.

كان ما حققته جماعات مثل حزب التحرير ونشطاء مثلي أنا هو تحطيم تلك الثقافة. لم يكن هناك أي ميل لتلك القيم الديموقراطية لا سيّما بين الشباب، وكان هناك الكثير من الناس الذين يروجون لقيم مضادة لها، وكانت تلك الاعتقادات المتطرفة تحمل نوعا معينا من المجد. على العكس من ذلك، لم تحظَ فكرة أن تكون ديموقراطيا شابا بانتشار بين الشباب، بل إنّ الديموقراطية كانت في معرّضة لتصبح علامة بالية أكل عليها الزمن وشرب، ولا يرغب أيّ كان بالارتباط بها، في حال استمر الوضع على ما هو عليه، فقد كانت الديموقراطية في تلك البلاد معرضة للاندثار، حينما تكبر تلك الأجيال وتصل لمواقع النفوذ.

كانت هذه فكرة جديدة جريئة لم يحاول أحدٌ تطبيقها من قبل، إذ لم يدرس أحد قلب الطاولات على الجماعات الإسلامية من خلال استخدام وسائلهم لتحقيق أهداف ديموقراطية. يبدو نوعا غريبا من الإلهام، ولكنني درست منظمات مثل حماس في غزة والضفة الغربية بالتفصيل. استطاعت هذه المنظمة، في وقت استغرق أقل من عقد من الزمن، أن تحتل مكان منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها المصدر الأساسي للسلطة في فلسطين. كانوا قد انتشروا عن طريق تكوين قواعد شعبية بين الأجيال الأصغر بطريقة لم تستطع منظمة التحرير منافستها.

كان أساس صعود حماس لموقع السلطة هو رسالتهم الواضحة القوية، كما قاموا كذلك بالترويج لتلك الرسالة عن طريق العمل الخيري القائم على القيمة، حيث وفروا خدمات دراسية وشاركوا في التكافل الاجتماعي. استطاعوا من خلال الجمع بين تلك الخدمات ورسالتهم، غرس أفكارهم، ليس من خلال الشعارات والحملات فقط، بل من خلال المشاركة في نسيج المجتمع ذاته. ما كنت أريد تحقيقه مع خودي في باكستان هو الشيء نفسه، ولكن في سبيل نشر ثقافة ديموقراطية. كما قال الرومي، الشاعر الحكيم: مثل نوح، توجهت أفكاري نحو بدء مشروع ضخم أحمق، غير عابئ بما سوف يعتقده الناس عني.

خودي هي كلمة أوردية ترجع لأصل فارسي، واستخدمها الشاعر الجنوب آسيوي المشهور العلامة إقبال، وتسببت في انتشارها على نطاق واسع أول فرقة روك كبرى في باكستان، جنون، وهي الكلمة التي تعد ترجمتها التقريبية هي التمكين الذاتي أو التقدير الذاتي. قمت بتصميم خودي، في مفارقة واضحة، باستخدام التكتيكات الإسلاموية مرة أخرى، مثل القاعدة، لكي تكون منظمة شاملة تتيح للجماعات والمنظمات المتواجدة على الساحة حاليا التآلف وتجميع الموارد. كنت أعرف أننا نحتاج قيادة قوية وملتزمة لكي تمنح دفعة البداية للجماعة. كان خياري جليا؛ كنت الآن مقتنعا أن هذا هو السبب الذي جعل الرب يضعها في طريقي في ذلك اليوم، وتسألني كم مرة كنت قد رسبت في اختباراتي: أصبحت فاطمة مالك هي أول منسق وطني لخودي. سويا، كنا الآن في حاجة إلى الوصول إلى أفضل النشطاء الشباب، وتجنيدهم، وتكوين أول لجنة قيادية لنا.

في 2009، متبوعا بطاقم تصوير من نيوز نايت، وفريق أمني لحمايتي من أي محاولة لاغتيالي، بدأت جولة وطنية لمكافحة التطرف في باكستان، وتحدثت فيما يربو عن عشرين جامعة من إسلام أباد وحتى كراتشي، من كيتا إلى كشمير. استخدمت هذه الجولة لكي اتعرف على قادة خودي وأقوم بتوظيفهم. قابلنا، في طول وعرض باكستان، آلاف الطلاب الشباب المحبطين، وقمنا من خلال تفاعلنا معهم باختيار دقيق لهؤلاء الذين رأينا أنهم قادرون على قيادة الآخرين على الطريق. كانت لجنة خودي التنفيذية تتضمن الآن شبابا مثل علي عباس وهو من إسلام أباد، ومؤسس ائتلاف شباب باكستان (Pakistan Youth Alliance). كان ائتلاف شباب باكستان نشطا عبر باكستان كلها في مجال إعانات الكوارث، وقد تفرع الائتلاف عن حركة المحامين التي خلعت حكم مشرف العسكري في 2007. وكان أحد الأعضاء المرتكزين في إسلام أباد هو عمران الملهم، والذي يرأس أقسام التدريب والعلاقات الحكومية لدينا. كان عمران، عن طريق الذكاء والإصرار الخالص، قد ترقى من عائلة ريفية أمية، إلى أن أصبح رئيس جماعة المناظرات في إحدى مدارس باكستان الراقية. تواجد معنا أيضا، مرتكزا في لاهور، راب نواز، وهو محرر مجلة الشباب الخاصة بنا، لالتاين (Laaltain). كان راب سكرتير اتحاد طلاب الجامعة، وهي حركة بدأت في جامعة البنجاب لمعارضة التطرف في الحرم الجامعي، لكنّ أنشطتهم توقفت بشكل مفاجئ حينما بدأ المتطرفون في الحرم الجامعي بضربهم بالرصاص، وفي لاهور تواجد معنا كذلك شابير هادئ الروح ومتواضع النفس، وخبير الشبكة العنكبوتية الملتزم عمير. كان هذا الفريق معا يدير مكتبين داخل باكستان، شبكة مكونة من آلاف المتطوعين، وقد اجتذب إلى خودي عشرات الآلاف من المشتركين على الإنترنت.

بدأتُ أنا وفاطمة في السفر بقدر الإمكان إلى باكستان، لكي نقوم بتدريب هذه المجموعة المحورية في مجال بناء حركة نشطة. قمنا بشرح الفكرة الأساسية والروح لهم، ومنحناهم رؤيتنا، ووضعنا أسس الهيكل وبدأنا تنظيم الأنشطة مثل مناظرات الطلبة، ومجلة الطلبة التي تغطي البلاد بأكملها، والتفاعلات

الديموقراطية مع اجنحة الطلاب في الأحزاب السياسية المختلفة، ومبادرات التطهير، والمقابلات الإعلامية، وحملات الضغط الأكاديمية والسياسية، وسرعان ما بدأ اسم خودي ينتشر في طول باكستان وعرضها.

قمنا ونحن ما نزال نضع استعادة باكستان في بؤرة عملنا ونوجه لها جل تركيزنا، بالمساعدة في تأسيس أول مؤتمر ومهرجان شباب دولى (International Youth Conference and Festival (IYCF)) في البلاد، بالمشاركة مع تيبو وأدييل التابعين لميرادور (Miradore's Tepu and Adeel)، وهما منسقانا الشابان الجديدان في إسلام أباد. في ذلك الوقت بدأ عدد الناس المستعدين للسفر إلى باكستان ينخفض باضطراد، وكان هدفنا هو محاولة اعادة تقديم باكستان إلى العالم واعادة تقديم العالم إلى باكستان.

بما أنني قمت سلفا بالتحدث في مؤتمر قادة الفكر السنوي زايتجايست التابع لجوجل (Google's Zeitgeist annual thought-leaders conference) فقد هاتفت بعض الأصدقاء في جوجل، واستطعنا إقناع قادة جوجل بالمجيء إلى باكستان والتحدث في مؤتمر ومهرجان الشباب الدولي الخاص بنا. كانت هذه أول مرة ترسل فيها جوجل وفدا رسميا إلى باكستان، بما فيها مدير قسم الأخبار والسياسة في يوتيوب حينها ستيف جروف (Steve Grove). ومن ناحية فرع جوجل للأعمال الخيرية، فقد أتى جاي بورين (Jay Boren). نجحنا كذلك في إحضار متحدثين مثل سوزان جوردون من منصة الفيس بوك "قضايا" (Causes)، ومارك كوسكا. كان مارك قد اخترع المحقنة غير القابل لإعادة الاستخدام (non-reusable disposable syringe)، التي أنقذت الكثير من الأرواح. ولكي اقدم باكستان إليها، فقد قمت بدعوة صديقتي، الأم الروحية للنشطاء ستيفاني رودات (Stephanie Rudat) التي تواجدت على رأس القائمة. كانت ستيفاني منذ فترة تعمل في تنسيق وتدريب الحركات الديموقراطية على مستوى العالم. وقد شاركت في تأسيس تآلف الحركات الشبابية، وتدير الآن منصة مماثلة تسمى اتحاد الفكر (Think Consortium). أردنا أن يشعر شباب باكستان أنهم جزء من الصورة العالمية: كلما زاد شعورهم أنهم متواصلون مع العالم، شعروا بعزلة أقل، وأصبحوا أقل ضعفا وتعرضا للإسلاموية. نجح المؤتمر بشكل ساحق، وقمنا بعقد واحد آخر في 2011، مع الأمل في عقد الكثير مثله في مقتبل الأيام.

وكما كان متوقعا، فإنّ بعض الناس لم يتقبلوا أفكاري الجديدة مثلما تقبلها غيرهم. وعلى نحو خاص، فإنّ الجماعات الإسلاموية لم تكن راضية أبداً عن الخائن الذي جاء لينفّذ حملات ضدّهم. وها هو التهديد الذي تعرضنا له أنا وإد في الدنمارك ماثل وحقيقي بنفس الشكل في الباكستان، ومن لحظة البدء، كان يجب أن نكون في غاية الحرص فيما يختص بأمننا وسلامتنا.

بدت أهمية هذا جلية حرفيا خلال إحدى رحلاتنا. كنت في لاهور، في المرحلة الثانية من جولة الجامعات الوطنية التي قمت بها. وبعد يوم طويل من الحشد، تسللت وحدي إلى مقهى لكي استمتع بالشيشة

وبفنجان من القهوة. قمت باختيار مقهى قريب من مقر إقامتي بدون التفكير في الأمر بشكل جدي، لكنّ مالم أدركه –وسرعان ما أدركته لاحقا- أن هذا المقهى بالذات كان مركز اجتماعات لأعضاء حزب التحرير الباكستانيين.

وفي أثناء شربي للقهوة جاء أحد مريدي حزب التحرير وجلس بجانبي دون دعوة منى، وبدأ يتحدث حول "الخلافة"، احتملته بلطف لفترة من الزمن، ولكنه لم يفهم التلميح ولم يغادر.

قلت له: "اسمع، من الواضح أنك من حزب التحرير، وأخشى أنني غير مهتم بما تقوله. أنا هنا فقط لأحتسي قهوتي.". بدأ الرجل عند تلك النقطة في التحديق في وجهي بشدة. "انتظر، أنت ماجد نواز، اليس كذلك؟ الرجل الذي يجول الجامعات متحدّثا بالسوء عنا."

اعترفت: "نعم، ولكني لست هنا لأسبب المشاكل، كل ما أريده هو أن أشرب القهوة."

جاء اثنان آخران في أثناء ذلك، وجلسا معي بلا دعوة على طاولتي.

قال ضيفي الأصلي: "هذا هو، إنه هو من كنت أحدثكم عنه."

قلت لهم: "حسنا، إنني بالفعل هنا فقط لاحتساء القهوة، إنها الحادية عشرة مساءً، وقد كنت أعمل النهار بطوله...."

قال أحد الرجال: "نعم، تعمل في نشر أكاذيبك حولنا."

لم يكن هذا شيئا جيدا. "من المسؤول في هذا المكان؟"، سألت الحاضرين. أشار الثلاثة إلى رجل آخر، يجلس بمفرده في ركن من المكان. قلت لهم: "حسنا، سوف أذهب إليه وأقول له السلام عليكم، ثم سأغادر، لا أريد أن أزعج أيّ شخص هنا."

سرت نحو الرجل الجالس في الركن، كان اسمه طيب مقيم (Tayyab Muqeem)، وهو بريطاني باكستاني، كان مثلي منذ كل تلك السنوات، قد أتى إلى باكستان ليساعد في تجنيد الناس في حزب التحرير. كان مدخله إلى باكستان هو تدريس الإنجليزية عن طريق القنصلية البريطانية، وهي طريقة معتادة في حزب التحرير استخدمها نسيم لتأسيس حزب التحرير في بنجلاديش. استطاع مقيم أن يحصل على منصب رئيس قسم الإنجليزية في جامعة خاصة تسمى سوبريور كولدج (Superior College).

مددت يدي نحوه، فرفض أن يصافحني، وقال بدلا من ذل: "إن لم تغادر مصحوبا باللعنات من هنا، فسوف أطرحك أرضا."

أصررت وأنا متفاجئ من رد فعله قائلا: "إنني أحاول أن أصافحك فقط، لم آت إليك سوى لأخبرك أنني لست هنا لكي أسبب أيّ مشاكل."

سمعت كشط مقاعد خلفي، واستدرت أنظر فرأيت الرجال الثلاثة الذين كانوا يتحدثون معي قبل ذلك يقفون ويتجهون نحونا. حدث كل شيء بسرعة شديدة جدا، قبل أن أدرك ما كان يحدث، كان مقيم قد استغل استدارتي، وقف على قدميه وضربني في جانب وجهي. لم أكن أتوقع هذا، وفوجئت بشكل تام، إذ أخذني على حين غرة. وجدت نفسي أسقط على الأرض، وفيما كنت أسقط، أمسكت بكوب، تحطم إلى شظايا حولي. وكما أنا دوما فقد كنت عنيدا، وقفت مرة أخرى على الفور لأواجه مقيم، مادا يدي للمرة الثانية نحوه: "لست هنا لكي أتشاجر". عند تلك النقطة، وقبل أن يتطور الأمر أكثر من ذلك، تدخل صاحب المقهى واصطحب مقيم إلى الخارج.

منذ تلك الحادثة، صرت أكثر حرصا بكثير فيما يختص بسلامتي في باكستان، لم تتكرر مثل تلك الأحداث حتى الآن مرة أخرى. ولكنّ حقيقة تواجد النية السيئة عند الإسلامويين، ربما وضّحت كيف أنهم يشعرون بالخطر الماثل عليهم من حملاتنا.

لا يزالُ الوقت مبكرا في البلاد، ولكنّ لدينا الآن منظمة تفتخر بمكتبين دائمين وفروع في كل مدينة كبرى، وشبكة متطوعين عبر البلاد. إن عملية التغيير الثقافي ليست شيئا يمكن القيام به بين ليلة وضحاها، ولكن في غضون الوقت القصير الذي بدأت فيه خودي العمل، قمنا بالفعل باتخاذ بعض الخطوات العملاقة.

الفصل الثاني والثلاثون

"أشوف فيك يوم"

أسسنا كويليام في لندن لكي تكون مركزاً عالمياً يلهم السردية المضادة، وأسسنا خودي في باكستان كمثال عملي على ما يمكن القيام به، ولكن، كما هو الحال دائما، لم أكن راضيا. إن كان الإلهام الذي كان وراء تأسيس خودي هو نموذج الامتياز الذي يمنحه الإخوان المسلمون، فسوف احتاج إذن إلى منح امتياز خودي لبلاد أخرى. كنا في حاجة إلى أن تنتشر الديموقراطية بالضبط كما انتشرت الإسلاموية، بصرف النظر عن الحدود، عبر العالم العربي، وخلال المجتمعات ذات الأغلبية المسلمة.

مع انتشار القصّة، وبعد أن شاهدوني وأنا أتحدث في TED بدأت الرسائل الإلكترونية تصلنا من نشطاء ديموقراطيين شباب يطلبون فيها الإرشاد والتوجيه في بلاد تمزقها الحروب. بدأ الشباب يتواصلون معنا من اليمن والعراق والصومال، وقد قمت بتلبية دعوات للسفر إلى نيجيريا، وإلى ثينك فيست في ولاية غوا (THINKFest-Goa) والهند، وبنجلاديش، حيث كان هناك حاجة إلى مشورتنا لمنع المزيد من تغلغل حزب التحرير في جيشهم. كان شعورا غريبا، وحتى سرياليا أو خياليا، أن أذهب إلى بنجلاديش، البلد التي كنت أعرف أن نسيماً قد أسس حزب التحرير فيها، وأن أعمل بشكل مباشر ضد ثمرة عمله. كنت الآن أستخدم كل شيء تعلمته من نسيم ضده، كان تلميذه قد تحول إلى عدوه اللدود. حتى أوروبا بدا كما لو أنّ بإمكانها الاستفادة من مثل تلك الحركة بعد شغب الشباب في 2011، والأوضاع غير المستقرة المنتشرة في اليونان نتيجة للمصاعب الاقتصادية. ولكني أدركت أنه ليس بوسعنا التوسّع بسرعة أكثر مما ينبغي، وأنّ علينا التقدّم خطوة خطوة، بحرص كبير، وبشكل استراتيجي. كان أهم شيء هو غرس الوضوح في الفكرة، وإعداد فريق قوي ذي خبرات، وكانت إجابتنا على اسئلة مثل كيف وأين نؤسس فرعا تاليا تتضح، كما في باكستان، نتيجة لرابط آخر بزغ في ذهني يتعلق بعمل أبي في ليبيا.

كان نومان بنوتمان (Noman Benotman) من ضمن مديري كويليام النشطاء الذين يقومون بالتحليل، وقد كان نومان قائدا سابقا لمجموعة القتال الإسلامي الليبية (Libyan Islamic Fighting Group) أو اختصاراً (LIFG) وقد قاتل في الثمانينات جنبا إلى جنب مع أسامة بن لادن ضد الغزو السوفيتي. عندما انسحب الروس طلب ابن لادن إقامة اجتماع مع جنرالاته العرب لمناقشة ما يجب القيام به بعد ذلك، أعلن ابن لادن في ذلك الاجتماع عن رغبته في تحويل الحرب لتكون ضد الغرب، فوافق معظم

الجنرالات على اتباعه، ولكنّ نومان كان الاستثناء؛ إذ أخبر ابن لادن أنه جاء ليحارب الروس، لا ليقتل المدنيين. شعر نومان أنّ عليهم التركيز على إعادة بناء البلد التي حاربوا من أجلها، لا محاربة الغرب.

عاد نومان وقواته إلى ليبيا، وقام عندئذ بالانخراط في عملية تجريد عسكري لقواته، بنفس الطريقة التي حدثت بها عملية نزع السلاح عند الجيش الجمهوري الأيرلندي IRA أثناء عملية السلام في شمال ايرلندا. كان نومان همزة الوصل بين مجموعة القتال الإسلامي الليبية وحكومة القذافي، حيث عقد صفقة مع سيف القذافي، تتخلى الجماعة بموجبها عن العنف مقابل إطلاق سراح أعضائها بالجملة من سجون ليبيا. وعمل مرشدا لجماعته السابقة خلال العملية التي خاضوها أثناء التخلص من الأصولية، وفي النهاية شجعهم على كتابة كتب تتبرأ من فلسفتهم الجهادية السابقة. كان نومان، في العديد من المناحي، روحا شقيقة، وكان لي الشرف أن أحضره إلى كويليام.

عندما اكتسح الربيع العربي ليبيا كان نومان في طرابلس في موقف صعب، لدينا هنا شخص كان يعمل في نزع السلاح عن LIFG، وقد قدم وعودا لسيف القذافي بهذا المعنى. وهاهو الآن، وبمقتضى الحال الذي حدث، كان هناك حاجة ماسة لكي يقوم نفس الناس بإعادة التسلح. هل عليهم العودة إلى طرق الجهادية القديمة التي يعرفونها، أم هل سيلتزمون بمكانهم تحت قيادة جماهيرية. كان نومان يعلم أن المكان الصحيح لهم هو الانحياز إلى جانب الناس، وكنا من خلال كويليام نسخّر قدرات كويليام لحملة وحراك الناس في ليبيا.

وفيما كانت قوات القذافي متجهة لتدمير بني غازي أسرع نومان إلى لندن لكي يفتح جبهة كويليام ضد القذافي وحكمه. قمنا بمقابلات تلفزيونية متعاقبة تفضح جرائم القذافي، وقمنا بحث الغرب على تقديم الدعم للشعب الليبي. استخدمنا كل العلاقات، التي كنا قد صنعناها خلال عملنا في كويليام مع الحكومة، في تحقيق التواصل بين نومان والحملة الجوية. كان لدى نومان طريقة للوصول إلى المعلومات على الأرض في ليبيا، وقد مكنه ذلك من تمريرها إلى كبار أعضاء القوات الجوية الملكية RAF، والتي كانت تتصل بنا للحصول على المشورة والتحليل، أثناء تصاعد الحملة. كان نومان أحد الرموز الأساسية التي شجعت الرئيس السابق للمخابرات الليبية موسى كوسا على الانشقاق، وكان أول من يعلن الخبر. بدا من المفهوم تماما أنّ أنشطتنا أثارت غضب نظام القذافي الشديد، حتى أنهم قاموا بالتسلل إلى انظمة الكمبيوتر الخاصة بنا لكي يوقفونا. كان نومان، ولايزال، يعمل مع الليبيين منذ سقوط نظام القذافي لكي يساعدهم في تشكيل حكومتهم الجديدة. يتمتع نومان بالقدرة على تزويدهم بالمنظور المتفرد الذي لا يقتصر على كونه قريبا من زملائه السابقين في الميليشيا الإسلامية وحسب، بل وكذلك الميليشيات القبلية أيضا، وهو عنصر ذو أهمية حرجة في استقرار الأمور بين تلك الفصائل المتنافسة.

يحتفظ نومان، وهو في غاية الحرص على الاستمرار في عمله فيما بعد الصراع، بروابطه مع الجهاديين الليبيين في العالم بأسره، حتى هؤلاء الذي يقبعون حاليا في سجون العراق، في جهد جهيد لإقناع أكبر عدد ممكن حول الحاجة الملحة للديموقراطية في ليبيا.

لكي تنجح أيّ حكومة في ليبيا، فإنّ ما يلزم في نهاية المطاف هو إدخال ونشر المثاليات المدنية والثقافة الديموقراطية التي كانت خودي مشغولة في الترويج لها في باكستان. كانت ليبيا قد رزحت تحت الدكتاتورية لفترة طويلة لدرجة أنها تفتقر تماما إلى أي خبرات ديموقراطية. إن إزدهار القيم المدنية في مثل تلك الظروف القاحلة هو شيء شديد الصعوبة بلا أدنى شك، وكان خطر الانزلاق للخلف تجاه نظام أكثر استبدادية خطرا حقيقيا وماثلا بالفعل. بدأت، وأنا ملتزم تماما بالنموذج الإسلاموي الذي ألهمني، بالتطلع إلى منح امتياز حركة على طراز خودي الخاصة بنا إلى البلاد العربية. كانت باكستان قد بدأت من جديد في تصدير أفكار سياسية إيجابية، وسوف تخبرنا السنون والأيام القادمة ما هو المدى الذي يمكن دفع هذا النموذج إليه على مستوى العالم، ولكن تبقى رومانسية الصراع حية في قلوبنا رغم كل شيء.

ثم كان هناك مصر، كانت مصر من ضمن البلدان التي حدث بها الربيع العربي في 2011، وبشكل لا يدعو للاستغراب، هي البلد الذي أبديت به اهتماما أكثر من غيره. ومنذ الوقت الذي قضيته هناك في السجن أبقيت على مزيج معارفي غير العادي هناك. كان المحامي الذي ترافع عني أثناء المحاكمة، وهو أحمد سيف، شريكا مؤسسا في حركة كفاية، حيث تواجد هناك من البداية، في الوقت الذي كنت تستطيع فيه أن تعد عدد المعارضين على أصابع اليد الواحدة، حيث كان مظاهراتهم تعد مثارا للضحك.

في أثناء عملي في كويليام، صادفت قادة في حركة شباب 6 أبريل، المجموعة التي أشعلت مظاهرات مصر ضد مبارك أولا، وبدا أن أحداً لم يأخذهم على محمل الجد عندما أعلنوا في 2010 في مؤتمر ائتلاف حركات الشباب في نيويورك أنهم سوف يقودون ثورة ضد مبارك.

هكذا، حين بدأ كل شيء يتصاعد في 25 يناير 2011، وبدأت المظاهرات تتزايد، كنت أجلس متحفزا أراقب الوضع، وكتبت في حساب تويتر الخاص بي: "يجب على العالم أن يراقب مصر"، إذ كنت أعلم من خلال الحوارات التي تبادلتها مع المتظاهرين في ذلك الوقت، وبوضع ما حدث لتوّه في تونس في الاعتبار، إن هذا الأمر كان حقيقيا، فأسرعت للقيام بما أستطيعه في سبيل مساعدة الثورة.

كانت كيفية تطور الأحداث على الأرض خاضعة لعامل حرج للغاية، وهو رد فعل الغرب. لطالما تمتع مبارك بدعم قوي لكونه حليفا مقربا من الولايات المتحدة وحلفائها، ولو حصل مبارك على دعمهم الآن، فسوف يكون خلعه أصعب كثيرا، أما في إذا قرّر الغرب ألا يقف بجانه، فسيكون وضعه سيئاً للغاية.

إنّ ما أستطيع فعله لمساعدة قضيتهم يتمثل في توصيل رسالة المتظاهرين إلى الإعلام الغربي، أردت أن يعرف الناس أن هذه حركة يقودها شبّان ليبراليون مصريون. لم أكن أريد أن تُصوّرَ المظاهرات وكأنها قامت تحت قيادة الإسلامويين، فهي لم تكن بتحريض من الإخوان المسلمين، وكان من المهم ألا تتم الإشارة إلى مبارك بوصفه أهون الشرين. كانت الحجة التي استخدمت لفترة طويلة للغاية هي أنّ مبارك مستبد بغيض، ولكنّه أفضل من البديل المتطرف. لكنّ ما أظهرته المظاهرات المصرية هو شيء جديد ومثير، إنّه طريق ثالث لمنح السلطة للشعب الحقيقي: ديموقراطية جذرية. إنه ما كنا نناقش حول إمكانيته كل هذا الوقت. كان هذا سبب أهمية نجاحهم، ففي ضربة واحدة كانت الثورة المصرية تحطم الازدواجية القديمة التي تضع الدكتاتورية العلمانية في مقابل الحكم الإسلاموي.

أسرعت بالتواصل مع أمثال أيمن نور، القائد الليبرالي الذي أخبرني أن "أنضج" في سجن مزرعة طرة، ورتبت معه الظهور معي على الهواء في قناة الجزيرة لكي يترافع عن قضية المتظاهرين. "أنا في غاية الفخر لكوني قد تحدثت مع زميلي السابق في الزنزانة"، كتبت في تغريدة على تويتر. كما تواصلت مع زميل زنزانة سابق كذلك، هو عصام العريان، متحدث الإخوان السابق، لكي أحصل على فكرة حول خططهم، وتحدثت كذلك مع سعد الدين إبراهيم للحصول على مشورة منه. اتصلت بالمحامي الذي ترافع عني في الماضي، أحمد سيف، فردّ عليّ بمنتهى التواضع: "ليس هذا وقتا ينبغي لي أن اتحدث فيه يا ماجد، لقد وصل أخيرا زمن شبابنا."

وهكذا تواصلت مع ثوار 6 إبريل، ونسّقت معهم رسالتهم إلى الإعلام الغربي، واستخدمت قدرات كويليام الكبيرة في التواصل مع الصحافة، لكي أنشر على الفور عددا من البيانات التي تدعم مطالب المتظاهرين، وتُذكّر الإعلامَ بقصتي الشخصية، وكيف يمكن لنظام مبارك أن يكون استبداديا غاشما.

"يا مبارك، اتقِ دعوة المقهور!" كانت هذه لحظة شعرت فيها فعلا بالتقدير تجاه مشورة جاك دورسي بأن أنضم إلى تويتر، ولأول مرة فهمت ما يستطيع أن يفعله، إذ كنت كل مرة أكتب فيها تغريدة فيها رابط أو تعليق، تأتيني مكالمات هاتفية من صحفيين يتابعونني راغبين في إجراء مقابلة.

قمت بعد ذلك بالتواصل مع منى الطواحي، وهي مصرية أمريكية تعيش في الولايات المتحدة، وصحافية سابقة تحولت إلى ناشطة، وكلانا على تواصل مع المتظاهرين في ميدان التحرير الذين كنت أشعر بحاجتهم إلى صوت متماسك ومستمر في الإعلام الغربي لتقديم قضيتهم، فبدأنا في محاولة تنسيق ردود أفعالنا معا. وتبع ذلك دورة لا تنتهي من المقابلات الإعلامية، والحوارات الصحفية، والمكالمات الهاتفية، والمقالات. كنت أوجه الضربة تلو الضربة لمبارك من خلال الصحافة، وأروقة الحكومة، وفي محكمة الرأي العام. أصبحت وجها مألوفا على سي أن أن، وسكاي وبلومبرج والبي بي سي (CNN, Sky, Bloomberg-

BBC) وكتبت مقالات رأي لحساب التايمز визوول ستريت جورنال، وبالطبع كنت أكتب تغريدات على تويتر بلا هوادة.

عرفنا، في وقت مبكّر جدا، أن رسالتنا تصل، كنا نستطيع أن نعرف من أجهزة الخادم لدينا في كويليام، عدد الذين يقومون بتنزيل بياناتنا الصحفية، وكان بإمكاننا أن نرى أن الحكومات البريطانية، والحكومات الأخرى حول العالم، تقوم بذلك بشكل منتظم. كان كاميرون قد سألني عن مصر في اجتماعي معه في داوننج ستريت، وكانت خطاباته منذ ذلك الحين تنطوي على رفض قاطع للثنائية القديمة المتمثلة في "الدكتاتورية/ التطرف"، كحل للشرق الأوسط. لم يذهب نجاح حملتنا هباءً، حيث قام الرئيس الأمريكي السابق بوش بدعوتي بعد ذلك إلى منزله في تكساس لكي يشاركني أفكاري حول مستقبل مصر، وكان هذا هو اللقاء الذي تبادلنا فيه الحديث حول تعريف التعذيب، حيث بد أنّ لحظة "حقيبة الظهر الخضراء" الخاصة بي قد جاءت لمبارك أخيرا، وهذه المرة سقط البلطجي المتنمر عن طريق حملاتنا الديموقراطية. عندما بدأ القادة الغربيون في مباعدة أنفسهم عن النظام، قمت بنشر تغريدة تقول: "إن حملات الضغط التي نقوم بها ناجحة"، وأضفت أخرى:" انتهت اللعبة يا مبارك."

لم أكن بالسذاجة التي تجعلني أعتقد أن الانتخابات التالية لسقوط مبارك سوف تأتي بنظام ليبرالي، كان جليا تماما ودائما أن الإخوان المسلمين سوف يستغلون الانتفاضة لأقصى حد ممكن تحت أيّ إدارة جديدة.

إن الأفكار السياسة الجديدة تستغرق وقتا لكي تتخلل الوضع السائد، وفي تلك الأثناء، فإن الديموقراطية تعني احترام اختيار الناس، ولعلّ اعتبار هذا القول دعما للإسلاموية، يعدّ خطأ فادحا للغاية. فبالنسبة لي، يعد نجاح الإخوان المسلمين، مماثلا إلى حد ما للكيفية التي ينظر فيها كثير من المحللين للغزو الأمريكي لأفغانستان والعراق، إذ يرونه، ليس بوصفه إعادة ترسيخ لنفوذ الولايات المتحدة، بل بوصفه حملا يفوق طاقتهم. وفي هذا الصدد بمصر، فإنّ ما حصل هو بداية نهاية افتتانها بالإسلاموية. على المدى الطويل، ومع المساحة التي تسمح بالحركة، سوف يتقدم الجيل الجديد الذي بدأ هذه الانتفاضة ويخلق حركات أخرى، ويلهم بزوغ اتجاهات جديدة تتعدى الإسلاموية. وبالفعل ففي الوقت الحالي هناك أجنحة إصلاحية من الشباب تنشق عن الجماعات الإسلاموية الأكبر حجما، إنّ المستقبل ليس للإسلاموية، ومع مرور الوقت، سوف يدرك الناس كيف أنها جزء من الماضي، من النظام العالمي القديم.

كانت صلواتي، صلواتنا، في مزرعة طرة، التي تدعو أن ينال مبارك جزاءه قد استجيبت أخيرا:

يا مبارك "أشوف فيك يوم" سوف أرى يومك حين يحين موعده، كانت جملة متكررة تصدر عن هؤلاء المسجونين المقهورين. كان حلمُ أن يلقى جزاءه العادل يوما ما، هو ما أبقانا أحياء في حرارة

الصحراء. أن يتم انتزاع مبارك من السلطة كان شيئا مهما، والقبض عليه كان شيئا آخر مهما أيضا، ولكن، أن يخضع للمحاكمة، مرتديا تلك الملابس البيضاء نفسها، ويجلس في ذلك القفص نفسه الذي كنا محتجزين فيه، وأن يتم إرساله إلى ذات السجن الذي تم حبسنا فيها، كان شيئا آخر تماما. انتهى الحال بمبارك، وابنيه الاثنين، وحبيب العادلي وزير داخليته، في سجن مزرعة طرة. العدل الإلهي، أطلق عليه ما تشاء، ولكنّ ربي عادل. إنه لا يخذلني أبدا.

مثّلت رؤية مبارك في ذلك القفص لحظة تطهير أعادت لي كل الذكريات التعذيب والظلم والسنوات المهدرة في أوائل عشرينات عمري، وكان من الصعب ألا تتحرك مشاعري. أحسست بعاصفة من المشاعر تشتمل على الفرحة العارمة والحزن، والنصر وطي الصفحة، والانتقام والسلام الداخلي، كلها في الوقت عينه. سوف أكون كاذبا إن قلت أنه لم يكن هناك عنصر انتقامي فيما شعرت به، ولكنه كان انتقاما صالحا، انتقاما عادلا. لم تكن هزيمة مبارك قد جاءت بشكل عنيف، لم تكن تشبه نهاية القذافي، إذ لم يتم إسقاط "الرجل القوي" المفترض في مصر من خلال أزيز الطلقات، أو تفجير انتحاري، أو من خلال انقلاب عسكري بتحريض من حزب التحرير، بل تحقّق ذلك من خلال طرق سلمية ديموقراطية، من خلال الناس وهم يخرجون كالسيل الهادر إلى الطرقات، ويتحلون بالشجاعة لكي يتوحدوا. وكنت قد لعبت دوري في ذلك.

تذكرت أيضا كيف انقلب عليّ الإسلامويون حين غادرت حزب التحرير، والطريقة التي انتُقدت بها الأفكار التي دعوت لها عن طريق كويليام ثم خودي والسخرية منها. كان كل أصدقائي، دفعة واحدة، قد انقلبوا عليّ، وخسرت كل شيء. قيل لي أنني مرتد، منافق وخائن، وبائع للقضية. قيل لي أن الناس سوف يثورون لكي يثبتوا لي مدى خطئي. نظرت إلى مبارك وهو يواجه العدالة وقلت لنفسي: حسنا، لقد ثار الناس فعلا، ولكن ليس من أجل الإسلاموية. كانت الشعلة الديموقراطية الصغيرة التي ألهبت قلوبنا منذ كل تلك السنوات في مزرعة طرة، مع أحمد سيف وحركة كفاية، مع سعد الدين إبراهيم وأيمن نور، قد انتشرت أخيرا في شوارع مصر. كان البديل الديموقراطي الجذري النامي في القواعد الشعبية قد جاء ليبقى، وتلوح ابتسامة صغيرة على وجهي كلما فكرت في ذلك الأمر.

"ها أنا ذا، عدت إلى مكة. لازلت أسافر وأحاول أن أوسع مداركي، لأنني رأيت الضرر والأذى الذي يمكن أن يسببه ضيق الأفق ويدمر به كل شيء مرات أكثر من اللازم. وحينما أعود إلى وطني، فسوف أكرّس ما لدي من طاقة لإصلاح ذلك الضرر."

مالكولم اكس (1925-65) (Malcolm X)

خطابات إلى جايمس فارمر *(James Farmer)*

خاتمة

إن قمت بالسفر إلى لندن يوماً ماً، وحدث أن سرت في شارع بلاندفورد (Blandford Street)، وهو بجوار شارع بيكر مباشرة، فربما تصادف مطعماً إيطالياً صغيراً يسمى الباريتو (IL-Baretto). وإذا قرّرت الدخول، وأنا أنصحك أن تفعل، فهناك احتمال كبير أن ترى مائدة كبيرة يجلس حولها مجموعة مرتفعة الصوت من الأصدقاء الذين يتحدثون إلى المالك الصومالي واسمه لويجي فستانت، ومن المرجح أن تقابل على تلك المائدة سمير عمران، وهو ناقد فني من جنوب آسيا، أو أرسلان حيدر، وهو مدع عام مدرب. يمكنك في أي يوم أن تصادف فاطمة مولك أو أختها زهرة، وقد تصادف كذلك عمران أحمد، وهو صحفي مرموق في مجال الأزياء. ويمكنك كذلك أن تقابل جيريمي براون صديقي المحامي من كلية الدراسات الشرقية والأفريقية، أو ابن عمي رحيم (ابن الدكتور ناصر)، وهو الآن مهندس علوم فضاء، أو أختي التي أصبحت راشدة، ثريا. وعلى تلك المائدة، وبلا استثناء، سوف أكون جالساً وسط أصدقائي وعائلتي، مشتبكين كلنا في حوار أو آخر يحتوينا جميعا بعمق شديد.

في أمسية مثل تلك، وجدت نفسي أتذكر واقعة حديثة، كتبت عنها في جريدة التايم في مقال نتج عن إحدى تغريداتي على التويتر. كنت أترجّل من القطار المتوجه إلى منزلي عائدا من العمل بعد يوم واحد من ارتكاب إرهابي اليمين النرويجي أنديرز برايفيك (Anders Breivik) مذبحته الشنيعة. هناك، وعلى ذلك الرصيف، لمحت رجلا يتفوه بإساءات عنصرية في وجه جدة محجبة لا حول لها ولا قوّة، تسير برفقة أحفادها الصغار: "عودي إلى بلادك! هذه إنجلترا، نحن لا نريدكم أيها المسلمون هنا!" قال صارخا في وجه العائلة المذعورة. كانت إنجلترا في حالة متوترة، وكانت رابطة الدفاع الإنجليزية المضادة للسلمين تحظى بالمزيد من المناصرين، وكان برايفك قد انتقل بمنطقهم إلى مرحلة أكثر تقدما في النرويج. كان هذا الرجل يزيد الطين بلاً، ويزيد الموقف المتوتر أصلا سوءا من خلال إثارة ذعر الأطفال المسلمين أمامي على رصيف القطار. ربما كان ما حدث يعود لحداثة ما قام به برايفك، وربما كان منظر الأطفال المنكمشين بحجابهم، وذكريات البوسنة، ربما كان كل شيء -كل حياتي- التي ومضت أمام ناظريّ في ذلك الوقت. أيا ما كان، فقد وجدت نفسي انتقل بشكل فوري إلى الماضي في إيسكس أثناء مراهقتي، ففاضت ذاكرتي بذكرياتي عن "حفلات ضرب الباكي"، ولم أستفق على نفسي إلا وأنا أرى ميكي واقفا أمامي مرة أخرى. اشتعل الغضب العارم في عقلي فيما انطلقت تجاهه كالسهم، وصوتي يصرخ بالشتائم وعيوني تنطق بالغضب التام، فتحوّل المتنمر العنصري في لحظة واحدة إلى شخص مرعوب. لم يكن هناك حاجة حتى لكي أرفع يدي، فقد انسحب الجبان بخسة ومسكنة آملا أن يمر الموقف كأنه لم يكن. شكرتني العائلة كثيرا، ولكن فيما كنت متجها للمنزل، بدأت يداي ترتعشان نتيجة للصدمة، لم ينتهِ كلُّ هذا بعدَ كل ما حدث.

إن دائرة العنف تعود في دورتها إلينا. لم يكن الزمن قد عافاني، ثمّة خطرٌ كامن في أعماقي، وكل ما احتاجه الأمر هو حادثة عنصرية تافهة لكي تحرّكه وتخرجه بالكامل. أخافني ذلك، واحتجت إلى فترة للجلوس بمفردي في المنزل لكي استعيد هدوئي. قلت في نفسي: "هناك الكثير جدا مما لايزال علينا القيام به". كان السؤال الذي يشغلني، رغم ذلك، هو: ما الذي يتعين علينا القيام به بعد ذلك؟

أعلنت الخبر لأصدقائي حول المائدة في الباريتو بعد أن قصصت القصة: "إن الليبراليين الديموقراطيين يشجعونني على الترشح للبرلمان، إننا في حاجة ماسة، كما هو واضح، إلى المزيد من التنوع في البرلمان، ولكن دون اصطناع ذلك، وبالتالي فهم يأملون في أن يتحقّق ذلك بوجود أشخاص مثلي."

سأل سمير:" يالها من أخبار رائعة! ما هو رأي أمك؟"

"قالت لي أن أبقى بعيدا. تقول إن عملي يجب أن يبقى فوق العمل السياسي الحزبي، وأن يكون نوعا ما حكما على السياسة."

جاء صوت فاطمة وهي تقول: "افعل ما تقوله أمك، إنها على حق، ولطالما كانت على حق دوما"

أصر سمير ضاحكا: "كلا، كلا، لا تستمع لما تقوله فاطمة، فلتصبح عضوا في البرلمان لكي أتباهى بك على أصدقائي"

أجبته بسرعة: "كنت أرجو أن يكون لديك بالفعل قصة رائعة تقصها على أصدقائك!"

بقي السؤال بلا إجابة، والخيارات مطروحة على المائدة. انتقلت خيالاتي وأفكاري إلى عمّار فيما أنا أتمعن بما سوف أقوم به بعد ذلك. إنني أراه كل سبت، وأحرص على تعليمه مهارات الكرة الأساسية التي أعرفها، على قلتها. أبتسم لنفسي برضا في كل مرة يشجع فيها عمار نادي ليفربول الرياضي، بالضبط كما كان والده يفعل منذ عقدين من الزمان، وفكّرت في نفسي: يمكنك أن تصبح أي شيء تريده يا عمار، لا تدع أحدا أبدا يخبرك بغير ذلك.

ومن جديد عندما عدت لعالم الواقع الذي سوف يشب فيه عمّار، فكّرت في العمل الذي يجب عليّ القيام به فسألت:

"ولكن ماذا بوسعي أن أقوم به أكثر من ذلك قبل أن أصل للسن التي لن تسمح لي بمثل هذا الجهد؟"

فجاءتني الطَمْأنةُ الضاحكة من فاطمة: "ماجد، إنك لم تتعدَ الرابعة والثلاثين، لديك حياة كاملة أمامك لكي تفكر في مثل تلك الأشياء، وفي الوقت الحالي، فالحركة التي تبنيها تحتاج دعمك، فهي لن تنمو وحدها."

قلت لها: "نعم، ربما كنتِ على حقّ، ربما تتأجل حركتي التالية حتى أبلغ الثانية والأربعين."

النهاية